

الفَصِيلَةُ الْأُولَى

الجامعة الإسلامية

كانت النزعة الإسلامية غالبية على العصبية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين . ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي . وحين ثار عرابي على فساد أساليب الحكم في مصر وعلى تغفل النفوذ الأجنبي لم يخطر بباله أن يخلع طاعة الخليفة أو يخرج عليه ، فهو يعرض عليه خطواته ، مستمداً منه السلطة في كل ما يفعله^(١) . ويضع مستر بلانت في مقدمة برنامج الحزب الوطني الاعتراف بسلطة الباب العالي وبأن د جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين ،^(٢) وهذا هو قرار الجمعية العمومية الذي صدر بتأييد عرابي عندما عزل الخديوى توفيق يختم بالاعتراف بالولاء للسلطان ، إذ ينص على وجوب د عرض القرار على الاعتبار العالية الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات^(٣) . ويقول عرابي في مذكراته د وبعد إمضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطة التلغراف على الحضرة السلطانية ، وصار لإبلاغه إلينا رسمياً وإلزامنا بالمداومة على الدفاع وإعطاؤنا لقب (حامى البلاد المصرية) ،^(٤) . وهذه هي المنشورات التي كان يصدرها الخديوى توفيق ، تستمعين على تنفيذ الناس من عرابي بتصويره خارجاً على الخلافة ، عاصياً أوامر أمير المؤمنين^(٥) . وقد كانت كل خطب العرابيين تدور حول الحز على الدفاع

١ — مذكرات عرابي ١ : ٧١ ، ٢٢٢

٢ — مذكرات عرابي ١ : ١١٧

٣ — الثورة المراتية ٣٩٠

٤ — مذكرات عرابي ١ : ١٩٧

٥ — مصر للمصريين ٥ : ١٨٠ - ١٩٣ ، مذكرات عرابي ١ : ١٩٨

عن الدين الإسلامى^(١). وظل عرابى يعتمد على مساعدة السلطان وتأييده ، حتى أعلن عصيانه تحت ضغط إنجلترا ، فكان لهذا الإعلان أسوأ الأثر كما يقول عرابى نفسه فى مذكراته^(٢).

كانت المسألة الشرقية ملونة عند معظم الكتاب والمفكرين فى هذه الفترة بلون دينى يكاد يكون امتداداً للنزاع الصليبي فى العصور الوسطى. وقد ساعد على تجمع الشعوب الإسلامية حول راية الخلافة العثمانية ما كان يبدو بوضوح من مطامع الدول الأوروبية فى هذه الشعوب جميعاً. فكانت روسيا لا تنقطع عن إثارة الفتن بين دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركى ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين^(٣). وكانت العرائض تنهال على الملكة فكتوريا طالبة لإتخاذ المسيحيين من مذابح المسلمين^(٤). وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بإنجلترا يلقى الخطب الرنانة ، ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسباً إلى تركيا اضطهاد المسيحيين ، مشيراً إلى السلطان عبد الحميد بقوله « الشيطان » و « عدو المسيح »^(٥). وهذا هو المستر بارنج (اللورد كرومر فيما بعد) سكرتير سفارة إنجلترا فى الأستانة يكتب تقريراً مطولاً عن المسألة البلقانية يذكرنا بتقاريره المشهورة عن مصر ، ينسب فيه إلى المسلمين ارتكاب جرائم بشعة فى الانتقام من المسيحيين ، مقترحاً أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين^(٦). وقد بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح حلاً للمسألة الإسلامية القضاء على المسلمين ونهب قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر فى باريس^(٧).

-
- ١ - مصر للمصريين ٥ : ١٩٤ - ١٩٨
 - ٢ - مصر للمصريين ٥ : ٢٠٠ - ٢٠١ ، مذكرات عرابى ٢ : ١٢ - ٢٠
 - ٣ - عبد الحميد ظل الله على الأرض ٧٢ - ٧٣ ، تاريخ الدولة العلية ٣٤١ ، صداقة أربعين عاماً ص ٢٧٤
 - ٤ - عبد الحميد ٧٤
 - ٥ - عبد الحميد ٨٤ ، تاريخ الدولة العلية ٣٣٩
 - ٦ - تاريخ الدولة العلية ٣٣٩ - ٣٤١
 - ٧ - تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٨٠١

وحين تضطر تركيا إلى محاربة روسيا تنال عليها الأمداد بالمؤن والرجال من سائر الأقطار الإسلامية ، وينبت الدعاة في كل مكان ، يحرضون الناس على الدفاع عن الإسلام ، حتى تبلغ دعوتهم الهند والصين ، بينما يعلن المسيحيون من رعايا الإمبراطورية العثمانية أنهم لن يقاتلوا الروس أو أى مسيحي آخر^(١). وحين كان يتحدث القيصر عن تحرير النصارى من تركيا ، وحين كانت تتجاوب الصيحات في بلاد البلقان ، أقذفوا بالمسلمين إلى البحر ، ، كان السلطان يدعو إلى تحرير المسلمين من روسيا ، فتجاوب صيحاتهم : « الآن سوف يسود الإسلام »^(٢).

ويغذى هذه الفتنة الدينية ما يتردد من أخبار المجازر الوحشية الرهيبة في البلقان ، التي لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم^(٣) ، ويحجب السلطان عبد الحميد على هذه المجازر البشعة بمجازر أخرى أبشع منها في إخماد ثورة الأرمن سنة ١٨٩٤ م^(٤). ويكشف السلطان عبد الحميد في مخرم القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين السياسة الرشيدة التي يستطيع بواسطتها أن يحفظ الإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار ويصون عقدها من الانقراط وذلك بالارتقاء إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعاره المعروف « يا سلى العالم اتحدوا »^(٥).

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، وتغذية الإحساس بالخطر الذي يهدد شعوبها أمام غول الاستعمار الغربى المتربص بها ، فبدعوها إلى التجمع حول تركيا ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك .

والماتمل لأدب هذه الفترة في مصر ، شعر أوترا ، يجد ذلك واضحاً كل

١ - عبد الحميد ٩١ .

٢ - عبد الحميد ٩٣ ، صداقة أربعين عاما ٢٧٤ .

٣ - عبد الحميد ٩٤ و ١٠٣ - ١٠٤ ، الدولة الطيبة ٢٦١ - ٢٦٢ ، صداقة أربعين عاما

ص ٦٨ - ٢٨٣ .

٥ - عبد الحميد ١٦٨ - ١٦٩ و ١٧٢ - ١٧٥ .

الوضوح . فجريدة العروة الوثقى تسكتب في سنة ١٨٨٤ مجموعة من المقالات في الحث على اتحاد كلمة المسلمين ، منها مقال عنوانه (الجفسية والديانة الإسلامية) جاء فيه :

« وازع المسلمين في الحقبة شريعتهم المقدسة الإلهية ، التي لا تميز بين جنس و جنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على الشريعة والدفاع عنها . وكل غفار تسكبه الأنساب ، وكل امتياز تفيدته الأحساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق وحماية الأرواح والأموال والأعراض . بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحققة ، فهي عمقوة على لسان الشارع ، والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم . فقد قال صلى الله عليه وسلم (ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) . والأحاديث النبوية والآيات المنزل متضافرة على هذا . ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكفاية في التقوى - اتباع الشريعة - (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الأزمان على اختلاف الأجيال من لا شرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا وراث الملك عن آباءه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه . وما رفعه إلى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع وعنايته بالمحافظة عليه ... هذا ما أرشدتنا إليه سـير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين . لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لرياسة الأفغاني ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكائها وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظاً لسان الشريعة ذاهباً مذاهبها ... » (١) .

وفي مقال آخر عنوانه (التعصب) ، يرد جمال الدين الأفغانى (١) على من يمجدون التعصب للوطن ويحطون من شأن العصبية الدينية ، فيرميهم بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذى يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التى تجمع بين شعوبها ، ويدلل على كذب المستعمرين وتدليسهم بأنهم أكثر الناس عصبية للدين فى كل ما تجرى عليه سياستهم (٢) . ويقول فى مقال ثالث له عنوانه (الوحدة الإسلامية) :

« لا جنسية المسلمين إلا فى دينهم . فتعدد الملوك عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة والسلطين فى جنس واحد . وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فلهوا بأنفسهم عن تمرض الأجانب بالعدوان عليهم ... ولكن ضرب الفساد فى نفوس أولئك الأمراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل ، فانقلبوا مع الهوى ، وصلت عنهم غايات المجد المؤئل ، وقنعوا باللقاب الإمارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان ، واختاروا مراعاة الأجنبي عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجئوا للاستئصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم ، استبقاء لهذا الشبح البالى والنعيم الزائل ، (٣) . »

ويقول عبد الله النديم فى مقال طويل له فى مجلة (الأستاذ) سنة ١٩٩٢ عنوانه (لو كنتم مثلنا لعلمتم فعلنا) :

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة . ولكن المغايرة وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيراً من ممالك

١ - المعروف أن جمال الدين الأفغانى هو صاحب الفكرة فى مقالات « العروة الوثقى » التى كانت تصدر فى باريس ، وأن عمر عبده هو الذى يصوغ هذه الأفكار بعبارة

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٤٩ - ٢٥٨ .

٣ - نفس المرجع ٢ : ٢٧٦ - ٢٨٢ .

الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . ولأننا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنسكتهم قوا بلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواها عزيمة . فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمان عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا . وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يمانلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً . وكل دولة طامعة في قطعة تحتلها باسم المحافظة على حدودها أو وقاية دينها ، مع اتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للتنقل والتجول ، وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى ، إن شاء أمطرها فأخصبت أو منعها فأجدبت ، وهذه أمور لو ابتليت بها أعظم دول أوروية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ، ^(١) .

ويقول مصطفى كامل في مقدمة كتابه (المسألة الشرقية) الذي ظهر سنة ١٨٩٨ : « وإنى أضرع إلى الله فاطر السموات والأرض من فؤاد مخلص وقلب صادق ، أن يهب الدولة العلية القوة الأبدية والنصر السرمدي ، ليعيش العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة العثمانية حامي حماها ، والإسلام إمامه وناصره . جلالة السلطان الأعظم والخليفة الأكبر الغازي عبد الحميد الثاني . وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الخديوى عباس حلمي الثاني . إن ربى سميع مجيب ، ^(٢) .

ويقول : . اتفق الكتاب والسياسيون على أن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانتها . وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا . وقد قال كتاب

آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام ، أى مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية ، (١) .

ويقول بعد ذلك فى تصوير لاثارة إنجلترا للأقليات المسيحية فى الإمبراطورية العثمانية : «وأما العناصر التى كالأرمن تستعملها بعض الدول كإناكلترا ، فهى تشور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جلياً فى المسألة الأرمنية ، وشاهد أن الأرمن الكاثوليك كانوا على سكيننة تامة بينما كان البروتستانت يشورون ويدبرون المحاكيد ضد الحكومة العثمانية . فمسألة الدين فى الدولة العلية هى الآلة القرية التى يستعملها أصحاب الدسائس والغايات . وأولئك الذين يشورون بدسائس أعداء الدولة إنما يشورون ضد أنفسهم ، ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعينهم وجنودهم واتباعهم لأوامر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الأرمن فى الحوادث الأرمنية إنما ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . والذين ماتوا فى كريد ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان فى تساليا ماتوا فريسة الدسائس الإنكليزية نفسها » (٢) .

ويقول فى تمجيد السلطان عبد الحميد : «ولأن أعظم سلطان جلس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لإبطال مساعى الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالى . فقد تعلم من حرب سنة ١٨٦٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا فى الدولة ومصيبة المصائب . فعمل بحكمته العلية على تبديد قوتهم وتربية الرجال الذين رفون شأن الدولة ريمولون لإعلاء قدرها » (٣) .
ويقول فى ضرورة المحافظة على سلامة الإمبراطورية العثمانية وتصير قوة نفوذها بين الأمم الإسلامية : «ولكن الحقيقة هى أن بقاء الدولة العلية ضرورى

١ — المسألة الشرقية ص ٥٥ .

٢ — المسألة الشرقية ص ٩٠ ، ٨٩ .

٣ — المسألة الشرقية ص ١٠٠ .

للنوع البشرى، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق .. وقد أحس
الكثيرون من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم
للتوازن العام، وأن زوالها (لا قدر الله) يكون مجلبة للأخطار ؛ أكبر
الأخطار ، ومشعلة لنيران يمتد لها بالأرض شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ،
وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية اثورة عامة بين المسلمين
وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صديانية .

• ولإن الذين يدعون العمل لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن
تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عموماً قبل
مسلميه. فقد أجمع العقلاء والبصرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول
من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالأنهار والبحار في كل وادء^(١).

ويقول في سعى انجلترا لهدم الخلافة التركية وتعويضهم لكل خارج عليها :
• وقد علمت انجلترا أن احتلالها لمصر كان - ولا يزال يكون مادام قائماً - سبباً
للعداوة بينها وبين الدولة العلية ، وأن المملكة العثمانية لا تقبل مطلقاً الاتفاق مع
إنكلترا على بقائها في مصر ... ولذلك رأت إنكلترا أن بقاء السلطنة العثمانية
يكون عقبة أبدية في طريقها ومذشاً للشكا كل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر ،
وأن خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادى النيل هي هدم
السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الإسلامية إلى أيدي رجل يكون تحت وصاية
الإنكليز ، وبمثابة آلة في أيديهم . ولذلك أخرج سياسة بريطانيا مشروع الخلافة
العربية مؤملين به استمالة العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية ...
ولذلك أيضاً كنت ترى الإنكليز ينفثون في جرائدهم أيام الحوادث الأرمنية
مشروع تقسيم الدولة العلية - حماها الله - جاعلين لأنفسهم من الأملاك المحروسة
مصر وبلاد العرب : أى السلطة العامة على المسلمين .

« والذي يبغض الإنكليز على الخصوص في جلالة السلطان الحالى هو ميله الشديد إلى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الإسلامية ... ومن ذلك ينهم القارىء سبب اهتمام الإنكليز بالأفراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الأعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل ما فى وسعهم فإن مشروع جعل الخلافة الإسلامية تحت وصاية الإنكليز وحمايتهم هو مشروع ابتكره اسكثرون من سوانهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الإنكليز فى هذا الموضوع ، ومنهم المستر بلانت المعروف فى مصر . فقد كتب كتابا قبل احتلال الإنكليز لمصر فى هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأمانى الإنكليز فى مستقبل الاسلام . وقد كتب فى فاتحة كتابه :

لا تقنطروا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن فى النظام وأجمل

« أى أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين ، بل إن هذا العقد العثماني ينثر ليعود عقداً عربياً أحسن وأجمل . ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو أن قومه يريدون هذا العقد العربى فى جيد بريطانيا لا فى جيد الاسلام ... ويبين المستر بلانت أيضاً ، أن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون مكة ، وأن الخليفة فى المستقبل يجب أن يكون رئيساً دينياً ، لا ملكاً دنيوياً ، أى أن الأمور الدنيوية تترك لانكلترا لتدبر أمورها كيف تشاء ، ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « إن خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجاً لخليف ينصره ويساعده ، وما ذلك الخليف إلا إنكلترا ... » وبالجملة فحضرة المؤلف لكتاب مستقبل الاسلام يرى - وما هو إلا مترجم عن آمال أبناء جنسه - أن الأليق بالاسلام أن ينصب لإنكلترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت إلا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً (١) . »

وبنجم مصطفى كامل الفصل الأول من كتابه بالدعوة إلى الالتفاف حول الراية العثمانية بقوله « أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة إنكلترا للدولة

العلية فبين لا ينكره إلا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين أن يجتمعوا جميعاً حول راية السلطنة السنية ، وأن يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم ولو تفانى الكثيرون منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا أبد الدهر سادة لا عبيداً . وواجب المسلمين أن يلتفتوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة ، وأن يعزوها بالأموال والأرواح في حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية ^(١) .

وكان محمد فريد خليفة مصطفى كامل متفقاً معه في أن مصلحة مصر في ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها لتركيا . لأن ذلك هو السبيل الأمثل إلى مناهضة المستعمرين . يدل على ذلك اهتمامه بتأليف كتاب عن (تاريخ الدولة العلية العثمانية) يقول في مقدمته : « على أن الملك العثماني قد لم من شعت الولايات الإسلامية وقطع من تقاطعها ما رذ على السيطرة الإسلامية كل السيطرة الشرقية . على أثر ذلك قامت قيامة التعصب الديني في الممالك الأوروبية ، وانفقت على اختلافها ، وتوحدت على تعددها ، وانسابت على الملك العثماني ، وأخذت تحاربه مشى وثلاث ورباع لتقويض عرشه وردة إلى مهده الأول ... فلما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه ، ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الإسلامي زمنياً طويلاً ... رأيت من الواجب على خدمة للحقيقة ونفعاً لأبناء البلاد ، أن أدون هذا التاريخ ... راجياً منه تعالى أن يوفقني لخدمة الوطن ونفع بنيه وأن يديم ويؤكد ما بين مصرنا والدولة العلية من روابط التبعية ، وأن يحفظ خديونا المعظم عباس حلمي الثاني ملجأ لمصر وأبنائها ومنقذاً لها من ورطتها إنه السميع المجيب » .

ومما يدل على حسن تقبل الرأي العام لهذا الكتاب أنه طبع للمرة الأولى سنة ١٨٩٣ ، فلم يمض على طبعه ثلاثة أعوام حتى أعيد طبعه سنة ١٨٩٦ ، مع قلة عدد القراء في ذلك الوقت . ومما يدل على ثبات مؤلفه على آرائه فيه أنه طبعه

المرة الثالثة سنة ١٩٠٢ حين بلغ الخصام بينه وبين الخديوى عباس ذروته .
وتد صور كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) الذى ظهر عقب مغادرته مصر
سعة انتشار فكرة الرابطة الاسلامية بين المصريين ، واعترف بما تتمتع به
الخلافة التركية من نفوذ واسع فى مصر ، فتكلم عن الحجاب الكشيف من التعصب
الدينى الذى يقوم بين الانجليزى الراغب فى إصلاح مصر - حسب زعمه -
وبين المصريين^(١) . كما تكلم عن تمسك المصريين بعتيدتهم الإسلامية المتغلبة على
الوطنية بمعناها الإقليمية ، والتي تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر أقطار
الأرض^(٢) . وتكلم فى موضع آخر من كتابه عن هيئة المصريين المركزة فى
أعماق نفوسهم للترك المستعمرين^(٣) ، وعن عطفهم على الخليفة التركى كلما وقع فى
محنة مستشهداً على ذلك بما حدث سنة ١٨٩٢ حين عارضت إنجلترا صدور فرمان
التركى ، وفى سنة ١٩٠٦ حين اختلفت إنجلترا وتركيا على حدود مصر الشرقية فى
سيناء . فقد أثار شعور المصريين - كما يقول - أن تذلل دولة مسيحية خليفة
المسلمين^(٤) .

* * *

هذه النزعة الإسلامية التى رأيناها واضحة فى كتاب العصر وقادته ومفكره ،
نستطيع أن نتبعها فى الشعر فنجدها فى مثل هذا الوضوح ، فليس بين الشعراء
المعاصرين وقتذاك ، على اختلافهم وتباين نزعاتهم ، من يخلو ديوانه من شعر
فى مدح الخليفة التركى ، والإشادة بفضله على المسلمين ، وحرصه على إعلاء كلمة
الدين . وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشمره فى حروب تركيا وأحداثها
الجسام ، مثل حرب اليونان وحرب طرابلس وحرب البلقان والدستور العثمانى

١ - Modern Egypt : ٢ : ١٣٩ .

٢ - المرجع نفسه ٢ : ١٣٢ - ١٣٣ .

٣ - المرجع نفسه ٢ : ١٦٩ .

٤ - المرجع نفسه ٢ : ١٧٠ .

وسقروط عبد الحميد . وهم يرون أن الخليفة هو الجامع لشمل المسلمين ، وأنه حين يحارب إنما يحارب دفاعاً عن الاسلام وتمسكاً بإعلاء كلمته بين الدول التي تتربص به ، وهم يدعون إلى اتحاد كلمة المسلمين في ظل راية الخلافة ، محذرين من الاصغاء إلى دعوة التفرقة التي لا تصيب الأمم الاسلامية جميعاً إلا بالشر .
يقول شوقي : (١)

فرع عثمان . دُمَ فذاك الدوام	رَضَى المسلمون والاسلام
أنت فيه خليفة وإمام	إليه عبد الحميد جلّ زمان
للبرايا وعصمة وسلام	عُمَرَ أنت ، يسد أفك ظل
تُوج البائسون والأيام	ما تتوجت بالخلافة حتى
ومسرى ظلالها الآجام	ولانت الذي رعيته الأتند
ولبنان والربى والخيام	أمة الترك والعراق وأهل
أذك السلم وسنطه وأوثام	عالم لم يكن ليُسَنَظَمَ لولا

ويقول حافظ من قصيدة له أنشدت في عيد تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ : (٢)

لعثمان لا تغفرو ولا تشعب	لقد مكن الرحمن في الأرض دولة
لبدر الدجى تبنى وللسمعد تشعب	بناها فظنتها الدرارى (٣) منزلا
فزادوا على ذاك البناء وطنبوا	وقام رجال بالامامة بعده
ومدوا له جاها يَرْجى ويرهب	وردوا على الاسلام عهد شبابه
وترعى نيام الشرق والغرب يرقب	أسود على البسفور تحمى عرينها

ويقول محرم : (٤)

وأى شعب يساوى الترك والعربا	يا آل عثمان من ترك ومن عرب
لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهب	صونوا الهلال وزيدوا مجده علما

١ - الديوان ١ : ٢٩٦ .

٢ - الديوان ٢ : ١٧ .

٣ - الدرارى السكواكب المضيئة . جمع درى .

٤ - الديوان ٢ : ٤ .

أبو الخلائف ذو النورين^(١) مورثنا
يا تاج عثمان إن اليوم موعدنا
لو ضاع عهدك أو حام الرجاء بنا
ويقول : (٢)

لولا بنو عثمان والسَّيِّئُ الذي
سطعوا بآفاق الخلافة فأنجلي
فهمو ولاية أمرها وكفاتها
تعيّن أنا بالسلام وتارة
فبتلك ميكَفَى الملك ذا شجائنه
ويقول : (٣)

لانا بنو عثمان أعلام النورى
لانا السنام إذا الأنام تفاخرت
لانا يسوس أمورنا ويقىمها
رحب الذراع كفى الذى نغنى به
عبد الحميد أتاح فى أيامه
لولا حزامتته وشدة بأسه
ما زال يحمى حوضه مذ جاءه
دُم يا أمير المؤمنين فما لمن
لا زلت ياركن الخلافة شاحخاً
ويقول الكاشف ، من قصيدة له فى عيد جلوس السلطان عبد الحميد

١ - ذو النورين هو عثمان الأول الذى تنسب إليه دولتهم المتوفى سنة ١٢٢٦ م .

٢ - الديوان ٢ : ٤٣ .

٣ - الديوان ٢ : ٣٣ .

٤ - المنسم خف البعير ، أى أن فى الناس الكبير والحقير .

سنة ١٩٠٠ : (١) ، ...

يا ناصر الإسلام إن زماننا بك صار في عز وفي استكبار
ومعز كل مسلم لك خاضع ومذل كل معاند جبار
ومعيد أدوار الشباب لموطنكم للحوادث فيه من أدوار
ويقول من قصيدة له يرثي بها خاله، مبيناً فضله عليه في إرشاده وتربيته تربية
إسلامية صحيحة . (٢)

وقد كنت المعين على صلاحى ومرشدى العظيم إلى السكالى
تعلمنى الرماية والقوافى وآداب الخطابة والجدال
وتعلمنى المعانى باهرات أسيل بن كالسحر الحلال
وتوضح لى المسالك والمساعى فأبلغ كل ممتنع المسال
وتشريعى بعلمك حب دبنى وقوى والخليفة والهلال
ويقول نسيم من قصيدة له فى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الفطر : (٣)
أقمت عرشك بين الحق والسدَدِ فزاده الله تثنيتاً إلى الأبد
فكيف نفع فى الدنيا لطائرة وأنت تحمى ذمار الفازع الخضد (٤)
خليفة الله يا ابن الغر من نجس جاهدت فى الملك تحميه وتحفظه
والسيف يكتب أى الفتح محكمة على البلاد بنفس من دم جسد (٥)
وقد أعدت إلى الاسلام نصرته حتى زهى بك واستندى إلى سند

١ - الديوان ١ : ٨ .

٢ - الديوان ١ : ١٤٧ .

٣ - الديوان ١ : ١٦ .

٤ - الخضد العاجز عن النهوض .

٥ - الجسد الدم ، وهو توكيد .

ويقول في قصيدة أخرى : (١).

وقد أعدت إلى الاسلام نضرتي
وبت ترعى الرعايا في مراندها
وكان قبلك قلب السيف مضطربا
فلا برحت لهذا الدين تكلؤه
حتى ارتدى روضة باليانع الخضّل
وصرت تحمى ذمار الفازع الوجّل
فقرّ بعدك قلب السيف في الخلل
حتى يعود إلى أيامه الأول
ويقول عبد المطالب من قصيدة له في تهنية السلطان عبد الحميد بعيد الدستور : (٢).

يا عيد حيّ وأنت خيرُ نهار
ملك أقام على الخلافة منهم
من بعد ما كاد الزمان يحلها
عهد مضى . لا عاد ، كبّل دولة
فرمت مَقَاتِلَها يدُ الأطماع من
هذي تطالب بالدخول وهذه
لولا أمير المؤمنين يحوطها
عبد الحميد بدولة الأحرار
حرما وقاها صولة الأشرار
بالجور دار مذلة وبوار
إسلام في الأغلال والآصار (٣)
دول كلفنن بحب الاستعمار
تحتال في وطر من الأوطار (٤)
لرايتها خبرا من الأخبار

ويقول في قصيدة له تزيد على مائتي بيت في الحرب العالمية الأولى ، حين أعلنت إنجلترا الحماية على مصر سنة ١٩١٤ (٥) ، وقد بدأ قصيدته بتحيةة العلم التركي :

هلال الهدى في دارة المجد أشرق
ويا علم الأعلام كم خفقت قلو
ثم مضى في تصوير سوء حال مصر وما يسام أهلها ، إذ يساقون مرغنين إلى
الموت ، مقاتلين تحت الراية البريطانية ، مخانين وراعيهم أرامل وأيتاما وأمّهات
ثاكلات . ثم تكلم عن مهاجمة أساطيل الحلفاء للقسمطانية مقر خلافة المسلمين ،

١ - الديوان ١ : ١٢٩ .

٢ - الديوان ٩٣ - ٩٤ .

٣ - الآصار جمع إصر (بكسر الهمزة) وهو الثقل والذنب .

٤ - الوطر الحاجة والجمع أوطار .

٥ - الديوان ١٥٩ - ١٧٤ .

مظهراً شماته بعوده أساطيلهم خائبة مهزومة :

فأباغ بنى التاميز عنا وحلفهم بياريس أنباء النذير المصدق
عشية يحدون الأساطيل شرعاً على اليم تحبو في الحديد المطبق
تشن على دار الخلافة غارة من البحر إن تفرع بها الدهر يفرق
... تألفن بالعدوان ، يجرين باسمه إلى غرض من مدحض الهون مزلق
فأقبلن في شمل من البغي جامع وعدن بشمل بالهوان مفرق
.. ومن يتحرش بالردى يكرع الردى زعافاً ومن يستنبث النار يحرق^(١)

* * *

وشعراؤنا المعاصرون في هذه الحقة يملقون على تركيا آمالاً جساماً فهم
يعلمون ولاهم لخليفة المسلمين في شتى المناسبات ، شاكين إليه ما نابهم من ضر
وما نزل بهم من خطب ، راجين تدخله لا تقاذهم . بل لأنهم ليرون ذلك واجباً على
خليفة المسلمين الذى نيط بعنقه رعاية شئونهم وحياطة دولهم ، يعاتبونه -
وقد يقسرون في العتاب - إن تخلف عنه .

يقول شوقي : (٢)

عالمى الباب ، هزاً بابك منا فسمعنا وفي النفوس مرام
وتجليت فاستلنا كما للناس س بالركن ذى الجلال استلام
نستميع الإمام نصراً لمصر مثلاً ينصر الحسام الحسام
فلمصر - وأنت بالحب أدري - بك يا حامى الحمى استعصام
يشهد الله للنفوس بهذا وكفاها أن يشهد العلم
وإلى السيد الخليفة نشكو جور دهر أحراره ظلام
وعدوها لنا وعودا كبارا هل رأيت القرى علاها الجاهم^(٣)

١ - يكرع أى يشرب . استنبث النار كشف عنها التراب .

٢ - الديوان ١ : ٢٩٩ .

٣ - الجاهم (يفتح الجيم) السحاب لا ماء فيه يشبه وعودهم بالسحاب الذى لا يعطر .

وبقول في ختام قصيدته الطويلة في الوقائع العثمانية اليونانية (١) :

وإني أعاير النبل لا طير غيره وما النيل إلا من رياضك يحسب
.. فلازات كمف الدين والهادي الذي إلى الله بالزاني له نتقرب
ويقول حافظ من قصيدة له ، يشكو فيها منسوب الزمان سنة ١٩١٠ ، ويبيكي
بجد الترك والعرب ، ويصور ما يلقى المصريون في ظل الاحتلال من هوان ،
عائبا على الترك إهمالهم أمر مصر وتركها لقمة سائغة في يد المستعمرين (٢) :

فإن تكن نسيتي للشرق مانعتي حظا ، فواها (٣) لمجد الترك والعرب
وقاضيات لهم كانت إذا اخترطت تذر الغرب في ثوب من الرهب
وجرة لهم في الشرق ما مهدت حتى علاها رماد الختل والكذب
مق أرى النيل لا تحلو مواردته لغير مرتب في الله مرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت جادت جفوني لها باللؤلؤ الرطب (٤)
... يا آل عثمان ما هذا الجفاء لنا ونحن في الله إخوان وفي الكتب
تركتمونا لأقوام تخالفنا في الدين والفضل والأخلاق والآداب
ويقول الكاشف من قصيدة له في عيد جلوس الخديوي عباس سنة ١٩٠٣ ،
مشيرا إلى سعي عمدوحه في توكيد صلات الود بين مصر وتركيا ، مبينا تقع هذه
السياسة في القضية المصرية : (٥)

إن اتصالك بالخليفة ضامن رد المغير مروعا مغلوبا
والحجة البيضاء في يدك التي فتحت مجالا للجهاد رحيبا (٦)
ويقول من قصيدة له في الثورة العراقية يحنثها بالحسرة على احتلال إنجلترا

١ - الديوان ١ : ٤٧ .

٢ - الديوان ٢ : ١١٨ - ١١٩ .

٣ - وإها كلمة تعجب ، وتأتي للتحسر (نقول وإها على ما فات) أي يا حسرتي على ما فات .

٤ - اللؤلؤ الرطب : أي الدمع ، وهي مستعارة في غير موضعها ، فليس هذا تشبيه الدمع باللؤلؤ

٥ - الديوان ١ : ٣٢ .

٦ - يقصد أنه حجتك الكبرى في عدم شرعية الاحتلال . لأنه نقض صريح لمعاهدة لندن .

سنة ١٨٤٠ ، التي اعترفت فيها إنجلترا مع سائر الدول باستقلال مصر وبهايتها تحت السيادة العثمانية .

أهمل ، مترقباً اليوم الذى تجلو فيه عنها ، فتعود إلى راية الإسلام ورعاية خليفة المسلمين . (١)

ويا بلادى مالى كاسا نظرت عيناى ما فيك من جند وأعوان
وسطوة للدخيل المعتدى اضطربت روحى وقرح سكب الدمع أجفانى
وأحر شوقى إلى يوم أراك به فى مأمن منه بل وأطول تحنانى ا
فلا تطيع سوى عبد الحمد ولا نرضى أهرا سوى عباسك الثانى
هناك أهتف بالأشعار منتشيا مهنثا أطرب الدنيا بالحسانى
يا مصر دام لك النيل الوفى ولا أقلبنى فيك غصن غير ريان

ويقول من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ، يحض فيها المصريين على التمسك بعمرى العثمانية ، داعياً عباساً إلى العودة لأحضان الخلافة بعدما كان من جفاء . (٢)

إن الذى جعل الخلافة فيكم جعل المودة والمحبة فينا
إن اتلاف قلوبكم وقلوبنا ليمد أيديكم إلى أيدينا
يا آل مصر ، وفى الحوادث عبرة فتصفحوها اليوم معتبرينا
فدعوا القضية للخليفة عليكم بعد الوداد إليهم فاجونا
ما كان من حرج على مصر إذا جربتم بعد الجفاء اللينا

ويقول من قصيدة ينهى فيها عباساً بعودته من دار الخلافة بعد حادثة الحدود سنة ١٩٠٦ ، مستبشراً بوصول ما انقطع من حسن الصلات بالسلطان عبد الحميد :
مفتداً أقوال الذين يزعمون أن الاستعمار الإنجليزى العادل خير من عودة مضر
إلى أحضان الحكم التركى الظالم ، مهاجماً الإنجليز الذين استعدوا للحرب دفاعاً
عن مصر فيما يزعمون ، وكأنها قد وكأهم فى الدفاع عنها . وليس معقولا أن
يستعين عباس بعوده على أهله (٣) .

١ — الديوان ٥٤:١ .

٢ — ٢٢:٢ .

٣ — ٣٧:٢ .

تغدو تبوءاً للخليفة محاصراً
 هل بعد ما حدثته وشهدته
 ... صف للزعية كيف مكّن عرشه
 وانصح عباداً يزعمون الشرّ في
 هم أرجفوا بالحرب يبتدرونها
 قالوا استعان بنا على سلطانه
 هل تستغيث بضيقتك المملول^(١) من
 متباينون هم ونحن شرائعاً
 وتوقعوا التدمير والتقتيلا
 من أن يمد يداً إليه طوئلي
 أهليك والمولى الأعزّ قبيلنا
 وطبائعاً ومنازعا وأصولا
 ويقول رداً على الذين يزعمون أنه بدعوته إلى الاتفاق مع تركيا إنما يريد
 أن يستبدل استثماراً باستثمار ، وأن تركيا قد لا تستطيع أن تمنع حليفها ألمانيا
 من احتلال مصر بعد طرد الإنجليز . وذلك من قصيدة له في عيد جلوس
 الخديوي عباس^(٢) .

ولأى ذنب صدّعتي معشري
 لم أدر من أغضبتني وأثرته
 أو كلما سمعوا بمصر منادياً
 قومان متحذان يومهما على
 إن يرضيا - ومن المحال رضاها -
 هلاًّ نبذلنّ مسيطراً بمسيطر
 يجيب الشاعر على دعواهم هذه بقوله :
 ماذا ينال الترك من مصر إذا
 أنقول : غير صحيحة دعواكم
 ويقول ، من قصيدة كتبها في عيد جلوس السلطان عبد الحيد سنة ١٩٠٢ ،
 سلمت وساورها مغير ناني
 فينا ، وإن شئت على الأذان ؟

١ — يقصد بالضيف المملول الاستثمار الإنجليزي ، وبالأهل : تركيا .

٢ — الديوان ٢ : ٤٠ .

وقسا فيها على الترك حين عاتبهم على تخليهم عن القضية المصرية ، بعد ما وقع من
جفاء بين السلطان عبد الحميد والحدوي عباس بسبب جزيرة طاشوز :^(١)
كنتم إذا ما شكونا جور غالبنا كذبتم وأدعيتم أنه بسطرت
واليوم لا نشكى حكام ولا حكام ولا نعوذ بكم مما أتى القدر
ولا نكلفكم حرب الطبيعة إذ لا يبضضكم عندها تغنى ولا السم^(٢)
ولا سألناكم مالا يكون لنا عوناً ، فلسنا إلى ذى الفقر نفقر
لكننا نرتجى منكم بجملة بسكى بنو الصين من أخبارنا جزءاً
... هلا ذكرتم لنا صنعا ومائرة فكم جهرنا وأعلنا محبتكم
وأندرونا^(٣) فردناكم مظهرة حتى اكتفيتم وما أغنتهم الشذر
ولا نمى عليكم أو تفاخركم بطلائات أبادينا ونفتخر^(٤)
فالقوس منكم ، ومنا السهم والوتر والاسد أتم ونحن الناب والظفر
... يا آل عثمان والدنيا مولىة عنا وعندكم إذا لم تنفع العبر
ولن بقيتم على هجر فشمسكم وشملنا شذر بين العدى مذر
عودوا بلاداً أصيبت في عزائمها وما لها وبنيها ففى تحتصر
فلم يقم شعراء النيل موسمهم ولا استفزتهم الألقاب والبدر
قد كان ينظم در التهنئات فى فالיום تذكر من أجفانى الدر
... إني وإن كنت فى سخط لمعترف بأنكم لو نصرتم مصر تلتصر

١ — الديوان ١٠٥٠ : ١٠٠٠ وتراجع تفاصيل مشكلة طاشوز فى مذكراتى فى نصف قرن
٣٩٥٠٢ وما بعدها

٢ — البيض السيوف ، والسم الرماح .

٣ — الضمير فى أندرونا مقصود به الإنجليز الذين كانوا يحاربون النفوذ التركى فى مصر .

٤ — يشير إلى مساعدات مصر لتركيا فى حروبها

وإن تغير ماضيكم بحاضركم فلن تحل بقلبي المخلص الغدير
أضعت آياي الأولى سدى فعدت تلومنى فيكم آياي الآخر^(١)
ويقول على الغياقي ، من قصيدة له وجهها إلى السلطان عبد الحميد في عيد
الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . (٢)

أمير المؤمنين مضت قلوب إليك يحثها الحب المكين
تؤمل أن تراك لها معيناً وأنت لها على الدهر المعين
رأتك أمامها الأمل المرجى وفيك لدائها البرء المبين
فيا أمل القلوب ، إليك مصر تشير وبين جنبها حنين
تحن إليك يا رب المعالي وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشرّ قَومٍ لهم في كل مظلمة شتون
قضت في عصرهم مصر ، ولولا رجاء فيك ما قرئت عيون
فأعزز باحتمى الإسلام شعباً بعزك لا يذل ولا يهون

* * *

وكان الشعراء يؤيدون ما يذهب إليه كثرة المصريين من أن الدول الأوروبية
حين تتذرع بالدين في طلب حماية الأقليات المسيحية في البلقان ، فتشير فيها الفتن
التي لا تنقطع ، إنما تفعل ذلك طمعاً في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، فهم
يخفون مطامعهم السياسية تحت ستار الدين .
يقول شوقي من قصيدة له في الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ (٣) .

١ — كان من آثار غف الكاشف في هذا الكتاب وخشوته أن لاهه صدقه الشاعر محرم —
إذ نوه أنه انصرف عن العناية إلى موالاة الانجليز فأجابه بقوله :
أندري بعذري في شكائي وتعلم وتكثر لوى ؟ .. لأنك الآت تعلم
نوهت أني حلت عن مبدئي الذي نشأت عليه . . . بش ما تنوم
فأخفني بالعب عند وجوبه وعني على الترتك انصراف إليهم

٢ — وصنفي ص . . .

٣ — اديوان ١ : ٢٦٠ .

هب النسيم على مقدونيا بَرَدَا
تغلي بساكنها ضغننا ونائرة
عائت عصائب فيها كالذئاب عدت
خلا لها من رسوم الحكم دارسها
فسامر الشر في الأجيال راحها
مظلومة في جوار الخوف ظالمة
رثت لها وبكت من رقة دول
من بعدما عصفت بجمر أ سوافيها^(١)
غلتى الصدور إذا ثارت دواعيها
على الأقاطيع لما نام راعيها
وغرها من طول الملك باليها
وصبح السهل بالعدوان غاديها
والنفس مؤذية من راح يؤذيها
كالبروم يكي ربوعاً عزاً باكيها

ويقول الكاشف ، من قصيدة له في حرب البلقان سنة ١٩١٣ ، مشيراً إلى ما ارتكبت فيها أمم البلقان المسيحية من جرائم بشعة في التنكيل بحيرانهم من المسلمين .^(٢)

صلبية يا قوم أم عنصريه
وجيرانكم أعداؤكم أم حمائكم ؟
فهل كان عيسى يطلب النار بالخنا^(٣)
أقر بأضغان النفوس ملوككم
حروبكم؟ والدين هذا أم الشرك؟
وأعداء عيسى المسلمون أم الترك؟
وهل كان من أخلاقه البغى والفتك؟
ومن كان في شك فقد ذهب الشك

ويقول من قصيدة أخرى في الموضوع نفسه^(٤) :

أصبر حتى يسقط العرش بينهم
حياتي لمفلولين عابوا مكابداً
إذا استنجدوا بالمسلمين تخلفوا
فيا آل عثمان اتعاطاً فإنها
وتلتهم أنيران تلك الخناثلا ؟
صلبية قبل الوغى وحبائلا
وكم وجدوا من قوم عيسى مخناثلا
تجارب أيقظن الشعوب الغوافلا

١ — السافية : الريح التي تسفي التراب أي تثيره وتندروه ، والجمع سوافي يشير إلى هدوء الفن بعد الدستور .

٢ — الديوان ٢ : ٢٢ .

٣ — الخنا : الفحش يشير إلى هتك أعراض المسلمين .

٤ — الديوان ٢ : ٢٤ .

ويقول عبد المطلب من قصيدة له في عيد الدستور^(١) .
 عهد مضى - لاعاد - كبئل دولة ١
 إسلام في الأغلال والآصار^(٢) ٢
 فرمت مقاتلها يد الأطماع من ٣
 دول كلفنن بحب الاستعمار ٤
 هذى تطالب بالدخول ، وهذه ٥
 تحتال في وطر من الأوطار ٦
 لولا أمير المؤمنين يحوطها ٧
 لرأيتها خيراً من الأخبار ٨

* * *

وذلك الذى أشرنا إليه منذ قليل من مهاجمة مصطفى كامل لمشروع الخلافة العربية الذى يراه إحدى دسائس الإنجليز للتفريق بين المسلمين ووضع خلاقهم تحت النفوذ البريطانى ، له نظائر في الشعر .

يقول شوقي ، من قصيدة د ضجيج الحجيج ، التى رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٤ ، شاكياً فيها اضطراب الأمن في ربوع الحجاز بسبب تمرد شريف مكة ؛ مما أدى إلى تهديد الحجاج ، طالباً إليه ألا يهن في تأديب الثائرين ، وأن لا تأخذهم رحمة^(٣) .

ضج الحجاز وضج البيت والحرم	واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها	خليفة الله . أفت السيد الحكيم
لك الربوع التى ربيع الحجيج بها	ألشريف عليها أم لك العلم ؟
... أدبه أدب ، أمير المؤمنين فما	في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما	بين البغاء وبين المصطفى رحم
... في كل يوم قتال تقشعر له	وفتنة في ربوع الله تضطرم
أزرى الشريف وأحزاب الشريف بها	وقسموها كإرث الميت وانقسموا
لا تجزم منك حلياً واجزمهم عنتاً	في الحلم ما يسم الأفعال أو يهيم

١ - الديوان ٩٤ .

٢ - يشير إلى عهد الدسائس والجوايس الذى سبق منح الدستور .

٣ - الديوان : ٢٦٣ - ٢٦٦ .

كفى الجزيرة ما جروا لها سفها وما يحاول من أطرافها العجم^(١)
 تلك الثغور عليها - وهي زيفتها - مناهل عذبت للقوم فازدحموا
 في كل لج حوالها لهم سفن وفرق كل مكان يابس قدم
 والاهمو أمراء السوء وأنفقوا مع العداة عليها ؛ فالعداة هم
 فجرد السيف في وقت يفيد به فإن للسيف يوماً ، ثم ينصرم
 ويقول حافظ : من قصيدة يهنئ فيها السلطان عبد الحميد بعيد جلوسه
 سنة ١٩٠٨ ، ويشير فيها الى ما كان يضمه والى الحجاز والشريف من عصيان
 السلطان : (٢)

منى على دار السلام تحية وعلى الخليفة من بنى عثمان
 وعلى رجال الجيش من ماش به أو راكب أو نازح أو داني
 وعلى الأولى سكنوا الى الحسنى سوى ذاك الذى يدعو الى العصيان
 والى الحجاز الخارجى وما به إلا اقتناص الأصفر الرنان
 ما للشريف المنتمى حصبا إلى خير البرية من بنى عدنان
 أمسى يمالئه وينصرغيه - وضلاله بخالة العربان
 تالله لو جندتما رمل النقا ونزلتما بمواطن العقبان
 وغرستا أرض الحجاز أسنة وأسلتما بحراً من النيران
 وأقمتما فيها المعازل منعة من أرض نجد إلى خليج عمان
 لدها كما وربما كما وذرا كما ماحى الحصون وما سح البلدان
 إن تأتيا طوعاً ، وإلا فأتيا كرها بلا حول ولا سلطان
 ويقول محرم من قصيدة له فى حرب طرابلس سنة ١٩١٢ (٣) .

١ - يشير الى مطامع الدول الأوربية فى بقول العراف الذى أصبح موضع تنافسهم منذ أول القرن العشرين . كما يشير الى تسريحهم للمحميات فى جنوب جزيرة العرب ، ولشواطئ الخليج العربى فى شرقها . واصطناعهم أولياء من أمهات هذه البلاد .

٢ - الديوان ١ : ٤٩ .

٣ - الديوان ٢ : ٣٧ .

ألا إن من شق العصا لمذممٌ
ومن كان يابى أن يوالى لإمامه
سيعلم من خان الخليفة أنه
أطاع هواه واستزله فتنة
له الويل ، ماذا هاج من نزواته
أيطلب ملكاً أم يريد خلافة
تباركت ربى ، كيف يعصيك مسلم
تباركت ، إن المسلمين كما ترى
ويقول مشيراً إلى قوة الترك وحسن بلائهم في الدفاع عن الإسلام بما
يجعلهم أحق من العرب في القيام على خلافة المسلمين ورعاية شعوبهم : (١) .

أسد الخلافة إن دبّ الضراء لها
صانوا محارمها بالبأس فامتنعت
وألبسوها ثياب العز ضافية
حاكوا سوابغها من نافذ ذرب ؛
شدوا دعائمها من بعدما اضطربت
تمر بالدهر والأحداث هازئة
ما للخلافة إلا الترك تحرسها
وللأعارب حـق لا نضيـعه
بنو أبينا وإخوان الزمان على
منا ومنهم حماة الملك ، يجمعنا
ويقول السكاشف ، من قصيدة له في عيد الدستور العثماني ، (٢) يهاجم فيها

١ — الديوان ٢ : ٥٩

٢ — دب الضراء أى مشى مستغفياً ، والسراجين الذئاب .

٣ — الديوان ٢ : ٢٨ - ٢٩

التأثرين على الخلافة من أهل الحجاز وأهل اليمن ممن يدعون إلى الخلافة العربية ، ويقول : إن تعاليم الإسلام سوّت بين المسلمين ، ولم تختص بمخلاقهم أمة دون أمة ، فأحقهم بها هم أقدرهم على القيام بحقها والنهوض بأعبائها :

ما اختص أحمد بالخلافة أمة علما بأن الدائرات تدور
أولى بها من صانها من بعد ما عبثت مقاديرها وعصور
وجلا السباء السيف وهي دجى كما ملأ السرير الأرض وهي تمور
شقيت بما تتوهم الأعداء من هذا التراث ، ولأنه لغير
ويقول ، من قصيدة أخرى هنا بها الخديوى عباس فى عودته من الأقطار
الحجازية حين زارها حاجاً سنة ١٩١٠ (١) .

يا ناصر الإسلام كيف مكانه من عرب تلك اليد وهو العادل؟
أينازعون على الخلافة قادة لولا هم غالّ الخلافة غائل؟
الله قدرها لهم وأعزهم ما دام فيهم قانت ومقاتل
فليسكن العرب الكرام إليهم وليد بأن بنفسه المتطاول
هل يفنديها والخطوب جلائل من لم يصنئها والخطوب قلائل؟
يقول نسيم (١) :

خليفة الله ، يا خير الورى ملكا له الظبأ والوغى والجحفل اللائب
إن المنابر - والعباد تكتنفها - تحتال باسمك ما قبلت بها الخطب
تتلى عليها عظات نفسك مرشدة حتى نزول بها الأحقاد والرثيب
مولاي ما فى ملوك الشرق قاطبة سواك بينهم الملك منتخب
وليس فيهم سواك الدهر ذولجب تعذله الترك والأعجم والعرب
فهل يضررك غوغاء خليةتهم فى كل مأثرة يروونها الكذب؟

* * *

وكان الشعراء يشورون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ، ويرتفع صوتهم في كل نازلة تلم بموطن الخلافة .

يقتصر الترك في حربهم مع اليونان سنة ١٨٩٧ ، فيرتفع صوت شوقي بلحمته الخامسة الرائعة التي تفيض قوة ، والتي جاوزت مائتين وخمسين بيتاً^(١) .

سيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دينُ الله أبان تضرب
يشيد فيها بانتصار الترك الذين أعلوا راية الإسلام وصانوا خلافته ،
فارتفعت رموس المسلمين وكانوا من قبل ينكسونها خجلاً :

رفعنا إلى النجم الرموس بنصركم وكنا بحكم الحادثات نصوّب
ومن كان منسوباً إلى دولة الفضا فليس إلى شيء سوى العز ينسب
وقد ردت هذه الحرب إلى الناس ثقتهم بتركيا بعد أن كانوا يعتقدون - تحت
تأثير الصحف الموالية للاستعمار كالمقطم - أنها قد صارت إلى حال من الضعف
والانحلال ، لا تستطيع معها مناهضة اليونان ، حتى لقد علا بعضهم بعد هذا
النصر فتصور أنها من أقوى الدول وأنها تقدر على تدويخ أى دولة أوروبية^(٢) .
ويعلم السلطان عبد الحميد الدستور ، الذي سوى بين الشعوب العثمانية على
اختلاف أجناسها وأديانها سنة ١٩٠٨ ، فيرتفع صوت شوقي بقصيدته^(٣) .

بشرى البرية قاصيها ودانها حاط الخلافة بالدستور حاميا
وفها يبين ما أفاض الدستور على البلاد العثمانية من أمن ، وما كان له من
أثر في إطفاء الفتن التي لم تنقطع ، بعد أن سكنت إليه الشعوب العثمانية على اختلاف
أديانها وأجناسها ، لأنه سوى بينها بتمثيلها في المجلس النيابي . ويختم قصيدته
بالحث على السلام ، وبأن اختلاف الأديان لا ينبغي أن يكون داعياً إلى الخصام ،
فكلها يدعو إلى الله ويحث على الخير ، وينهى عن الشر .

١ - الديوان ١ : ٧٥ .

٢ - » ٣٠ : ١ .

٣ - تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٩١١ .

٤ - الديوان ١ : ٣٥٨ .

ويستك حافظ ، ولكنه يتسكلم فى العيد الاول للدستور بعد عام ، ويلقى قصيدة فى حفل أقيم فى الأزبكية سنة ١٩٠٩ بعد عزل السلطان عبد الحميد ، مجدداً الجيش التركى الذى تم على يده هذا الانقلاب الذى عم خيره كل البلاد العثمانية كما توهم (١) :

أجل هذه أعلامه ومواكبه	هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه
هنيئاً لهم فالكون فى يوم عيدهم	مشاركه وضامة ومغاربه
رعى الله شعباً جمع العدل شمله	وتمت على عهد الرشاد (٢) رغائبه
تحالف فى ظل الهلال لإمامه	وحاخامه - بعد الخلاف - وراهبه

ويختتم القصيدة بتهنئة السلطان محمد رشاد :

ليخبر أمير المؤمنين محمد	خلافته فالعرش سعدت كواكبه
ستملك أمواج البحار سفينه	كما ملكت شمس الجبال كتائبه
عمالك محروسة وثغوره	ركائبه منصورة ومراكبه

ويذيع محرم قصيدته (٣) :

من يمنع الليث أن يعز أو يثبا ما قيمة السيف إن جردته فنبأ
وفىها بحث على تضامن الشعوب العثمانية من ترك ومن عرب فى سبيل رفع
راية الإسلام .

ويقول الكاشف قصيدته (٤) :

دار الخلافة حاطك البسفر وأجل قدرك فى الورى الدستور
يشير فيها إلى فن لعراق واليمن اتى يثيرها المتنادون بالخلافة العربية . فيضيفون
إلى متاعب الدولة فى البلقان متاعب جديدة منادياً بأن خلافة المسلمين لمن يحمىها

١ — الديوان ٢ : ٤٨ .

٢ — السلطان محمد رشاد هو الذى خلف السلطان عبد الحميد بعد عزله .

٣ — الديوان ٢ : ٤ .

٤ — الديوان ٢ : ٢٧ .

وأن أعباءهم لا ينهض بها إلا أقواهم ، وبأن العصية أيسر من الإسلام ،
مؤكداً حبه وولاءه لدولة الإسلام وخليفة المسلمين ، الذى تتجه إليه وحده
أبصارهم فى سائر بقاع الأرض .

حوران مزدجر ومقدونية
وتنصلت صنعاء من جزارها
لن يخلو البلقان من شر وإن
من لم يطعمك موقفاً مستغفراً
المسلمون على اختلاف بقاعهم
ويرتفع صوت عبد المطلب بقصيدته :
يا عيد حى وأنت خير نهار
ويرتفع صوت الغاياتى بقصيدته :

أبى على المتطاولين عسير
ملأت نراه ججاجم ونحور
فليبق وهو المرغم المقهور
فى الأرض ما لهم سواك نصير
عبد الحميد بدولة الأحرار
إلى بك يحثها الحب الكمين
أمير المؤمنين مضت قلوب
ويقول عبد الحليم المصرى : (٣)

تملل الحج والدستور فى رجب
عيد الخلافة عيد الدين ، زانها
إن قيل فى مصر إن الترك قد ظلموا
ما أعذب القتل من سيف الصديق وما
بلوت يا مصر من ظلم الحبيب ومن
ثم يلنى عبد الحميد الدستور الذى أصدره كارها ، بعد حملة صحفية شنت
بزعماء الاتحاديين وبينت فساد دينهم . ويلجأ زعماء الاتحاديين فى الجيش إلى العنف ،

١ - الديوان ٩٣ .

٢ - وطني س ٥٥ .

٣ - الديوان ١ : ٤٣ .

٤ - الضرب . بفتح الضاد والراء . العسل .

فئة تجمون الأستانة ويحاصرون يلدز ويشتبكون مع رجال عبد الحميد في معركة كبيرة تفتى بالتسليم . ثم يقبضون على أنصاره ويهدمون منهم عدداً كبيراً يزيد على الألف . وتجتمع الجمعية العمومية - وكان الاتحاديون هم المسيطرين عليها - فتقرر عزل السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد رشاد في ٢٧ إبريل سنة ١٩٠٩ . وعند ذاك ترتفع أصوات الشعراء في مصر بين مشفق على عبد الحميد يرثى له في بلواه ، وعاتب عليه سوء سياسته التي انتهت به إلى هذا المصير ، وشامت به يشنع بما لقي خصومه على يديه من نكال :
أما شوقي ، فقصيدته في هذه المناسبة مشهورة : (١)

سلّ يلدزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور
وهو يرى فيها أن السلطان عبد الحميد في موقفه أجدر بالثناء لما آل إليه
من ذل بعد عز ، فهو يعطف عليه في محنته ، ويحمله من نفسه محلاً كبيراً ،
بين شماتة الشامتين ولوم اللائمين :

شيخ الملوك وإن تضع	ضع في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر المولى له	والله يعفو عن كثير
وزراه عند مصابه	أولى ببياك أو عذير
ونصونه ونجمله	بين الشماتة والنكير
عبد الحميد ا حساب مث	لك في يد الملك الغفور

ولكن ذلك لا يمنعه من أن يلومه لتمسكه بالحكم الفردي ، ومحاربتة نظام
الشورى الذى :

هو حكمة الملك الرشيد — وعصمة الملك الغرير
كما لا يمنعه من الإشادة بالشوار الذين هبوا — كما يقول — لنصرة الحق ،
وعرضوا أنفسهم في سبيله للهلاك .
يا أيها الجيش الذى لا بالدعى ولا الفخور

يخفى فإن ربيع الحمى لفت البرية بالظهور
كالليث يسرف في الفعا ل وليس يسرف في الزئير
الخاطب العلياء بال أزواح غالية المهور
عند المهيمن ما جرى في الحق من دمك الطهور
أما حافظ فهو شديد العطف على عبد الحميد في بلواه ، وقصيدته تفيض
بالحزن على مصيره المؤلم (١) .

لا رعى الله عهدا من جود كيف أمسيت يا ابن عبد الحميد (٢)
كنت أبكى بالأمس منك ، قال بت أبكى عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود
شتموا كلهم ، وليس من الهمة أن يشمت الورى في طريد
أنت عبد الحميد والتاج معقو د وعبد الحميد رهن القيود
خالد أنت رغم أنف الليالى فى كبار الرجال أهل الخلود
وهو يتناسى سيئاته ، ولا يذكر له إلا الحسنات ، قائلا إن الكمال فى الدنيا
محال :

لك فى الدهر - والكمال محال - صفحات ما بين بيض وسود
حاولوا طمس ما صنعت وودوا لوطيقون طمس خط الحديد (٣)
ولى الأمر ثلث قرن ينادى بإسمه كل مسلم فى الوجود
كلما قامت الصلاة دعى الدا عى لعبد الحميد بالتأييد

١ - الديوان ٢ : ٤٣ .

٢ - الجدود المخطوط جمع جد ، بفتح الجيم ، وهو الخط . عبد الحميد هو أبو السلطان عبد الحميد .

٣ - يشير إلى سكة الحديد التى أنشأها السلطان عبد الحميد بين دمشق والمدية سنة ١٩٠٠ وتمت
سنة ١٩٠٨ وكانت المشروع وقتذاك حديث المسلمين لضخامته ولتكاليفه الباهظة التى نهض بها
عبد الحميد دون أى عون خارجى ، مع سوء الظروف المالية التى كانت تقاسمها تركيا وطول الخط
١٢٠٠ ميل . وقد قدرت تكاليفه بثلاثة ملايين من الجنيهات ، اكتتب فيها السلوت فى سائر
بقاع الأرض .

فاسم هذا الأمير قد كان مقروفاً بذكر الرسول والتوحيد
ولكن حافظاً يعود فيها جده بعد أن يفيق من هول المفاجئة في قصيدته التي
ألقاها في الاحتفال بعيد الدستور العثماني في الألبانية بعد عزله بثلاثة شهور
(يوليو سنة ١٩٠٩) فيقول (١) :

ولم يغن عبد الحميد دهاؤه	ولا عصمت عبد الحميد تجاربه
ولم يحصه حصن ولم ترم دونه	دنانيره والأمر بالامر حازبه
ولم يخفه عن أعين الحق مخدع	ولا تفق في الأرض جم مسارب (٢)
وأصبح في منفاه والجيش دونه	يغالب ذكرى ملكه وتغالبه
يناديه صوت الحق : ذق ما أذقتهم	فكل امرئ رهن بما هو كاسبه
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه	وولت أفاعيه وماتت عقاربته

أما الشاعر محرم فالوفاء يغلب عليه في قصيدته . وهو يرى الناس الذين كانوا
يتزلفون إلى عبد الحميد بالأمس ولا يرونه إلا خيراً خالصاً يأكلون لحمه اليوم
ولا يرونه إلا شراً صرفاً . وكأنه يردد في نفسه قول الشاعر القديم :

والناس ؛ من يلق خيراً قائلون له	ما يشتهى ولأم المخطيء الهبيل
---------------------------------	------------------------------

يدافع عن عبد الحميد ، فيلقى تبعه ما يتهمة به خصومه من تهمة على عاتق
بطلانته (٣) :

ثوى عائر الآمال يؤنسه الأسى	وتوحشه أوطاره ومآربه
كأن جلال الملك لم يبدُ حوله	مهيماً ولم تضررب عليه مضاربته
كأن السرايا والقيالق لم تسر	إلى المرات تشين دونه من بحاربه
كأن رموس الصيد لم تك خشعاً	لدى بابه المرجو بالأمس حاجبه
كأن بقاء الجود والمجد لم تغد	عليه ولم تهطل عليهم مواهبه

١ — الديوان ٤ : ٤٨ .

٢ — يشير إلى ما عرف عن عبد الحميد من شدة حذره ، وكثرة ما أنشأ في قصوره من مخابى وسرايب

٣ — الديوان ٤ : ٨ .

كان بناة الشجر لم تغش بابه بمستعلبات تزدهبها مناقبه
كان الاولى زانوا المنابر باسمه أحلوا بدين الله ما لا يناسبه
طووا ذكره واستودعوا الله عهده وكل امرئ رهن بما هو كاسبه

* * *

أرى الناس من يقدم به الدهر ينتموا عليه وإن كانت قليلا معايبه
ألم يك ظل الله (١) بالأمس بيننا نلوه به والخطب ضحك مذاهبه
أنظريه قهرا ونؤذيه مرهقا كفى الليث شرا أن تُفْلَّ مخالبه
ألا راحم؟ هل من شفيع أما كفى؟ أكل بني الدنيا عدو بغاضبه ؟
أكان يريد السوء بالملك؟ أم يرى مسرته في أن ترن نوادبه ؟
أكل مآتيه ذنوب ؟ . أكله عيوب؟ ألا من منصف إذ نحاسبه ؟
أكل ذو السيجان بالعدل قائم أما فيهم من لا تعد مشالبه ؟
أليس الأولى غشوه أجدر بالأذى؟ وأولى الورى بالشر من هو جالبه

أما ولى الدين يسكن - وهو ينتمى إلى حزب الاتحاد الذى قام بالثورة - فهو لا ينسى لعبد الحميد مطاردته لهم ، وما ذاقوا على يديه من نكال . فقصيده كلها تشنيع بعمره الذى اقترن - حسب زعمه - بسيادة الجواسيس والجوارى وغلبة الهوى على الإنصاف . فهو شامت لا تحتلج في قلبه خلجة من رحمة ، ولا تفيض عينه بدمعة رثاء . ويزيد في ثورة نفسه عليه أنه لا ينسى السنين الحالكه التى قضاه منفيًا في سيواس . فلم يفرج عنه إلا بعد صدور الدستور . فقد كانت ذكرى هذا الاضطهاد عالققة لم تبرح ، وهو قريب عهد بها لم يمض عليها غير شهور . ولذلك فقد كان حنقه شديداً على شوقى في قصيدته التى أشرنا إليها منذ قليل ، فنقضها عليه بقصيدة من نفس البحر والقافية ، يقول فيها : إنك تذكر آلाम سكان القصور ولكنك تنسى آلام سكان القبور ، وتذكر ما وهب ، ولكنك تنسى ما نهب . وتبكي عليه اليوم ، وتنسى أنه أبكى بالأمس كثيرًا من الأبرياء . فهو لا يذكر للرجل حسنة واحدة ،

ولا يراه إلا شراً خالصاً ، بل لا يرى الذين يبيكونه إلا من عباد الملوك ، الذين يندبون ما ضاع من هبات ذلك الطاغية المفسد (١) .

هاجتك خاية القصور	وشجتك آفة البدور
وذكرت سكان الحمى	ونسيت سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزير	ر اباءث الدمع الغزير
ولواهب المال الكشي	ر وناهب المال الكشي
حامي الثغور الباسم	ت مضيع أهلة الثغور (٢)
أهدى الفتور لقلبه	ما باللاحظ من فنور
واستغفرتة عن الرعا	يا كل أنسة نفور
والجنود عارية منا	كبها مقصصة الظهور
خص البطون من الطوى	دقت فعادت كالسيور
لله أجساد ثوت	بين الجنادل والصخور (٣)
باتت على خشن الثرى	من بعد مضجعها الوثير
كانت زهور شيبية	لهفى على تلك الزهور
كم خلفها من صبية	يتمت ومن شيخ كبير
يترقبون مآبها	إن المآب إلى الفشور
من كان يستحلى الشرو	ر يموت من تلك الشرور
لما أدبل من السر	ر بكاه عبّاد السرير
نذروا النذور لعوده	هيات يرجع بالنذور
أسفوا عليه وإنما	أسفوا على المال الدرير

١ — الديوان ص ٣٠ .

٢ — الثغور الأولى : أفواه المسان ، والثانية : البلاد التي على الحدود يقول إنه كان يحمي

النساء ، ولكنه كان يضيق الملك .

٣ — يشير الى ما كان يشتم به الاتحاديون ويروجونه بين الناس من أنه كان يتخلص من

خصومه بربطهم في الأصناد والأنقل وإلقائهم في مياه الإسفور وهي شائعات . لم تثبت صحتها

طلبوا له عفو الغفور وشذ عن عفو الغفور
قلص ظلالك راحلا ودع البرية في الهجير .

* * *

وتغير إيطاليا على طرابلس سنة ١٩١١ ، فتشتبك في حرب مع تركيا التي استنجدت بالدول الأوروبية ، فلم تجد منها إلا فتورا وتناف في مصر اللجان ، وتقام الأسواق الخيرية لجمع التبرعات وإرسال البعوث الطبية ، وينشئ الشيخ على يوسف جمعية الهلال الأحمر في ٧ نوفمبر سنة ١٩١١ . ويتطوع في الحرب كثير من المصريين بدافع من الحمية الإسلامية ، رغم معارضة الإنجليز^(١) . وترتفع أصوات الكتاب والشعراء ، تثير الحمية في النفوس . فيلقى شوقي قصيدة في حفل جماعة الهلال الأحمر يبحث فيها الشعوب الإسلامية التي تجمعها الرابطة العثمانية على التعاون والاتحاد^(٢) .

يا قوم عثمان والدنيا مداولة^٣ تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا
كونوا الجدار الذي يقوى الجدار به قاله قد جعل الإسلام بنيانا
البر من شعب الإيمان أفضلها لا يقبل الله دون البر إيمانا
هل ترحمون لعل الله يرحمكم بالييد أهلا وبالصحراء جهرانا
في ذمة الله ، أوفى ذمة نفر على طرابلس يقضون شجعانا
ويقول حافظ قصيدته^(٤) :

طمع ألقى عن الغرب اللثاما فاستفق يا شرق وأحذر أن تناما
يستثير فيها حمية المسلمين بتصوير ما ارتكبت الجيوش الإيطالية من جرائم
وما استحلّت من محارم .

كلوهم ، قتلوهم ، مثلوا بذوات الخدر ، طاجوا باليتامى
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما^(٥)

١ - مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

٢ - الديوان ١ : ٣٠٣ . ٣ - للديوان ٢ : ٦٦ .

٣ - الزمنى ذوو العمامات . جمع زمن على وزن كنف

أحرقوا الدور ، استحلوا كل ما حرمت لاهأى فى العهد احتراماً^(١)
 بارك المطران فى أعمالهم فسلوه : بارك القوم علاماً ١٩
 أبدا جاءهم لإنجيلهم — أمرا يُلحق على الأرض سلاماً ١٩
 ويسخر من الجيوش الإيطالية هازناً ، وقد وردت الأخبار الأولى بهزيمتهم.
 خُبروا فكتور^(٢) عنا أنه أدهش العالم حرباً ونظاماً
 أدهش العالم لما أن رأوا جيشه يسبق فى الجري النعاماً
 حاتمَ الطليان قد قلدتنا منةً نذكرها عاماً فعاماً
 أنت أهديت إلينا عدةً واباساً وشراباً وطعاماً
 وسلاحاً كان فى أيديكم ذا كلال فغدا يفرى العظاما
 أكثروا النزهة فى أحيائنا وربانا لأنها تشفى السقاما
 وأقيموا كل عام موسماً يشبع الأيتام منا والآبامى^(٣)
 لست أرى ، بت ترعى أمةً من بنى التليان أم ترعى سواماً^(٤)
 وينشئ محرم ثمانى قصائد فى مناسبات مختلفة من هذه الحرب ،^(٥) تفيض
 بالغيرة على الإسلام واستنهاض الهمم للذود عن حياضه ومدافعة أعدائه . يقول
 فى إحداها :

رويداً بنى روما فلحرب فتية تهيج الظُّبَّاء أطرابهم واللهاذم^(٦)
 أولئك أبطال الخلافة تحتمى بأسياقها إن داهمتها العظامُ
 هم المانعوها أن يُقسَّـمَ فَيُنشأ وأن تستبى بينضاتها والمحارمُ
 أنذعن للباغى ونهطيه حُكمنه وفى الترك مقننهم وفى العرب حازم

١ — مؤتمراً لاهأى سنة ١٨٩٩ انعقد للقضاء على أسباب الحرب وتخفيف ويلاتها .

٢ — ملك إيطاليا .

٣ — جمع أيم : بتشديد الياء وكسرهما . وهى من لا زوج لها .

٤ — السوام : الإبل التى ترعى .

٥ — الديوان ٢ : ١٨ — ٣٩ .

٦ — اللهاذم : الأسنة القاطعة جمع لهزم على وزن جعفر .

هما أخوا لعز الذي دون شأوه
أقما على عهدي وفاء وألفة
تخر الصياصى خُشما والمخارم^(١)
فما بيننا قال ولائم صارم^(٢)
على طول ما قال الوشاة وخببت
حقرد الأعداى بيننا والسخائم^(٣)
وبقول الكاشف^(٤) :

المؤمنون إليك مستبقونا
فاحشد كتابك التي أعدتها
لنمارهم وديارهم حامونا
للحق أبلغ ولرجاء متينا
ويقول فيها لإيطاليا : أبهذا لعدوان الوحشى أوصاكم المسيح عليه السلام ؟
يا آل عيسى ما لعيسى لم يقيم
أوصاكم بالمعتدين ، فما لكم
ماذا جناء المسلمون عليكم
ويهاجم فيها سياسة الإنجليز التي أكرهت مصر على الحياد :
ما للجيرد وما لمصر ؟ وما بها
ما كان للمتطوع المختار أن
ويذبح عبد المطلب قصيدتين طريلتين تزيد كل منهما عن مائة بيت . كتب
الأولى فى ليلتين اثنتين كما يقول ، حين وردت الأنباء بهجوم الجيوش الإيطالية
على طرابلس فجاشت نفسه حزناً على أهلها .^(٥)

بنى أمنا ١١ أين الخيىس المذرب ؟
إذا اهتز فى نصر الحنيف تساقطت
وأيـن العوالى والحسام المذرب ؟
نفوس العدا فى حده تتحطّب
خليلى ١١ مالى إذ تذكرت برقة
بجنـى زير أن الأسى تتلّهب ١ ؟

١ — الصياصى : الحصون . المخارم : السالك فى الجبال .

٢ — قلاه : كرهه . صرمة : فاطمه وخاصة .

٣ — خبيوا : أفسدوا . السخائم : جمع سخيمة وهى المقعد والبغض .

٤ — الديوان ٢ : ١٧ .

٥ — الديوان ٢٥ : ٣١ .

نعم... راعني من نحو برقة صارخ يهيب بأنصار الهلال : ألا اركبوا
دعا صارخ الإسلام يا بني الهدى أغار العبداء ابن الحسام المشطّط؟
كأنّي به يدعو الخلافة مسمعا كأنّي به في المسلمين يشوّب^(١)
وهو يعجب للبابا إذ يبارك الجيوش الإيطالية متسائلا : أين هذا من
تعاليم المسيح ؟ ويسخر منهم قائلا إن كنتم راغبين حقاً في الجنة التي وعدكم البابا
فصنّ خليفون أن تقرّبكم منها .

إذا وقف البابا يبارك جندكم فما كل بابا للمسيح مقرب
سلوه : أفي الإنجيل للحرب آية ؟ إذا كان في إنجيله ليس يكذب
لكم جنة الباب مآب . فإنما مفتوحها في أرض برقة تطلب
ولأن لدى أسيافتنا ورماحنا بأبوابها علماً ، هملوا فجربوا
سلوا جنة البابا بماذا تزيّنت لتلقى الأولى في لجة البحر غثبوا
هملوا تقرّبكم إليها فإنما صوارمنا تدنّي لها وتقرّب
ثم أردف هذه القصيدة بالقصيدة الثانية بعد أن احتدم القتال بين
المسيحيين : (٢)

هي الطيحاء كم طحنت قرونا وكم سحنت حوادثها قرونا
وهو يعجب فيها لسكوت الدول الأوروبية عن عدوان إيطاليا ، ورضاهم
عن مسلسلهم ، في الوقت الذي يهيجون فيه ويموجون حين يرتفع صوت من
مستعمراتهم بالشكوى من ظلمهم :

وأهل الغرب في لعب ولهو على ما بينهم يتغاضرونا
دعونا المقتسطين فما وجدنا وأشهدنا الملوك فأنكرونا
وهمنا ، حين خلناهم عدولا بما شاء الهوى ، لا يحكمونا
بغت روما قلم نسمع نكيراً ولو شاءوا سمعنا المنكيرنا

١ - ثوب الدامي : لوح بثوبه طلبا للاغانة .

٢ - الديوان : ٢٨٥ .

وإن نغضب ، ذباداً عن حياض لنا هدمت ، إذاهم يسخطونا
ملوك الغرب ... ما هذا التعامى ؟ وما للحق بينكم مهيناً ؟
أماولى الدين يكن فهو يذيع قصيدة قصيرة فى ستة وعشرين بيتاً عنوانها
(البييتك أماء دعوت الكرام)^(١) :

من أين جدُّ اليومَ هذا الحِصامُ يا أمَمَ الغربِ نقضتِ الذمام
وقصيدته تختلف عن سائر القصائد السابقة فى أنها تخلو من كل إشارة للإسلام.
فهو لا يستنهض الحمم فيها باسم الدين ولكنه يستنهضها باسم الحمية لأرض الوطن.
وذلك لأنه يفتى إلى جماعة تركيا لفتاة ، أو حزب الترقى والاتحاد كما كانوا
يسمونه فى بعض الأحيان ، الذى كان يدعو إلى القومية التركية الطورانية
والذى كان يتبعه الإسلام من مقومات الوطنية .

* * *

ويضطرب البلقان فى أواخر سنة ١٩١٢ ، حين تقوم بلغاريا والصرب والجبل
الأسود مطالبة باستقلالها الإدارى عن تركيا ، مهاجمة أساليبها الإدارية فى
الحكم . وتقوم اليونان مطالبة بجزر الأرخيل . وتعلن تركيا الحرب على هذه الدول
فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ . فتنشأ اللجان والجمعيات فى مصر لجمع التبرعات ، وينعقد
مؤتمر لندن فى أوائل ديسمبر للنظر فى المسألة البلقانية . وبظل يوالى جلساته حتى
٢٣ يناير . ويزهى إلى قرارات تقبلها الوزارة التركية الفأمة وقتذاك . أهمها لتنازل
عن أدرنة وعن جزر الأرخيل ويشور حزب الاتحاد على الوزارة فى سقطها
ويستأنف القتال . وترد الأخبار الأولى إلى مصر بانتصارهم ، فترم مظاهرات
الفرح والابتهاج بهذا النصر . وتقبض سلطات الاحتلال على بعض المحرضين
عليها^(٢) . ولكن هذا الفرح لا يلبث أن يتحول سريعاً إلى وجوم ، حين ترد
الأنباء بتقهقر الجيوش التركية وسقوط أدرنة بعد حصار دام خمسة شهور أبلت

١ - الديوان ٤٨ .

٢ - مذكراتى فى نصف القرن ٢ ب : ٢٨٨ وما بعدها .

فيه حاميتها أروع بلاء . ويفزع المسلمون حين تتوالى الأنباء بتقدم جيوش البلقان ، وقد انفتح أمامهم الطريق إلى القسطنطينية بعد سقراط أدرنه حتى أصبحوا على أبوابها . ويرتكب جنود البلقان جرائم بشعة في الانتقام من سكانه المسلمين^(١) .

وعند ذلك يرتفع صوت شوقى بقصيدة من أروع قصائده ، تزيد على مائة بيت ، يندب فيها مجد الإسلام الزائل ، وقد ذكره تقلص ظله عن شرق أوروبا وقتذاك بضياع سلطانه في غربها حين طرد العرب من الأندلس . ولذلك سمى قصيدته « الأندلس الجديدة »^(٢) :

يا أخت أندلس عليك سلام	هوت الخلافة عنك والإسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها	طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجيه	قد رث يحط البدر وهو تمام
مجرحان تمضى الأمتان عليهما	هذا يسيل ، وذلك لا يلتام ^(٣)
بكما أصيب المسلمون ، وفيكما	دفن اليراع وغيب الصمصام
لم يُطنوا ماتمتها وهذا ماتم	لبسوا السواد عليك فيه وقاموا
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت	فيما نحب ونكره الأيام
خلت القرون كالميلة وتصرمت	دول الفتوح كأنها أحلام

ويخاطب شوقى في هذه القصيدة دعاة الهزيمة من سياسة الترك — وهم من الاتحاديين — الذين كانوا ينادون بأن البلقان مصدر متاعب للدولة ، ويرون الخير في أن تتخلي عنه وتكفي نفسها هذه المتاعب التي لا قبل لها بها . قائلا : إن هؤلاء الذين يفكرون على هذا النحو هم الذين يؤثرون الراحة على الكفاح ، ويحلون المشاكل بالمهرب منها بدل أن يواجهوها . وقد كان أولى بهم أن يتجهوا لإصلاح الإدارة في البلقان بدل التفسير في التخلي عنه :

١ — حرب البلقان ص ١٧٧ وما بعدها ، صداقة أربعين عاما ص ٢٧٣ وما بعدها .

٢ — الديوان ١ : ٢٨٧ ٢٩٥ .

زعمرك همًّا للخلافة ناصبا
ويقول قوم: كنت أشام موزد
ويراك داء المملك ناس جهالة
لو آثروا الإصلاح كنت لعرشهم
ونهمم يقيّد بعضهم بعضا به
صور العمى شتى ؛ وأقبحها إذا
ولقد يقام من السيوف ، وليس من
ويندد شوق بالذين استغلوا اسم الدين فى الانتقام من المسلمين الأمنين ،
والتنكيل بالأبرياء من المدنين ، فارتكبوا باسم المسيحية أبشع الآثام ، والمسيحية
منهم براء ، فما كان المسيح عليه السلام سفاكا للدماء ، ولا كان داعياً لإباحة
الحرمان ، وإنما كانت دعوته رحمة ومحبة وسلاما :

أخذ المدائن والقرى بخنائها
غطت به الأرض الفضاء وجوهها
تمشى المنساكر بين أيدي خيله
ويحمله باسم الكتاب أقسىة
ومسيطرون على الممالك سخرت
من كل جزأ يروم الصدر
سكينه ، وبمينه وحزامه
عيسى . سبيلك رحمة ومحبة
ما كنت سفاكا للدماء ولا امرء
جيش من المتحالفين لهُمَام^(٢)
وكست مناكبهنا به الآكام
أنى مشى ، والبغى والإجرام
نشطر الماهو فى الكتاب حرام
لهم الشعوب كأنها أنعام
نادى الملوك وجدّه غنّام^(٣)
والصولجان ، جميعها آثام
فى العالمين وعصمة وسلام
هان الضعاف عليك والأيّام

١ — يشير إلى تراحم الدول الأوروبية وتنافسها على مناطق النفوذ فى البلقان .
٢ — يقول : إن من أقبح العمى أن يسيطر الوهم على الإنسان ، فيرى أشياء كما يصورها له
ومعه لا كما تراها عيناه التى فى رأسه وكما هى فى الواقع .
٣ — لها (بضم اللام) : أى عظيم كأنه لهم كل شيء .
٤ — الغنام : راعى الغنم .

يا حامل الآلام عن هذا الورى
أنت الذى جعل العبيد جميعهم
واليوم يهتف بالصليب عصاب
خلطوا صليبك والخناجر والمضى
كثرت عليه باسمك الآلام
رحماً وباسمك تقطع الآرام
هم للإله وروحهم ظلام^(١)
كل أداة للأذى ورحم

ثم يقدم صوراً من الجرائم المذكورة التى دفع إليها التعصب الذمى الذى يبرأ منه كل دين فيقول :

كم مرضع فى حجر نعمته غدا
وصديقة مهتكت خيله طهرها
وأخى ثمانين استبيح وقاره
وجريح حرب ظامى وأدوه لم
ومهاجرين تنكرت أوطانهم
السيف إن ركبوا الفرار سبلهم
يتلفتون مودعين ديارهم
وله على حدد السيوف فظام
وتناثرت من زوره الأكام
لم يفطن عنه الضعف والأعرام
يعطفهم جرح ديم وأرام
ضلوا السبيل من الذبول ودامرا
والنطع إن طلبوا القرار مقام^(٢)
واللحظ ماء، والديار ضرام^(٣)

ويمثّل الشاعر الشرك فى ختام القصيدة تبعة تفریطم فى هذا الملك الذى أسسه أجدادهم فضيعوه بفرقهم وتخاذلهم وما تملكهم من غرور، وبتفريطهم فى نشر العلم وإقامة العدل .

ويكتب الكاشف فى هذه الحرب ثلاث مقطوعات قصار :^(٤)

أولها : خطوبكم يا آل عثمان جمة ولاكنكم أقوى عليها وأقدر
والأخرى : صليبية يا قوم أم عنصرية حروبكم ؟ والدين هذا أم الشرك ؟

١ - روح الله : هو المسيح عليه السلام .

٢ - النطع : قطعة من الجلد كانت تفرش لمن يضرب عنقه .

٣ - الديار ضرام : لأن جيوش البلغان أشعلت فيها النار انتقاماً .

٤ - الديوان ٢ : ٢٣ - ٢٤

والثالثة : بأنة عبد أنت يا عبد عائد تفيض تباريحنا لنا أم شمائلنا
أما عبد المطلب فقد عبر عن حزنه ونفسه عن ثورته وصور ما عانى مسلو
البلقان من اضطهاد في قصيدته : (١)

صريف المنايا أم صليل الصوارم ؟ ليل الردى أم تقع تلك الملاحم

* * *

وترد الأنباء بعد هذه الكوارث المتلاحقة ، المشبعة للهمم : والداعية إلى
اليأس بقدم طيارين تركيين إلى مصر في سنة ١٩١٤ ، قبيل الحرب العالمية الأولى .
وتسقط بهما طائرتهما في الطريق ويموتان ، فيعاود المحارلة زميلان آخران يصلان
سالمين . فيستبشر المصريون ويستيقظ في نفوسهم الأمل بصعود نجم الإسلام
وقيام دولته . ويستقبل الشعراء هذا الحادث الجديد السعيد ويذيعون الشعر
مهنئين ومعزين .

يقول شوقي : (٢)

ياراكب الريح حتى النيل والهزما	وعظم السفع في سيناء والحرما
عاد الزمان فأعطى بعد ما حرما	وتاب في أذن المحزون فابتما
فيارعى الله وفأ بين أعيننا	ويرحم الله ذاك الوفد مارحما
هم أقسموا لتدين السماء لهم	واليوم قد صدقوا في قبرهم قسما

ويقول حافظ : (٣)

أهلا بأول مستسلم	في المشرقين علا وطار
النيل والبفور في	ك تجاذبا ذيل الفخار
يوم امتطيت براقك الـ	ميمون واجزت الفسار

وفيها يدعو إلى الأخذ بأسباب القوة في عالم ليس فيه للضعفاء مكان

١ - الديوان ص ٢٧١ .

٢ - ١ : ٢٦٧ .

٣ - ٢ : ٧٦ .

والظلم من طبع النظام م فإن ظلمت فلا تمار (١)
 تُخَلِّقُ الضعيف لخدمة الـ أقوى ، وليس له خياره
 فتَقَوَّ رهبك القَوَّ وهُنَّ يلازمك الصغار
 في الأرض ما تبغون من عز وآمال كبار
 فيها الحديد وفيه بأ س يوم يمتحن الذمار
 فيها المكنوز الحافلا ت لمن تبصر واستنار
 منها استمد قواه من قهر الممالك واستعار
 وبما احتوت رد الحصي ف الرأي غارة من أثار
 ويقول عبد المطلب (٢) :

وقفت لك الدنيا فيرى مَسْرَى الضياء من الأثير
 يا أخت ساجدة النجو م وبنت ساحة الضمير
 من عهد آدم لم تزل عنراء مسلسلة الشثور
 وهو يذكر مجد الإسلام في أكثر من موضع من القصيدة حيث يقول :
 طير السلام بطائر الـ لسلام والأسد المزير
 وحيث يقول : ياطائر الإسلام يـ غر بالعواصم والثغور
 د : يادولة الإسلام هـ ي يا كواكبه أنيرى

* * *

كانت العاطفة الدينية إذن غالبية مسيطرة . وكان الدين والوطنية توأمان متلازمان ، كما قال مصطفى كامل في خطبة له سنة ١٩٠٠ (٣) . وقد أعان على تعلق الناس بالفكرة الإسلامية مهاجرة كرومر الدائمة للمسلمين في بعض تقاريره وفي كتابيه

١ - لا تمار : أي لا تتجادل ولا تنازع . يقول : إن نظام الكون كما خلقه الله ؛ يقوم على وجود القوى والضعيف ، وعلى التنافس في طاب السيادة ، فلا تتجادل في ذلك .

٢ - الديوان ص ٩٥ .

٣ - مصطفى كامل ١٢٢ .

الذين ظهروا بعد مغادرته ماهر عن (مصر الحديثة) و (عباس الثاني) (١) ،
وتصورهم في صورة الهج المتخلفين ، ومهاجمة الإسلام وتصويره ديناً رجعياً
لا يصلح لأن يقوم على أساسه نظام اجتماعي راق . كما أعلن على تقوية فكرة
الجامعة الإسلامية مهاجمة الدول الأوروبية الإمبراطورية العثمانية باسم الدين ،
حميةً لدول البلقان المسيحية . (٢) ، مما أثار شعور الدطف على تركيا والالتفاف
حول الخلافة ، حتى رأينا الشعب على اختلاف طبقاته يسارع إلى مد يد المعونة
لهافي كل حروبها ومحنها ، بالمال وبالرجال ، وتقوم فيه مظاهرات الفرح والابتهاج
كلما وردت عليه الأنباء بانتصار جيوش المسلمين (٣) .

والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا
جميعاً من المويدين للنفوذ التركي في مصر . فمن هؤلاء الترك المستعربون ،
أمثال شوقي ويكن والكاشف ، الذين تدفهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة
الحنين للأصل ، والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين ، فالكاشف يقول في العيد الفضي
للسلطان عبد الحميد (٤) :

تفانيت في حبسكم ؛ لأنني لكم على النفس والأهلين والخلق مؤثر
ولا أغرو إن غالبيت فيكم فجامعي وإياكم دين وطبع وعنصر
أما ولي الدين يكن - مع ما هو معروف من مشايعته للاحتلال الانجليزي
الذي كان يحمي أعضاء تركيا الفتاة ، من الاتحاديين في مصر كما سنبين فيما بعد -
فهو يفتنى إلى ذلك الحزب المشهور بعصبيته الطورانية . ولذلك فهو يرد على كاتب

١ - Modern Egypt ١٢٩ : ٢ - ١٥٤ ، عباس الثاني ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٩

٢ - تاريخ الدولة العلية ٣٣٧ - ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ - ٣٥٠ .

٣ - راجع في الحرب اليونانية التركية سنة ١٨٩٧ مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٣
وفي الحرب الطرابلسية سنة ١٩١٢ نفس المرجع ٢ : ٢٦٥ - ٢٦٦ . وفي حرب البلقان
سنة ١٩١٢ ب : ٢٨٩ .

٤ - الديوان ١ : ٤٦ .

هاجم الترك في جريدة المقطم بمقال يبدأه بالبيتين العربيين القديمين :

مهلا بنى عمنا ... مهلا موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطعموا أن تميزونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

ثم يقول : شهد الله وكل عثمانى حر يكون قرأ لى شيئاً أنى لا أتعصب للدين ولا للجنس . أنا تركى وأبغض عباد الله إلى تركى يعتدى . أحب العناصر العثمانية كلها ، وأخذ بناصر المستضعف منها . ثم أحب العرب حباً غايط الروح وجرى مجرى الدم من العروق ، وأنا عربى الأدب والقلم ، عربى النزعة . ومن أبغض العرب فأنا مبغضه . أولئك إخوانى الذين أغنيهم فيطربون ، وأحدتهم فيقبلون على بالسمع . هكذا عهد العرب الكرام بأخيههم هذا .

غير أنى لا أكذبهم . إنى كذلك لا أحب من يسب الترك ولا من يكون لهم عدوا . وكذلك العرب لا يحبون من لا يحب لإخوانهم . وإذا جرى بين العرب والترك شر أكون يومئذ بمعزل عن كليهما داعياً عليهما بالفشل جميعاً .

زعم عزت الجندى أن الذين خانوا الدولة هم أتراك . ثم ذكر رجالاً منهم محمد على الأول مؤسس الأسرة الخديوية بمصر . سماحه الله . إن محمد على خالى ، جدنى شقيقته ، لا تصح شهادتى له . فأنا أدع الحكم فى وفاته وخيائته لأهل الإنصاف .

ولكن مصطفى فاضل قائد كتائب الحرية ومدحت أبا الدستور تركيان ، الصقولى والكوبرلى أيضاً تركيان . وغير هؤلاء كثير إن شاء الجندى ذكرت له أسماءهم وعددت ما تيسر من أعمالهم^(١) .

أما شوقى فهو الذى يقول فى مقدمة ديوانه الأول وأنا إذن عربى تركى يونانى جركسى^(٢) ، وهو الذى يقول فى الحرب العثمانية اليونانية :

وزينب إن تاهت وإن هى فاخرت فاقومها إلا العشير المحب

١ - الصحائف السود ١٠٧ - ١١١ .

٢ - الشوقيات طبعة ١٩١٢ من ١٥ .

يؤاف لإيلام الحوادث بيننا ويجمعنا في الله دين ومذهب
وشعره بعد هذا يفرض بالحسين الصادق والحاسة الحارة لكل ما يمت للترك بسبب .
ومن بين المعتنقين لفكرة الرابطة الثمانية والمؤيدين للنفوذ التركي رجال الدين
ومن ذهب مذهبهم وأحسن إحساسهم ممن يؤيدون هذا النفوذ بدافع من الغيرة
الدينية ، تحت تأثير الظروف المختلفة التي سادت العصر والتي أشرت إليها فيما
سلف . وهؤلاء لا يحتاجون إلا لما يمس دينهم . ولا يرون بين الأقطار الإسلامية
من يستطيع أن ينهض بعبء الذود عن الإسلام والمسلمين غير تركيا ، لأنها
أقواها وأقدرها على مواجهة مطامع الدول المسيحية . ومن هؤلاء عبد المطلب
الذي يلقب نفسه بشاعر الإسلام ، حيث يقول في انتصار الترك على اليونان :
هذا مقامك شاعر الإسلام فقف القريض على أجل مقام^(١)

ومن بين المؤيدين للنفوذ التركي وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون
بأن لمصر كيانا مستقلا ، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلا لمناوأة الاستثمار ،
ويرون أن التخلص من النفوذ التركي بعد ذلك أمر سهل ميسور ، وأن النفوذ التركي
في حقيقته لم يكن قبل الاحتلال إلا نفوذاً إسمياً . ومن هؤلاء مصطفى كامل
ومحمد عبده وعبد الله النديم والبكري ومحرم والغاياتي .

أما مصطفى كامل فهو يجيب الأمير لاي بارنج (شقيق كرومر) حين أقيه في
لندن سنة ١٨٩٥ فسأله عن جنسيته بقوله « مصري عثماني » ، ثم يجيب على تعجبه
لجمعه بين الجنسيتين بقوله : « ليس في الأمر جنسيتان بل في الحقيقة جنسية واحدة
لأن مصر بلد تابع للدولة العلية . » ولكنه يقول من خطبة له في الاسكندرية في
سنة ١٨٩٧ : « إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة قوية ضد
الاحتلال الإنجليزي ، واشترك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش
العثماني هو اقتراع عام ضد الإنجليز في مصر .^(٢) » ويقول من خطاب له إلى

١ - ديوان عبد المطلب ص ٢٥٣ .

٢ - مصطفى كامل ٨٢ .

مدام جوليب في هذا العام : ذلك تعلين خطتي نحو تركيا . وما أراه واجباً نحوها . فقد فصحت عن ذلك في خطبتي . واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية . أصر أن تكون حسنة الملائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز ، (١) .

أما محمد عبده فهو يقول أثناء إقامته في بيروت سنة ١٨٨٦ م : د إن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثلاثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله . فإنها وحدها المحافظة لسلطان الدين السكافة لبقاء حوزته . وإيس الدين سلطان في سواها . وإنا والحمد لله على هذه العقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت ، (٢) .

ولكنه كان يصرح بعد عودته إلى مصر بأنه يرى للبلاد العثمانية أن تنصرف إلى ترقية نفسها بنفسها من غير معاداة ولا مباراة لتركيا . وأن تنتظر الفرص للاستقلال . وقد سافر للأستانة ثم عاد منها كارها للترك مشنعا بفساد الإدارة وباستبداد السلطان عبد الحميد ، ولكنه لم يكشف عن عدائه لتركيا . بل ظل - على العكس - يصرح بأن الخلاف بين مصر وتركيا ، أو بين العرب وبين تركيا لا تستفيد منه إلا الدول الأوروبية ، وخصوصاً إنجلترا . ولذلك فهو يقول لرشيد رضا في حديث جرى بينهما عقب انتصار الترك في حرب اليونان سنة ١٨٩٧ : د إن كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها - وإن كان أكثرهم يحبها - وأنا أيضاً أكره السلطان .. ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً ، فإنها سياج في الجملة . وإذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فإن اليهود عندهم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المال . ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقد ناكل شيء ، (٣) .

أما عبد الله النديم فهو الذي يقول سنة ١٨٩٣ : يا بني مصر ... ليعد

١ - مصطفى كامل ص ٨٣ وراجع كذلك الفصل الثامن عشر من نفس المرجع (مصطفى كامل وتركيا)

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩٠٩ .

٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١٢ - ٩١٥ .

المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً للعصيدة الدينية . ويرجع الاثنان إلى القبطى والإسرائيلى تأييداً للجامعة الوطنية . وليكن المجموع رجلاً واحداً يسعى خلف شىء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين ، (١)

أما محمد توفيق البكرى فهو يقول فى حديث له مع مراسل النيويورك هيرالد سنة ١٨٩٣ إن مبدأه هو دمصر للمصريين ، وهو ضد أى احتلال فرنسى أو إيطالى أو تركى ، كما أنه ضد احتلال الإنجليزى ، وأنه يعتقد أن البلاد قادرة على حكم نفسها . (٢) وهو بعد هذا صاحب القصيدة المشهورة التى بعثها للسلطان عبد الحميد بعد حرب اليونان ؛ فقرئت فى محفل حافل وحفظت فى المكتبة السلطانية . (٣) ومن المؤيدين للنفوذ التركى بعد كل هؤلاء وهؤلاء عامة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الدين ، ولا يعرفون لهم راعياً غير الخليفة لإمام المسلمين ، ولا يعرفون ما الوطن وما الوطنية . فقد كانت هذه الكلمات وأمثالها وقتذاك من مستحدثات الشباب الذى تعلم فى أوروبا ، حتى إن رشيد رضا ليقول فى مناسبة ذكر محاسن الخديوى عباس : (أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى فى عرف هذا العصر بالوطنية ، (٤)) .

١ — سلافة النديم ٢ : ٧٨

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٧٤

٣ — شعراء العصر ١ : ١٩٥

٤ — تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ١٥٩٢

الفصل الثاني الجامعة المصرية

إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب الذى كان ينادى بوحدة الشعوب الإسلامية ، ويستنهض الهمم باسم الإسلام ، ويرى أن النهضة الوطنية لا تتم إلا عن طريق الدين ، أو بمساعدته واستغلال سلطانه على النفوس على أقل تقدير ؛ إلى جانب ذلك الصوت القوى الغلاب ، كانت هناك دعوة ناشئة تنادى بالقومية المصرية ، وتبث الشعور بالوطنية الإقليميه فى الأمة ، التى تقوم — حسب تصورهم — على الجنس لا على الدين ، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ، ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشا كل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية .

كانت هذه الدعوة صدى الاتجاه العالمى نحو فكرة القومية فى القرن التاسع عشر . وكان المبشرون بهذه الدعوة فى مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبى كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم . وقد نشأت هذه الفكرة الجديدة نتيجة للتوسع الاستعمارى الذى تلا اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تسمها يدى أمريكا وأواسط أفريقيا ، أصبحت ميدانا للتنافس الاستعمارى بين الدول الأوروبية . وكانت حرب أمريكا فى سبيل استقلالها والثورة الفرنسية من بعدها فى مآخى القرن الثامن عشر هى نقطة البداية لهذه الحركة التى اتخذت شكلا عنيفاً ، وأصبحت العقيدة التى تدين بها الشعوب الأوروبية الصغيرة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .^(١) فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية فى الدول الكبرى التى تنطوى تحتها ، لتسوقها إلى الحروب حين تشاء ، وتحملها تبعاتها من دماء ومن أموال .

نشاطات مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد ، وكان ذلك نتيجة للتقسيم الصناعي الذي قسمت فيه الجماعات البشرية في دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الإمبراطوريات الكبرى أنه يحقق لمصالحها . وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لفكرة الوطن والقومية ، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقه والدفاع عن كيانه ، واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التي كانت تنطوى تحتها ، مطالبة بحققها في الاستقلال الكامل بتدبير شئون نفسها داخل حدود ذلك الوطن . والمتدبر لحروب القرن التاسع عشر يجدها في مجموعها صادرة عن أصل واحد هو ظهور الروح القومية . التي كانت سبباً في تقويض الإمبراطوريتين النمساوية والعثمانية ، والتي قامت على أساسها الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ، والتي ارتفعت على أساسها أصوات جديدة تنادي بالوطنية والقومية من التشيك والسلوفاك والرومانيين والبولنديين .^(١) وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة يغذون فكرة القومية الجديدة التي تستند إلى ما غرسته الثورة الفرنسية في النفوس من تعاليم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية التي أيقظت الشعور القومي وروح الفرد في الشعوب ، حتى أصبح التغني بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية الرومانسية (الرومانسية) المحببة التي ترددها الجماعات ويترنمون بها ترنمهم بالتراتيل الدينية . وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح في سبيل مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الناس ، وكأنما هو معبود جديد هدام لإليه نبي جديد .

كان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة في مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبي كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم وشعرهم . ولعل من أوضح الشواهد على ذلك ما جاء في مقال أبعاد العزيز جاويز نشره في صحيفة العلم سنة ١٩١٠ وعنوانه « الحركة الوطنية في مصر » ، حيث يقول :^(٢)

١ - مصر الخزانة ٢ : ٢٦ - ٢٧

٢ - صحيفة العلم العدد الأول ٧ مارس سنة ١٩١٠

وسألتني قوم أن أشرح لهم ما علمته من أمر الحركة الوطنية وابتدأ خبرها وسر سياستها . وقد أنهمم إلى ذلك ما قرأوه من الحوادث الخطيرة التي جرت لهذه الأيام الأيام الأخيرة في القطار وما رددته الجرائد من توقع حدوث أمور ذات بال ربما غيرت من أسلوب حكومته وبدلت من أوضاع سياسته .

د إن الشعور بالوطنية اصطلاح أفرنكي انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوى العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التي اهتدى إليها أهل الغرب .

ونستطيع أن نقول : إن هذه الحركة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العراقية وكانت هذه الثورة صوتها القوى ويدها الباطشة وقوتها المنفذة . وتمثلت هذه الدعوة في جمعية (مصر الفتاة) السرية ، التي تآلفت في الاسكندرية ^(١) ، والتي أصدرت صحيفة باسمها للدعوة إلى الحرية ^(٢) ، وفي بعض الصحف الثائرة التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر امتتعت سياسة الحكومة وتندد بتفريطها في حقوق البلاد ، مثل صحيفتي (مصر) و (التجارة) لأديب إسحق ^(٣) ، وفي (الحزب الوطني) الذي تآلف قبيل الثورة العراقية من الرجال الذين تزعموها بعد ذلك ^(٤) .

وخير ما يصور هذه الدعوة في ذلك الوقت مقال لمحمد عبده نشرته الوقائع

١ - زعماء الإصلاح ١١١ ، ٢١٢ ٢ - الثورة العراقية ٧٢ ٣ - المرجع نفسه ٦٩ .
٤ - المرجع نفسه ٧١ ، ٧٢ والنشابة بين جمعية (مصر الفتاة) التي حركت الثورة العراقية وكانت نواتها ، وبين جمعية (تركيا الفتاة) التي حركت الثورة التي انتهت بخلع السلطان عبد الحميد والتي كان الانقلاب الكمالى بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها . هذا النشابة بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منهما ، مع الاتفاق الزمنى ، لأن مؤسس (تركيا الفتاة) ، على ما هو معروف ، هو « مدحت » المعاصر للثورة العراقية ، يوحى بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركى والمصرى كانوا من الماسون . وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بعبادى الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكرها من الماسون أيضاً . ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ . وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها النطاء ويتضح ما يحيطها من غموض فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذى يحيط بهذه الحركات وبأمثالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه .

المصرية في ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفاني في حبه والذود عنه ، بدأه بتعريف الوطن فقال (١) :

« تقرر بما سلف أن لا بد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ، ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن ، لامتناع النزاع والخلاف فيه . ونحن الآن مبينون بعون الله ما هية هذا الوطن وبعض ما يجب على ذويه :

الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقاً ، فهو السكن بمعنى : استوطن القوم هذه الأرض وتوطنوها : أى اتخذوها سكناً . وهو عند أهل السياسة مكانك الذى تنسب إليه ، ويُحفظ حتمك فيه ويُعلم حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لا بروير الحكيم الفرنساوى : لا وطن فى حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر ذاتية ومناصب رسمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين المكان الذى فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية . ثم يقول : « أما السكن الذى لا حق فيه للسكان ، ولا هو آمن فيه على المال والروح ، فغاية القول فى تعريفه أنه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلاً . فإن عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لا بروير السابق الذكر : ما الفائدة من أن يكون وطنى كبيراً إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش فى الذل والشقاء خائفاً أسيراً .

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتى ، فهو يثار عليه ويذود عنه كما يذود عن والده الذى ينتمى إليه ، وإن كان سيئ الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل فى مثل هذا المقام : إن ياء النسبة فى قولنا مصرى وإنجليزى وفرنسى ، هى من موجبات غيرة المصرى على مصرى والفرنساوى على فرنسا والإنكليزى على إنجلتريه ... فإذا تقرر ذلك بما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئاً ،

ويشرب مريثاً ، ويبعث في الأهل أمينا . وهو مقامه الذي ينسب إليه ، ولا يجد في الفسبة عارا ولا يخاف تعييرا . وهو الآن مروض حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضحنه من دخوله في دور الحياة السياسية .

ويختتم محمد عبده مقاله ببث الأمل في نفوس المصريين والرد على المشبطين اللهم ، الذين لا يزالون ينعقون بأن المصري قد ألف الذل وتعود احتمال الظلم بما لا يدع مجالاً للأمل في بث الشعور بالوطنية فيه ، ضارباً المثل بفرنسا التي كان شعبها يعاني الرق في ظل النظام الإقطاعي ، ثم لم يمنعه ذلك أن ينال حقه . وفي هذه الفترة يبدو أثر حركات الاستقلال والمطالبة بالحرية التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر . إذ يقول :

« ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوى الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجمالة والذل ، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبتطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاساف القول ، من مثل : إننا تعودنا احتمال الظلم والحييف ، وألفنا الخدمة والرق ، فلن يستقل لنا رأى ؛ ولن نهتدى سبيل الحرية . كأننا هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً ، وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وأن العالم بأسره كان فريقين : أحرار يظلمون ، وعبيد يطيعون . أو لم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صفوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ، ويبيعون كما تباع السجماوت . أو لم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان .

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام ، وأن يروا أمثال ثيارس وجريفي وغامبتا في أبناء الذين كانوا من قبل عبيداً أرقاء ؟

ولئن كان فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر

السالف ، فلنجد رجونا — وحقق الله هذا الرجاء — أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء ، وحسن ذلك ختاماً .
ولكن الذى يبدو من مراجعة كتابات محمد عبده التى تلت ذلك أن المقصود بكلامه عن الوطن فى هذا المقال يختلف بعض الاختلاف عن مدلول هذه الكلمة فى أذهاننا اليوم . فقد كتب بعد ذلك بسنوات ثلاث مقالا فى صحيفة العروة الوثقى عنوانه « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج عللها » . تكلم فيه عما آل إليه أمر المسلمين من تأخر وانحطاط واستعرض آراء المصلحين ، فقال : إن بعضهم يظن أن أمراض الأمم تعالج بفكر الصحف ، وأنها تسكفل لإنهاض الأمم وتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق . وفريق آخر يرى أن شفاءها من هذه العلل القاتلة يتم بإنشاء المدارس على الطراز الجديد المعروف فى أوروبا حتى تعم المعارف جميع الأفراد . وبعد أن فند الرأيين أثبت رأيه الذى يذهب فيه إلى أن انتشار الأمة الإسلامية مما هى فيه من ضعف لا يتم إلا عن طريق الدين (١) .

يقول محمد عبده فى تفنيد آراء الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية :

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدناً ، وهو فى الحقيقة تمدن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ، فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ نعم ، ربما يوجد بينهم أفراد يتفقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لا تعرف غايتها ولا تعلم بدايتها . وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمة أخرى على حسب ما يختارون . ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم فقلبوا أوضاع بيئاتهم والمسكن ،

وبدلوا هياكل المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجرد ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، ففسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ... وهذا جدع لآنف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها . وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيها على غير أساسها ونجأتهم قبل أوانها .

وهذا المقال يدعونا إلى تعديل فكرتنا عن مدلول الوطن والوطنية في مقال محمد عبده في الوقائع المصرية . وهو — مع ما سبقه وما تلاه من كتابات محمد عبده — يدعو إلى التفكير في تعليل ما يسود آراء محمد عبده من تباین واختلاف يبلغ حد التناقض في بعض الأحيان . ومهما يكن من أمر ، فهذا المقال الأخير يدل على أن الدعوة إلى الوطنية بمعناها المتعارف عليه الآن كانت قد نشأت ، وكان لها دعاة من أصحاب الثقافات الأوروبية ، المعادين لفكرة الرابطة الإسلامية . وهم الذين عناهم محمد عبده بالفقرة التي اقتطفناها من مقاله . وهم الذين يهاجمهم أيضاً في مقال آخر له عنوانه (التعصب) حيث يقول^(١) : «أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير . فقلنا تكون عبارة إلا وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمتها ، يعدون مسماة على لكل بلاء ، ومنبعاً لكل عناء ، ويزعمونه حجاً با كسيفاً وسداً منيعاً بين المتصفين به وبين الفوز والنجاح ، ويجعلونه عنواناً على النقص وعلماً للردائل . والمنسربلون بسراويل الإفرنج الذهبون في تقليدهم مذاهب الخطب والخلط لا يميزون بين حق وباطل . هم أحرص الناس على التصدق بهذا البدع الجديد . فزأهم في بيان مفاسد التعصب يمزون الرؤوس ويهشرون باللحي ويرمون السبال ، وإذا رموا به شخصاً للخط من شأنه أردفه للتوضيح بلفظه الإفرنجي (فانتيك) .

ثم يبين أن التعصب هو الرابطة التي شكل الله بها الشعوب ، ويقول : إن

الشعوب تظل بخير ما بقيت قوة الربط بين أفراد الأمة ، فإن ضمنت تدامى بنائها للانحلال . ثم يقول :

« التعصب كما يطلق ويراد به : النزعة على الجنس ومراجعتها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد . كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتهمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً . والمتنطعة من مقلدى الإفرنج ينجحون هذا النوع بالمقت ، ويرمونه بالتعس . ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فإن الحجة يصير بها المتفرقون إلى وحدة ، تدفع عنها قوة لدفع الغائلات وكسب السجلات ، لا يختلف شأنها إذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان تقدير العزيز العليم وجود انرا بطيتين في أقوام مختلفة من البشر . وعن كل منهما صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الإسلامى . »

« نغش جماعة من مرتذقة هذه الأوقات في مفاصل التعصب الدينى . وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به لإخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يلهم دينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية وبحجهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأى أولئك المنغشين أن لا سبيل لدفع المفاصل واستكمال المصالح إلا بالتحلل العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ويخوضون في نسبة مذام التعصب إليهم . »

ثم يبين أن الدين أعظم مقوم للخلق ، وأن الغلو الذى يطرأ على العصبية الدينية يدعو إلى إذلال المخالفين في الدين ، كالغلو الذى يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الجنس واستعبادهم . ويبين أن الدعوة إلى التعصب في الجنس الذى يسمونه (الوطنية) إنما يوجه الإفرنج الذين يريدون أن ينقضوا أبناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبها ليسهل عليهم استعمارها . وأن المخالفين من المسلمين الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة فهدموا العصبية الدينية ثم لم يستعطيخوا أن يقيموا

مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها الوطنية .

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوروبي ولكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين في أذهان كثير من الناس ، كما يبدو من كلمات محمد عبده ، كما يبدو من قول البارودى وهو فى منفاه : (١)

لم أقترف زلّة تقضى علىّ بما أصبحت فيه فماذا الويل والحرب (٢)
فهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ذنب أداى به ظلما وأغترب لى
ومن قوله فى قصيدة يهنى فيها الخديوى توفيق بعيد جلوسه قبيل الثورة ،
مثليا عليه لسنّهُ نظام الشورى استجابة لرغبات الأمة ، حيث يشير إلى المصريين
بقوله دأمة أحمد ، (٣) :

ونمتعت بالعدل منك رعية كانت فريسة كل باغ معتد
فجباك ربك بالجميل كرامةً لجزيل ما أوليت دأمة أحمد ،

تصور هذه المتقطعات التى قدمناها أن الدعوة إلى نوع من الوطنية كان قد بدأ فى الظهور قبيل الثورة العرابية ، وأن هذه الوطنية كانت فيما يبدو نتيجة تسلط العنصر التركى واستشاره بكل خير ، وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصرى ووطنه تحفزه على الاهتمام بأمره والعمل على رفعته ، وأداء واجبه نحوه من جهة ، والمطالبة بحقه فيه من جهة أخرى . وربما كانت الناحية الأخيرة هى المقصودة بالتنبيه بنوع خاص ، لأن المصريين كانوا من قبل يؤدون الواجبات دون أن يعرفوا أن لهم فى مقابلها حقوقا . ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال فى أن يستبدلوا هذه الرابطة بالرابطة الدينية أو يضعوها فى مقابلها . وشعر البارودى من أصحاح الأمثلة لهذا اللون من التفكير الذى يستهدف رفع الظلم عن الشعب المستعبد الذى لا يقام لمصلحته وزن .

يقول من قصيدة يحض فيها الناس على المطالبة بحقوقهم والجهاد في سبيل الحصول عليها، مذكرا بمجد مصر القديم، وذلك في حكم إسماعيل^(١) :

حلبتُ أشطُرَ هذا الدهر تجربة وذقت ما فيه من صاب ومن عسل
فما وجدتُ على الأيام باقيةً أشبهى إلى النفس من حرية العمل
لكننا غرض للشرِّ في زمن أهلَ العقول به في طاعة الخمل^(٢)
قامت به من رجال الشؤم طائفةٌ أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضا ويلفظه الديوان من ملل^(٣)
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعدُ المُلْك حتى ظل في خلل
وأصبحت دولةُ الفسطاط خاضعة بعد الإباء، وكانت زهرة الدول
بئس العشيرُ. وبئست مصر من بلد أضحت مُناخاً لأهل الزور والخطل^(٤)
أرض تأثُل فيها الظلم وانقذفت صواعق الغدر بين السهل والجبل^(٥)
وأصبح الناس في عمياء مظلمة لم يخططُ فيها امرؤ إلا على زَلل^(٦)
لم أدر ما حلَّ بالأبطال من خور بعد المراس وبالأسياف من قلل^(٧)
أصوحت شجراتُ المجد أم نضبتُ عُذْرُ الحمية حتى ليس من رجل^(٨)
لا يدفعون بدا عنهم ولو بلغت

١ — الديوان ٢ : ٢٢٦ — ٢٥٠

٢ — الغرض : الهدف . الخمل : جمع خامل

٣ — الدست : صدر البيت والمجلس ، والمقصود به هنا الديوان ومجلس الوزارة والرياسة . وهي كلمة فارسية الأصل .

٤ — الخطل : فساد الرأي

٥ — تأثُل : أى تأصل وعظم .

٦ — أصبح الناس في عمياء ، أى في فتنة عمياء مظلمة .

٧ — الخور (بفتحين) الضعف . المراس (بكسر الميم) البأس والشدة . القل (بفتحين) تنلم حد السيف .

٨ — صوحت : يهت . نضبت : جفت . الغدر : جمع غدير وهو ما ينادر السيل من ماء .

هيات يلقى الفتى أمنا يسلد به
فألكم لا تعاف الضيم أنفسكم
وتلك مصر التي أفنى الجلاذ بها
قوم أقرؤا عماد الحق وامتلکوا
جنوا ثمار العُلا بالبيض واقتطفوا
فأصبحت مصر تزهو بعد كدرتها
لم تنبت الأرض إلا بعد ما اختمرت
حتى إذا أصبحت في معقل أشب
أخنى الزمان على فرسانها فعدت
فأى عار جلبتم بالخنول على
ويقول في قصيدة أخرى من قصائد المتنبي (١) :

أبى الدهر إلا أن يسود وضيعه
تداعت لدرك الثار فينا ثعالة
فختم نسرى في دياجير محنة
إذا المرء لم يدفع بد الجوز إن سطت
ومن ذل خوف الموت كانت حياته
وأقتل داء رؤية العين ظالما
علام يعيش المرء في الدهر خاملا ؟
ويملك أعناق المطالب وغده
ونامت على طول الوتيرة أسده (٢)
يضيق بها عن صحبة السيف غمده
عليه فلا بأسف إذا ضاع مجده
أضر عليه من حمام يؤدده
يسى وميتلى في المحافل حمده
أيفرح في الدنيا ليوم بعده ١١

١ - الوهل : الفزع .

٢ - الفواشى : جمع غاشية وهى النطاء .

٣ - القال : جمع قلة (بضم القاف) وهى الرأس

٤ - أشب : حصين .

٥ - مطروقة السبل : أى أنها أصبحت تطأها الأقدام وانتك الناس حرمتها بعد منعها .

٦ - الديوان ١ : ٧٢ .

٧ - تداعى القوم : دعا بعضهم بعضاً . ثعالة : علم لأننى الثعالب لا ينصرف الوتيرة الثار .

يرى الضيم بنشاه فيلتذ وقبحه كذى جرب يلتذ بالحك جده
 كذاك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك ، فكرة تحاول أن تجمع الناس حول
 المطالبة بحقوقهم . ودعوة إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم والاستعباد . ثم
 تطورت الفكرة على أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية ، وبدأت تهاجم الرابطة
 الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد . فدعا هذا الفهم
 الجديد للوطنية إلى أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطرا يهدد
 وحدة الأقطار الإسلامية ويفرق كلمتها ويهدم تعاطفها ويضعف تكتلها بما
 يعرضها للسقوط تحت أقدام الدول الأوروبية الطامعة ، واحدة تلو الأخرى .
 وربما كان صالح مجدى^(١) من أسبق الشعراء في العصر الحديث إلى ترديد
 كلمات الوطن والوطنية في شعره . وله في آخر ديوانه خمس عشرة مزدوجة سماها
 « الوطنيات » ، امتدح فيها سعيد باشا وإلى مصر ، وعرضت عليه فأمر بتلحينها
 والتغنى بها بمصاحبة الموسيقى العسكرية في المحافل والمواسم . وهو في هذه الوطنيات
 يشيد بالوطن محاولا أن يغرس حبه في القلوب ، ويتغنى بأجداد الأجداد ، وبفاخر
 بجيش البلاد ، مبرزاً قوته ، معتدداً بشدة بأسه . ولكنه يربط كل ذلك بشخص
 سعيد ، ويجعله سبيلاً للعظيم من شأنه ، وتحييه إلى أبناء جنسه .

فن ذلك قوله في الوطنية التاسعة :

بامتداح الصدر غنوا فهو للأوطان حصن
 وهو للإيمان ركن ولسكم في الجوف أمن
 في ميادين الوقائع
 في الوغى أنتم أسود يا بني الأوطان سودوا

١ - السيد صالح مجدى : شاعر مصرى المولد مكي الأصل ولد سنة ١٨٢٥م وتوفي ١٨٨١م .
 تقلب في عدة مناصب بين عسكرية وتعليمية وهندسية وإدارية . وخلف كثيراً من الكتب بين مترجم
 ومؤلف في الرياضة والهندسة والميكانيكا والفنون العسكرية . وترجمته الكاملة في الخطط التوفيقية .
 نستطيع أن نجد أمثلة لهذه النزعة الوطنية في شعر رفاعة الطهطاوى الذى تتلمذ السيد صالح
 ومجدى عليه .

ولها بالروح جودوا وادخلوا الأحياء وصيدوا
صيدها يوم الزعازع
واستعدوا للكفاح في مساها والصبح
واطلقوا خيل الفلاح في ميادين النجاح
وادفعوها في المعامع
وانشروا للعز بندا وانصروا الصدر المفدى
واسلكوا الدرب الأسد واقمعوا الخصم الألد
واقطعوا منه المطامع
يا بني الأوطان هيا خيموا فوق الثريا
واهجروا النوم مليا واطعنوا الضد الأيا
واجدعوا أنف الممانع

ومن ذلك قوله في الوطنية الخامسة عشرة :

فالصارم في أثر المدفع لعدو مخذول يصندع
وعن الأوطان به ندفع من جاء بلا عقل يطمع
فيها لبلاء مقدور
لبلاء فيها يرصده باليم عذاب يقصده
وهوان هوان يحصده من طوبجي ترني يده
لعدو الله المغرور
من طوبجي بالدانات يقتال زعيم القادات
أو خيال في الهيجات يستأصل غصن الهامات
بحسام ماض مشهور
أو زنجي بالمزراق لا يطعن غير الأحداق

أو أوجى سام راق ما يدفعه أبداً راق

عن مهجة خصم شرير

أو زرخ تهجم بالخيـل للكـبسة في جنح الليل

فتزعزع أركان القول وترد الصاغ إلى الصول

وتعود بنصر مأثور

أو قراب بين الصف يرى برصاص للحتف

فيصيب الرأس مع الأنف ويشوش تنظـيم الصف

في موقف هول منكور

أو ذى لغم بالصلقوم لا يطعم غير الزقوم

ويسد بوزار الحلقة من جيش باغ مذموم

مطروء عنا مدحور

أو كوبرى فوق البحر لا يُنصَّب إلا بالأمـر

وإذا ما ساروا في البر حملوه كأثقال الجر

مطويا طى المنشور

أو ذى علم عند الخطب بدقائق هندسة الحرب

يتصدى في يوم صعب لاستكشاف الوضع الخصب

في غفلة جيش محصور

ومن الواضح أن الصياغة أو الألفاظ ليست هي التي تلفت النظر في شعر

صالح مجدى . فهو قليل الحظ من هذه الناحية ، لا يقارن بشاعر كالبارودى .

ولكن الذى يلفت النظر في شعره هو هذا الوضوح المبكر للفكرة الوطنية ،

التي تعتز بمصر وبجيش مصر ، وتمتلىء حماساً للحرب وللقتال في سبيل مجد الوطن

ورفعته . وذلك في وقت لم يكن للشعراء فيه من هم أو موضوع إلا التافه الرخيص

من الأغراض .

ثم انشغل الناس بما كان من فشل الثورة العراقية واحتلال مصر ، ففترت الحركة زمنا وركبت ريجها ، وقد دها الناس ذلك الخطب الجديد ، فامتلات قلوبهم رهبة من السياسة ، وهيبة من الاشتغال بها ، ومز مثل مصير عراقي وصحبه ، وقد أصبح الأمر كله بيد الإنجليز .

ولم يزل الناس في دهشتهم حتى أفاقوا على صوت المنادين الذين ينفونهم من غفلتهم في أوائل القرن العشرين . وكان قادة الحركة الجديدة طائفة من الشباب المثقف ، اختلفوا في متاهجهم وأساليبهم . فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعاق بالجامعة الإسلامية سبيلا إلى ذلك . ومنهم من نهج نهجاً جديداً جريئاً فنادى بالجامعة المصرية ، محاربا فكرة الجامعة الدينية والرابطة العثمانية ، وكان الفريق الأول - ممثلا في الحزب الوطني ، وعلى رأسه زعيمه الشاب مصطفى كامل - يتحدث عن الوطن والوطنية حديثاً عاطفياً ، ويتغنى به كما يتغنى العاشق بمعشوقه ، محاولاً أن يغزو قلوب المصريين بهذا الحب الجديد ، ليُحِيلَ الوطنَ منها محل الدين كما يقول شوقي في تهيدته التي حيا بها الوطن بعد عودته من منفاه :

ولو أنى دُعيتُ لسكنتَ ديني عليه أقابل الحثمَ المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهي إذا مُفِتْ الشهادةَ والمتابا

وكان الفريق الآخر - ممثلا في حزب الأمة ، أو في شبابه المثقف بتعبير أدق - يتحدث عن الوطن حديث العقل والمصلحة . فهو لا يستهدف إثارة الناس ، ولكنه يحاول إقناعهم . وهو لا يتغنى بالوطن المحبوب ، ولكنه يتحدث عن النفع المادى والمصلحة المشتركة التي تجمع بين ساكنيه ، وكلا الفريقين كان متأثراً تأثراً واضحاً بالتفكير الأوروبي وبالمدعوات القومية التي أصبحت بدِيع العصر في القرنين التاسع عشر والعشرين . بيد أن الفريق الأول قد حور ما قل بما يلائم الظروف السائدة وقتذاك ، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيماناً شديداً ، بينما نقل الفريق الآخر هذه الدعوة

الأوروبية نقلاً أميناً - أو أعمى إن شئت - لا تحريف فيه ولا تبديل. فاجأ به السامعين .

يقول مصطفى كامل ، من خطبة له في حديقة الأزبكية سنة ١٨٩٧ (١) .

« إن الوطنية هي أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذي تُبنى عليه الدول القوية والممالك الشاخنة . وكل ما تزونه في أوروبا من آثار العمران والمدنية ، ما هو إلا ثمار الوطنية ، أصبح اليوم الوطن المصرى يفتخر منكم ومن بقية أبنائه عدلاً وإنصافاً . أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال ، وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل . ولا ريب أنكم معشر المتعلمين ، معشر النابغين في المعارف والآداب . أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية . فإنكم قرأتم في التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية ، وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم ، وإخلاصاً لأوطانهم فخيروا بموتهم . وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ، وأن لاشرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه . »

ويقول من خطبة له في الاسكندرية ١٩٠٠ (٢) .

« قد يظن بعض الناس أن الدين يناقى الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء . ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فزاده يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يده . ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ، ولكنى أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته : « لو نزعتم العقيدة من فؤادى انزعتم معها محبة الأوطان . »

١ - مصطفى كامل ص ٩٤ .

٢ - مصطفى كامل ص ١٢ .

من هذه المقتطفات يستطيع القارئ أن يتبين مدى التأثير الأوروبي في تفكير رائد الوطنية الحديثة في مصر من ناحية ، وربطه بين الوطنية والدين من ناحية أخرى . أما حديثه العاطفي عن الوطن ، الذي هو أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقه ، والذي يصور هياماً روحياً صادقاً هو أقرب الأشياء شبهاً بهيام المتصوفة ، فهو جلي وأضح في خطبه وفي كثير من كتاباته ، ويكفي أن أقدم عليه مثلاً واحداً من خطبته في الاسكندرية سنة ١٩٠٧^(١) ، وهي أكبر خطبة وأروعها على الإطلاق :

« تقولون يا أعداء مصر : إننا لو أفلحنا لما قلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل . فنجيبكم أنا لوسلنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل ، لأننا لا نعمل لأنفسنا ، بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون . وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر ، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها ، وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الإنساني كله ؟ »

« وإن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع . ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتجبه ندعوه له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . »

« فهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام : وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار . »

« إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضى البلاد وحاضرها ، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها . فلا الدسائس تخيفنا ، ولا التهديدات تقفنا في طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزججنا . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية . نعم ! .. إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد لكانت آخر

كلانا لمن بعدنا : «كونوا أسعد حفظاً منا ، وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والآلاف بدل الآحاد ، المطالبة بالحقوق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

« بلادى ا ... بلادى ا ... لك حبي وفؤادى ... لك حياتى ووجودى ... لك دمي ونفسي ... لك عقلى واسانى ... لك لبي وجناتانى . فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر .

« يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إلى متهور فى حبها . وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو له إليها جماها وجلالها وتاريخها والعظمة اللاتفة بها .

« ألا أيها اللاتمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف باضياها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطننا أعلى مقاماً ، وأسمى شأنًا ، وأجل طبيعة ، وأجل آثارًا ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف ، من هذا الوطن العزيز ؟

« أسألوا العالم كله يحبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جنانية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتهما للأجنبي .

« إنى لو لم أولد مصرياً ؛ لوددت أن أكون مصرياً .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الاتساع لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان . ولكن أى شرف يطمع الخرف فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ ... أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربي العالم كله ؟ ... أى سود ترمى النفوس الآبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور ، وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت الدجنة الخالصة كانت بلادنا مشرقاً للرفان ؟ ...

« أيت شعري ، أى لذة وسعادة ومكافأة بطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين ؟ . إن المكسب الأدبى للوطنى المصرى من هذه الخدمة يُرى على أنهابه ومجوداته بكثير .

هذه كلمات تمثل انما صدق تصوير شوقى له حين قال فى رثائه :

يا صبر مصر ويا شهيد غرامها هذا ترى مصر فتم بأمان

وسرعان ما سرى أثر مصطفى كامل فى الشعر ، وظهر صدهاء فى الشعراء المعاصرين ، وكان الغاياتى ومحرم فى طليعة شعراء الوطنية الذين يصدرون فى شعرهم عن الهيام بحب الوطن ، ويستهدفون بعث العاطفة الوطنية وإثارتها فى قوة دفاقة ، بما يجعلهما أشبه الناس فى شعرهما بمصطفى كامل فى خطبه . أما الغاياتى فاسم ديوانه والضجة التى اقترن بها ظهوره يغنيان عن كل تعليق . سُمى ديوانه « وطنيتى » ، واشترك فى تقديمه إلى القراء محمد فريد وعبد العزيز جاويز . وقد صودر الكتاب عند ظهوره فى يوليو سنة ١٩١٠^(١) وأحيل مؤلفه وكاتب مقدمته إلى محكمة الجنايات متهمين بتهجيد الجرائم والتحرىض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة . وكان محمد فريد فى أوروبا وقتذاك فأجلت محاكمته إلى ما بعد عودته . وأما الغاياتى فقد نجح فى الهروب إلى سويسرا قبل المحاكمة ، وحوكم غيابياً فأدانته المحكمة وحُكمت عليه بالسجن ستة أشهر مع الشغل . وأما عبد العزيز جاويز فقد حُكم عليه بالسجن ثلاثة شهور مع التنفيذ ، ونفذ فيه الحكم فوراً^(٢) . وأما محمد فريد فقد حوكم بعد عودته من أوروبا وحُكم عليه بالسجن ستة شهور مع التنفيذ^(٣) .

١ — محمد فريد ص ٢٢٧ .

٢ — كانت المحكمة مؤلفة برئاسة أحمد مجدى وعضوية كل من على ذى الفقار ومسبو سودان وكان يمثل الاتهام محمد توفيق نسيم وممثلا الدفاع أحمد لطفى ومحمد على علوية .

٣ — كانت المحكمة مؤلفة برئاسة المستر دلبز وجلى وعضوية كل من أحمد ذى الفقار وأمين على . ومثل النيابة محمد توفيق نسيم . ورفض محمد فريد أن يستصعب أحداً من المحامين للدفاع عنه .

قدم الغايات لديوانه بمقدمة طويلة تقرب من ثلاثين صفحة ، تكلم فيها عن واجب الشعراء في بث روح الوطنية والغيرة القومية ومحاربة الظلم والاستبداد ، وعن حاجة مصر إلى نشيد وطني . وترجم بعض قطع من المارسابيز ونشيد الثورة الفرنسية ، واختارها مما يناسب ظروف مصر في ذلك الحين . ثم قدم ترجمتين لنشيدين فرنسيين آخرين هما فرنسا ، و الوطن ، واختتم المقدمة بقوله : « خيا الله فرنسا ، فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذباً زلالاً ، وجاهدت في سبيل الوطن جهاداً وعت القلوب ذكره ، وأشربت النفوس حبّه ، فعسى أن نكون على آثارها مهتدين ، وعلى منوال شعرائها ناسجين ، حتى نغزو بنصر الله فائزين . والله مع الصابرين . » والمقدمة تدل على أثر الشعر الوطني الأوروبي ، والفرنسي منه خاصة ، في دعاة الوطنية الناشئين من شعراء مصر . أما الديوان فهو يفيض بالحساسة والثورة وحب الوطن وتقديسه . ويكفي في هذا المقام أن تقدم منه أمثلة ثلاثة . فمن ذلك قصيدته « طيف الوطنية » التي يقول فيها (١) :

في سلام الليل حاربت المتاعا	فسلاماً أيها الطيف سلاماً
مرحباً بالزائر الساري إلى	مضجع الحب يحكي المستهاما
ليت شعري: هل رأى في مضجعي	شبحاً يشكو إلى الله الستام؟
وهل الدمع الذي أغرقني	كان عند الطيف دمعاً أم ضراماً؟
وهل النجم الذي أرسده	أبصر الزائر في عيني فهاماً؟
لست أشكو الهجر من فاتنة	تشتكي مثلي ولوعاً وهياماً
نحن صنوان قضينا حقبة	في ربوع النيل نستنري الغمام
نبصر الفيض بمصر جارياً	يبد أن القوم يشكون الأواما
ظماً قاض ونيل فائض	ودموع جارت السحب انسجاما
وعداة ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب في حق زماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العدا منهم مراما

إنما الشعب الذى يرجو العلا ليس يرضى من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض فى سبيل المجد لا يخشى الحما
وما يلفت النظر فى هذه القصيدة كثرة كلامه عن « الشعب » وهى كلمة برزت
فى قاموس الشعر ، واقتربت ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة ، فأصبح
شعراؤها يستعملونها فى مقابل مرادفها القديم « الرعية » .

ومن الشعر الذى يصور هذه الروح الجديدة فى ديوانه قصيدته « آهة مصرى
ينوح على مصر » ، وفيها يقول (١) :

آه ١١ كم أنتَ وكَم حشراتِ	آه ١١ كم زفرةٍ وكَم عبراتِ
طال ليل البلاد والشعب سار	لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت	بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم	فلن يشتكى خصام القضاة
أوشك القلب أن يطير انتقاما	يئس أن الصدور ذات أناة
ليس للصبر موطن فى فؤاد	أضرمت له لواعج الزفرات
بين جنبيّ مُسند مستهام	ليس يشكر هوى فتى أو فتاة
همته مصر خير أرض أقلت	بعد خير الهداة شر البُغاة
طلع النعمس بالشقاء عليها	ودها ما الزمان بالويلات
قهرتها يد الطغاة وكانت	مصر أولى بقطع أيدي الطغاة

ومن هذا الشعر فى ديوانه « الفشييد الوطنى » ، الذى يقول فيه (٢) :

نحن للنجود نسير ولما الله نصير
ليس يثبنا نذير عن بلاد تستجير
وعباد فى حداد

كيف نرضى بالممات وزمان الموت فات

١ - وطنيتى ص ٩١ .

٢ - وطنيتى ص ١٢١ .

إنما الدستور آت فعلينا بالثبات
عند آمال البلاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

نحن شعب لا نضام قبل أن نلقى الحِمام
فعلى النيل السلام من فتاه المستهام
يوم يقضى في الجهاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

في هوى النيل السعيد مَيِّتُ القوم شهيد
بذكره حتى جديد يومه للشعب عيد
فيه ذكرى للرشاد

نحن للمجد نسير ... إلخ

مرحبا بالفوز لاح وانجلي ليل الكفاح
وشدا طير الصباح : أدرك الشعب الفلاح
وقضت مصر المراد

نحن للمجد نسير ... إلخ

أما محرم ، فشعره في حب مصر والهيام بها ، لا يعدله في صدقه وفي حرارته
إلا خطب مصطفى كامل . يقول في قصيدته « إيمان المختلطين » (١)
إلى في الهوى ؟ مالي ، ولئلا ثم العذر
فإن يسألوا : ما حب مصر ؟ ... فإنه
لنفسى وفائق لمن وفيت بعهدا
أخاف وأرجو ، وهى جهد مخافتي
هى العيش والموت المبعوض والغنى
هى القدر الجارى ، هى السخط والرضى
أما يعلم اللاؤام أن الهوى دمصر ، ؟
دى وفؤادى والجوانح والصدر
وبى ، لا بها - إن خنت حرمتها القدر
ومرى رجائى ، لا خفاء ولا تُكر
لأبنائها والفقير والامن والذعر
هى الدين والدنيا ، هى الناس والدهر

بذلك أمتنا ... فيامن يلو مننا
تدفق فيها الوحي شعراً ، وإنما
تخير فيه الواصفون قفاسةً
رئيسٌ وذو تاج وشاعرٌ أمة
إذا جال ماء النيل في جوف شارب
ويقول في قصيدته « مصر في تاجها الجديد » (١) :

وهبت الصبي والشبيب والشوق والهوى
لمصر وإن لم أنض حق الهوى مصرا
بلادٌ حُبَّتني أرضُها وسماؤها
حياتي ، وأجرى نيلها في فمي الدُّرَا
وما حدث يومَ أن راع وقعها
بماح هواها أو يطاولها ذكرا
هي الدهر ، أو شيء يشابه صرفه
وإبرامه والنقض الطي والنشرا
تمر بها الدولات شتى وترتمي
عظاات الليالي حول أهرامها تترى
كأنى بها صحف الخلود ... وكلها
يخط عليها من أحاديثه سطرًا
كأن زباها للامالك منبر
يقوم عليه الدهر يوسمها زجرا
كأن ثراها للشعوب تيمة
تقي من جنون الجهل أو تبطل السحرا
كان بماء النيل سرّاً عجيباً
يرد إلى حكم الأناة من اغترا
خذي من عظات الدهر يا مصر ، واشهدي

عليه ، وزيدى في أعاجيبه صبرا
ويقول في قصيدته « تفرق المذاهب » (٢) :

رويدك بالاثمي فإن بي
على مصر وجدأ جل أن يتلما
بلاد سقتني الحب عذبا ووكلت
بصافيه قلباً بين جنبي أهيا
يزيد هواها كلما زاد بؤسها
وتنمو تباريح الجوى كلما نما

حفظت لها عهدين : عهد شبية تصرمت اللذات لما تصرما
وآخر يكسونى المشيب مفوفاً ويلبسنى منه الرداء المسما
وما المراء إلا قومه وبلاده فإن يذهباً بلق الأذى حيث يما

* * *

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية ، الذى كان يحارب فكرة الجامعة الإسلامية ، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ويحصر واثق كيرم فيما يعرّد عليها بالنفع ، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين ، فقد كان مشتملاً على قسمين : قسم تمثله صحيفة « المنظم » ، التى تعمل لحساب الإنجليز ، وقسم آخر تمثله صحيفة « الجريدة » ، التى تنطق بلسان حزب الآمة .

أما صحيفة « المنظم » ، فقد كانت صريحة فى تأييد المحتل وتصويره فى صورة إنسانية رائعة . فلا يجليز - فى زعمهم - لم يحشوا أنفسهم مشقة الإقامة فى مصر إلا لرفع الظلم وإحياء العدل . وإليهم وحدهم يرجع الفضل فى إنقاذ مصر من الإفلاس ، وإقامة اقتصادها على أساس سليم متين ^(١) . وإليهم وحدهم

١ - كان هذا هو زعم كرومر الذى لم ينهض أحد لتفنيده على أساس اقتصادى علمى يستند إلى الإحصائيات والأرقام . نكأن الذين يهاجمونه ينددون باستبداده وسياسته الاستعمارية ويسلمون بفضل على الاقتصاد المصرى ، وغاية ما يباذون أن يحقروا من شأن هذه الناحية قائلين : إن المال ليس هو كل شىء فى حياة الأمم ، كما يقول حافظ :

تشعبت الآراء فىك فتائل	أفاد الننى أمل البلاد وأسعدا
رأى الزكل العزى بسطة الغنى	خارب جيش الفقر حتى تبدا
... وآخر لم يقصر على المال همه	يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى
يناديك قد أزريت بالعلم والحجا	ولم تبني للتعليم بالورد معدا
وأنتك أخضبت البلاد تمعدا	وأجذبت فى مصر العقول تمعدا

ولم يزل الأمر كذلك ، حتى نهض روثشتين للرد على ما يدعيه كرومر لنفسه من فضل على الاقتصاد المصرى . ففندا مزاعمه بالأحصائيات والأرقام . وجعل ذلك محور كتابه « Egypt's Ruin » الذى نشره فى إنجلترا سنة ١٩١٠ ، والذى ترجم إلى العربية ونشرته لجنة التأليف فى مصر سنة ١٩٢٣ بعنوان « تاريخ المسألة المصرية » كما ترجمه بعد ذلك على أحمد شكرى سنة ١٩٢٧ بعنوان « تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده » .

يرجع الفضل في رفع الظلم عن الفلاح المصرى المسكين ، الذى كان مستعبداً لطائفة الباشوات من الترك . وهم الذين يحدون من شره الحاكم التركى (الخدوى) ويحولون بينه وبين ابتلاع أرزاق الناس وأقواتهم .

كان كل ما تسكتبه صحيفة ، المقطم ، وكثير مما تكتبه مجلتهم العلوية ، المقطف ، يدور حول هذه الآراء ، ويحاول إقراها في أوهام الناس ، وجمع أكبر عدد حولها من المصريين — أو المقيمين في أرض مصر بتعبير أدق ، من وطنيين ودخلاء — زاعمين أن هذا هو الاتجاه الوطنى الحق الذى لا ينظر إلا إلى خير مصر ومصالحها المادية ، وأن المخالف له إنما هو رجل يفكر بعقول الترك ، ويقدم مصالحهم على مصلحة وطنه مصر . وقد نجحت الصحيفة في أن تقوى قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية فانضموا إلى دعوة المقطم ، تقرباً من ساكن قصر الدوبارة الذى يمثل الدولة المحتلة . وسمت هذه القلة نفسها بـ « الحزب الوطنى الحر » ، وأعلنت الحرب على « الحزب الوطنى » ، الذى كان يتزعمه مصطفى كامل ، متهمة إياه بالتدليس وبالتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الخراب ، مرجعة إليه وحده ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية ، مردها في رأيهم ، إلى حالة القلق التى أوجدها هؤلاء المهيجون ، فكانت سبباً في أن يكف أصحاب رموس الأموال من الأجانب عن استثمار أموالهم في مصر ، وأن ترفض البيوت المالية تقديم القروض . ولم يكن هذا « الحزب الوطنى الحر » في حقيقة أمره شيئاً غير « محمد وحيد » ، الذى كان ينشر بعض مقالات باسمه ابتداء من سنة ١٩٠٧ بإمضاء رئيس الحزب الوطنى الحر ، ونفر قليل لا يكاد يتجاوز عدده أصابع اليد ، ممن يدعون أنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » في مصر .

ومن أمثلة ما كان يكتب هذا نفر من الناس كذبة لمن يدعى « مصطفى عمار » عنوانها (أصحاب المصالح الحقيقية) جاء فيها : (١) .

« يظهر أن اللواء يقصد بتكراره ذكر « دنشواى » ، اتخاذ ذلك وسيلة للتعريض بسعادة الفاضل فتحي باشا زغلول وحك حزازات فى الصدور ، مع أن فضل سعادة الباشا وفضل أخيه سعادة الفاضل سعد باشا مشهور ومعلوم عند الأمة المصرية كلها وعند غيرها أيضاً . نجدير بصاحب اللواء أن يترك هذه الخطة المقنونة وينضم إلى الحزب الوطنى الحر ، ويسعى فى تفريج هذه الأزيمة التى كادت تخرب البلاد . وما شدد وطأتها علينا إلا هو وأمثاله الهيجاصون كما أوضح ذلك حزب أصحاب المصالح الحقيقية فى المقطم الأغر . وإلا فالواجب على كل مؤمن أن يقاتل فئة اللواء الباغية بقلبه ولسانه حتى تفىء إلى أمر الله . ويلتمس العقلاء من جناب عميد الإصلاح^(١) وضع حد لهذه الفوضى لإتقاذ مصر من الخراب فيشكرونها . كما نشكر المقطم الصادق لنشره أفكار أصحاب المصالح الحقيقية خدمة للأمة . »

وفى مقال آخر لمحمد وحيد عنوانه « سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » يتكلم عن الأزيمة الاقتصادية ويرد أسبابها إلى أن أصحاب الأعمال المالية قد امتنعوا عن توظيف أموالهم فى مصر بسبب تهييج المهيجين على الاحتلال ، مما زعزع ثقتهم فى مصر ، ويحض المصريين على مسالمة المحتلين ، ويزعم أن بعض المالين يفكرون فى العودة إلى توظيف أموالهم بعد أن سمعوا عن حركة الحزب الوطنى الحر^(٢) .

وقد نشر محمد وحيد هذا سلسلة من المقالات تحت عنوان (أصحاب المصالح الحقيقية) هاجم فى أحدها مصطفى كامل وصحيفته (اللواء) ثم قال : « فواجباتنا الوطنية ومصالح أمتنا تقضى علينا فى هذا المقام أن نتقدم إلى جميع الأجانب على اختلاف نزعاتهم وأجناسهم بلسان الحزب الوطنى الحر ، الذى يمثل أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، ولسان سائر عقلاء الأمة الأحرار ، ونقول لهم : إن

١ — المقصود بجناب عميد الإصلاح هو اللورد كرومر .

٢ — افتتاحية المقطم ٢١ يونية سنة ١٩٠٧ .

الأمة ضربت بتلك الصحيفة الساقطة أمس عرض الحائط ، فلم يقع عدد من أعدادها في يد عاقل أو ذى شأن إلا استاء من قراءتها وصب عليها جام غضبه واشتد سخطه على صاحبها ، ثم يورد صوراً من رسائل تأييد من طالب رجاء أن لا يذكر اسمه ، ثم من حضرة الوطنى الغيور السرى الوجيه حافظ بك ذهنى ، ومن فلان من أبناء ذوات مصر ، ومن فلان من أصحاب الأملاك فى العاصمة ، ومن فلان من أرباب الأطنان فى المنوفية (١) .

كان المقطم ، إذن صريحاً فى ولائه للإنجليز ، لا يستخفى ولا يدارى ، فهو يهاجم الخديوى عدو كرومر فى صراحة . وهو يمجّد الإنجليز فى صراحة أيضاً ، ويكتب فى ذلك المقالات الصارخة العاربة من كل حياء ، لا يكلف نفسه مشقة إخفائها تحت ثوب من الرياء أو النفاق أو المجاملة للشعور الوطنى . وكان الموالون له من المصريين الذين قدمنا أمثلة من كتاباتهم فى مثل صراحته أيضاً . وهم حين يتحدثون عن الجامعة المصرية لا يرون مصر التى يريدون أن يجمعوا عليها الناس إلا سوقاً ، ولا يرون الوطنية إلا العمل على ملء البطون وتوفير المال من كل طريق وبأى وسيلة . ثم هم لا يقيمون للمواطن وللقيم الأخلاقية أو الوطنية وزناً . فليست الوطنية عندهم كرامة ، وليست غيرة على عرض . وإنما الوطنية عندهم هى المصالح ، وهى المال . ولذلك فقد كان حديثهم عن (أصحاب المصالح الحقيقية) لا ينقضى . وهم حين يتحدثون عن أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء ، إنما يعنون بهم أصحاب رموس الأموال من ملاك الأراضى الزراعية ومن الأعيان . ولم يكن هؤلاء الكتتاب على شىء من الثقافة أو عمق التفكير أو سمو الأسلوب . ولم تسكن بضاعتهم إلا سباباً رخيصاً يكفى أن تقدم منه صورة من خطابين نشرهما المقطم (٢) .

وقد جاء فى أولهما ، وما يضحك الحزب الوطنى الحر ، حزب أصحاب المصالح

الحقيقية في مصر ، ما بكتبه غراب أولئك الهجاصين من الأراء المالية عن
الآزمة الحالية . فإنها آراء تدل على أن ذلك الغراب الذى شاب وما تاب ،
يحسب هذه الآزمة مثل أزمتة الخصوصية التى نفتت ريشه ، وقضت عليه قضاء
ميرما في آخر أيامه .

وجاء في تقديم المقطم ، للخطاب الثانى « ورد الكتاب التالى على حضرة
الوجيه الهمام محمد بك وحيد بقلم وطنيين من أرباب الأطيان في المتوفية .
وهاك صورته بعد الديباجة » . ثم أتت على نص الخطاب . وهو :

« أعجبنا خطة الحزب الوطنى الحر كثيراً . ووافقت تصريحاته آراءنا
وأماننا . وتأكدنا من إخلاصه فى أقواله أنه يقصد خير الوطن وأبنائه ، فلنا
إليه قلباً وقالبا ، وجئنا سعادتك بكتابنا هذا راجين قبولنا ضمن رجاله . ونحن
مستعدون لكل خدمة تترقى بها مقاصد هذا الحزب الشريف حبا لوطننا وأمتنا .
فليحيا أحرار مصر الصادقون وأصحاب المصالح الحقيقية فيها . ويسقط الهجاصون
والخناسون والخشاشون الذين يضررون بوطنهم اقضاء مصالحتهم ويقولون كذبا
لأنهم ينوبون ويتكلمون بلساننا » .

أما حزب الأمة فقد كان قوامه جماعة من الباشرات أو كبار ملاك الأرض ،
مثل : محمود سليمان ، وحسن عبد الرازق ، وحمد الباسل ، ونجوى عبد النور ، وسليمان
أبازة وعبد الرحيم الدمرداش وعلى شعر اوى ومحمد الحفنى الطرزى ومحمد الشربعى^(١)
وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت كلها إلى كرومر الذى يمثل سلطة
الاحتلال ، وأن مصالحهم الشخصية تقضى عليهم أن يكرنوا على وفاق معه .
فألفوا حزبهم بصفة رسمية فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧^(٢) برئاسة محمود سليمان
باشا . ولم يكن تفكيرهم السياسى وقتذاك يتجاوز مصالحهم الشخصية ، واسكنهم
لم يجدوا بدا من أن يضموا إليهم جماعة من المثقفين على رأسهم لطفى السيد ،

١ — راجع افتتاحية العدد الأول من صحيفة الجريدة ٩ مارس سنة ١٩٠٧ .

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ .

ليكونوا لسانهم في صحيفة «الجريدة» التي اكتتبوا لإنشائها بمبلغ عشرين ألف جنيه ، والتي ظهر العدد الأول منها في ٩ مارس سنة ١٩٠٧^(١) ، وبذلك كان الحزب منذ نشأته مكوناً من فريقين تختلف أهدافهما ومراميها اختلاف تكوينهما العقلي . أما الأعيان فقد انحصر تفكيرهم في مصالحهم ، ولم يرتفع هدفهم عن هذه المصالح الشخصية . وأما المثقفون من محرري الجريدة فقد كانوا أصحاب مذهب سياسي اجتماعي ، حاولوا جهد استطاعتهم أن يوفقوا بينه وبين رغبات فريق الأعيان الذي أنشئت الصحيفة بأمواله .

أما مذهبهم ذلك فهو يتلخص في الدعوة إلى التحرر الفكري وإلى التعاون مع الأوروبيين في كل ميادين الحياة ومجالات النشاط : ثقافياً واقتصادياً وسياسياً . وكان اللورد كرومر يسميهم «حزب الشيخ محمد عبده» ويعقد عليهم الآمال في مستقبل مصر السياسي ، ويوصي بمثل الاحتلال بأن يمنحهم كل عون وتشجيع^(٢) . كانت الجريدة ، تصور الاحتلال على أنه حقيقة واقعة ، وترى أن عدم الاعتراف بشرعيته لا يعني عدم وجوده ، ولا يقلل من سلطته أو نفوذه . وكانت ترى أن هؤلاء المحتلين ماضون في طريقهم ، مستقلون بتصرف الأمور ، رضى المصريون بذلك أم كرهوه . ومن الواضح — في نظرهم — أن التخلص من الاحتلال يحتاج إلى قوة لم تتوافر للمصريين . فالذين يهيجون الناس عليه إنما ينفقون الوقت فيما لا طائل تحته ، ويصرفون الجهد إلى ما لا ينفع . فهم أصحاب خيال أو تهريج حسب زعمهم ، والأولى عندهم أن تنفق هذه الجهود فيما يعود على الأمة بالنفع ، وفيما يرفع مستواها الاجتماعي والاقتصادي . ومادام الإنجليز هم المستقلون دون غيرهم بتصرف الأمور فلا سبيل إلى العمل على الإصلاح أو تنفيذ أى مشروع يرمى إلى النهضة بمصر إلا بالاتفاق معهم . فالخير إذن — في رأيهم — هو أن

١ — الدولة العربية المتحدة ٣ : ١٠٣ .

٢ — راجع الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٦ م ٨ تحت عنوان Egyptian Nationalism ويؤيد رشيد رضا ما ذهب إليه اللورد كرومر (تاريخ الاستاذ

الإمام) (: ٩٩) .

ينصرف المصريون عن حربهم إلى إقناعهم بالإصلاح .
هؤلاء قوم يتحدثون إلى العقول ولا يناجون القلوب . ويسفون إلى الواقع
ولا يحلقون مع الخيال . فهم - كما يسمون أنفسهم ، وكما يسميهم خصومهم حين
يتهمون بهم - « عقلاء الأمة » . وخصومهم الذين يحاربون الاحتلال دون أن
يمسكوا من أدوات الحرب إلا الكلام هم المتهوسون أو المهرجون أو المتطرفون
كما كان يحلو لهم أن يسموهم . فالوطن عندهم ليس شيئاً مُعشَق ، ولكنه مصلحة
مادية مشتركة ، أو هو مركز المصلحة العامة أو آلتها كما يقول كاتبهم الأول
أحمد لطفي السيد في مقال له عنوانه (الوطنية في مصر)^(١) . ولذلك فهم يشتركون
مع « المقطم » ، في كثرة الكلام عن (أصحاب المصلحة الحقيقية في مصر) . وهم
يطلبون أن يكون هؤلاء هم الممثلون للمصريين في إدارة شؤون البلاد^(٢) . وهم
يهاجون الحزب الوطني القديم (حزب عرابي) ، الذي أدى تطرفه - كما يقولون -
إلى نكبة مصر بالاحتلال الذي لا يزال باقياً . ويقولون إن عرابي هذا لم يكن
له في مصر (ناقة ولا جمل) ، فصاحبة مصر لا تهمة ولا تعنيه ، لأن النفع لا يصيبه
ولأن الضرر لا يقع عليه . وقد كان عليه - في رأيهم - أن يدع تصريف
الأمور لأصحاب النوق والجمال ، أو من يسمونهم أصحاب المصالح الحقيقية^(٣) .
وربما كانت بعض المقالات التي أشرنا إليها في « الجريدة » ، قد كتبت لإرضاء
أصحاب رأس المال في شركة الجريدة من أعيان حزب الأمة . أما لب مذهب هذا
الفريق من مثقفي حزب الأمة ومفكريه . فخلاصة آرائهم فيه هي : « أن الوطنية
لا ينبغي أن تكون اندفاعاً عاطفياً أعمى ، يتخبط على غير هدى من المنطق السليم
والتفكير الهادئ المتزن . ولا ينبغي أن تقام على أساس من الأوهام التي لا سبيل

١ - افتتاحية العدد الثاني من الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧ .

٢ - راجع افتتاحية الجريدة عدد: ١٣ يوفية سنة ١٩٠٧ (أعيان الأمة هم أجدر الناس بالنيابة)

عنها) ...

٣ - الجريدة ٢٣ مارس سنة ١٩٠٧ .

إلى تحقيقها ، من مثل التعلق بالجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية . والأخرى بالمصري أن يفكر في نفسه أولاً ، وفي مصلحته قبل كل شيء ، وهي مصلحة يتفق فيها سائر المصريين - وهم يعنون بهم المقيمين في مصر من استرطنوها (١) - على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ولا يشاركون فيها غيرهم من المسلمين .

وربما كانت افتتاحية العدد الأول من « الجريدة » التي كتبها لطفى السيد مصورة لأهم اتجاهاتها . وإليك نصها :

« ما الجريدة إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ومرارها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقي الصحيح ، والحض على الأخذ بها ، وإخلاص النصح للحكومة والأمة ، بتبيين ما هو خير وأولى . تنقد أعمال الأفراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن ، من غير تعرض للموظفين والأفراد في أشخاصهم أو أعمالهم التي لا مساس لها بحسم الكل الذي لا ينقسم ، وهو الأمة » .

« وقد اختلف القوم في أمر الجريدة منذ وضع مشروعها ، وقد بعضهم لها مذنباً ، ما لهم به من علم إلا اتّباع الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم وأجدر بحفظ الكرامه الكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفتى في أعضاء الجامعة الوطنية . وليكنهم لا يصبرون » .

« ولو وقف الأمر عند غير العالمين لكان . وليكن بعض السكتاب أبى إلا أن ينتقص الجريدة قبل ظهورها . فخلق لها نسباً لا تعرفه ، إذ يقول : « إنها أنشئت بوحى من جناب اللورد كرومر ، أو أنها متحيزة إلى طرف دون آخر ، على أنها من كل ذلك براء » .

« ومهما يكن من الأمر فإننا نمر بتلك المغامر مرأ ، إذ لا نقصد درء شبهة ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهرنا فيه على صاحبه أخمره لوقته .

١ - راجع مقالين لطفى السيد عن (الجامعة المصرية) نشرهما في الجريدة في ٥ أكتوبر ، ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ (ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٣ من المنتخبات لطفى السيد) .

وكل في حلٍّ مما قال .

« هنيئاً مريئاً غير داء مخامر ،

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها
واتسعت دائرة المشابهات بينهم وإن أظهر المشابهات في حال الأمة السياسى هو
التشابه في الرأى بين الأفراد ، وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

والناس بطبائعهم أشتات في الرأى ، كما قيل : (للناس عِدَدٌ رهوسهم آراء) .
وهم في البلاد الحديثة العهد بالرقى ينصرف كل منهم غالباً عن التفكير في الأمور
العامة إلى تدبير حياتهم الخاصة ، حتى ترشدهم الصحف كل يوم إلى أن لهم فوق
وجودهم الخاص وجوداً عاماً هو غير الأول ، وأن لهذا الوجود العام كمالاً
يجب أن يُرقى إليه بعمل الأفراد .

وإن أثر هذا الإرشاد في النفوس مدعاة إلى تقرب الآراء المتباينة بعضها
من بعض ، فيحصل بها الرأى العام . وعلى هذا تكون الصحافة هى الآلة الأولى
للإرشاد والرقابة ، تتبعها في طورها الاجتماعى ، وتترق برقى الأمة ، حتى تثقل
كغالب الأعمال العامة من يد الفرد الذى قد يعرض له الميل أو الهوى إلى أيدي
الجماعات ، لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً . وأثبت رأياً ، وآمن
هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث منقلباً .

« وإن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ومراجعة الأحوال العامة
وأقدرها على العمل لتكوين الرأى العام جماعة أولى الرأى ، وهم الذين نسبوا
ذكرنا بعلو النسب أو بالعلم والفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال
بمخارج الأمة ، من نشر التعليم العام ، والعمل لترقية الصناعة والزراعة
والتجارة ، والاختصاص بنصيب من الرقابة العامة ، وقفت الأمة عن التدرج في
مراقي المدنية الصحيحة ، خصوصاً في حالها النظامى ، وصار الأمر فيها مفوضاً
إلى رغائب الحكام ، يميلون بها إلى حيث يشاءون .

« وما كانت أعضاء شركة (الجريدة) المصرية لينشئوها إلا لتحقيق

هذه المبادئ الراجعة .

« ولما أنهم كثير والعلاقات بالحكومة بسبب مراعاتهم ، واشتراكهم معها في كثير من الأعمال العامة ، وأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذي أثر سياسي إلا أحاطت به الشكوك ، رأوا أن يكشفوا الحكومة في أمر المشروع ، دفعوا لتلك الشكوك المحتملة وأخذوا بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ ، لأن الحكومة قد تجيب الطلب مما يهون عليها إذا اتقنعت بأنه لمصلحة الأمة .

« وإن أسهل سبل الإقناع وأكدها في الوصول إلى الغرض هو سبيل المحاسبة التي لا تجر إلى ترك حق أو تزيين باطل . وهي أجلى مظاهر الاعتدال الذي يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ، كلتاهما في طور التكوين ، لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على مواطن المصلحة وآمال الأمة ، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتعطل بذلك أسباب الرقي التي يتوقف حلها على اشتراك الطرفين . »

ثم ختم المقال بذكر أسماء أعضاء شركة الجريدة وهم من أعيان البلاد وكبار الملاك .

وقد عالج هذا المقال موضوعات شتى :

أولها : رد الصحيفة على من يتهمونها بأنها إنجليزية الميول ، أنشئت بوحى من اللورد كرومر ، وهو رد يثبت وجود التهمة وذبوعها . ويبدو اعتراف الجريدة بسلطة الاستعمار وحرصها على حسن الصلة به بشكل واضح في مقال آخر عنوانه (حالتنا السياسية) جاء في آخره ^(١) « الأمة المصرية أمة تحب السلام والطاعة ، كما تحب الإخلاص لحكومتها . وهي تحترم السلطة الشرعية ولا تنكر السلطة الفعلية فنظن أنه قد حان الوقت لأن تسمح لها السلطان جميعاً بأن يكون لها حياة مستقلة بالذات ، لكي لا تبقى ضائعة المركز بين السلطتين ، ولتفكر حقيقة

فما ينفعها من حيث هي أمة مستعدة لأن تؤهل لحكم نفسها بنفسها ، ولتقوم
بواجبات الأمم في السعى في تحسين أحوالها الزراعية والصناعية والتجارية .
والأمر الثاني الذي نلاحظه في هذا المقال هو دعوة الصحيفة إلى تقريب
الفروق بين المواطنين حتى يوجد رأى مصرى عام ، وهى فكرة جديدة على مصر
وقدناك متأثرة بالتفكير الأوروبى والنظم السياسية الغربية . وإن كنا قد
رأيناها من قبل فى مقال محمد عبده عن « الحياة السياسية » الذى نشر فى الوقائع
المصرية سنة ١٨٨١ قبل الثورة العربية ، والذى أشرنا إليه فى صدر هذا الفصل .
والشئ الثالث الذى نلاحظه هو اعتراف الصحيفة بصلات كبار رجال
الحزب بالحكومة ؛ لاشتباك مصالحهم معها والدعوة إلى محاسنتها لأن هذا
الطريق هو خير السبل المؤدية للإصلاح . وهذه الحكومة التى تدعو الصحيفة إلى
محاسنتها وتعترف بحسن صلاتها بها هى حكومة مصطفى فهمى باشا الذى عرف
بولائه التام للإنجليز ، والذى وصفه كرومر بأنه كان مؤمنا بأن مصلحة وطنه
فى الولاء للإدارة الإنجليزية لا فى معارضتها^(١) .

أما الشئ الرابع والأخير فهو تعريفه أولى الرأى فى الأمة بأنهم هم الذين
نُبِّهُوا ذكرا بعلو النسب أو العلم والفضل . وهو تفكير تبدو فيه المجاملة لأعيان
حزب الأمة . وهو يصور أن الحزب قام أولا على أساس المصالح الشخصية بما
يجعله أشبه بالنقابات التى ينحصر تفكيرها فى المصالح الطائفية أو المهنية .
وبما يصور مذهب الجريدة فى الوطنية مقال عنوانه (الوطنية فى مصر)^(٢)
جاء فيه :

« الوطن فى لغة العامة مقر المرء أو مسقط رأسه . وليس فى مثل هذا الحد
يخوض المتسكمون فى الوطن والوطنية بلغة السياسة وعلم الاجتماع . وإنما
يخوضون فى حد الوطن الجامع الذى يجمع بين المختلفين . وفى هذا يختلف العلماء

١ — Modern Egypt ٢ : ٣٤٦

٢ — افتتاحية الجريدة ١٠ مارس سنة ١٩٠٧

لاختلاف الجهات التي نظر كل منهم إليها .

ثم يورد رأى الاشتراكيين في أن الأرض كلها وطن واحد ، ورأى علماء الأديان الذين يطلقونه على مساكن الذين يدينون دينهم : ورأى بعض علماء الاجتماع الذين يرون لكل شعب وطناً قديماً ويعتبرونه أحق به . ويقتضى إلى إيراد رأيه في أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة فيقول :

« لكل من ذكرنا جهة في تعريفهم للوطن الجامع . والحقيقة تجمع الجهات كلها وترجع لها ، فنرى الوطن عندها عبارة عن مركز المصلحة العامة للجماعة متضامنين يشعرون بحاجتهم إلى التعاون في دفع الضرر وجلب النافع . وربما صح أن نقول بدل قولنا (مركز المصلحة) أنه (آلة المصلحة) . ومضى تعطلت الوظيفة في هذا المركز أو هذه الآلة فقد هذا الاسم وبطل التشبيب بذكره .

فسقط الرأس ليس لأحد بوطن إذا صار بلقاً وخوى ، أو استحوذ عليه العدو وبغى ، ولم يبق المرء فيه أهل ولا مملوك ولا جدوى ، ولحق بما هو خير منه وأولى . مثال ذلك البراري التي هاجر منها أسلاف آل عثمان ، فإنها لم تعد لهم وطناً بعد أن ظهر فيها العدو ولحقوا بغيرها ، فسكان ما كان من تأسيسهم هذا الملك . أرايت أحداً سمعهم من بعد يذكرون تلك البراري ، ويتغنون بها كما يتغنى الواحد بذكر وطنه الذي لا يزال متعلقاً به ؟ » .

« والبلاط المملوك إذا تمادى فيها التمرد لا تصير وطناً للحكومات المالكة . بل قد تكون مناخاً وبيلاً لسلطتهم القاهرة يضرها أكثر مما ينفعها . ولذلك تتخلى الدول طوعاً أو كرهاً عن البلاد التي هذا شأنها ، كما تخلت حكومة آل عثمان كرهاً عن بلاد السرب والجليل الأسود واليونان والبلغار ورومانيا ، ثم عن جزيرة كريد ، وكما تخلت إنجلترا طوعاً عن كورفو (من جزر اليونان) التي صرفت فيها خمسين سنة في تهذيب أهلها وتهذيب خواطرم وكبح جماحهم . » .

وواضح من هذه الفقرة التي قدمتها من المقال أنه يقيم الوطنية على أساس من النفع والمصلحة ، فصاحب المقال يفكر بعقول أعيان حزب الأمة الذين

لا يهتمون إلا بمصالحهم وبالمشاريع التي تتصل بأراضيهم وأملاكهم . فهو فيلسف لهم آراءهم النفعية ، ويكسبها وجوداً قانونياً مشروعاً بإقامتها على أساس من المبادئ السياسية العامة . وواضح فيه كذلك تحامله على تركيا حين وصفها بأنها تخلت كرها عن بعض أملاكها ، وبجاملته لإنجلترا حين وصفها بأنها تخلت عن بعض هذه الأملاك طوعاً ، بعد أن بذلت الجهد في تهذيب أهلها .

ومما يصور مهاجمة الجريدة ، لفكرة الجامعة الدينية ، وتسفيه الداعين إلى هذا الوهم الذي لا يقوم على أساس من الواقع — حسب زعمها — والذي لا سبيل إلى تحقيقه ، مقال في الرد على تقرير كرومر ، بدأه كاتبه بتنفيذ ما جاء فيه عن الجامعة الإسلامية فقال (١) :

د إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحياناً بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر في الأمور العامة بشيء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفي تبعاً للحوادث . فكما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الأوروبية على شيء يضر بمصاحبة مصر أو يعبد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال إلى الأبد ، قارنوا بين مصر وغيرها من ولايات البلقان التي استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر أنها أمة إسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد في الشرق إلا الأمم المسيحية . فتمنى بعضهم أن لو كان للمسلمين وحدة كما للمسيحيين في أوروبا هذه الوحدة التي يتخيلون وجودها ، وأنها كانت الحامل لأوروبا على التداخل في أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول هذا ونحن لا نعرف أنه يوجد في اللغة كلمة جامعة مسيحية (بانيكريستيانزم) كما خلقت كلمة جامعة إسلامية (بانسلامزم) . على أن عقلاء المصريين لا يرون لكتلتيهما وجوداً في العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن تؤدي إلى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من

الأوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء أن الذي خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الأوروبية في الشرق . .

و أما كون الجامعة الإسلامية موجودة وجوداً حقيقياً ، أو أنها مقصد من المقاصد التي يسعى المسلمون لتحقيقها . فهذا لادليل عليه مطلقاً ، كما أنه لو حُـوـل لإيجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه . فقد علمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شيء يجمع بين الناس إلا المنافع . فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين . .

ومما يصور هذه المهاجمة لفكرة الجامعة الإسلامية مقال آخر لعبد الحميد الزهراوي ^(١) عن السنوسية والجامعة الإسلامية جاء فيه . ^(٢)

« ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة ، وهي أن القرآن كتاب الله جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقيين هذا الاتفاق ، يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذي لا اتفاق معه بعد . فنذ اختلف المسلمون ثلثت جامعتهم ولم يتفقوا اتفاقاً سياسياً بعد عهد عمر ، ولا اتفاقاً دينياً بعد عهد علي . فها هي جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرناً اختلافاً سياسياً واختلافاً دينياً ، يقتل بعضهم بعضاً ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هي جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثاني إلى يومنا هذا ؟ ما هي جامعة قوم يُسَرُّ ملوكهم المختلفون بذهاب بمالك ملوك آخرين منهم ؟ ما هي جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبياً شرقياً

١ — عبد الحميد الزهراوي «سوري» من دعاة الثورة العربية السابقة . هاجر إلى مصر سنة ١٩٠٠ م وهو وقتذاك في الثانية والثلاثين من عمره . فسأهم في تحرير (المؤيد) . ثم تولى رئاسة تحرير (الجريدة) ثم عاد إلى سوريا بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ واشترك في تأسيس (الجمعية القحطانية) وهي جمعية سرية تهدف إلى جمع كلمة العرب ورأس المؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ م . ثم عين مع بعض رجالات العرب سنة ١٩١٤ في مجلس الأعيان العثماني الاشراف على تطبيق الإصلاحات التي وعدت الحكومة التركية بتنفيذها . وعاد إلى دمشق عند إعلان الحرب العالمية الأولى ؛ فأعدمه جمال باشا مع من أعدموا شقاً من الثوار في ٦ مايو سنة ١٩١٧

٢ — الجريدة ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧

(هو لاكو) اكتسح بلادهم ودمهم في عزهم ، فلم تَضَمَّ أيديهم على مقاتلته ، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضها بعضا ؟ ... وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنيا غربيا (الصليبيين) هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهممة طائفة منهم قسوت وحدها على صده ؟ ... ،

كان حديث مصطفى كامل عاطفيا مثيرا . وكان حديث هؤلاء هادئا عاقلا . فهم ينزعون عن الوطن صفة القداسة التي يحاول مصطفى كامل أن يفرسها في قلوب الناشئة والمواطنين . هم ينزعون عن المواطنين صفة الأخوة في الدم أو الدين ، وينظرون إلى الوطن نظرة مادية خالصة . فالمواطنون مجموعة من الناس جمعهم هذه السوق التي تسمى « وطننا » ، وعليهم أن يحرصوا على أن تظل هذه السوق قائمة لا تركد ولا تكسد ، وعليهم أن يتجنبوا النزاع العنيف ، حتى لا يفزعوا البائع والمشتري على السواء ، فتقف سوقهم ، وتبور تجارتهم ، ويقل ربحهم . فدعوة الحزب الوطني تستمد قوتها من الاندفاع العاطفي الذي تولده في النفس فيحفز صاحبه إلى الثورة من ناحية . ومن ارتباطها بالدين الذي يدعو المؤمنين إلى كفاح يفوزون فيه يا حدى الحسينين : النصر أو الشهادة ، من ناحية أخرى . أما دعوة حزب الأمة فهي لا تقيم وزنا للعاطفة ولا تحاطب غمائر المتدينين ؛ بل لا يبدو أن المتكلمين باسمها يصعدون عن إيمان مستمر في ضمائرهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت بحيث يكون ذلك موجها لسلوكهم أو مؤثرا في تفكيرهم فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة في هذه الحياة الدنيا . ومن كان هذا مذهبه كان خليقا أن يتسم بالهدوء الذي يعتبر تعريض النفس للهلاك ضربا من الحماقة . فالوطنية بالمعنى الذي يدعو إليه كتاب حزب الأمة ومفكره واضحة التأثير بمذهب التحرر (Liberalism) من ناحية وبالمادية (Materialism) من ناحية أخرى . وكلا المذهبين كان له دعاة أقوياء من المتفرنجين ، يروجون له في العالم الإسلامي .

فكشّاب حزب الأمة ومفكروه يحصرون جهودهم ومساعدتهم فيما يحقّق للناس وسائل المتعّ الجسدية . ولا تستهدف حضارتهم الفكرية إلا توفير هذه المتعّ . وهم إن اعترفوا ببعض القوانين الأخلاقية لا يعترفون بها إلا باعتبارها لازمة لتنظيم توزيع هذه المتعّ بين الناس في هذه الحياة الدنيا .

* * *

كان المقطم والجريدة يشتركان في مبدأين أساسيين ، أولهما مهادنة الاستعمار والاقتصار على المطالبة بالتدرّج في الإصلاح : وثانيهما محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا ، وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز . واشتراكهما في هذين المبدأين قد دعا إلى الخلط بينهما عند أوليائهما وأعدائهما على السواء ، حتى لقد توهمت صحيفة « المقطم » ، أن « الجريدة » تتفق معها في المبادئ ، فدعتها إلى الاتحاد معها بانضمام حزب الأمة إلى الحزب الوطني الحر . وردت « الجريدة » ، على هذه الدعوة بمقال عنوانه (تعالوا نتفق أو نختلف)^(١) استعرضت فيه مبادئ صحيفتي « اللواء » و « المقطم » ، ثم قالت رداً على « المقطم » :

« ... وأما المقطم فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملوّهاً الخطأ ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . أما الجريدة فإنها لا تقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً وإنما لا تناقض الآن في أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تنقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتبين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحاليتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون الجريدة والمقطم متفقين المذهب . نعم إننا نشكره على أنه شرفنا باعتبار خطتنا خطئته ومطالبنا مطالبه أو مطالب حزبه كما أسدى لنا العُرفَ في تنبيه حزبنا بلطف إلى أن ينضم لحزبه حتى لا تتفرق الأحزاب . ولكننا نأسف أنه لا يمكننا أن نوفق بين روحى الخطتين ، كما لا يمكننا أن نعد

الجريدين متفقتين في شيء من مذهبهما .

وكان الحزب الوطني يختلف عن حزب الأمة في مبدأين أساسيين : أولهما هو عنفه في مهاجمة الاستعمار وتكريسه حيائه لغرس بغضه وكرهيته في نفوس المصريين ، وثانيهما هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة إلى التضامن بين الأمم الإسلامية ، والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠ التي تمنح مصر استقلالاً داخلياً وتعترف بالسيادة التركية .

أما المبدأ الأول فهو الذي دعا خصوم مصطفى كامل إلى وصفه بأنه متطرف أو مجنون . وأما المبدأ الثاني فقد كان داعياً إلى اتهامه بأنه يعمل لاستبدال الاستعمار التركي بالاستعمار الإنجليزي . ولذلك كان همُّ « المقطم » أن يوازن بين ظلم الترك وعدل الإنجليز . وقد ظل مصطفى كامل ينفي عن نفسه هذه التهمة طول حياته السياسية وبوضوح وجهة نظره بأنه إنما يتمسك بالسيادة التركية ؛ لأنه إن جردها فقد جحد معاهدة سنة ١٨٤٠ ، وهي حجته الوحيدة في عدم شرعية الاحتلال . على أن السيادة التركية لم تكن إلا سيادة إسمية ، ينحصر مظهرها في أداء الخراج للحكومة المركزية في مقر الخلافة بالأستانة ، وفي تعيين قاضي القضاة التركي . فهو يطلب لمصر الاستقلال . وهو إن أخلص الود لأمة أو لدولة فإنما يجري على السياسة التي تجري عليها كل الدول ، القاضية بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون . ودافع عن دعوته إلى الجامعة الإسلامية والربط بين الوطنية والإسلام بأن الدين والوطنية توأمان لا يفترقان ، وبأن من الخطأ أن يتصور إنسان أنه لا يكون وطنياً إلا إذا تخلى عن الدين ، متسائلاً (لماذا يكون الإنجليزي وطنياً وبروتستانتياً في آن واحد ، ولا يكون المصري المسلم وطنياً ومسلماً ؟ ...) .

كان الداعون إلى الجامعة المصرية إذن قسمين : قسماً يدعو إليها وإلى الجامعة الإسلامية في آن واحد ، ولا يرى تعارضاً بينهما . فاهتمام الفرد بمصالح أخيه

وابن عمه لا يعنى تفريطاً في مصالحه^(١) وقسماً ينكر الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما في عنف ، وبقيم الجامعة القومية على أساس من المصلحة المشتركة وحدها . وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين في مصر ، كما يقول المقطم في مقال له عن « الجنسية المصرية » ،^(٢) وكما يقول لطفى السيد في مقال له عن « الجامعة المصرية » ،^(٣) .

وقد كان هذا الفريق الأخير موضع رضا الاحتلال وتأيبده ، فقد كان الاحتلال يتحدث عن الوطنية بهذا المعنى . ومن ذلك ما جاء في خطبة اللورد كرومر في حفلة توديع لدون غورست سنة ١٩٠٤ ، حين قال مثمياً عليه : « إن السير لدون غورست من الفئة الصغرى من أولئك الأوروبيين الذين قضوا الأعوام والسنين وهم ينفذون السياسة التي شعار أهلها (مصر المصريين) »^(٤) ، ولكن اللورد كرومر لم يكن يعنى بالمصريين إلا القاطنين في مصر . وقد وضع ما يعنى بسياسة (مصر للمصريين) بقوله : « وهذه السياسة ليس مضمونها أن تحكام مصر لا يكونون إلا من المصريون الوطنيين ؛ بل مضمونها أن المحك الذي تحك به كل مسألة مصرية للكشف عن جوهرها ومعرفة كنهها ؛ هي البحث والاستعلام لمعرفة قدر ما فيها من الموافقة لمصالح السكان في مصر على اختلاف أجناسهم وأديانهم ونحلهم ومللهم . . . وهو كما ترى كلام يقرب جداً عما يدعوا إليه (المقطم) و (الجريدة) فالوطنية عنده هي المصالح .

كان من أهداف الإنجليز وقتذاك إضعاف النفوذ التركي وإذبال شركة العصبة

١ — راجع مجموعة مقالات مصطفى كامل وخطبه في سنة ١٩٠٦ (دفاع المصرى عن بلاده — مصطفى كامل باشا والإنجليز) وخصوصاً مقاله (وطنية وجامعة إسلامية — مصر للمصريين الذي نشرته الطائفة الباريسية في ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ (س ٦٦ — ٨٠ من هذه المجموعة) .

٢ — افتتاحية المقطم ٢٩ إبريل سنة ١٩٠٧

٣ — الجريدة ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٩ (الانتخابات ج ١ ص ١٧٠)

٤ — المقتطفات سنة ١٩٠٤ ص ٤٥٣ ، وراجع كذلك ص ٧ من الفقرة ٣ من تقرير كرومر السنوى من سنة ١٩٠٦ وهي الفقرة التي جاءت تحت عنوان (Egyptian Nationalism)

الدينية، التي كانوا يتصورون أنها أكبر العقبات التي تقف في طريقهم، والتي تحول دون اطمئنان الشعب إليهم وتغلغلهم فيه وإنشاء صلة مطمئنة مستقرة بينهم وبينه. ومن الأمثلة على ذلك أن الإنجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند وهي نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب، ففرضوا التدريس بها، لم يقف في طريقهم إلا الإسلام الذي يقُدس اللغة العربية، في حين أن الطريق كان مهبطاً في الهند التي لم يكن لها لغة مقدسة (١). كانت دعوة العقلاء من المنادين بالجامعة المصرية لآذن تنفق مع مصالح الإنجليز الذين كانوا يحتضنون كل مناهض للسلطان التركي - خليفة المسلمين - وكل معارض للخديوي الذي يستمد وجوده الشرعي من ذلك السلطان، وكل داع إلى الإصلاح الداخلي. كان الإنجليز يحتضنون مثل هذه الآراء لأنهم يريدون أن يضعفوا أثر العصية الإسلامية في مستعمراتهم من ناحية، ولأنهم من ناحية أخرى يريدون أن يشغلوا الناس عن التفكير في المسألة الأساسية التي كان ينادي بها الحزب الذي يتزعمه مصطفى كامل، وهي الجلاء.

كانوا يحتضنون الدعوة إلى الخلافة العزية التي يتزعمها شريف مكة الهاشمي (٢). وقد اتهم محمد فريد الخديوي عباس في مقالات نشرت بجريدة السيكل الفرنسية سنة ١٩١٢ بالتآمر على الخلافة العثمانية والطمع في أن يكون خليفة المسلمين تحت الحماية البريطانية (٣). وكانت صحيفتنا الاستمار (المقطم) و (المقتطف) تهاجمان الخديوي والدولة العثمانية (٤). وتشجعان الثوار والمطالبيين

١ - راجع تقرير أحمد شفيق عن حالة التعليم في مصر سنة ١٨٩٣ في كتابه، مذكراتي

في نصف قرن ٢ : ٨٨ - ٩١

٢ - المرجع نفسه ٢ : ٦٥ وسنعود إلى مناقشة هذه المسألة في شيء من التوسع في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

٣ - المرجع نفسه ٢ : ٢٦٩

٤ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١١، ٥٨٣ والأمثلة كثيرة على ذلك في الصحيفتين المذكورتين لا تحتاج للإشارة إليها.

بالإصلاح في تركيا على نشر المقالات العنيفة في مهاجمتها والذشهير بها ونبش سيناتها وبيان انحلالها وفساد الحكم فيها^(١) وقد أيد كرومر أعضاء حزب (تركيا الفتاة) من الاتحاديين الذين لجئوا إلى مصر وأصدروا فيها صحفاً تهاجم السلطان عبد الحميد، وتدخل لحمايتهم حين طلب السلطان من الخديوى عباس تسليمهم فمنع ذلك^(٢). كما تدخل لحمايتهم حين ضبطت المطبعة السرية التي تطبع فيها منشوراتهم فأمر بكسر الاختام وأخذ ما فيها من أوراق، منتهكاً بذلك حرمة القضاء، معتدياً على سلطته^(٣). بل لقد تدخل الإنجليز لحماية رجال هذا الحزب المناوئ للسلطان ضد الخديوى عباس نفسه حين بدا له في بعض فترات حياته أن يجامل السلطان ويتقرب إليه باضطهادهم^(٤) وكان ساسة الإنجليز يحاولون دائماً صرف الخديوى عن زيارة الأستانة^(٥). كما حاولوا قطع هذه الصلات باستبدال قاضى القضاة التركى الذى كانت تعينه الأستانة من بين علماء الترك بقاض مصرى من علماء الأزهر^(٦) وكان الإنجليز يعارضون اكتتاب المصريين للمعاونة في حروب تركيا، في الوقت الذى يؤيدون فيه الدعوة إلى الاكتتاب في حرب السودان وفي المشروعات الخيرية^(٧).

١ — راجع المقالات التى نشرها ولى الدين يكن فى المقطم ثم جمعها فى كتاب (الصحنائف السود) ص ٥٧، ٧٢، ٨٦.

وكان ولى الدين يكن أحد أعضاء (تركيا الفتاة) المناوئة للسلطان عبد الحميد. وكان هذا سبب ولائه للإنجليز.

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٢٣

٣ — المرجع نفسه ٢ : ٢٩٤ — ٢٩٥

٤ — المرجع نفسه ٢ : ٢٦٨

٥ — المرجع نفسه ٢ : ٤١

٦ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٦، ٥٧٧، ٨٣٤ وقد أعادوا ذلك وكرروه بعد ذلك فى السودان، توسلاً إلى قطع العلاقات بينه وبين مصر.

٧ — المرجع نفسه ١ : ٨٢٣، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٣ (فى حرب اليونان)

و ٢ ب : ٢٦٦ (فى حرب طرابلس).

ومن الأمثلة الحية على ما كان يبذل الانجليز من جهد في سبيل محو اسم تركيا من أذهان المصريين ما يروى الكاشف عن نفسه في مقدمة الجزء الأول من ديوانه حين تقدم لامتحان الشهادة الابتدائية فألقى رئيس الامتحان على الطلبة هذا السؤال : (اذكروا دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها ، وإن زاد أحدكم دولة أخرى سقط وضاع) . وكان واضحاً أن المقصود بالفترة الأخيرة وهو أن لا تدخل تركيا بين دول أوروبا العظمى المتصودة بالسؤال . ولكن هذا التحذير لم يمنع الكاشف من إدخال تركيا بين الدول العظمى فكان جزاؤه أن رسب في الامتحان . وقد شكوا وزارة المعارف وقتذاك وهاجها في جريدة المؤيد فلم يجده ذلك نقماً .

أما تأييد الانجليز للمعارضين للخديوى فالأمثلة عليه كثيرة ، منها تأييدهم لمحمد عبده الذي وصفه كرومر بأنه كان - ابغض عباس له - لا يستطيع أن يباشر سلطاته بوصفه مفتياً إلا بتأييده (١) . ولأصدقائه أمثال مصطفى فهمى ورياض وسعد زعلول وفتحى زعلول وقاسم أمين ، لأنهم كانوا يهاجمون الخديوى ولأنهم كانوا يدعون إلى إصلاح داخلي في حدود ضيقة لا تتعارض مع مصالح الانجليز ، بل لأنها تؤيد دعواهم فيما يزعمون من أنهم يعملون لخير المصريين ويناصرون كل صاحب حق وكل مصلح مخلص (٢) . ومنها تعضيد كرومر لحزب الأمة عند إنشائه سنة ١٩٠٧ ، لما كان يتوسم فيه من مناهضة الخديوى عباس - وكان كثير من رجاله البارزين أصدقاء لمحمد عبده (٣) ومنها تدخل كرومر لحماية السيد محمد توفيق

١ - راجع الفقرة ٧ من تقرير كرومر سنة ١٩٠٥ تحت عنوان « Sheikh Mohamed Abdu »
وراجع كذلك Modern Egypt ٢ : ١٧٩ - ١٨١

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥١٦ ، ٥١١ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٧٩ و ٢ ب :
٣٩ ، ١١٢ - ١١٣ ، Modern Egypt ٢ : ١٧٩ ، وهامش ١٨٠ ، ١٨١

٣ - مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١٢٩ ، ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩١
وتراجع كذلك الفقرة ٣ ص ٨ من تقرير كرومر السنوى عن سنة ١٩٠٦ تحت عنوان :
« Egyptian Nationalism »

البكرى حين قدم للمحاكمة سنة ١٨٩٧ بتهمة العيب فى الخديوى (١).

* * *

كان الإنجاز من وراء كل ذلك هدف واحد ، هو إضعاف العصية الدينية وتطبيع أوصال المسلمين فى مستعمراتهم حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحداً واحداً . فالمصريون أحفاد الفراعنة ، واللبنانيون أحفاد الفينيقيين ، والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين ، والحجازيون أحفاد العرب الأجداد وأحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذى نبع من أرضهم المقدسة . وكانت الدولة العثمانية قوة روحية عظيمة . مع كل ما ابتليت به من انحلال ومن فساد . فقد كانت قادرة على جمع كلمة هذه الشعوب باسم الدين ضد بريطانيا وضد الدول الاستعمارية .

وكان كرومر يدرك ما تنطوى عليه تعاليم الإسلام من الحث على الجهاد ، وإعلاء مرتبة المجاهدين فى سبيل الله ، والخط من شأن القاعدين عن القتال ، والدعوة إلى الأخذ بأسباب القوة ، حتى لقد وصف المسلمين بأنهم من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تتسع صدورهم لآى تسامح . ووصف الإسلام بأنه قد جعل فكرة الانتقام والبغض أساساً لعلاقة الانسان بالانسان ، مستشهداً على ذلك بدعاء خطباء المساجد فى ظهر كل جمعة على الكفار بخراب الديار ، وبالأية : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإمّا منّا مدّ أو بعدد ولما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم . ولكن لا يبلغوا بعضكم بعض . والذين قتلتوا فى سبيل الله فإن يّضلل أعمالهم سيديهم ويصلح بالهمم ، ويدخلهم الجنة عرّفهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (٢)

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٤٨

٢ — Modern Egypt ٢ : ١٣٧ — ١٤ وقد أورد ترجمة الآيات فى سورة « محمد »

من ٤ إلى ١٢ بعد أن أسقط بعضها .

لذلك عمل الإنجليز على إخماد جذوة العاطفة الدينية الإسلامية ، حين أيقنوا أنها مصدر خطر محقق ، وأنها المعين الذى لا ينضب ، الفياض بينهم والدعوة إلى قتالهم . وظلوا يتهمون المصريين بالتعصب الدينى ، ويكررون هذه التهمة فى كل مناسبة وفى غير مناسبة حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب ذميم يجب أن يبرموا منه . وظلت صحفهم وكتائبهم يتحدثون عن التسليح وعن الانسانية ، حتى توهم بعض السذج أن سمو الخلق وسعة الأفق ورحابة الصدر أن تحب الناس جميعاً ، حتى المعتدين منهم ، وحتى المفتصبين الذين يحتلون ديارهم بغير حق ولم يزالوا يحدثون المصريين عن المصلحة لينزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداسة ، وتجعلها سعيًا وراء القوت ، ومحاولة لتحسين الحال .

وكان عباس - على كل ما فيه من عيوب - قوة لا يستهان بها . وقد وصفه كرومر بأنه قد أثبت على توالى الأيام - رغم ما آل إليه من فساد - قدرته على جمع الشعب المصرى وتكتيله . فعمل على إزلاله وإسقاط هيئته وتصويره فى صورة العاجز الذى لا يملك من الأمر شيئاً ، وأوجد من المصريين من ينشئ عيوبه وينشر سيئاته بعد أن أملى له فيها وأرخصى له العنان ليتورط فى المزيد منها . كانت سياسة الانحياز تدور حول خطتهم السياسية المشهورة « فَرِّقْ تَسُدْ » .

« Devide in order to conquer »

* * *

كان هذا الاتجاه الأخير الذى يمثله حزب الأمة ضعيف الأثر فى الشعر . فلا نكاد نجد بين المتقدمين من الشعراء المعاصرين من شايعة غير « نسيم » و « ديكور » . وقد كان كل منهما مشابهاً للإنجليز ولمثلهم فى مصر « كرومر » ، يتغنى بعدله وإصلاحه ويهاجم الحديوى عباس ، ويسفه مبادئ الحزب الوطنى التى يدعو أصحابها إلى القسنة - حسب زعمهما - وذلك نفسه هو ما كان يزعمه « كرومر » وصحيفته « المقطم » . أما نسيم فقد شايع الإنجليز رغبة فى ما لهم ، ولم يعدل عن

مذهبه هذا إلا بعد أن رحل كرومر عن مصر وأصدر كتابه المشهور عن مصر الحديثة فهاجمه نسيم حميدة لدينه كما يقول . وأما ولي الدين يكن فقد ألجأه إلى الانجليز بغضه الشديد للسلطان عبد الحميد ، وحماية كرومر له مع من حماهم من أعضاء حزب تركيا الفتاة ، الفارين من عبد الحميد إلى مصر هذا إلى أنه أحد أعضاء حزب الاتحاد الذي كان يضم متفرنجي الترك ، والذي كان واقعاً تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون و (الدونمة) من يهود سلانيك المتسترين بالاسلام والمظاهرين باعتناقه .

وليس بمستغرب أن يكون أثر هذا الاتجاه العقلي -- أو المادى النفعى إن شئت -- ضعيفاً في الشعر . فالشعر تعبير عن عاطفة . وقلبا يتخذ وسيلة للتعبير عن التفكير المنطقي الذي يجد النثر أكثر مطاوعة وملاءمة . هذا إلى أن أسنوب مصطفى كامل في الدعوة الوطنية كان أكثر موافقة لطبائع الشعراء والجماهير الذين كانت كثرتهم وقتذاك من أنصار الجامعة الاسلامية .

ولا نريد في هذا المقام أن نطيل في الاستشهاد بشعر نسيم ويكن ، لأننا سنعود إليهما عند الكلام عن التيارات السياسية في الفصل الرابع من هذا الكتاب . ولذلك فحين نكتفى بتقديم مثالين من شعر نسيم ومثال ثالث من شعر يكن .

يتغنى نسيم في قصيدته (نور العدل) بعدالة الانجليز وينسب إليهم الفضل في إنقاذ مصر من ظلم الترك ، ثم يهاجم المهيجين من رجال الحزب الوطنى فيقول^(١) :

وما غر قوم الغرب إلا صحائف	لها الغنى والبهتان دين ومذهب
أبرىء منها بعضها غير جاهل	ففيها - ولم أكذب - خبيث وطيب
وشيخ مؤسن رام لإشعال ثورة	يخوض لظاهاو الأسنة مركب ^(٢)

١ - الديوان ١ : ٦

٢ - لعل المقصود بهذا الشيخ السن هو السيد حسن موسى العقاد الذى كاث من أعيان القاهرة ، والذي قاصر الثورة العرابية منذ بدايتها وحكم عليه بالنفى إلى مصوع عشرين سنة . وقد هاد بعد الإفراج عنه إلى الاشتغال بالسياسة ومناصرة القضية الوطنية . وقد نشرت صحيفة (مصر) القطبية في عدد ٥ يوليو سنة ١٩١٠ مقالا فى مهاجمته عنوانه (اقرأ وتجب . أهكذا تكون الوطنية؟ قلب =

وكيف بقود الأمنين لفتنة
صغائر فيها للغبى دعاية
ولو كان يدرى ما عواقب أمرها
بنى مصر ١١ إياكم وكيد عدوها
خذوا مصر من أيدي العدو لترتقى
فلو حلها أهل الفساد لأصبحت
وتسمى كما كانت ربوعا هضيمة
هنالك نحسو المرء من كف ظالم
وفيا مضى من غابر الظلم عبرة
نكال وجور وانتقام وسخرة

لها وجه مصر يكفر ويقطب
يسر بها من شاء يلهو ويلعب
أيات حسير الطرف يبكى ويندب
فما هو إلا الأرقم المتقلب
وبعنو لها بالعلم شرق ومغرب
بلاداً يُعَفِّسُها الفساد فتخرب
عليها وفيها أبقع اللون ينب (١)
يدور بكاسات الهوان فتشرب
لقوم أذلهم عصور وأحقب
وهضم حرق من يد الشعب تغصب (٢)

ويختم القصيدة بقوله :

أحب لقوى كل خير ونعمة
فإن عشقوا هجوى عشقت مديحهم
ومن يحفى منهم جزيت جفاهه
على كل حال أحسن الله حالهم
إذا قيل لي من أنت؟ قلت أخونى (٣)
ويبدأ الشاعر قصيدته (اختلاف الأحزاب) (٤) بمهاجمة من يسميهم والمغالين،

وأرجو لهم أسمى الذى يُسَطِّبُ
ورحت ولى آى من الحمد تُكسبُ
بود وهى قُرْبُهُ لا التجنبُ
وجاد مغانينهم من الخير صُلبُ

= الحركة الوطنية إلى دينية وانتهام هذا الزعيم فى مذبح الاسكندرية) والمقال يهاجم العقاد ويتهمه بتجديد مبادئ الحزب الوطنى الذى هو فى نظر الصحيفة امتداد للثورة العرابية — يراجع نص محضر استجواب حسن موسى العقاد فى (مصر للمصريين ج ٧ ص ١٧٩ — ٢٠٠)

- ١ — أبقع اللون : الغراب ، يقصد : الذين يدعون إلى الثورة . فعب الغراب : صاح .
- ٢ — يشير إلى حال مصر قبل الاحتلال الذى رفع هذه المظالم حسب زعمه .
- ٣ — النهى جمع نهية (بضم النون) وهى العقل . أخونى : أى عاقل . وكذلك كانت هذه الطائفة تسمى نفسها . وكذلك كان يسميهم خصومهم منهكين (العقلاء)
- ٤ — الديوان ١ : ٨٥ .

من رجال الحزب الوطنى فيقول :

لا توقدوا جمرات البنض لإيقاداً من الهموم بنا ما جلّ تعداداً
حزب المغالين إن الدارَ آمنة فلا تثيروا بها للشر أحقاداً
هذى هى الدارُ دارُ الأمان زاهرة تحبى من العدل نعام وإسعاداً

ثم يستعرض أسباب تفوق الغربيين فيقول :

هم معشر أبدعوا فى سيرهم طرقاً للمجد صاروا بها غرّاً وأجساداً
شقوا البحار وخاضوها على سفن تُزجى كما حاولوا فى الجولاء معداداً
جاءوا الفيا فى حتى ملأهم قَتَب من كل جائلة تجتأب أنجاداً
هبوا إلى العلم والدنيا تراودهم عنها وما أخلفوا للدأب ميعاداً
إن صوب الدهر فيهم سهم كارثة كانوا على الدهر أجبالاً وأطواداً
أوقيل سيروا فما فى الجدّ مزو صب ساروا ولوا جهدوا للقطب إجماداً
حتى إذا بلغوا القطبين ما وقفوا ولا أبى عزّهم فى السعى إمساداً
ولا رأيت سوى ماض يشقهما حتى يحوب جميع الأرض مرناداً
هم معشر رغبوا فى الدأب عن كسل وفيككوا فيه أغلالاً وأصفاداً

ثم يتجه إلى بنى وطنه فى آخر القصيدة بالنصح طالباً إليهم أن يحتذوا بالغرب
ويتجنبوا الخلاف . وهو يقصد بتجنب الخلاف أن يكف المهيجون عن التهييج
وينصرفوا عن مخاصمة الإنجليز إلى التعاون مع الذين يعملون للإصلاح فيقول :

هذى فضائلهم يا قوم فانتجعوا مناهل المجد إصداراً وإيراداً
خير النصيحة أسديها إلى وطنى لعلى مرشد من رام إرشاداً
كونوا أحبباء خيراً من تنافركم ولا تكونوا عباداً لله أضداداً

ويقول ولى الدين يكن من قصيدة استقبل بها الحديوى عباس عند عودته
من إحدى رحلاته إلى أوروبا سنة ١٩١٢ ، معرضاً برجال الحزب الوطنى الذين

كانوا يخاضعون عباساً وقتذاك (١) ، مؤيداً مذهب الذين يريدون أن ينصرف الناس إلى نشر التعليم وتنمية الثروة (٢) .

تَسَامَ بِمِصْرَ رَبٍّ مُضِرٍّ إِلَى الْعُصْلَا
أَحَاطَتْ بِأَمَالٍ لَدَيْكَ فَتَيْسَهُ
وَمَا مِصْرُ إِلَّا دَوْلَةٌ فِي شَبَابِهَا
وَلَنْ لَمْ تَفْقُ فِي نَوْمِهَا يَنْتَقِ نَوْمُهَا
وَلَنْ لَمْ يَقُومْهَا إِذَا أَعُوجَ عَوْدُهَا
وَلَنْ لَمْ يُنْزَرْهَا بِالْمَعَارِفِ أَهْلُهَا
وَلَنْ لَمْ يَفِيدُهَا الثَّرَاءَ بِجَدِّهِمْ
وَعُصْبَةُ شَرٍّ قَدْ أَتَتْ بَعْدَ مِثْلِهَا
تَشَاعَدَ أَفْرَاحَ الْبِلَادِ عَمِيمَةً
وَلَنْ تَبْتَسِمَ مِصْرُ تَبَكَّى مِنَ الْأَسَى
فَوَيْلٌ لَزُورٍ عِنْدَهَا مَتَكَشَّفٍ
لِحَا اللَّهِ هَاتِيكَ النَفُوسَ فَإِنَّهَا
فَمَا يَبْنَاهَا مِنْ نَازِلٍ مَتَأَمَّلٍ

وصاحب هذه الحركة التي تستهدف الجامعة المصرية اتجاه قوى خصب نحو استخراج صور البطولة من تاريخ مصر القديم، وبعث الشعور بالعزة، بإحياء المجد الفرعوني بينما صاحب الحركة الأولى التي تدعو إلى الجامعة الإسلامية بعث التاريخ

١ — كان الحزب الوطني يخاضع عباساً وقتذاك لئله إلى مهادنة الانجليز أو إلى سياسة الوفاق كما كانوا يسمونها . وقد انتهى عهد الوفاق بين عباس والانجليز بوقاة الدون غورست في ١٢ يوليو سنة ١٩١١ وتعين خلفه عفيف له ، جمع في يده السلطة كلها وهو اللورد كيتشر ، الذي وصل إلى مصر على بارجة حربية بريطانية في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١

الإسلامي وعرض صور من بطولات العرب وأبجادهم . وجمع كثير من الشعراء بين الاتجاهين ، مثل ما ألف الحزب الوطني بين النزعتين ولم يرفيهما تعارضا وكان هذا الأدب المعتمد على التاريخ - شعره ونثره - من أقوى الأدوات في استنهاض الهمم ، وبعث الأمل ومحاربة اليأس ، ورد الثقة إلى نفوس تمسككن منها سوء الظن بنفسها حتى قتل فيها روح الأمل والطموح .

وبدت طلائع هذا الاتجاه في شعر البارودي الذي يقول (١) :

سل الخيـزة الفيحاء عن هر مـي مصر	لعلك تدرى غـيبـ ما لم تكن تدرى
بناتان كـردا صولة الدهر عنهما	ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر ۱۱
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا	لبانيهما بين السـريـة بالفخر
فمك أمم في الدهر بادت وأعصر	خلت ، وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما	أساطير لا تنفك تـتـشـلى إلى الحشر

ثم جاء شوقي من بعده فتوسع في هذا الاتجاه الجديد حتى أصبح شاعره الفذ ، فحق له أن يقول في القصيدة التي وجهها إلى روزفلات عقب زيارته لمصر سنة ١٩١٠ (٢) .

وأنا المحتفى بتاريخ مصر من يصنـ نـجـد قـومـه صان عـرضا
وأن يقول بعد ذلك في قصيدته في توت عنخ آمون سنة ١٩٢٤ (٣) :

هذا المقام عرفتـ	وسبقت فيه القائلين
ووقفت في آثاركم	أزى الجلال وأستبين
وبنيت في العشرين من	أحجارها شعري الرصين
كنتم خيال المجد بر	فسع للشباب الطامحين

٢ - الديوان ١ : ١٤٩

٢ - ٢ : ٦٦

٣ - ٢ : ١١٦

وشوفي هر صاحب الهمزية الطويلة المشهورة التي تبلغ مائة وواحداً وثلاثين بيتاً : (١)

هَمَّتِ الْفُلُوكُ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وَحَدَّاهَا بِمَنْ تَقِلُّ الرِّجَاءُ
وقد ألقاها في مؤتمر المشرقين سنة ١٨٩٤ ، وسنه لم تتجاوز السادسة والعشرين . وعرض فيها تاريخ مصر منذ أقدم العصور . يقول فيها مستهزئاً بهم الشباب :

وَانْتَهتْ لِمَرْءَةٍ الْبَحَارُ إِلَى الشَّرِّ قِ وَقَامَ الْوُجُودُ فِيهَا يَشَاءُ
وَبَنِينَا فَلَمْ يُنْخَلْ لِبَانٍ وَعَلَوْنَا فَلَمْ يَجْزُنَا عِلَاءُ
وَمَلِكُنَا فَالْمَالُ كَوْنٌ عَيْدٍ وَالْإِرْيَا بِأَسْرِهِمْ أَسْرَاءُ
قُلْ لِبَانٍ بَنِي فَشَادَ فَعَالِي لَمْ يَجْزُنْ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بَنَاءُ
فإذا وصل إلى غزو الرعاة لمصر عام ١٦٧٥ قبل الميلاد، توقف قليلاً ليصور تجرُّر المحتل واستذلاله أهل البلاد، وتقريبه طائفة من المنافقين الذين يؤثرون النفع القريب، يغدق عليهم خيره ويغمرهم بنعمه . ثم يحذر المحتلين من عاقبة الجور ومن ثورة الضعيف :

وَلَمَّا مِصْرُ شَاءَ خَيْرَ لِرَاعِي السَّوْءِ	ءِ تُؤْذَى فِي نَسْلِهَا وَتُسَاءُ
قَدْ أَذَلَّ الرِّجَالَ فِيهِ عَيْدٌ	وَنَفُوسَ الرِّجَالِ فِيهِ إِمَاءُ
فَإِذَا شَاءَ فَالْرِقَابُ فِدَاءُ	وَيَسِيرُ إِذَا أَرَادَ الدَّمَاءُ
وَلِقَوْمٍ نَوَالُهُ وَرَضَاهُ	وَلِاقْوَامِ الْقَبِيلِ وَالْجَفَاءُ
فَفَرِيقٌ يَمْتَعُونَ بِمِصْرٍ	وَفَرِيقٌ فِي أَرْضِهِمْ غُرْبَاءُ
لِنْ مَلِكٍ النَّفُوسُ قَابِغُ رِضَاهَا	فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مَضَاءُ
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلْوُثُوبِ مِنَ الْإِنَاءِ	يَرِفُ كَيْفَ الْخَلَاثِقُ الْعَقْلَاءُ
يَحْسِبُ الظَّالِمُونَ أَنْ سَيَسُودُوا	نَ وَأَنْ لَنْ يُؤَيَّدَ الضَّعَفَاءُ
وَاللِّبَالُ جَوَائِرُ مِثْلًا جَا	رَوَا ، وَلِلدَّهْرِ مِثْلُهُمْ أَهْوَاءُ

وإذا بلغ غزو قبيز ملك الفرس لمصر سنة ٥٢٥ ق . م ، وأسره ملكها
أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين بعد أن انهزمت جيوشه لم يفته
الوقوف ليصور موقف فرعون الأسير وابنته في إلبائهما العصى وكبريائهما
المرتفع ، إذ يقول :

جىء بالمالك العزيز ذليلاً لم تزل فؤاده البأساء
يُنصِرُ الآلَ إذ يراحُ بهم في موقف الذل عَنوَةً ويُجاء
بفت فرعون في السلاسل تمشى أزعج الدهر محرماً والحفاء
فكان لم يهن من بهودجها الذهب

مر ولا سار خلفها الأمراء
وأبوها العظيم ينظر لهما رُدْبَتٌ مثلما تمرّدى الإمام
أعطيت جرّة وقيل إليك النهر قدوى كما تقوم الإمام
فشئت تظهر الإباء وتحمى الدُّمُعَ أن تسترقه الضراء
والأعادى شواخصاً ، وأبوها بيد الخطب صخرة صمّاء
فإذا بلغ فتح العرب مصر قال :

مَنْ كَعَمَرُو البلاد ، والضادُ ممّا

شاد فيها ، والمِلَّةُ الغراء (١)
شاد للمسلمين ركناً جُساماً ضا في الظل دأبُهُ الإيواء
طالما قامت الخلافة فيه فاطمأنّت وقامت الخلفاء
وانتهى الدين بالرجاء إليه وبنو الدين إذ هم ضَعَفَاءُ

ويقفز بعد ذلك إلى تمجيد بطولة صلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية
فيقول :

واذكر الغرّ آلَ أيوب وأمدح فن المدح للرجال نجوا

١ — يشير بالضاد إلى اللغة العربية . يقول : إن العربية التي تتكلمها مصر ، والإسلام الذي
تدين به ، هما من آثار ذلك الفتح الأعز .

هم حماة الإسلام والغفر اليه ض الملوك الأعزّة الصالحاء
كل يوم بالصالحية حصن وبيبلينس قلعة شماء
وبمصر للعالم دار وللضيقة ان نار عظيمة حمراء
ولاعداء آل أيوب قتله ولأسراهمو قرى وثواء
يوم سار الصليب والحاملوه ومشى الغرب: قومه والنساء
بنفوس تجول فيها الأمانى وقلوب تنور فيما الدماء
يضمرون الدمار للحق والناس ودين الذين بالحق جاءوا
ويهدون بالتلاوة والصليب ان ماشاد بالقنا البناء
فتلقتهوا عزائم صدق نوص للدين بينهن خباء
مزقت جمعهم على كل أرض مثلها مزق الظلام الضياء
هكذا المسلمون والعرب الخا لئون ، لا مايقوله الأعداء
فيهم في الزمان نلنا الليالي وبهم في الوري لنا أنباء
ليس للذل رحيلة في نفوس يستوى الموت عندها والبقاء
وشوق بعد هذا هو صاحب قصيدة أنس الوجود التي خاطب بها روزفات

عند ما زار مصر في مارس سنة ١٩١٠ (١) :

أيها المنتهني بأسوان داراً كاثريا تريد أن تنقضاء (٢)

١ - زار تيودور روزفلت مصر عائداً من السودان. وألقى فيه خطابين مجد في أولها الاحتلال، وعارض في الآخر حركة الطلبة بالدستور التي كانت على أشدها في ذلك الوقت. فكان لخطابه دوى قوى. وقد أثارا شعور السخط والاستنكار، فتوالت عليه برقيات الاحتجاج، ونادى المظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد حيث كان ينزل، وفي الاسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً. و« تيودور روزفلت » هذا هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة من سنة ١٩٠١ - سنة ١٩٠٨ وقد توفي سنة ١٩١٩ وهو قريب « فرانكلين روزفلت » رئيس الجمهورية في الحرب العالمية الثانية. ٢ - الديوان ٢ : ٦٧ والخطاب هنا لروزفلت. وقد نشرت القصيدة في مجلة الهداية بعدد أكتوبر سنة ١٩١٠ أى أنها نشرت بعد زيارة روزفلت بنحو من ستة شهور. بينما نشرت قصيدة لحافظ عقب لقاء خطبة روزفلت الأولى في الخرطوم وقبل خطبة الجامعة في القاهرة :

أى خطيب الدنيا الجعيد شنف سمع مصر بقولك المأنور

اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحاول من آية الدهر غصاً
قف بتلك القصور في اليم غرقى
مسكاً بعضها من الذعر بعضاً
مشرفات على الزوال وكانت
مشرفات على الكواكب نهضاً
فإذا بلغ من تصوير الفن القديم وبراعته المعجزة ما أراد ، قال يرثى مجد
مصر الزائل داعياً الله أن يرد على الوطن عزته ورفعته :

يا قصورا نظرتها وهي تسقى
فسكنت الدموع والحق يقضى
أنت مجد وسطر مصر كتاب
كيف سام البلى كتابك فضاً ؟
قل لها في الدعاء - لو كان يجدى -
يا سماء الجلال لا صرت أرضاً
وشوقى هو صاحب المطولة المشهورة في النيل التي تزيد على مائة وخمسين
بيتاً^(١) :

من أى عهد فى القرى تتدفق ؟ وبأى كف فى المدائن تغدق ؟
ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جدا ولا تترقق ؟
وبأى عين أم بابة مزنة أم أى طوفان تفيض وتنفق^(٢) ؟
وبأى نول أنت ناسج بردة للصفنتين جديدها لا يخلق
وقد وجهها إلى الأستاذ مرجوليوث ، أستاذ اللغة العربية فى جامعة أكسفورد
أثناء الحرب العالمية الأولى وقال فى ديباجتها ... وهذه أيها الأستاذ الكريم
كلية قيلت والهموم سارية . والأقدار بالمخاوف جارية ، والدماء والدموع متبارية ،
وذئاب البشر يقتتلون على الفانية . نظمتهما تغنياً بمحاسن الماضى ، وتقييداً لأنوار
الآباء ، وقضاء لحق النيل الأسعد الأجد . ونسبتهـا إليك عرفانا لفضلك على لغة
العرب ، وما أنفقت من شباب وكهولة فى إحياء علومها ونشر آدابها .

== وقد جاءت القصيدة فى كتاب محمد فريد س ١٦٤ ولم ترد فى الديوان . ومى أكثر صراحة
فى مهاجمة روزفلت من قصيدة شرقى . ومن المعروف أن وطبقة شوقى فى العصر كانت تقيده .
بينما كان حافظ فى ذلك الوقت حراً من كل قيد .

١ - الديوان ٢ : ٧٧

٢ - نطق الإناء : امتلاء وفاض .

وفها يقول :

عيسى ويوسف والكليم المصعق ^(١)	أبن الفراعنة الأولى استذرى بهم
أفضى إليه الأنبياء ليستقوا	الموردون الناس منهل حكمة
فالشمس أصلهم الوضى المشرق	الرافعون إلى الضحى آباءهم
عند على أن لاسماس وموثق	وكانما بين النيل وقبورهم
كحجابهم فوق الثرى لا يخرق	فجبابهم تحت الثرى فى هيئة
يجلى كما تجلى النجوم وينسق	كم موكب تتخايل الدنيا به
كالسحب قرن الشمس منها مفتق	فرعون فيه من السكتائب مـقبل
للشمس فى الآفاق عان مطرق	تعنو لعزته الوجوه ووجهه
وأنت بالفتح السعيد الفسيق	آبت من السفر البعيد جنوده
نعل لفرعون العظيم ونمرق	ومشى الملوك مصفدين، خدودهم
يأبى فيضرب أو يمن فيعتق	ملوكه أعناقهم ليمينه

ويعدد الأديان التى شهدها هذا النهر العجوز فيقول :

تبدو عليك له ورىا تنشق	تابوت موسى لا تزال بجلالة
حوليك فى أفق الجلال يرتق	وجمال يوسف لا يزال لواؤه
مسطورهن بشاطئك منمق	ودموع إخوته رسائل توبة
يزكو لذكرها النبات ويسمق	وصلاة مريم فرق زرعك لم يزل
بركات ربك والنعيم الغيدق	وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً

١ — استذرى بهم : أى لجأ إليهم واستظل بظلمهم . الكليم هو موسى عليه السلام الذى كله الله . المصعق الذى صعد حين طلب من الله سبحانه وتعالى أن يراه . وهو يشير إلى قوله تعالى (فلما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال أرنى أنظر إليك . قال لن ترانى . ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى . فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا . فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) — الأعراب ١٤٣ .

وودائع الفاروق عندك دينه ولواؤه وبيانه والمنطق (١)
بعث الصحابة يحملون من الهدى والحق ما يحيى العقول ويفتح
يبنون لله الكنانة بالقنا والله من حول البناء موفق
في الحق سل وفيه أعمد سيفهم سيف الكريم من الجمالة بفرق
ويختتم قصيدته الرائعة متوجها إلى النيل بخطابه فيقول :

لى فيك مدحٌ ليس فيه تكلف أملاه حبٌ ليس فيه تملق
بما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهي عندك ترزق (٢)
تهفو إليهم في التراب قلوبنا وتسكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم ، والله جلُّ جلاله منا ومنك بهم أبرُّ وأرفق
فاحفظ ودائعك التي استودعتها أنت الوفي إذا أوتمنت الأصدق
للأرض يوم والسماء قيامة وقيامه الوادى غداة تحلق (٣)

ومع ذلك كله فشوقي هو صاحب المدائح النبوية المشهورة (الهمزية والبائية والميمية) . وهو صاحب الأرجوزة الكبرى التي نظمها في منفاه (دول العرب وعظماء الاسلام) . وهو أيضاً صاحب الشعر الإسلامى الغزير الذى قدمنا نماذج عديدة منه فى الفصل السابق .

١ — الفاروق هو الخليفة عمر رضى الله عنه . أودع مصر دين الإسلام ، وأودعها جيشه ، وأودعها لغة العرب التى أصبحت لسان المصريين .

٢ — يقصد بالأفرخ : الأولاد والذرية . نمضى نحن وتركهم من بعدنا فى كنف النيل .

٣ — تحلق أى: تجف . يقول: إن الوادى باؤ ما بقيت أيها النيل وما جرى ماؤك الذى يحميه .

الفصل الثالث

محنة الجامعة المصرية

(المؤتمر القبطى والمؤتمر المصرى)

فى سنة ١٩١١ ظهرت أزمة فادحة كادت تودى بفكرة الجامعة المصرية ، وتهدم الوحدة الوطنية ، وهى تفاقم الخلاف بين عنصرى الأمة : المسلمين والمسيحيين ، واتخاذ هذا الخلاف الحفى شكلاً صريحاً سافراً عنيفاً فى المؤتمر الذى انعقد بأسبوط فى مارس سنة ١٩١١^(١) .

وليس من السهل تتبع هذا التصدع لرده إلى أسبابه الأولى ، وليس من موضوع هذا البحث أن يتبعه ، ولكن المتتبع لهذه السكارثة منذ نشأت الدعوة إليها فى الصحف القبطية سنة ١٩٠٩ ، ولما سبق ذلك من أحداث ، يستطيع أن يدرك فى يسر أن الأزمة ترجع فى جوهرها إلى سوء الظن وفقدان الثقة . فقد كان المسلمون يسيئون الظن بالأقباط ، ويتهمونهم بمؤالة الإنجليز المستعمرين لما يجمع بينهما من رابطة المسيحية . وكان المسيحيون يسيئون الظن بالمسلمين ، ويتوهمون أنهم يتحينون الفرص للانتقام منهم ، ولا يحول بينهم وبين ذلك إلا الإنجليز . وقد لعب الجهل الذى يقود إلى عصبية عمياء لا تقوم على أساس من منطق أو دين دوراً خطيراً فى هذا الانشقاق .

كان كثير من المسلمين ينزلون أنفسهم منزلة خاصة من القبطى وينظرون إليه نظر السيد إلى المولى ، حتى انتهى الأمر بالقبط إلى أن يوزعوا أنفسهم بين الأسر

١ — راجع تفاصيل المؤتمر القبطى وما ألقى فيه من خطب أعداد صحيفة (مصر) من الأحد ٥ مارس إلى الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١١

الإسلامية الكبيرة في قرى الصعيد يضعون أنفسهم تحت حمايتهم^(١). وليس
يعنينا هنا أن نرد هذه الحالة إلى أصولها الأولى ونقتبعها في تاريخها الطويل، ولكن
الواقع هو أن هذه التقاليد كانت نابتة مقررة في العصر الذي نؤرخ له، وأنها
كانت تجد تشجيعاً من بعض الحكام الذين أساءوا فهم تعاليم الإسلام السمحة
العادلة. ونسى هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: (ولا تجادلوا
أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم. وقولوا آمناً بالذي أنزل
إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) العنكبوت ٤٦
ويقول جل شأنه: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن
بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم
يحرزنون) البقرة ٦٢... ويقول: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما
أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، أولئك
لهم أجرهم عند ربهم. إن الله سريع الحساب) آل عمران ١٩٩... ويقول:
(ليسوا سواء. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم
يسجدون) آل عمران ١١٣. وقد سبق في علم الله أن يكون الناس طوائف
وشيعاً لحكمة تتراد. (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. ولكن ليبلوكم فيما
آتاكم فاستبشروا الخيرات. إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه
تختلفون) المائدة ٤٨ (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً.
أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ١٦) يونس ٩٩.

ذلك هو الإسلام بعينه وسماحته، وإنصافه وإنسانيته، ولكن الكثرة
الجاهلة من المسلمين والقبط على السواء كانت قد نشأت على تقاليد فاسدة اعتبرها
الأولون حقاً لهم، وأذعن لها الآخرون على أنها أمر واقع، يتحينون الفرص
للخلاص منه. وكانت الجامعة الوطنية فكرة ناشئة لم تستقر كما رأينا في الفصل
السابق، وكانت الجامعة الغالبة على تفكير العصر هي الجامعة الدينية. لذلك كان من

الطبيعى أن يختلف موقف القبط من الاحتلال الانجليزى المسيحى عن موقف المسلمين من المصريين فهم إن لم يطمئنا إليه لا يتحمسون لمحاربته تحمس المسلمين. فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكاتهم فى ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر^(١) من أجل ذلك استشرع المسيحيون القوة ، وانفتح أمامهم باب الأمل فى تحسين حالتهم . وبدأ كثير منهم يضيق بالأوضاع السائدة التى قبلوها من قبل على أنها أمر مقرر وحقيقة واقعة . ونظر المسلمون من ناحيتهم إلى هذه الروح الجديدة على أنها تمرد وانتهاز للفرص وخيانة للبلد الذى يطعمهم ويكسوهم ، والذى تتكون كثرتة من المسلمين . واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فأقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديداً^(٢) . وكان إقبالهم على التعليم - وعلى الأجنبى منه بنوع خاص - بالإضافة إلى ما عرف من تهاقهم على بعض الوظائف التى زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل ، كان كل ذلك سبباً فى أن تجاوز نسبتهم فى الوظائف الحكومية نسبتهم العددية فى السكان بمقدار كبير^(٣) ، وكان حرصهم على جمع المال سبباً فى اطراد الازدياد فى ثرواتهم . وكان نجاحهم هذا يغريهم بالمثابرة ، ويزيدهم أملاً وطموحاً ، بينما كان فى الوقت نفسه يزيد من سوء ظن المسلمين بهم وبقوى الشبهة القائمة فى نفوسهم من أنهم لم يبلغوا ما بلغوا إلا بتعريضهم للمستعمر واحتضانه لهم . ولما زاد عدد المتعلمين من القبط وارتفعت نسبة ما يدفعه أغنياؤهم من ضرائب ، حتى أصبحت نسبتهم فى كلتا الناحيتين تفوق نسبتهم العددية فى السكان ، بدءوا يحسون أنهم مظلومون ، وأن من حقهم أن يكون لهم من الوظائف والمرافق بمقدار من فيهم من المتعلمين وبمقدار ما يدفعون من الضرائب . ونظر

١ - Modern Egypt ٢ : ٢٠٩

٢ - مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول ص ٨٤ - ٨٧

٣ - راجع جداول الإحصاء فى المصدر السابق فى صفحات ٢٤ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤

و ١٩٦ - ٢٠٤ و راجع كذلك Modern Egypt ٢ : ٢٠٨ و ٢١٠ و ٢١١

المسلمون فإذا عدد القبط في الوظائف يتجاوز نسبتهم العددية بكثير ، بل لقد وجدوا أنهم أكثرية في بعض المصالح والوزارات ، فرأوا أن تدمرهم هذا ينطوى على الشطط والجشع وتجاوز الحد في الإنصاف ، وأنهم إنما يريدون أن تتحكم القلة القليلة في مصائر الكثرة الكثيرة ، اعتماداً على حماية المستعمر المسيحي ، وعلى خوف المسلمين من أن يتهموا بالتحصب الديني . وزاد في سعة الهوة بين الفريقين أن العنصرية سرت بين القبط ، وصار بعضهم يؤثر البعض الآخر بالخير ، وصار الموظف منهم يسعى إلى زيادة عدد الموظفين من طائفته ما وسعه ذلك .

ولم يكن من المستغرب أن يكره المسيحيون الحكم التركي الذي لم ينالوا منه خيراً ، ولم يذوقوا على يديه إلا الذل . وكان طبيعياً أن يكرهوا كل دعوة إلى الجامعة الإسلامية أو الرابطة العثمانية ، وأن لا يتحمسوا للدعوة الوطنية الدينية الموالية للترك ، والتي كان يمثلها الحزب الوطني وقتذاك .

فانطوا على أنفسهم متوهمين أن مصالحهم تختلف عن مصلحة الكثرة الكبيرة من المسلمين الذين يحيطون بهم من كل جانب ، وأنشأوا لهم صحافة تعبر عن مصالحهم ورغباتهم . فصدرت جريدة الوطن سنة ١٨٧٧^(١) ، ثم صدرت صحيفة مصر سنة ١٨٩٥^(٢) ، وصدرت صحف أخرى اختلفت بعد ظهورها بمدد قصيرة لم يكن لها أثر كبير .

وأخذت هذه الصحف اليومية تقصر اهتمامها على معالجة مشاكل القبط ، وتطالب برفع ما توهمته من ظلم . ولم تزل تسير في طريقها هذا حتى انتهى بها الأمر إلى أن تتحدث عن القبط وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وتقول إنهم سلالة الفرعنة وأصحاب البلاد ، وأنهم هم المصريون الخالص الذين لا تشوب

١ — أصدرها ميخائيل عبد السيد . وهي أقدم الصحف القبطية . توفقت حيناً بعد الاحتلال ،

ثم عادت إلى الظهور سنة ١٩٠٠ (تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ٤ : ٦٦)

٢ — أصدرها مدارس بك شنودة المنقبادي .

دمهم شائبة أجنبية^(١). وبدأت هذه الصحف تتحدى رأى العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره . تصدر وزارة بطرس غالى فى ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩ قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ لإبان الثورة العرابية، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد، فاستنكره الأمة، وتقوم مظاهرات الاحتجاج من مختلف الطوائف، وتصطدم للمرة الأولى برجال البوليس تحت قيادة حكمدار العاصمة الإنجليزى هارفى باشا^(٢). ولكن صحيفة مصر تنشر مقالاً فى تأييد القانون الجديد الذى يحد - حسب زعمها - من سفه السفهاء الذين يدعون إلى الفتنة^(٣). ويقدم تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق إلى مصر فى مارس سنة ١٩١٠ عن طريق السودان، بعد أن ألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال، فيلقى فى الجامعة المصرية بالقاهرة خطبة يعارض فيها حركة المطالبة بالدستور التى كانت على أشدها، ويقول: إن تربية الشعب الذى يصبح صالحاً لحكم نفسه هى مسألة أجيال متتابعة، وإن سبيل ذلك لا يمكن أن يكون بإصدار دستور يصبح حبراً على ورق. ويقابل المصريون خطبته بالاستنكار الشديد. وترسل الاحتجاجات على إدارة الجامعة اسمها بإلقاء هذه الخطبة فى دارها ومنهجها الخطيب لقب الدكتوراه الفخرية بعد إلقائها، وينادى المتظاهرون بسقوطه أمام فندق شبرد فى القاهرة حيث كان

١ - راجع أمثلة لذلك فى صحيفة (مصر) عدد ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى مقال (إلى الأمة القبطية) وعدد ٣ فبراير سنة ١٩١٠ فى مقال (طريق التقدم فى الهيئة الاجتماعية القبطية) وعدد ١٩ فبراير سنة ١٩١٠ فى الدعوة باسم بشرى خنا إلى عقد مؤتمر قبطى عام فى مدينة أسيوط، وعدد ٢٨ فبراير فى مقال (إلى أى طريق نحن ذاهبون) ومرثية وهى بك ناظر المدارس القبطية لبطرس غالى فى عدد ٢ إبريل سنة ١٩١٠ التى يؤرخ فيها وفاته بالتاريخ القبطى (١٦٢٦ قبطية) :

قم أشد بين القبور وأرخ مات وامصر بطرس مقتولا

وراجع كذلك صحيفة (العلم) عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ فى مقال (آلام القبط) .

٢ - محمد فريد ص ١٠٠

٣ - راجع صحيفة (مصر) عدد ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ فى مقال (لماذا قيدت الصحافة)

ينزل ، وفي الإسكندرية عند سفره إليها ليستقل الباخرة عائداً^(١) . ولكن صحيفة مصر تكتب في تأييده وفي الرد على من يهاجمه فتطالع القراء بافتتاحية عنوانها (الخطاب العظيم - المستر روزفلت في الجامعة المصرية)^(٢) تبدأها بقولها : « لم يدو في جو مصر خطاب أباح من الخطاب الذي ألقاه جناب المستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا سابقاً في الجامعة المصرية أمس . ولا أصرح منه عبارة ، ولا أنفع لها في الحال والاستقبال . وقد قوبل من جميع الطبقات بالإعجاب التام ، لأنه كان صادراً عن إخلاص صحيح ، ورغبة تامة في خير البلاد ، وتماهى الصحيفة في التحدى فتعود إلى الحديث عن خطاب روزفلت بعد أيام في مقال عنوانه (فلنصف الحساب)^(٣) تبدأه بقولها : « ذكر الحدس والتخمين ، وزادت الشكوك وقل اليقين ، وترك روزفلت الناس حيارى لا يدرون من الذي نبهه إلى سياسة مصر ودخيلتها ، وأعلمه أسرارها ، وكشف له عن عوراتها ، قال روزفلت حكمته وخطب خطبته ، فلم يهتم القوم لموضوع الخطاب اهتمامهم بالبحث عن مصدر علم الرئيس بمجاري الأحوال . ومن هم الواشون على البلد ، ومن ذا الذي أوصل إليه الأخبار حتى قال ما قال . بحثوا ليعلموا بلا تأن ولا اعتدال ، فنسبوا القول لأكبر الأعداء الماكرين ، وهم في عرفهم الإنجليز البريطانيون ، وتلاه في شرعهم مبعوثو الأمريكان ، مكذرو صفاء الأديان ببلاد السلطان . ثم عطفوا على أولاد سوريا وسكان الشام ، وأشبهوهم سفاهة وتأنيباً ، ووصفوهم بالخائنين اللثام . وأخيراً ساحوا إلى أبناء وطنهم وأساءوا الظن بالقبط إخوانهم ، ثم تدافع الصحيفة عن خطاب روزفلت قائلة : « ومع ذلك لو سلمنا جدلاً وافترضنا أن الرجل استقى المعلومات من الإنجليز والأمريكان والسوريين والأقباط ، فما الذي أتاه بخطبته يخالف واجب الضيافة ؟ ... وماهى الإهانة التى أهان بها المصريين

١ - محمد فريد ص ١٦٠

٢ - عدد ٢٩ مارس سنة ١٩١٠

٣ - عدد ٧ أبريل سنة ١٩١٠

حتى تقوم الجرائد بهذه القيامة ؟ ... إن هذا العظيم والرجل المهيب^(١) الذي تنازل أن يلقي علينا الخطاب لم يرم المصري بخسة أو دناءة ، ولم يحكم علينا بعدم الاهلية ولا بقلة الكفاءة ؛ بل خطب خطابا كله مواعظ وحكم وإرشاد ، وبين لنا ما هي السبيل المؤدية إلى إسماعيل البلاد ... ، وتمضى الصحيفة إلى آخر المقال في بيان أن الرجل قد دل مصر على ما فيه خيرها مخلصا لها النصيح .

كان كل ذلك داعياً إلى تنمية سوء ظن كل من الفريقين بصاحبه ، وتوسيع الهوة التي تفصل بينهما ، حتى دفع العناد والمكابرة والشعور بالعزلة والانسلاخ من الجامعة المصرية بعض القبط إلى التخلي عن جنسيتهم . والتماس العزة في ظل بعض الجفسيات الأوروبية التي كانت تكسبها الامتيازات الأجنبية حصانة خاصة وتضعها في مركز ممتاز لا تمتد إليه يد القانون^(٢) . وأخذ بعض أعيان القبط في الصعيد يدعون سرا لعقد مؤتمر يبحث حالتهم ويؤيد مطالبهم ، ويبشون روح السخط بين المواطنين الأقباط ، ويصورون أنهم مغبونون في الوظائف وفي الحقوق العامة ، وكانت الصحيفتان القبطيتان (مصر) و (الوطن) تنفذان في هذه الروح . وأوجس الناس خيفة من عواقب هذه الحركة الوخيمة . ولكن بطرس غالى - وكان رئيساً للوزارة وقتذاك - كان يطمئنهم بأنه مالك لزام الموقف . وقد أُنذر صحيفة (الوطن) وهددها بتعطيلها إذا لم تسكف عن المضى في التهيج .

١ - كذلك جاء في المقال وهو خطأ . وصوابه (المهيب) بفتح الميم .

٢ - راجع صحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ في مقال (وطنيون أم أجانب ؟ ...) والسياسة أم الدين ؟ ...) وفي ختامها أن نغرى عبد النور كان متجنساً بالجنسية الألمانية ، وأن بشرى حنا بك كان وكيل قنصل روسيا في أسيوط ، وكان سينوت حنا بك وكيل قنصل الزوسيا في النيا . وكان جورجى وبصا بك وكيل قنصل أمريكا في أسيوط . وكان الخواجة تادرس مقار وكيل قنصل فرنسا بأسيوط . وكان بسى اندراوس بك وكيل قنصل إيطاليا في الأنصر . وقد أصبح هؤلاء - فيها بعد - من أساطين حزب الوفد .

وفوجيء الناس بقتل بطرس غالى فى ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠ فتفاجم بمقتله الخلاف، وصرح الشر، وبرزت الفتنة عارية عمياء، تخبط تخبط عشواء. كان قاتله، إبراهيم ناصف الوردانى، شاباً فى الرابعة والعشرين من عمره. تلقى علوم الصيدلة فى كوزان وفتح بعد عودته صيدلية. وكان من المتحمسين لمبادئ الحزب الوطنى المناوئ للحدويى عباس وقتذاك، بعد أن مال إلى مهادنة المستعمرين والاتفاق مع ممثليهم الذى خلف كرومر فى مصر: للدون جورست، وكان الحزب الوطنى يرى أن بطرس غالى هو عضد الحدويى الأيمن فى سياسته الجديدة. فهو الذى سافر معه إلى لندن فى صيف سنة ١٩٠٨ حين كان وزيراً للخارجية فى وزارة مصطفى فهمى، وتفاهم مع الإنجليز على السياسة الجديدة. وقد كان من قبل مستشاره وسفيره فيما كان ينشب بينه وبين كرومر من خلاف^(١). وقد رشحه الحدويى عباس لرياسة الوزارة، وضمنه عند جورست حين سأل: ألا يحصل انتقاد من الأهالى بتعيين رئيس قبطى؟ فرد عليه عباس قائلاً: إنه قبطى ولسكنه مصرى، أما نوبار فلم يكن مصرياً^(٢). ثم إن تاريخ الرجل السياسى فيه من الأخطاء ما ينزل إلى درجة الخيانة الوطنية فهو الذى وقع اتفاقية السودان فى سنة ١٨٩٩ بالنيابة عن الحكومة المصرية بوصفه وزير خارجيتها^(٣). وقد فوجيء الناس وقتذاك بتوقيعها، ولم يذع أمرها إلا بعد إبرامها. وكانت الصحف تجهل الخطوات التى سبقتها فلم تنشر شيئاً عن مقدماتها أو المفاوضات بشأنها^(٤). ثم إن بطرس غالى هو الذى أصدر قراراً بتشكيل المحكمة المختصة فى حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ حين كان وزيراً للعدل

١ - راجع أمثلة مختلفة لذلك فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ٤٤، ٤٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨،

٦٧، ٧١، ٧٥، ٨٥، ١٠٢، ١١٠

٢ - مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب ١٥٩

٣ - وهى الاتفاقية التى خولت لانتجلترا رسمياً حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فى السودان، ورفع العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى فى أرجائه كافة، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة الإنجليزية.

٤ - مصطفى كامل ص ١٠٩

بالنيابة ورأس هذه المحكمة بنفسه^(١). وقد استهل عمله في الوزارة التي رأسها بكيت الحريات ، فأعاد العمل بقانون المطبوعات القديم في مارس سنة ١٩٠٩^(٢). وأصدر قانون النقي الإداري الذي يضع في يد السلطة الادارية حق نفي الأشخاص الذين ترى أنهم خطرون على الأمن العام إلى جهة نائية بالفطر المصري^(٣). وختم حياته السياسية بدخوله مع شركة قناة السويس في مفاوضات لمدة امتيازها أربعين سنة مقابل أربعة ملايين من الجنيهات^(٤).

كان الحزب الوطني إذن يرى أن الرجل قد خان وطنه وآذاه . ولكن الصحف القبطية ، ومعها كثير من القبط ، كانوا يرون أن هذه الجريمة الفذة التي لم يسبقها نظير في تاريخ مصر الحديث لم ترتكب إلا بدافع من التعصب الديني ، وأن بطرس غالي لم يقتل إلا لأنه قبطي . واتهموا الحزب الوطني بأنه هو الذي هيج الرأي العام عليه بكتاباتاته واحتجاجاته على معاهدة ١٨٩٩ ودنشواي وقانون المطبوعات وقانون النقي الإداري .

١ — مصطفى كامل ص ١٦٨

٢ — صدر قانون المطبوعات القديم في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١ إبان الثورة العربية . وهو يحول وزير الداخلية حق إنذار الصحف وتعطيلها دون محاكمة . وقد حوكم بمقتضى هذا القانون كثير من الصحفيين وحكم عليهم بالسجن . فسجن الشيخ عبد العزيز جاويز ثلاثة شهور لكتابته مقالا عن ذكرى دنشواي في صحيفة اللواء هاجم فيه بطرس غالي ، وفتحى زغلول في يونيو سنة ١٩٠٩ . وسجن في هذا العام : أحمد حلمي صاحب جريدة (الفطر المصري) ستة شهور مع الشغل ، وعطلت صحيفته ستة شهور لترجمته مقالا نشر في إحدى الصحف التركية وهامقه عليه . ثم توالى العقوبات بعد ذلك على كل مناوئ للامستمار أو الحكومة .

٣ — كان المبعدون ينفون عادة إلى الواحات الداخلة .

٤ — فعل ذلك اتباعاً للرأى المستشار المالى الإنجليزى ، الذى اقترح هذه الوسيلة لسد حاجة الخزانة الحكومية للسال . وقد بدأ امتياز النناة منذ افتتاحها في سنة ١٨٦٩ لمدة ٩٩ سنة تنهى في سنة ١٩٦٨ ، وكان المشروع يهدف إلى مد مدة الامتياز أربعين سنة أخرى تنتهى في سنة ٢٠٠٨ ، وقد ظل مشروع المد في طي الحفاء زهاء سنة ، وكان في عزم الوزارة مفاجأة الرأى العام بإفاده ، لولا تسرب أنبائه وهياج الشعب ومطالبته بعرضه على الجمعية العمومية . وقد رفضته الجمعية العمومية بعد مناقشات طويلة رغم تأييد ممثل الحكومة له (سمع زغلول) وقتل بطرس غالي أثناء نظر الجمعية لمشروع المد (راجع محمد فريد ص ١٣١ — ١٥٤) .

وعند ذاك انحرفت حركة القبط انحرافاً خطيراً ، فزادوا على الكتابة في الصحف القبطية الشكوى إلى الصحافة الإنجليزية وانتقل عنها في صحفهم ، وسفر بعض رجالهم إلى إنجلترا شاكين مستنجدين . فذه هي صحيفة (العلم) تروى ما نشرته جريدة (الدبلي نيوز) من شكوى أحد الأقباط الموجودين في إنجلترا من سوء وضع القبط في مصر . ويعرف الزائر القبطى القبط بأنهم سلالة قدماء المصريين ، ويقول : إنهم كانوا يتمتعون بمراكز مهمة تزعت منهم شيئاً فشيئاً . ويرد (العلم) على ذلك بمناشدة أمثال هذا الرجل أن يتقوا الله في وطنهم ^(١) . وهذه هي صحيفة (مصر) تنشر سبلاً من البرقيات بعنوان (قاق الأقباط العظيم) و (ما يجب على الأقباط) ، منها ما يطالب بالالتجاء إلى دولة قوية لتكون عضداً لهم في المستقبل ، ومنها ما يطالب بعدم منح المصريين الدستور . والالتجاء إلى عوم الدول الأوروبية للنظر فيما آلت إليه حالتهم . ومنها ما يبلجأ إلى وزير خارجية إنجلترا وإلى د. جناب المعتمد البريطانى بمصر ^(٢) . وتنقل هذه الصحيفة عن (الإجميشيان جازيت) افتتاحيتها التى هاجمت فيها مدارس الشعب التى كان يديرها الحزب الوطنى وقتذاك ، متهمة إياه ببيت روح التعصب الدينى ، وإثارة الفتنة ، وإيغار صدور العامة ضد الحكم الحالى وضد المحلن والنصارى ^(٣) . وتدعو الصحيفة إلى إرسال وفد قبطى لوزارة الخارجية الإنجليزية للدفاع عن حقوقهم ^(٤) .

على هذا النحو راحت الصحف القبطية تكيل التهم للحزب الوطنى ورجالها وصحافته فى عنف بالغ ، وراح هؤلاء يردون على هذا العنف بعنف مثله ^(٥) .

١ - صحيفة العلم) عدد ٧ أغسطس سنة ١٩١٠ مقال (آلام القبط) .

٢ - صحيفة (مصر) عدد ٢٥ فبراير سنة ١٩١٠

٣ - صحيفة (مصر) عدد ٤ مايو سنة ١٩١٠ مقال (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) .

٤ - صحيفة (مصر) عدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ مقال (تحركات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) .

٥ - راجع أمثلة ذلك فى مقالات عبد العزيز جاویش (الإسلام غريب فى دياره) و (هلام)

ونشطت الدعوة لعقد المؤتمر القبطى فى أسىوط بعد أن ضاعت مساعى العقلاء من الفريقين ، مثل إسماعيل أباطة وواصف غالى فى الحد من عنف النافرين وكبح جماحهم . وترددت الحكومة فى التصريح به خشية الفتنة واضطراب الأمن ، طالبة أن يعقد فى العاصمة حتى يمكن تلافى ما قد ينجم عنه ، ثم أذنت آخر الأمر بعقده فى أسىوط ، فتم انعقاده فى يوم الأحد ٥ مارس سنة ١٩١٠ ، بدعوة من مطران أسىوط وبرئاسة بشرى حنا بك ، واستمرت جلساته إلى يوم الأربعاء ٨ مارس سنة ١٩١٠ (١) . وانحصرت مطالبه فى :

- ١ - طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة .
- ٢ - أن تكون قاعدة التوظف هى السكفاعة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العديدة فى السكان .
- ٣ - وضع نظام لمجالس المديريات يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامى وحده فى المدارس الأولية .
- ٤ - وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصرى فى المجالس النيابية .
- ٥ - جعل الخزينة العمومية مصدراً للإتفاق على جميع المرافق المصرية (٢) .

(= هذه الفجعة ؟) مجلة الهداية عدد مارس سنة ١٩١١ . وصحيفة (العلم) عدد ٧ مارس سنة ١٩١١ فى مقال « وظنيون أم أجانب ؟ » وللسياسة أم للدين ؟ (وعدد ١١ أبريل سنة ١٩١١ : (على من نعمة هذه الارتباكات ؟) وعدد ٥ إبريل سنة ١٩١١ فى مقال (فلنحاسكم فقد القضى زمن المجاملة) وصحيفة (مصر) عدد ٧ إبريل سنة ١٩١٠ فى مقال (سهم آخر من كنانة الحزب الوطنى) . وعدد ٣ مايو سنة ١٩١٠ (حزب الثورة والأقباط) ، ٤ مايو سنة ١٩١٠ (معاهد الفتنة أو مدارس الشعب) وعدد ٢ يوليو سنة ١٩١٠ (تخرصات جريدة العلم واستهانتها بكرامة الأقباط) . وراجع كذلك ديوان على الغايات (وطنيتى) ص ١٠٨ (الحادث الخطير - قتل رئيس الظار السابق) ، ص ١١٥ (يوم القضاء على إبراهيم ناسف الوردانى) .

١ - راجع قرارات المؤتمر وما ألقى فيه من كلمات فى أعداد صحيفة مصر من الاثنين ٦ مارس إلى الخميس ٩ مارس سنة ١٩١٠ . وراجع كذلك افتتاحية (العلم) عدد ٣ إبريل سنة ١٩١١ (المؤتمر القبطى) .

٢ - مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، صحيفة (مصر) عدد ٢٢ مارس سنة ١٩١١ (الأقباط فى مصر - الجمعية العمومية فى أسىوط) ، مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول .

وتولى مصطفى رياض باشا الدعوة إلى مؤتمر مصرى ينظر في شئون المصريين جميعاً - أقباطاً ومسلمين - وسماه (المؤتمر المصرى) ، ولم يسمه (المؤتمر الإسلامى) مؤكداً لوحدة الأمة ، وتجاهلاً للأساس الطائفى الذى قام عليه (المؤتمر القبطى) . وتم انعقاد المؤتمر برئاسة مصطفى رياض فى يوم السبت ٢٩ أبريل سنة ١٩١١ ، وظل منعقداً إلى يوم الأربعاء ٤ مايو سنة ١٩١١^(١) . وقد رجا الرئيس المجتمعين فى افتتاح المؤتمر أن يحكموا روح العدل وتأييد الروابط الوطنية فى مداولاتهم ، وأن يكون التسامح الذى عرف عن الإسلام رائدهم فيما يقولون . وتلاه لطفى السيد بتلاوة تقرير اللجنة التحضيرية ، فأكد أن المؤتمر يبحث فى المصلحة العامة ، وينظر فى التوفيق بين العناصر المؤلفة للوحدة المصرية التى كاد يتصدع بناؤها من جراء المؤتمر القبطى ، وأكد أن الأقلية والأكثرية فى الأمم لا تقوم على أساس الدين ، ولكنها تقوم على أساس المذاهب السياسية ، وأن الأمة باعتبارها كانتا سياسياً أو نظاماً سياسياً إنما تتألف من عناصر سياسية كذلك . فأثما مذهب من المذاهب السياسية اعتنقه أفراد أكثر عدداً وأثراً كان أكثرية وكان الآخر أقلية . وعلى هذا يمكن فهم الأكثرية والأقليات فى كل أمة ، وليس للدين فى ذلك دخل . وبين ما تنطوى عليه الاستعانة بالإنجليز من خطر على الوطن وعلى الجامعة القومية ، مما يدعو إلى الاسترابة فى حسن نية القائمين به ، الذين أرادوا أن يصلوا بمعونة لإنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم فى مصر - وهم أقلية - حق السيادة على الأكثرية ، اعتماداً على الاحتلال المسيحى ، وعلى أن المصريين أخوف ما يكونون من أن يرموا بالتعصب الدينى . وأعلن أن المؤتمر سيبحث فى عمل الأقباط وتقديره ، ليزن مطالبهم بميزان العدل ، وليبين النافع من الضار ، والممكن وغير الممكن ، ويقرر لهم ما يراه حقاً من غير أن يوجههم إلى السعى بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم . كما أعلن أن اللجنة التحضيرية رأت أن يتناول

١ - توفى مصطفى رياض بعد المؤتمر بقليل فى ١٧ يونية سنة ١٩١١ (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٢٤٩) .

المؤتمر البحث أيضاً في المسائل الاجتماعية والاقتصادية وكل ماله علاقة بسماعة الأمة ، ما عدا المسائل السياسية الداخلية كانت أجنبية ، لأن ظروف مصر لا تسمح بدخول المؤتمر في السياسة . ثم تدبّع مطالب المؤتمر القبطى بالرد واحداً واحداً ، مدعماً رده بإحصائيات تبين أن نسبة القبط في الوظائف الحكومية ، وفي مجالس المديرية التي تدل نتائج انتخاباتها على تسامح المسلمين ، تفوق نسبتهم العددية بمقدار كبير ، وأن الموظفين منهم كثرة في بعض الوزارات .

وبعد أن انتهى أطفى السيد من تلاوة تقرير اللجنة التحضيرية تتابعت البحوث في شتى النواحي الاجتماعية والاقتصادية موزعة بين أيام انعقاد المؤتمر ابتداء من الجلسة الثانية في مساء اليوم الأول لانعقاده .

* * *

لم تكن هذه المحنة شراً خالصاً كما يبدو من هذا العرض . فقد وضعت هذه الخصومة السافرة حداً لسوء الظن المتبادل بين الفريقين ، وكانت تنفيذاً شفى النفوس من الكره السكّام الدفين ، وفرصة لتصفية ما بين جيران الوطن من خصومة وعلاجه بطريقة صريحة . وقد بث كل منهما شكواه ، وعبر عما يجده ، وعاتب صاحبه عتاباً ، إن يكن عنيفاً قاسياً خشناً في بعض الأحيان ، فقد انتهى باعتذار كل منهما لصاحبه على كل حال . ونهض عقلاء كل من الطائفتين لتخفيف حدته وإقامة الأدلة على أنه لا يقوم إلا على أساس من الوهم وسوء الظن ، وأنه لا يفيد أحداً من المتخاصمين ، وأنه لا يعود إلا بالشر عليهما جميعاً ، ولا يستفيد منه إلا المحتل الدخيل الذى يمتص دماء الفريقين كليهما دون تمييز بين مسلم وقبطى . فقد أفاض كل من الفريقين المتخاصمين في الكلام عن الجامعة المصرية وعن خطر تفاقم الخلاف بين عنصريهما^(١) . وصرح القبط بهما وجسهم التي انطوت عليها نفوسهم خلال قرون

١ - راجع أعداد صحيفة مصر في ١٥ فبراير سنة ١٩١٠ (تضامن العنصرين العظيمين في مصر) : ٧ فبراير سنة ١٩١٠ الاتحاد قوة - توحيد عناصر الوطن الواحد لخدمة الوطن . وراجع كذلك في أعمال المؤتمر المصرى الأول كلمات حافظ رمضان وصالح حمدى عماد « الجلسة الثانية » وأحمد عبد الطيف « الجلسة الثالثة » .

طويلة ، ودلوا المسلمين على موطن الداء فاتجهوا إلى علاجه في صراحة أيضاً ، واستطاعوا أن يقيموا الدليل المادى الواضح على أن ما ذاع بين القبط من الشعور بالظلم والحرمان ليس إلا وهما روجته طائفة من المغالطين سيئى النية ، الذين امتلأت جيوبهم وضعفت فيهم العاطفة الوطنية باقتنائهم إلى دول أجنبية ، فلم يبالوا حين أيقظوا هذه الفتنة ليستفيدوا منها أن تقع أوزارها على الوطن الذى برئت قلوبهم من حبه والوفاء له . كما استطاعوا أن يقيموا الدليل على أن ما يطلبه القبط تحت ضغط المضللين المفردين عن تزعموا حركتهم ؛ يتعارض مع مصالحهم هم أنفسهم ويناقضها أشد المناقضة (١) .

ولذلك نستطيع أن نقول : إن هذا الشر المستطير كان نقطة تحول في تاريخ الفكرة القومية . وإذا كان من الحق أن هذه الخصومة كانت قمة العنف في النزاع الذى يتذر بتصدع الجامعة المصرية ، فمن الحق أنها كانت في الوقت نفسه الميلاد الحقيقى لفكرة الوطنية المصرية ، ونقطة البداية الصحيحة في الجامعة القومية ، التى بدت بعد ذلك في أكمل مظاهرها في ثورة سنة ١٩١٩ . ذلك بأن تفاقم الخصومة قد أفرع الفريقين كليهما ، ونهبهما إلى ما ينطوى تحته من خطر داهم ، فتولدت من ذلك رغبة صادقة في جمع السكدة ، ساهم فيها المصريون من قبط ومسلمين . فهذا هو مرقص فهمى يلقي خطبة في اجتماع عقده القبط بحديقة الأزبكية ، ينفى فيها عن المسلمين تهمة التعصب ، مسفها أقوال الذين يتهمون طائفة من الأمة بالاشتراك في اغتيال بطرس غالى جملة ، ويحصر عمل الوردانى في شخصه ، مؤكداً أن الجريمة التى راح ضحيتها رئيس الحكومة عمل يأسف له كل مصرى مسلماً كان أو قبطياً . فيجيبه الغاباى بقصيدته (إلى خطيب السلام) (٢) :

١ — راجع في أعمال المؤتمر المصرى الأول كلمات صالح حدى حماد في الجلسة الثانية « تمحيص مطالب الأقباط ولزالة موجبات الشقاق » وأحد عبد اللطيف في الجلسة الثانية (الأقلية الدينية ومجالسنا النيابية) والشيخ على يوسف في الجلسة الرابعة « التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منته » . وراجع كذلك جداول الإحصاء المختلفة الملحقه بأعمال المؤتمر .

٢ — ديوان الغاباى « وطنيتى » ص ١١٣

خطبت فلم تمنح إلى شرعة الهوى ولم تتخذ نهج الخلاف سيلا
وأنصت قوما أنت منهم ، وإن عدا عليهم جهول أو أغان جهولا
فما أنت قبلى ببيع بلاده ويرضى بدين الجاهلين بديلا
وما أمة القرآن في مصر أمة ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإننا وأنتم إخوة في بلادنا أقما على دين السلام طويلا
نذود عن الأوطان إن طم حادث ونحى حماها بكثرة وأصيلا

ويحتم قصيدته بتحية مرقص فهى قائلا :
فسر في سبيل الصدق يا خير قائل أقام على صدق الولاء دليلا
فقى ذمة الأهرام موقفك الذى روى النيل والأهرام منه غليلا
وهذا هو واصف غالى - والقتيل أبوه - يكتب إلى إسماعيل صبرى ،
يرجوه التوسط في الصلح بين الطائفتين فيقول (١) :

سعادة سيدى المفضل إسماعيل باشا صبرى .
قبل إن الشعراء أنبياء ، إذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب . فمضى أن
يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف .

والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية أن يعمل لما فيه التوفيق
بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتى لضعيف منادياً بالاتحاد والوثام . على
أنى لست ذلك الرجل الذى فى استطاعته أن يحرك عواطف الأمة . فهل لك
يا سيدى أن تبذر بذور السكينة والوفاق ، لتثبت شجرة المحبة والصفاء ، فتثمر
ثمار العز والمجد للبلاد . لعمري إن صوتك هو المسموع المحباب ، فنظمت سحر
يجمع القلوب المتنافرة . وهما نحن على مقربة من تاريخ ذكرى وفاة صديقك الحميم
(٢١ فبراير) (٢) . فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك
الكريم (مثل الأقباط والمسلمين فى مصر - وهما العنصران المكونان

١ - ديوان إسماعيل صبرى هامش ص ١٨٠

٢ - يقصد بصديقه الحميم : والده بطرس غالى .

للأمة — كمثل العينين في الوجه ، يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى . . وتسكّلها بالدعوة إلى أن يكون جدث القميد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الارتباط 'المتين' بين الأقباط والمسلمين . وإني أشكرك من أجل ذلك باسم والدي ، بل بصفتي ابن^(١) حنون على وطنه وأمته ، وتفضل بقبول احترام أحبك الحافظ لك وذو أبيه .

٨ فبراير سنة ١٩١١ واصف بطرس غالى .

ويلى إسماعيل صبرى الدعوة فيكتب قصيدة يتحدث فيها عن مصاب المسلمين والقبط فى بطرس غالى ، قائلا :

معرش القبط يا بنى مصر فى الس	رأى قد كنتم وفى الضراء
قد فقدنا منا ومنكم كبيراً	كان بالأمس زينة الكبراء
فأقمنا عليه فى كل ناد	مأتماً داوياً بصوت البكاء
ومزجتنا دموعنا بدموع	بذلتها عيونكم فى سحاء
ورأينا فتك الرزية بالعة	لـ وفعل المصاب بالعقلاء
بارك الله فيكم أتم النسا	سُ وفاء إن عُدَّ أهلُ الوفاء

ثم يقول : إن الإسلام والمسيحية كليهما بأمران بالإحسان ، وينهيان عن البغى والعدوان ، وإن مصر هى أم المسلم والقبطى على السواء خيرها لهما إن اتحدا وتماسكا . فإن تفرقا فكلُّها للأجنبي الغريب .

دين عيسى فيكم ودين أخيه	أحمد يا مراننا بالإخاء
وينحكم ما كذا تكون النصارى	رافبوا الله بارىء العذراء
مصر أتم ونحن ، إلا إذا قا	مت بتفريقنا دواعى الشقاء
مصر ملك لنا إذا تماسك	نا ، وإلا فصخر للغرباء

ثم يطلب إلى المسيحيين أن يصموا آذانهم عن دعاة الشقاق الذين يبذرون بذور الجفاء ، فيقول :

١ — كذلك جاءت فى النص ومى خطأ . والصواب (بصفتى ابناً حنوناً) .

لا تظيعوا منا ومنكم أناسا بذوراً يبتنا بذور الجفاء
لا تولوا وجوهكم شطر من عكس رما في قلوبنا من صفاء
إن دين المسيح يأمر بالعُسر^(١) وينهى^(٢) عن خُطة الجلاء
لا يكن بعضنا لبعض عدوا لعن الله مستبجحي العدا
وتواتر شعر الشعراء ، كلها سمحت مناسبة من المناسبات ، مؤكدين صلة
المودة والجوار التي تقوم بين المسلم والقبلي ، مذكرين بما كان بينهم من ود قديم
أكيد في مختلف عصور التاريخ ، مبينين أن الإسلام يرى من الذين يسيئون
فهمه ويخرجون على تعاليمه السمحة ، فيسيئون إلى أنفسهم وإلى دينهم وإلى
وطنهم جميعاً .

قتل بطرس غالي ، فرثاه شوقي بقصيدته :

قبر الوزير تحية وسلاما الحلم والمعروف^(٣) فيك أقاما^(٤)
وفها يقول :

قَدْ عَشْتُ تَحْدُثُ لِلنَّصَارَى أَلْفَةً وَتُسْجِدُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَثَامَا
وَالْيَوْمَ فَوْقَ مَشِيدِ قَبْرِكَ مِيسَتَا وَجَدَ الْمَوْفِقُ لِلْمَقَالِ مَقَامَا
الْحَقُّ أَبْلَجُ كَالصَّبَاحِ لِنَظَرِ لَوْ أَنَّ قَوْمًا حَكَمُوا الْأَحْلَامَا
أَعَدَّتْنَا وَالْقَبْضُ إِلَّا أَمَةً لِلأَرْضِ وَاحِدَةً تَرُومُ مَرَامَا
نُعْمَلِي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ وَبُوقَرُّونَ لِأَجْلِنَا الْإِسْلَامَا
الدِّينَ لِلدِّيَّانِ جَلَّ جَلَالُهُ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ وَحَّدَ الْأَقْوَامَا
يَا قَوْمَ بَانَ الرُّشْدُ فَاقْصُوا مَا جَرَى وَخَذُوا الْحَقِيقَةَ وَابْذُوا الْأَوْهَامَا
هَذِي رُبُوعُكُمْ وَتِلْكَ رُبُوعُنَا مَتَقَابِلَيْنِ نَعَالِجُ الْآيَامَا
هَذِي قُبُورُكُمْ وَتِلْكَ قُبُورُنَا مَتَجَاوِرَيْنِ جَمَاجِمَا وَعِظَامَا
فَجَرَمَةُ الْمَوْتِ وَوَاجِبُ حَقِّهِمْ عَيْشُوا كَمَا يَقْضَى الْجَوَارُ كِرَامَا

١ - العرف (بضم العين) : المعروف .

٢ - الديوان ٣ : ١١٤

وتوجه إلى القبط بقصيدته :

بني مصر إخوان الدهور رويدكم
هجوهُ يسوعاً في البرية ثانياً (١)

وفها يقول :

تعالوا عسى نطوى الجفاء وعده
ألم تك (مضمر) تميدنا ثم لنحننا
ألم فك من قبل المسيح بن مريم
فهلّا تساقينا على حُبّه الهوى
وما زال منكم أهل وُدّ ورحمة
فلا يثنّكم عن ذمة قتل بطرس
ورثاه إسماعيل صبرى بقصيدته :

لتهنأ الرياسات على زاحل
قد كان ملء العين والمسمع (٢)

وفها يقول :

عيني فيك اليوم قبطية
يهم من وجد ومن لوعة
ويأخذ البرّ وآى الوفا
ورثاه نسيم بقصيدته : (٣)

اجعل عزاءك في الوزير جميلاً
أعز علينا أن يموت قتلاً

١ - الديوان ٤ : ٣٩

٢ - غنى القوم بالمكان (على وزن علم : أقاموا . والمضى : يوزن اسم المكان : مكان الإقامة .
والجبع معاني .

٣ - الذمة العهد : يقول لهم : لا يحملكم قتل بطرس على العدول عما كان بينكم وبين
المسلمين من تواصل وتراحم .

٤ - الديوان ص ٢١٨

٥ - المشرع : التهل . ويقصد بالكتاب الطيب المشرع : القرآن الكريم .

٦ - الديوان ٢ : ٣٤

أودى فغادر الطوائف مقلة تسكى الوزارة والدم المظلول
أجرت يد القدر الرهيب دماه حمراء تحكى المسجد المحلول
لو كان في شعري أزاهر تجشنى لقطفتها وجعلتها إككيلا
واقه لولا داء قلبي ما غدا قلبي بغير رثائه مشغولا
وقد تجاهل فيها الخلاف بين عنصري الأمة فلم يشر إليه ، وانصرف في
معظم القصيدة إلى تهنته محمد سعيد بالوزارة والإشادة بفضله وما يعلق عليه
المصريون من آمال .

ورثاء ولي الدين يكن بقصيدة تزيد عن ستين بيتا بدأها بقوله :
أبدأ تراعى غيرها وترأدى اكذا أعادى الأكرمين تعادى (١)
ولم يشر في قصيدته إلى خلاف المسلمين والقبط . ولكنه هاجم بعض رجال
الحزب الوطنى فى قسوة ، واتهمهم بإثارة الفتنة وبسوء القصد . ورثاء من قبل
ذلك فى مقال عنيف نشر فى صحيفة المقطم عنوانه (بطرس غالى فى موكبه
الآخر) (٢) .

يقول فيه مهاجماً الحزب الوطنى وصحفه :
حسبهم الله ... ألقوا النيام فى مضاجعهم ، وأتعبوا الرائحين والغادين فى
طرقاتهم ؛ ودوت صيحاتهم فى الآذان حتى كادت تصدئها . أعولوا نم أعولوا :
ليسبحى الدستور ! ... ليسبحى الدستور ! ... ليسبحى فلان ! ... ويسقط فلان ! ...
أمن أجل هذا كانوا يريدون الدستور ؟ (٣) .
قام بالأمس أحد قرأه سورة يوسف ، فأصدر جريدة دينية جديدة
ليجعلها لإحدى البلايا على الدين وبنية (٤) . ماذا تريد بطريك يا هذا المطبيل ؟ ...

١ - الديوان ص ٦٦

٢ - المصاطف السود ص ١٠١

٣ - كانت المطالبة بالدستور وقتذاك على أشدها . وكان الحزب الوطنى هو المزعّم لهذه الحركة .

٤ - يعرض بالشيوخ عبد العزيز جويش ، ويتعد بصحيفته مجلة (الهداية) التى صدر العدد
الأول منها فى فبراير سنة ١٩١٠ ، فوافق قتل بطرس قالى .

أنبي أنت أم إمام أم فقيه أم سياسي أم أديب ؟... أم ثرثرة تريد النعيق على أطلال بلد لست من أهله^(١) ؟. حسبك وحدة أرتنا نقشاتك . تلك نقشات ستفر غداً منها ، وستظل هي على أثرك ، وإن الله لبالمرصاد .

ودافع في آخر المقال عن بطرس غالي فيما اتهمه به الحزب الوطني فقال :
« ماذا جنى هذا الفقيد المظلوم ؟ ... صاح أكثركم مذكراً بمحادث دنشواي .
وتصدق آخرون باتفاق إنك لنترا ومصى على السودان . وشكا غيرهم من قانون المطبوعات . وهل كان لهذا الوزير القدر من التفرد بالإدارة والخيار في الفعل ؟ ... ومن أهاج أهل دنشواي ؟ ... ومن أتى بقانون المطبوعات ؟ سائلوا تلك الجرائد التي تود أن توقع البلد في الهلاك ، عسى أن توافيكم بحواب سديد . » ثم دافع عن القبط قائلا :

« الأقباط هم أولئو مصر قبل كل مصري . ما زال الجوز يتصيدم حتى قسكوا عدداً ووفرتم ، وخسروا وكسبتم . ثم من الله بعده ، فقالوا : نحن إخوان ، أفلا تريدون أن تكونوا لهم إخواناً ؟ ... فما لهذه البرائن إذن داميات ١٢ . »

وقصيدة الشاعر ومقاله أيضاً علاجاً للوقوف كما ترى . وربما خفف من وقعهما أنهما صدرتا من شاعر مسلم . ولكن الرجل كان معروفاً بتحيزه للإنجليز كما سيحيى .

وأحجم كثير من الشعراء وقتذاك عن رثاء الرجل لما أحاط بموته من شُبه ما اتهم به من مشايعة الإنجليز ضد مصلحة الوطن . فسكت حافظ ومحرم والكاشف وعبد المطلب . ولكن بعضهم شارك في مناسبات أخرى مشاركة فعالة قوية في راب الصدع وجمع الصفوف .

وكان محرم أكثر الشعراء شعراً في هذه المناسبات ، وأشدهم تحمساً في الدعوة

١ — بشير إلى أن عبد العزيز جاويز من أصل مغربي . والجبب أن زلي الدين يكن تركي وليس مصرياً خالصاً ، وقد كان صديقاً للإنجليز كما بينا في الفصل السابق وصحيفة (المقطم) التي نشر فيها المقال صحيفة استهائية كما هو معروف .

إلى التوفيق ، والتحذير من الكارثة التي توشك أن تحل بالمسلم والقبلى فتعمهما على السواء .

يقول فى قصيدته : تفرق المذاهب ، مخاطباً القبلى : (١)

بنى وطنى ، من يرتد الشر بمبلغه	وإن راقه يوماً رداء مسماً
بنى وطنى ، إن الأمور سماتها	تبين . وإن الرأى أن تتوسماً
بنى وطنى ، مالى أراكم كأنما	تروى السبيل الوعر أهدي وأقوما
أئن قام ينهاكم عن الغنى راشد	غضبتكم وقلتم خائن رام مغنماً ؟
... تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة	وإن انبئات الحسب أن بتفصماً
تعالوا إلينا ، إنما نحن إخوة	وإنى رأيت الأخذ بالرفق أحزماً
وإن سبيلنا سواء ، وكلنا	بنو مصر نأبى أن تضام وتضمماً
وما العار إلا أن تظلل أخيداً	وتبقى مدى الأيام نهباً ممقماً

ويختم القصيدة بقوله :

تفرقنا الأديانُ والله واحد	وكلُّ بنى الدنيا إلى آدم انسمى
وساوس ظل الشرق فيها مصفداً	فما يملك الشرق أن يتقدما
بنى الشرق لا يهرعكم الدينُ لأننى	أرى الغرب لو لالجد والعلم ما سما
سلوه إذا رام الفريسة فانتحى	أيرعى مسيحياً ويرحم مسلماً ؟
هو الموت أو تستفل الشرق رجفة	تزلزل صرعى من بليه ونووما

ويقول فى قصيدته : الخلف واللجاج ، (٢)

يا أمة القبط والأجيال شاهدة	بما أنا وإكم من صادق الذم
هذى موافقنا فى الدهر ناطقة	فاستقبئوها تريجوننا من التهم

لا تظلموا الدين. إن الدين يأمرنا
منا ومنكم رجال لا حُلومَ لهم
أتم لنا إخوة لا شيء يبعدنا
ليس اللجاجُ بمذنٍ من رغائبنا
يا ويح مصر الخلف لا ركود له
ولو تألف أهلها لما بقيت
يا قوم ماذا يقيد الخلف؟ فاتفقوا
صنوا اليهود وكونوا أمة عرفت
يا قوم لا تغفلوا إن العدو له
ويقول في قصيدته « بين المأربين » (١).

كذب الوشاة وأخطأ اللوامُ
حبٌ متجدد الحادثات عموده
وصل المقوقس بالنبى حباله
وجرى عليه خليفة خلفه
لا تفتشدوا العهد المؤكد بيننا
الدين لله العلى وإنما
إن كان للواشى المفرق مأرب
أنظّل صرعى والشعوب حثيثه؟
أتم أولو عهدٍ وتحن كرامُ
وتزيد فى حُرُماته الأيامُ
فإذا الحبالُ كأنها أرحام (٢)
ولمأمم عدلٍ بعده فإمامُ
النيل عهدٌ دائمٌ وذمامُ
دينُ الحياة توددٌ ورتامُ
فلنا كذلك مأربٌ ومرامُ
ونعيش فتوضى والحياة نظامُ؟

١ — الديوان ٢ : ١١٩

٢ — يشير إلى هدية المقوقس للرسول صلوات الله عليه ، حين دعاه إلى الإسلام ، فرد عليه بإهدائه « مارية » القبطية التى تزوجها النبى وولدت له ولده إبراهيم .

ويقول في قصيدته «دنيا الممالك» (١)

يا أمة الإنجيل آمنّا به ما بالزبي ولا يسوع جُحودُ
الدين في أمرٍ ونهى واحدٍ والله جلّ جلاله المعبودُ
دنيا الممالك لا تحدُّ . وديشها وقف على ديّانها محبود
درج الزّمان على المودّة بيننا وأراه ينقّص والإخاء تريدُ
برأ بمصر . ومصر أعظمُ حرمةً من أن يضيع رجاؤها المنشود
شدوا القلوب على الإخاء فإنها مصر وإنّ بلاءها لشديد
أزرى الممالك كلّ يوم حولنا تسمى ونحن على الرجاء نعود ؟
الأمرُ مشترك . ومصر لنا معاً في العالمين منازلٌ ولحودُ
والنيل ، إن حمل القذا وإذا صفا فهو الحياةُ ووردّها المورودُ
أنحون أنقُسنا ونفسدُ أمرنا أن قالواش أو أراد حسودُ ؟ ...
زعم العدى أنا نحق بلادنا زعم لعمرُ الأمتين بعيدُ

وينتمز حافظ عودة الحديوي عباس من دار الخلافة سنة ١٩١١ ، فيشير في قصيدته التي هنأ بها إلى خلاف المسلمين والقبط داعياً إياه إلى تلافيه حيث يقول : (٢)

مولاي ... أمتك الوديدة أصبحت وعُرا المودّة بينها تنفصمُ
نادى بها القبطى ملء لسانه أن لا سلامَ وضاق فيها المسلمُ
وهمّ أغار على النهى وأضلّها فجرى الغي وأقصر المتعلمُ (٣)

١ - الديوان ٢ : ١٢٠ - ١٢٣ . وراجع كذلك قصائده في (الإخاء الوطني ٢ : ١١٣) (العام الهجري الجديد ٢ : ١٢٤) .

٢ - الديوان ١ : ٢٩١ . وحافظ من أقل الشعراء مساهمة في هذا الباب ليس له فيه إلا هذه الأبيات .

٣ - يقول : جرى الأغبياء وقصار النظر إلى إشمال الفتنة ، بينما كف التلمعون وذوو النظر عن إغدامها وتلافيتها .

فهِيمُوا مِنَ الْإِدْبَانِ مَا لَا يَرْتَضَى دِينَ^١ وَلَا يَرْضَى بِهِ مِنْ يَفْهَمِ
 ماذا كدها قبطى^٢ مصر^٣ فصدده عن وُدِّ مسئلها وماذا ينتقم^٤؟
 وعلام^٥ يخشى المسلمين وكيدهم والمسلمون عن المكاييد نو^٦م ؟...
 قد ضمنا ألم الحياة وكلنا يشكو ، فتجن على السواء وأتم^٧
 إني ضمين^٨ المسلمين جميعهم أن يخلصوا لكم^٩ إذا أخلصتم^{١٠}
 رب^{١١} الأريكة إننا في حاجة لجيل رأيك والحوادث^{١٢} حو^{١٣}م^{١٤}
 فافض^{١٥} علينا من سمائك حكمة تأسو القلوب فإن رأيك أحكم^{١٦}
 واجمع شتات العنصرين بعزيمة تأقى على هذا الخلاف وتخمس^{١٧}
 فكلاهما لعزیز عرشك مخلص^{١٨} وكلاهما برضاك صب مفرم^{١٩}

ويموت مصطفى رياض الذى رأس المؤتمر المصرى سنة ١٩١١ بعد المؤتمر
 بشهر وبعض شهر فى ١٧ يونيه سنة ١٩١١ ، فيراثيه كثير من الشعراء . ولا يفوت
 شوقى أن يشير فى رثائه إلى سعيه المشكور فى إطفاء الفتنة ، حيث يقول : (٢)

طلعت على السدى^١ (بعين شمس) فواقها بشمسين الغداة
 على ما كان يندو القوم فيها توافى الجمع واتسمر^٢ السراة
 تملكهم وقار^٣ك فى خشوع كما نظمت مقيمها الصلاة^٤
 رأيت وجوه قومك كيف جلست وكيف ترعرعت مصر^٥ الفتاة
 تقول : متى أرى الجيران عادوا وضمت^٦ على الإخاء لهم شتات^٧ ؟
 وأين أولو الشهى منا ومنهم ؟ عسى يأسون ما جرح^٨ الغلاة
 مشت بين العشيرة رُسُل^٩ شر^{١٠} وفرقت^{١١} الظادون السيئات^{١٢}

١ — الحوادث حوم : أى تحوم حولنا وتطوف بنا .

٢ — الديوان ٣ : ٤٧ وقد تفرد شوقي بالإشارة إلى المؤتمر المصرى بين الشعراء الذين رثوه
 فأثروا أن يهربوا من الموضوع ويتجاهلوه .

إذا الثقة اضمحلت بين قوم تمزقت الروابط والصلات
 بنى الأوطان هبوا ثم هبوا فبعض الموت يجلبه السبات
 متى للمجد خنطف البرق قوم ونحن إذا مشينا السلك خفاة
 يمدون القوسى برا وبحرا وعدتنا الأمانى الكاذبات

ويعت جورجى زيدان سنة ١٩١٤ . فينتهز شوقى هذه الفرصة ، ويشير فى رثائه إلى أن الأديان إنما نزلت لهداية الناس . فمن فساد الرأى أن نجعلها باباً للشر ، وإنما يتبع الناس آباءهم فى أديانهم ، ويرثون العقيدة فيما يرثون من مخلفات الأجداد^(١) .

ممالك الشرق أم أدراس أطلال ؟ وتلك دولاته أو رثمتها البالى ؟
 أصابها الدهر إلا فى مآثرها والدهر بالناس من حال إلى حال
 وصار ما نتفى من محاسنها حديث ذى محنة عن صفوه الخالى
 إذا جفا الحق أرضاً هان جانبها كأنها غابة من غير رثبال
 وإن تحكم فيها الجهل أسلحتها لفاتك من عوادى الذل قتال
 نوايح الشرق هزوه لعل به من الليالى جمود اليأس السالى
 إن تنفخوا فيه من روح البيان ومن حقيقة العلم ينهض بعد اغتيال
 لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم ولا محل مباهة وإدلال
 ما الدين إلا تراث الناس قبلكم كل امرئ لآيئه تابع تالى
 ليس الغلو أميناً فى مشورته مناهج الرشيد قد تخفى على الغالى

ويترجم واصف غالى - ابن بطرس غالى - بعض الشعر العربى إلى الفرنسية ، وينشر الترجمة فى باريس فى كتاب سماه (روض الأزهار) . ويلقى بعض المحاضرات هناك فى الإشادة بفضل الشرق والشرقيين ، فيقيم المصريون حفلاً بفندق

(شترود) في مساء ٤ يونيه سنة ١٩١٤ برئاسة إسماعيل صبرى^(١). ويسام شوقي في هذه المناسبة قصيدته (يا شباب الديار). وفيها يقول^(٢):

يا بني مصر، لم أقل أمة قريبت	ط ، فهذا تشبث بمحال ^(٣)
واحتيال على خيال من المجت	د، ودعوى من العراض الطوال
إنما نحن مسلمين وقبلاً	أمة وحدثت على الأجيال
سبق النيل بالأبوة فينا	فهو أصل آدم الجد تال
نحن من طينة الكريم على الله	ه ومن مائه القديح الزلال
مر ما مر من قرون علينا	رُسفاً في القيود والأغلال
وانقضى الدهر بين زغردة العر	س وحشو التراب والإغوال
ما تحلى بكم يسوع ولا كنت	ا إله ودينه بجمال ^(٤)
ومتضاع البلاد بالنوم عنها	ومتضاع الحقوق بالإهمال

ويتجه في آخر قصيدته إلى شباب مصر، مسلمين وقبلاً، يذكرهم بواجبهم نحو وطنهم، وبأنهم موضع الأمل في النهضة به فيقول:

يا شباب الديار مصر لايكم ولواء العرين للأشبال

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٢١

٢ — الديوان ١ : ٢٣٥

٣ — يشير إلى ما كان يردده القبط من أنهم هم سلالة الفراعنة ، ومن أن القبط تطلق على المصريين جميعاً . فهناك قبطى مسلم وقبطى مسيحى ، ويراجع في ذلك على سبيل المثال نص المحاضرة التي ألقاها شكرى صادق في حفلة جمعية التوفيق ، وموضوعها (الفنون القبطية وعلاقتها بالفنون الأخرى) وقد نشرتها صحيفة (مصر) في أعداد ٣٠ يناير ، ٣١ يناير ، أول فبراير سنة ١٩١٠ .

٤ — يقول للمسلمين والقبط : لم هذا التعصب ، وایس أحد منكم هو خير أمة نبيه ، فليس القبط هم أخاص أتباع المسيح ، ولا هم خير من ينفذ شريعته . وليس المسلمون من المصريين هم خير أمة عهد ولا هم أحرس المسلمين على إمامة شمامسة الإسلام . والأولى لكل منهما أن يقيم دينه ويأمره ، بدل أن يتخذ أداة للشر وسبباً للتراع .

كلّما رُوِّعَتْ بِشُبُهَةِ يَأْسٍ جعلتكم ممّا قلّ الأمل
هيوها لما يلين بمنف وكريم الآثار والأطلال
هيوها لما أراد (على) وتمنى على الظُّبى والعَوالى
وانهضوا نهضة الشعوب لدنيا وحياة كبيرة الأشغال
ولمّا الله من مشى بصليب فى يديه ومن تمشى بهلال
ويساهم حافظ فى الحفل بقصيدته : (١) .

يا صاحب الروضة الغناء هجنت بنا ذكرى الأوائل من أهل وجيران
ويكتفى فيها بالإشارة إلى فضل المحتفل به وإخلاصه لمصريته .
ويساهم إسماعيل صبرى - رئيس الحفل - فى هذه المناسبة بقصيدة
قصيرة : (٢)

أى صوت حيّته بالأمس بارئ من مقرّ العلوم والعلماء
وهو فيها كصاحبه حافظ ، فضّل أن يتجاهل وجود الخلاف القائم بين
عنصرى الأمة ، واكتفى بالثناء على واصف غالى ، والإشادة بمجهوده الأدبى .

* * *

كان هذا الشقاق إذن محنة امتحنت بها الجامعة المصرية الناشئة فتبنت لها .
وكان فرصة موالية لكلام كثير قيل فى تثبيت دعائم القومية المصرية . وليس
من الإسراف فى الاستنتاج ، ولا هو من الغلو فى القول ، أن تقرر أن الوحدة
الرائعة بين عنصرى الأمة ، التى بدت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٩ ،
لم تكن إلا ثمرة لهذه الجهود المخلصة التى بذلت فى رابِّ الصّدع ، وتوثيق
الصلات ، وإزالة الأوهام ، وتصحيح فهم التدين ، الذى لم يزل الجهل يأخذ
بزمامه ، والعصبية العمياء تركبه ، حتى تردت به فى فتنة هوجاء ، يبرأ منها
إلى الله كل دين .

الفصل الرابع

تيارات سياسية

كانت الثورة العراقية بداية تحول خطير في الوعي السياسى المصرى ، فقد كثرت فيها الكلام عن حقوق المصريين وعن الحياة النيابية وعن الحد من سلطان الحاكم ومراقبة تصرفاته . وكان أخطر ما تنطوى عليه من دلالة أنها مظهر لثقة المصريين بأنفسهم وبقدرتهم على فرض إرادتهم ، وبجيشهم وبقدرته على الصمود فى وجه الأجنبي .

والمواقع أن ثورة الأفكار والتطلع إلى الحرية والنظم النيابية كانت قد بدأت منذ أواخر عهد إسماعيل ، واتسع مداها فى أوائل عهد توفيق . فأخذت مصر تتطلع إلى نظام جديد يضع حداً للإسراف وللنفوذ الأجنبي ، ويوطد أركان العدل والحرية والدستور ^(١) .

وبدأت مظاهر هذه الثورة الكامنة التى تريد أن تعبر عن نفسها فى صور مختلفة . فقد بلغت جرأة الصحف فى معارضة الحكومة حداً لم يألفه الناس ولم يعرفه الحاكمان من قبل . وأصبحنا نسمع للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث عن تعطيل الصحف واضطهاد رجال الصحافة ^(٢) . وكثير حديث الناس عن الظلم والظالمين . وجهر الشوارب بأرائهم الجريئة التى صادفت هوى فى النفوس . وانطلق جمال الدين الأفغانى يشحن قلوب تلاميذه ومريديه بالثورة على الأوضاع

١ — الثورة العراقية ص ١٩

٢ — مثل صحف : (مصر) و (التجارة) و (مصر الفتاة) الثورة العراقية ص ٦٩ ،

زعماء الإصلاح ٣٠٠ ، ٣٠١

السائدة ، وبوقظ فيهم روح الحمية والألفة بما يليق إليهم من مثل قوله : (١)
 « لأنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وريتم بحجر الاستبداد ،
 وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عب ، نير
 الفاتحين وتعنون لوطاة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ،
 وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنزف قوام حياتكم
 ومواد غذائكم المجموعة ، بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرعة والسوط ، وأنتم
 في غفلة معرضون . فلو كان في عروقكم دم فيه كريات حياة ، وفي رهوسكم
 أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ، ولما صبرتم
 على هذه الضعة والخول ، ولما قعدتم على الرمضاء وأنتم ضاحكون . تناوبتكم أيدي
 الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والماليك ثم الفرنسيين
 والماليك والعلويين ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، ويهيض عظامكم بأداة
 عسفه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة . لاحس لكم ولاصوت . انظروا أهرام
 مصر وهياكل منفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط ، شهادة
 بمنة آبائكم وعزة أجدادكم .

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح
 هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . انفضوا عنكم غبار العداوة والخول .
 عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا ماجورين شهداء .
 وغمر البلاد سيل من المنشورات السرية التي تصور سوء الحال وانتشار الظلم

١ — تاريخ الامام ١ : ٤٦ . ومن المعروف أن جمال الدين الأفغانى هو مؤسس الماسونية في
 مصر . وأنه قد ضم إليها تلاميذه المقربين الذين لعبوا الدور الأول في تهيج الناس وعلى رأسهم محمد
 عبده وأديب إسحق . كما ضم إليها عدداً من الكبراء والوجهاء منهم ولى العهد توفيق باشا ، ومن
 المعروف أيضاً أن بعض زعماء الثورة مثل البارودى — كان ماسونياً . وأن المستر بلنت كان على صلة
 بزعماء الثورة كما هو ثابت في مذكراته . ولذلك نستغل صلة الثورة العراقية بالماسونية وبالصهيونية
 العالمية سؤالاً يحتاج إلى جواب وتموزه الأدلة الصريحة القاطعة .

مطالبة بوضع حد لما تعانيه مصر والمصريون .^(١) ثم أسفرت جماعة الثوار من الساخطين من وجهها وجهرت بوجودها . فكونوا حزباً سياسياً للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث ، سموه الحزب الوطني . ونشر الحزب برنامجه الرسمي في جريدة التيمس في أول يناير سنة ١٨٨٢ . وهو يدل على وعى سياسى مصرى صميم ، يقوم على أساس القومية المصرية وحدها دون تفريق بين الأديان . فقد جاء فيه :

« الحرب الوطنى حزب سياسى لا دينى . فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وأغليته مسلمون لأن تسعة أعشار المصريين من المسلمين . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منظم إليه ، لأنه لا يظن لاختلاف المعتقدات . ويعلم أن الجميع إخوان ، وأن حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية » .^(٢)

وظهر من القراء من يستطيع أن يقول عن إسماعيل أيلام كان المجهول فى جنفوانه^(٣) :

رى بلادكم فى قصر هاوية	من الديون على مرغوب جوسبار ^(٤)
وأفق المال ^(٥) لا بخلا ولا كرما	على بنى وقواد وأشرار
والمرء يقنع فى الدنيا بواحدة	من الفسا ^(٦) وهو لم يقنع بمليار
ويكتفى ببناء واحد وله	تسعون قعراً بأخشاب وأحجار
فاستيقظوا لا أقال الله عثرتم	من غفلة ألبستكم ملابس العار

١ — كان أول هذه النفورات بيان سياسى فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ طبع منه عمرون ألف نسخة . وقد حاول مصطفى رياض رئيس الوزارة وقتذاك معرفة ناشره لإقصاصهم إلى السودان فلم يستطع — الثورة الرأية ص ٧٠

٢ — الثورة الرأية ص ١٤٧ وقد قام الستر بلنت بنشر هذا البرنامج فى جريدة التيمز .

٣ — ديوان صالح مجدى ص ١٧٩

٤ — لم أعتد إلى جوسبار هذا . ولعله أحد الأجانب ذوى النفوذ من مستشارى إسماعيل .

٥ — موضع هذه الكلمة يابى طبعة الديوان .

٦ — ديوان صالح مجدى ص ٢٣٤

وصالح مجدى صاحب هذه الايات هو الذى يقول نادما على ما أنفق من جهد ، وما ستود من ههنا فى مدح طائفة من الملوك والروس والوجهاء ، هم أحق الناس بالذم والهجاء (١) .

وَسَمِ الْبَغِيضَ بِمَا يَعْرِى لِرَبِّالِ	أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ وَمِنْ
فَرَضًا عَلَى مُؤْمِنٍ عَدْلٍ وَتَلْبَالِ	وَمِنْ مَدِيحِ غَدَا ذُمِّ بِهِ أَبْدَا
طَهَائِفِ طَيْسَهَا قَدْ كَانَ أُولَى لِي	وَمِنْ أَكَاذِيبِ أَلْفَاظِهَا أَتَشْرَتِ
تَهْلِكُمْ عِنْدَ تَفْصِيلِ وَإِجْمَالِ	وَمِنْ ثَنَاءِ بِحَازِي حَقِيقَتِهِ
بِهِ فَهَوَّ الْجَمِينَ فِي تَعْدَادِ أَبْطَالِ	وَمِنْ حِمَاسِ خِيَالِي قَدْ أُنْزَجَتْ
رُكْنَ الْخُفَا وَالْعَنَاءِ فِي سَلَكَ أَيْالِ (٢)	وَمِنْ زُخَارِفِ أَوْزَانِ نَظْمَتِهَا

وهذا الشاعر الذى توفى قبل قيام الثورة العراقية بشهور فى نوفمبر سنة ١٨٨١ هو الذى يقول ، مستثيراً هم المصريين لمقاومة النفوذ الاجنبى الذى استفحل فى مصر ، حتى خدعت مرتعاً لكل أفاق (٣) .

مَعَ الْجَهْلِ فِي دَارِ الْعَنَاءِ وَالْمَغَارِمِ	خَلِيلِي مَا لِلْفَضْلِ وَالْعِلْمِ قِيَمَةُ
أَنَاهَا ذَلِيلًا مِنْ بِلَادِ الْأَطَاغِمِ	وَمَا صَاحِبِ الْعِرْفَانِ فِيهَا كَجَاهِلِ
لَمَلْنَا عَلَى أَعْدَائِنَا بِالصَّوَارِمِ	فَلَوْ كَانَ فِينَا نَخْوَةٌ عَرَبِيَّةُ
عُذِرْنَا وَرَحْنَا بِالثَّنَا وَالْمَكَارِمِ	فَإِنْ نَحْنُ مَتَنَا قَبْلَ أَنْ نَبْلُغَ الْمُنَى
ظَفَرْنَا وَفَزْنَا بِالثَّنَا وَالْمَغَارِمِ	وَلِنْ نَحْنُ أَنْقَذْنَا مِنَ الْجُودِ أَهْلُنَا
نَصِيرَآ يَرْجَى لِقْنَا وَالْعَوَائِمِ	أَمَا فَيْكُمْ يَا أَهْلَ مِصْرَ كَفِيرِكُمْ
لَأَقْنِيَتْ أَقْصَامُ بَرْحٍ وَصَارِمِ	فَلَوْ أَنَّ لِي جَيْشًا بِهِ التَّقِيمُ
وَأَيْدَتْ دِينَ الْمُصْطَفَى خَيْرَ هَاشِمِ	وَطَهَّرَتْ أَرْضَ اللَّهِ مِنْهُمْ بِقَتْلِهِمْ

١ - ديوان صالح مجدى ص ٢٣٤

٢ - الأيال : جمع قيل (يفتح ثم سكون) : الملك .

٣ - ديوان صالح مجدى ، ص ٢٧٥ . وراجع كذلك لى هذا العرض ص ٢٣ ، من

وأمسيت كالليث ابن أيوب مغرماً بضرب رقاب منهُمُ ومعاصم^(١)
 في آل مصر لا تناموا ودافعوا عن الدين والأوطان أهل المحارم
 فأموالكم أضحت لديهم غنيمة وأبناؤكم ما بين عبيد وخادم
 ومن بعد ما كنتم شمس معارف كسفتُم وأصبحتُم شبيه البهائم
 وعشتُم بذل بعد جاه وعزة ودارت عليكم دائرات المظالم
 فلا تغفلوا عن قطع دابر نسلهم فقد ملأوا بالفسق كل الملاحم

وبدأ هذا الشعور الغامض بالسخط يتبلور ، وبدأت الآراء المختلطة تنضج وتأخذ أشكالاً محددة واضحة المعالم والأهداف والمناهج . فهذا هو محمد شريف يؤولف وزارته الأولى سنة ١٨٧٩ في أواخر أيام لإسماعيل على أساس مسئولية الوزارة أمام مجلس شورى النواب . ويعود فيؤكد ذلك عندما دعاه توفيق — بعد عزل أبيه — إلى إعادة تأليف الوزارة ويصدر بعد تشكيلها «أمرأسامياً» يوضح فيه برنامج الحكم . وفيه يقرر مسئولية الوزارة ، كما يقرر العمل على حل المشكلات المالية والحد من نفوذ الأجانب ، وذلك بهيمنة مجلس النواب على الميزانية وبعدم إشراك الأجانب في الوزارة^(٢) . وهذا هو محمد عبده يكتب مقالين في سنة ١٨٨١ يؤيد فيهما النظام النيابي ، ويدلل على وجوبه ولزومه للحاكم والمحكوم ، كما يتكلم عن قيمة الرأي العام في تقديم الحاكم ومراقبة تصرفاته وفي لم الشئيت المتفرق من الآراء والمصالح بما يصون مصالح الوطن ويحقق السعادة والرفاهية للمواطنين جميعاً^(٣) . يقول محمد عبده في وجوب الشورى على الحاكم «خلق الإنسان محاطاً بالشهوات ، مكتمناً بالأميال ، مقيداً بالأغراض . فهو أسيرها ، تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها بحيث تكون جميع قواه

١ — ابن أيوب هو : «صلاح الدين الأيوبي» .

٢ — الثورة العرابية ص ٢٥

٣ — نشر المقالات في عددى ٢٤ ، ٢٥ سببر من الوقائع المصرية — تاريخ الإمام

ألات لها محركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها . فلا يتصور حسناً إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جميلاً إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطرياً ، لا يمكن الإنسان أن يغالبه ، ولا أن يتخلص منه وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ولا في طاقة كل شخص . فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته ، حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب ، بما يتخذ من الوسائل المختلفة ، حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات .

وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولى الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمسكهم من لوازمها كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية إلى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسَّدهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك إلا مشاورة العارفين العالمين بطرقها فإن للرأى العام في مغالبة الأهواء ما لا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الإنسان ربما مال إلى شيء ، واسكن يمنعه من معاطاته عليه بأن الرأى العام لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة . فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفىها اطلاعاً ، .

ويقول في وجوب الشورى على المحكوم : « قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً قاصر عن الإحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألقت إليه مقاليد مصالحها أن تمد من آرائها بما يقتدر به على النهوض بواجباتها والقيام بحقوقها . فليس من الإنصاف أن تلقى على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتخلى عنه . ثم إذا رأت ما لا بد منه من التفسير وجهت إليه سهام اللوم . بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب ، ثم إذا

وجدت منه تقصيرا فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم . ،

ويقول في نشأة الرأي العام ولزومه : « إن القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس إلا . وبيان أن الاجتماع بين أمة من الناس من مبدء أمره لا يكون له داعية سوى الصدقة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالإنسان فلجأ من نوعه يستعين به على دفعها . فإذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله إلى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك حب الطمع والشره ، وجرّ الأمر إلى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا هم في مكان واحد متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم باقتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأى طريق سلك ، ونسى رابطة الاجتماع وواجب الاشتراك في الوطن ، وتناول أشدهم عضدا مقابليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . حينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ولا قصدين متطابقين . بل لا ترى إلا نفوسا شاردة ، وأغراضا متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرم . فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محورا لدائرة أفكارهم ، وغاية تنهى إليها حركاتهم في كافة أمورهم . إذا ما نزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبليل الأفكار ، جعل لكل منهم شأنًا خاصا به ، فلا يفكر يوما في شقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلائق بغيره . فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأى عام ... فإذا توالى عليهم الحوادث ، وعلتهم أسفار الأخبار طرفا من سير الأمم . تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم إلى العيش الرغد ، ويصون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الانضاع ، فثم نفوسهم بتقويم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، قناعتهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها عمانية تضعف منهم قوة العمل . فكلما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهم

للتقاعد عن الأخذ بالوسائل . وطفقت نفوسهم تنفض عنها درن الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة إلى غاية واحدة . وهي المعاونة على حفظ الهيئة الاجتماعية . فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوما يفضلها على غاياته الخاصة ، ويعلمها حق العلم بدون أن يتلقى درسها من معلم . فإن الحاجة هي الأستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا ينجب إرشاده . ومن هنا ينشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأى العام ، وهو الأساس الذي بدون لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقى التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعمدة .. فإذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التنور ، وأصبحوا جميعاً على رأى واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقيد الأعمال بحدود مقدسة ، تصان ولا تتهان ، واثقوا جميعاً إلى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يخشوا الرومة لأثم . ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لا تقا بمجاهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم ، كافلاً بمصالحهم ، يرجعون إليه في أمر المساواة والأمن على البلاد والعباد .

وهذا هو عرابي وصحبه يناقشون أنواع الحكومات وأساليب الحكم ، فيفضلون النظام الجمهوري ويهيمون بتنفيذه ، فلا يحول بينهم وبين ذلك إلا ما يخشون من مفاجأة الرأى العام بنظام لم يستعدوا له . وفي ذلك يقول عرابي في خطاب له إلى بلنت : ثم خلع إسماعيل فزال عنا عبء ثقل . واسكننا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكننا نخلصنا من أسرة محمد على بأجمعها ، ولم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وكنا عندئذ أعلننا الجمهورية .^(١) ويقول البارودي : كنا نرى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة ، لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع

١ — البارودي (رسالة ماجستير مخطوطة للسيدة نفوسة زكريا) ص ٢٨ نقلا عن بانث في التاريخ السرى للاحتلال البريطانى .

ذلك فسنبجته في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت . . (١)

* * *

وانتهت الثورة العراقية بسجن زعمائها وتشريد هم : واستولى اليأس على الناس ،
وفشا فيهم روح التخاذل ، ودب ديب السعابيات . وفقد الصديق ثقته في صديقه ،
بعد الذي كان من شهادة بعضهم على البعض ، وإيقاع الواحد منهم بحماره وصديقه
تحت ضغط المحققين وهول الإرهاب . وكره الناس السياسة وتشامموا باسمها
واستعاذوا بالله من شرها ، فانطوا وعلو أنفسهم لا يرجون إلا السلامة ، ولا يطمعون
إلا في حياة هادئة لا ينغصها الهم والفرع ، وقد تضافر عليهم الفقر والمرض ،
فاجتاح الكوليرا - أو (الشوطة) كما كانوا يسمونها - مصر في السنة التالية
للاحتلال ، وراح ضحيتها أكثر من ستين ألفاً من المواطنين (٢) . وأخذ
الاحتلال في غمرة من يأس الناس وموت الهمم وارتقاء الخديوى في أحضان
أولياء نعمته الذين يدين لهم بكيانه وسلطانه ويثبت أقدامه ويدعم كيانه . فسلط
على الجيش بعد أن حله وأعاد تكوينه ضئيلاً هزيباً أعزل ، لا يتجاوز عدده
سنة آلاف ، في قبضة سردار إنجليزي يعاونه نفر من كبار الضباط من بنى
جنسه . وأغلقت جميع مصانع الأسلحة بعد أن بيعت أدواتها بأبخس الأثمان .
وبيعت السفن الحربية أو حطمت وبيعت أجزاءها . وصارت مهمات الجيش
وأدواته تشتري من إنجلترا ولا يحملها الجنود المصريون إلا وقت التمرين (٣) .
وتسلط الاحتلال الإنجليزي كذلك على البوليس بوضع رجل إنجليزي على
رأسه ، وتعيين وكيل إنجليزي لوزارة الداخلية ، بلغ من غطرسته أن حضر يوماً
تمثيل إحدى الروايات بمسرح زيزينيا في الاسكندرية فجلس في مقصورة الخديوى
الخاصة (٤) وتسلط على الحياة الاقتصادية بإلغاء المراقبة الثنائية وتعيين مستشار
إنجليزي للمالية . وألغى الحياة النيابية . وأغرق مصر وأرهقها بتعويضات

١ - نفس المرجع ص ٤٠

٢ - مصر والسودان في أوائل الاحتلال من ٣٢ ، مصر للمصريين ٦ : ٢٢٥ - ٢٢٦

٣ - مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال من ١٧ ، ١٩ . ٤ - المرجع نفسه ص ١٥٩

الأجانب عما نالهم من ضرر مزعوم وقد أربت على أربعة ملايين من الجنيهات^(١). وبتكاليف جيش الاحتلال والموظفين الإنجليز وقد بلغت سنة ١٨٨٣ ما يقرب من نصف مليون جنيه^(٢)، وبتكاليف حرب المهدي في السودان. وتوالت الوزارات المستسلمة للإنجليز، المرتمية في أحضانهم، نوبار ثم رياض ثم مصطفى فهمي. وأخذت أنفاس الصحافة لأدنى شبه يتوهم فيها التعريض بالاحتلال أو الخديوى. فنعت «العروة الوثقى»، التي كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده في باريس من دخول مصر. وألغيت صحيفة «الوطن»، وصحيفة «مرآة الشرق»، وصحيفة «الزمان»، وعطلت الأهرام شهراً^(٣). كل ذلك والناس أشباه أموات، لا تسمع لهم نامة، ولا يرتفع صوت بمعارضة أو شكوة أو تذمر.

وكان أول صوت ارتفع باسم الوطن والوطنية بعد الاحتلال هو صوت صحيفة «المؤيد»، التي ظهر العدد الأول منها في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩. وقد جاء في فاتحته «وما لنا أن لا نقوم بشعائر تطالبنا بها الإحساسات الطبيعية والحاجات الوطنية ودواعى الحياة الدينية والأدبية وكال التحقق بحقيقة الوحدة الجامعة الجنسية. فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى خير ما أردنا وأحسن ما نريد، وأن تؤيدنا، بعنايتك الصمدانية فإنك الفعال لما تريد». ثم يقول «خدمة الأوطان من أوجب الواجبات وألزم الفرائض. من أضعافها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدى والشفاء الدائم. فقصدنا من نشر المؤيد هو تأدية ذلك الفرض عن طهارة طوية وإخلاص نية. وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى... ومهما جد سوانا في خدمتنا واجتهد، أو هجرت عينه الغمش، فلا تقوم النافلة مكان الفرض. وليس من المروءة أن لا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن، ونذع نواظرنا لغثور الوسن».

١ - المرح نفسه ص ٩

٢ - المرح نفسه ص ٦٤

٣ - المراجع نفسه ١٦١ - ١٦٣، مذكراتى في نصف قرن ١ : ١٩٠.

فما الناس إلا يقظة ، فإذا غفت عيونهم دأستهم حمر الناس
فبالعين يكفى المرء صدمة عاثر وفي العين يهوى من تغافلته الناس^(١)
وارتفع صوت المؤيد ، للمرة الأولى منذ الاحتلال بإثارة مسألة الجلاء .
فأخذ يتساءل : أحق ما تقولون من أنكم ستتركون مصر عند تمام إصلاحها ؟
وما هو الإصلاح الذى تعلقون عليه أمر انجلائكم ؟ وهل بدأتم فيه أو تم شئ
منه ؟^(٢) . وارتفع صوته للمرة الأولى منذ الاحتلال يمشد المصريين الاتحاد
ويذكرهم بمجدهم القديم وينبههم إلى خطر الاستعمار الاقتصادى إذ يقول : أى
بنى الوطن الأعزاء على الأصدقاء إلى . أى أفراد العائلة المصرية ، وأجزاء هيئتها
المدنية . علمتم — ولا أخالكم تجهلون — حالة بلادنا فى الأزمان الغابرة والقرون .
المتوسطة ، وما جناها اللاحق على السابق... وهاهى الحالة الحاضرة تطالبكم بأداء
الواجب عليكم ، مما يجعلكم رجالا تبارون الرجال . وإن تيار هذا التمدن الحديث
لا يجاريه إلا من عرف وجهة مجاريه ، ذوو القوة من هذبتهم التجارب ، حافظوا
على الأوقات وانتهزوا الفرصات اعلموا بنى أبيتنا أن هذا التمدن قد حمل إلى بلادنا
على أكف أقوام أقوىاء حرصاء ، لم يرضهم فى ثمنه القليل ، ولم تسكفهم فى
مقابلته القيمة ، يودون أن يضربوا بأيديهم على التجارة والصناعة ومصادر الثروة .
ونحن ننظر إليهم بعين المتعجب الباهت ، مرسله أيدينا إلى الجوانب ، كأننا لسنا
جميعاً أبناء أب واحد وأم واحدة . إن هذا الشئ عجاب^(٣) .

وراح يستنهض الهمم ويوقظ النوام بمثل قوله : د الأقل لمن يظن أن مجد
الأمة بالمال والحرية : إن المال لا ينهال من السماء ، والحرية لا تنبعث من السنايع
والجداول . وكلاهما لا يأتى إلا من طريق العزم والحزم ، ولا يغرس فى الأمة
إلا بأيدى كبار رجالها الذين يحبون أن يروا شعبهم متجلببا بجلباب المعادة

١ — العين الأولى مقصود بها الضمير المبصر والثانية مقصود بها البئر .

٢ — منتخبات المؤيد السنة الأولى : فى مقال عنوانه (متى تصلح مصر) س ٣٠

٣ — منتخبات المؤيد السنة الأولى — مقال عنوانه (يابنى مصر) س ٤٧

والرفاهية في آعين الشعوب . ولا يخفى أنه لا يشخص الأمة في عيون غيرها إلا حال القابضين على أزمة أمورها . فإن كانوا أشداء حرصاء على المنفعة ، عالمين بما يجب أن يكون ، لا تلجئهم الشدة إلى التزاف ، واللين إلى التفريط ، ظهرت الأمة هكذا ، فعظمتها القلوب وأكبرتها الآعين . ولكن إذا كانوا ضعفاء أذلاء ، تلعب بأعطافهم الكبرياء على الضعفاء ، وبأخذهم الصغار لدى الأقوياء . وقعت الأمة في بحران الفساد . وظهرت وعلى وجهها غبار الذل ، منكسرة القلب ، لا تنكاد تتحرك أو تخطو خطوة لمقصد^(١) . وأخذ يستثير الحمية ويضرب للناس الأمثال بمثل قوله : « قالت الحكماة إن الحياة هي مجمرع الوظائف التي تقوم بها أعضاء الجسم . والموت هو بطلان تلك الوظائف ، وهو أقرب التعاريف وأسلمها من التكلف . وعليه فلا بأس من إطلاق الحياة على الأمة ، فيقال هذه أمة حية . إذا كان أفرادها الذين هم بمنزلة الأعضاء لجسمها قائمين بوظائفهم . ويقال تلك الأمة ميتة ، إذا أخذ أفرادها إلى النوم والكسل ، ولم يقوموا بواجباتهم التي يفرضها عليهم قانون البقاء في عالم الوجود . هل كان يُظن أن عرب البوادي تقوم منهم أمة يتحرك فيها سبعون ألف فارس لامرأة صاحت (وامعتصماه ؟) أو أن الإنسكيز يصبحون شعباً يقوم منه إثنا عشر ألف مقاتل للأخذ بشار رجل منهم قتله بعض المتوحشين ، ويقوم منه رجال يجعلون لفظة بريطانيا لا تذكر إلا وعلى أثرها (العظمى) ؟ ... وتحرق فئة منهم ثلاثين ألف مجلد من كتاب فرنساوى ذكر فيه غلادستون بغير ما يليق به من التعظيم ؟ ... بل من كان يظن أن الأمة الفرنسية ، التي كانت بيوت أهلها مبنية من قبل على هيئة الحصون والقلاع ، لما كان متسلطاً عليهم من الفشل والانحلال ، تدرج منها أمة تطير أقدتها عند ذكر الألزاس واللورين (مديريتان أخذتهما منها الألمان في الحرب الأخيرة) وبأبي الواحد من أفرادها أن يدخل خاناً ألمانيا أو يشتري بضاعة من ألمانيا ، متى أمكنه أن يشتريهما من فرنساوى ؟ ... بل من كان يخطر على فكره أن البرتغال — على قلة

١ — منتخبات المؤيد ص ٢٨ (الأمة برجالها) .

عديم وعُدهم - تتوقف عنائهم عن شحن المراكب الإنكليزية وتفرغها ، ويكتب تجارهم إلى وكلائهم أن لا يشتروا البضائع الإنكليزية ، ولا يشحنوا ما لديهم في مراكب إنكليزية ، ويطرحوا عن رؤوسهم البرانيط التي صنعها الإنكليز ، كل ذلك لأن الإنكليز عارضوا حكومتهم في بعض مستعمراتها ؟ ... والأمثال على ذلك كثيرة ، لا يبعد على الأدب أن يأخذ مما بين طرفي حالة كل أمة أطوارها العديدة ، ويزن بذلك قوة حياتها .

ولقد قال بعض الحكماء : إنك إذا رأيت الغلام في المكتب يسمع سب أبيه ولا يتميز غيظاً ، فبشر الأمة التي سيكون عضواً منها بالانحلال والدمار . واقد رأينا مصداق ذلك في بلادنا هذه . فقد قل إلينا بعض التواريخ أنه كان يُسبُّ المصري بلقطة فلاح فيقول (قطع الفلاح ونهاره) . وإذ ذاك كانت مصر على ما لا يخفى من الانحلال والبوار ، ^(١)

وأخذ يحذر من كل ما يمس كيان الوطن ، أو يضعف الشعور بالقومية المصرية . فهو يوجه الأنظار إلى ما ينطوى عليه انتشار المدارس الأجنبية من أخطار ، إذ يقول :

« ما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من قارة إفريقيا ، أو بعبارة أخرى من الشرق عموماً ، إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمسئليها الدينيين ومن تخلق بأخلاقيهم ، ليمهدوا لها طريق الافتتاح أو الاستعمار » علماء منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق وعوائد وتعاليم ، دينية كانت أو فنية . وهم إذا دخلوا قرية وظهروا بهذا المظهر لا يلاقون معارضة أو ممانعة ، لأن حججهم نشر العلم والتهديب ، ورفع لواء التمدن . ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، تقوم عليه قائمة حرب التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب وقلم كل كاتب . فلا مناصر من أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نصراء الهداية والمعارف والتمدن في مظهر العين ،

وسفرهم الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة .. وهل يُتصور أن قوما جازوا البحار ، وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا إليهم خدمة الإنسانية كما يقولون ؟ ... كلا فالإنسان لا يتحرك حركه ولا يعمل عملا إلا وله غرض ذاتي فيه . لكن قد لا يكون الغرض الذاتي محض الباعث ولا مضرأ في النتيجة . وقد يكون كذلك ، وقد قيل : كلما عظم العمل كان الباعث أعظم . فلا ريب أن البواعث التي دعت الأجانب إلى مفارقة ديارهم والنهوض إلينا هي جائلة . ولا يمكننا أن نقول هي محض التمسك واستجلاب الدرهم والدينار . فإن بعض تلك المدارس يأخذ على التعليم مالا يكاد يفى بنفقات التلميذ . والبعض يقبل الفقراء مجاناً بل إننا نعلم حق العلم أنه مامن مدرسة من هذه المدارس إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها ، تنفق عليها النفقات الطائلة . ولا يكون ذلك عبثاً . ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل مدرسة غربية ما وضعت يدها على أمة أوقية تملكها أو حماية ، إلا وقد جعلت مقدمة ذلك هذه المدارس . فبان أن المقصد العظيم والباعث القوي هو سياسي ملى في آن واحد كما قدمنا ، (١) .

* * *

كان صوت (المؤيد) هو البشير بأن مصر لم يزل فيها بقية من حياة وإحساس . ولم يمض على صدوره أقل من ثلاث سنوات حتى ظهر العدد الأول من مجلة (الأستاذ) في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ (٢) ، فحمل فيها عبد الله النديم على الاستعمار وأعوانه في عنف لا هوادة فيه ، مستأنفاً جهاده الذي بدأه مع عرابي رغم ما ذاق في سني اختفائه العشر من آلام . ولم يمض على ظهور (الأستاذ) خمسة شهور حتى أعلن الحرب الصريحة على الاستعمار وأذنا به ، واستهلها بمقال عنيف سافر لا غموض فيه ولا التواء ، جعل عنوانه العبارة التي كان يرددها

١ - منتخبات المؤيد : السنة الأولى ص ٥٠

٢ - كانت (الأستاذ) مجلة أسبوعية تصدر في يوم الثلاثاء من كل أسبوع . وقد صدر العدد الأخير منها في ١٣ يونية سنة ١٨٩٣

الإنجليز كلها أظهر المصريون ضيقاً بمشاريعهم الاستعمارية ، لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ، ^(١) وكان هذا المقال العنيف ردّاً على إنذار كرومر لعباس حين أقال وزارة مصطفى فهمى باشا صديق الإنجليز في ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ .

يقول عبد الله النديم في مقاله هذا عن أثر الاستعمار في الاقتصاد :

« قالت أوروبا إنكم متوحشون ، انكونكم لاتحسنون صنع الأثاث واللباس ، وأنكم في حاجة إلى مصنوعاتنا . ولا تصلون إليه إلا بعقد المعاهدات التجارية . وبذا تمكنت من إدخال مصنوعاتكم في الشرق لتجول الثروة إليها ، فأما ما كان يصنعه الشرقيون ، وجمعت على ما لا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها . فما يصنع في الهند والصين والعجم والأناضول وغيره ، إنما يشتق ويباع على يد الأوروبي كما يشتق ويباع مصنوع بلاده فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ، ايروجوا تجارة أوروبا ، ويظمعوا ثروتها ، ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية . فلاحظ لهم من الوجود ، ولارغبة لهم في الملك ، كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجارة أهلها . »

ثم أشار إلى إفساد الإنجليز أخلاق المصريين وتقاليدهم ، مما أدى إلى انحلال الشخصية وموت الكرامة فقال :

« قالت أوروبا : إن وقوفكم على عاداتكم الشرقية ، وتخليكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش ، فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساونا في الرتبة . وفتحت لنا البسائر والخارات والمقامر ، وأباحنا الزنا والفهار ، ووسعت دائرة اللهو والخسران . ففعل الشرقيون عما وراء ذلك من ضياع الدين والملك والمجد والشرف ، وانكب الأغنياء والمغفلون على الخمر ، فسادت أخلاقهم وضعفت عقولهم ، وفسدت عقائدهم . وتحولوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش ، وجعلها عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم

عليها . فهم في رتبة القواد (١) بل هم هم . ومال فريق إلى التهمار ، فباع الغنيط والدار . واضطر ابيع حل زوجته برضاها أو بسرقة منها . والكل عطف على المرابين ، يقترض ويصرف في الملاهى ومتلفات العقل والجسم والملك . حتى أسكن الأوروبي مكانه وصار له خادما بعد أن كان عظيما محترما . وكلما تمالك الشرقيون على الخور والملاهى واصلت أوروبا رسائل الخمر ، وارتحل إليهم المومسات وأرباب الملاهى تحويلا للثروة ولإزهاقا لروح الدين ، حتى أصبح المتلبسون بهذه القبايح والفضائح لشرقيين ولاعربيين . واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهي تخنهم المشاورة على عملهم باسم المدنية ، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة . إذ لو كان الانغماس في الملاهى ومفسدات العقل والدين من المدنية لما تحاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجيا جاهلا مجنونا ، ولما وضعت القوانين الشديدة للمسكرات ومنع التلامذة منها ، ولما كتبت الرسائل العديدة في ذم الخمر والفسوق ، وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين عن العبادة وحضور الكنائس . وإنما هذه أشراك ونفاق تنصب في طريق الشرق ، حتى لا يخطو خطوة إلا وقد وقع في حباله أوروبا . ولما رأت أوروبا أن الشرقيين لا ينتهون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد الدول ، ولا يدركون مكائد الملوك ، ولا يسمعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ولا يحفظون كرامى ملوكهم ، ولا يهمهم ضياع أوطانهم ، اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء ، وهي تقول لهم : « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

ثم قال مشيراً إلى أذئاب الاستعمار من المصريين ؛ الذين يرتكب الاستعمار كل ما يرتكب من جرائم وآثام باسمهم وبأيديهم :
كفت إنجلترا يدها عن الأعمال عند دخولها مصر . وسلمتها إلى المصريين ظاهراً ،

١ - القواد : (بضم القاف) جمع قواد (بفتح القاف) وهو الذى يدل على بيوت الربة
يقود الرجال للنساء .

لتقيم الأدلة لأوروبا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين وتشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول . ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطنا ، بحصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة ، والإدراك في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون . حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون . وكانت تشقى باسمهم المطاعن الأوروبية حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض ، فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع . وهم غير محقين ، فإنها ما دخلت إلا لتعمل عملا أمام أوروبا ، فلما قوضوا إليها الأعمال استلقتها بهمة ونشاط ، ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم وقال لهم : حملوني ما عندكم من أثاث وحلى وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوليس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ ... كلا ، بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه . أيرَوْن أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ، ورخصوا للنساء أن يخرجن للبقاء تحت حماية القانون ؟ ... أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاءهن شهادات بأنهن صالحات للزنا ، فتهسكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب ؟ .. أم هل قالوا المصريين : سننفق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما تفعل فيها ، فباكم والسؤال عن مبالغ ستكونون عبيداً مكلفين بسدادها إلى روتشيلد وغيره ؟ أم هم الذين أعطوا الالتزامات الوابورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات ، إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن . وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستعين به على ثقلها ، حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالعصا أو بالنبوت ؟ ... ^(١) أم هم الذين أبعادوا المصريين عن الخدمة

١ - يشير إلى تصفية المصانع الحربية عقب الإحتلال بعد أن فشلت أجزاءها وبيعت بأبخس الأثمان على أنها غير صالحة (خردة) .

وحشروا الغرباء^(١) في المصالح حتى أصبح ألف من المصريين لا يجحدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلا ؟ ... أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المسكافات لمن يفتخ في الإنكليزية ، لتتسلى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شورا هم ؟ ... لا والله . ما نالوا أملا ، ولا قارفوا عملا ، ولا أذلوا رجلا ، ولا خربوا بيتا ، ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين . .

وأخذ يلقى تبعة ما صارت إليه مصر من سوء الحال على أمراء المصريين وزعمائهم حيث يقول :

« لماذا نتالم من أعمالها^(٢) وأمرأونا اقتصروا على القعود في القصور وركوب العرييات للتفسيح في المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استعصاخ . وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونهاؤها في المحافل يتحاورون ويتناظرون بما لا يفيد الوطن والمالك شيئا ، متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين . فإذا انصرف النباه عن وجهتي السياسة والدين ، فمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمود الدين قائما كبقية الأديان ؟ ... أبا لإخاء الذي ربطناه مع الأجنبي ، نتخلى له عن مرجع المجد وأصل الشرف ؟ وهل تريد أوروبا أن تفتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نهب البلاد عن النظر في الملك والدين ، لينخولها الجوفتفمل ما نشاء وتغير ما تشاء ؟ ... مع أن النباه يمكنهم أن يستخدما محافلهم في مصالح بلادهم ، فيتمكسروا بقواهم العقلية مما لا يمكنهم منه سيف ولا مدفع ، من غير إثارة فتنة أو إراقة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسدته الاغترار والانخداع ،

١ - يقصد اللبنانيين الذين كثر عددهم وتذكاء في الوظائف الحكومية . وكان هؤلاء الموظفون أهوانا للاستثمار كما سيجيء .

٢ - الضمير في (أعمالها) راجع إلى الإنكليز .

ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردما أعظم أمة عن مشربها المصرى وسميها المؤيد ، يربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة .

وراح يذكر المصريين بما كان من تخلفهم عن عرابى وحسن استقبالهم للإنجليز ، مقترين بما أذاعه عليهم الخديوى توفيق وأعوانه من أنهم لم يدخلوا مصر إلا مصلحين منجدين ، فقال :

مضت السنوات العشر التى قابلتمُ غرَّتْها بالافراح والزَّين ، وطرتم فيها حول الأوهام طرباً وسرور ، وعميت عن سوء العاقبة ، فأنشد شعراؤكم القصائد الطنانة الرنانة مدحاً ونثاء^(١) وشربتم الخمر جهارا باسم من استعد يتموه على بلادكم ونصرتموه بتثييط إخوانكم ، وبذلتُم أموالكم وأرواحكم فى دخولهم البلاد ، والتخلي لهم عما بأيديكم من الأعمال ، ولطالما طأطأتم الروس وحنيتهم الظهور وركعتم أمامهم تعظيما وتسليما ، وبصقتم على وجوه إخوانكم ولبستم أجمل ثيابكم تفتظرون يوماً يقتل فيه مائة ألف مصرى . فبهذه الأيام تربكم كيف تدور الدوائر ، وكيف تتقلب الأحوال بالآهوال ، على من لم يقرأ العواقب ، ومن يلقي نفسه بين نيوب الصلّ خوفاً من العظاية (السحلية) . فقد أبدلت المصائب^٢ الولائم الأجنبية بالمآتم الفقرية ودعتكم لتكسیر أعواد الطرب والسرور ، وضرب دف النذب والرائاء . وهل تُجزَوْن إلا ما كنتم تعملون ؟ ...

ثم أخذ يعرض بالمقطم — صحيفة الاستعمار — متوقفاً ما استهاج به ، وما سوف تدعيه من أنه يدعو إلى ثورة كالثورة العربية فقال :

وكأنى بدخيل^(٣) يوسوس للأجانب قائلاً : إن (الأستاذ) يدعو إلى ثورة مصرية بهذه العبارة . فقد تعودنا سماع الأراجيف من الدخلاء ، وتسليط الأوربيين على كل بلد نوذى فيه بالمحافظة على وطنيته ، ونحن نضع حجراً فى

١ — يشير إلى القصائد التى قيلت فى مدح « توفيق » والترحيب به وبجيش الاحتلال بعد عودته وفى ذم المراهبين . وتراجع نماذج من هذه القصائد فى كتاب (مصر للمصريين ٥ : ٢٣٨ - ٢٤٧)
٢ — كان صاحب صحيفة (المقطم) هو : فارس نمر ، وهو لبناني الأصل .

ثم هذا الدخيل قبل أن يحرك شفتيه بكلمة إغراء . إن المصريين قد جربوا أنفسهم في التظاهر بالقرّة ، فوقف شقاقهم بينهم وبين الظفر بالمقصود وهم شاكو السلاح كثير العدد والعُدَد . والآن لا قوة بأيديهم ولا سلاح . وقادة الجند من الأجانب . ولا يحمل العسكري إلا بندقية فارغة حكها حكم عصا الراعى . ولا موجب لحركة الأهل حركة عدوانية بعد خضوعهم لأميرهم ، وانقيادهم إليه في السر والعلن . وقد تأدبوا وعلّموا دسائس أوروبا ، وتنبهوا لمقاصد الدول وسعيهم في اتخاذهم آلة لبلوغ مآربهم ، لا لمصلحة المصريين معاذ الله ، ولا لمنفعة المسلمين ، أستغفر الله ، فما من مصرى إلا وهو يعلم الآن أن أوروبا لا تصدق في قول ولا تفي بوعد ، ولا تحب شرقياً . ولا تسعى في خير مصرى . وإنما هي ملاعب سياسية يقدمونها بين أعين الجلاء الذين لا خبرة لهم بدهاء الدول ومطامعها . يستميلونهم بها استمالة الطفل بقطعة حلوى أو ثوب منقوش . ومن انتهى بهم الأمر إلى الوقوف على الغايات والمقاصد السيئة ، مع فراغهم من المعدات الآلية ، وعدم حاجتهم إليها ، يستحيل عليهم أن يكذبوا صفو الراحة بشغب أصوات فضلا عن قمعة سلاح . وما يدعونهم (الأستاذ) إلا إلى مجازاة الأوروباء وبين فيما هم فيه من معرفة قدر نفوسهم ، والمحافظة على حقوقهم ولغاتهم وأديانهم وعوائدهم ، والدأب خلف الاستقلال بأعمال بلادهم .

ثم قال بعد أن تكلم عن وحدة عنصري الأمة من مسلمين ومسيحيين :
 « فيا بني مصر ... ليعد المسلم منكم إلى أخيه المسلم تأليفاً لادصبية الدينية .
 وليرجع الإنثان إلى القبطى والإسرائيلى تأييداً للجامعة الوطنية . وليسكن المجموع رجلا واحدا يسعى خلف شىء واحد ، هو حفظ مصر للمصريين ،
 ويهاجم ذلك النفر الذين خوت قلوبهم من الوطنية ، عن يلمسون الجاه بالتزلف إلى المحتل الغاصب قائلين : « نرى كثيراً من الشرقيين بل المصريين يحومون حول حى الأجنبى لياذأ به وطلباً لمعرفه . فهل تناول منه إلا لقمة لو لم يجده لطحها للكلب لكونها فضلة طعامه وفتات خوانه ؟ ... وهل جلس في حضرة

إلا مهيناً مزدري منظوراً إليه بعين الاحتقار بل الاستعباد ؟ ... وهل مكنته من أضعف الأعمال إلا ليستعمله آلة في تنفيذ آماله وتحقيق أمانيه ؟ ... وهل بش في وجهه مرة إلا ليدخل عليه غفلة الرحمة والحنان ليصرف أنظاره عما يراه من سلب الحقوق ؟ ...

كان هذا المقال الجريء العنيف بداية السلسلة من المعارك ، تألبت فيها الصحف الإنجليزية ، تؤيدها صحيفة « المقطم » ، واتهمته بإثارة الفتنة ، حتى انتهى أمره إلى خضوع الخديوي عباس لما أملاه عليه كرومر من إبعاده عن مصر منفياً^(١) . فودع قراءه وداعاً مؤثراً في العدد الأخير من الأستاذ ، في كلمة عنوانها (تحية وسلام) ، ختمها بقوله : « وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب . والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ، إن كان المبدأ صعبة وكدرأ في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى هذا فإني أودع لإخواني قائلاً :

أودّعكم والله يعلم أني أحب إقامكم والخلود إليكم
وما عن قل كان الرحيل ، وإنما دواع تبدت فالسلام عليكم
وبذلك طويت صحيفة الأستاذ ، ولما يحل الحول على صدور العدد الأول منها^(٢)

* * *

وتلقف الراية من يد النديم مصطفى كامل ، الذي تلقى دروسه الأولى في الوطنية وفي السياسة على يديه . فقد اتصل به منذ عودته من منفاه ، وعرف منه

١ — زعماء الإصلاح ص ٢٤٠ ، مجلة الأستاذ العدد الأخير من ١٠٢٩ ، ١٠٣٠

٢ — لم تطل حياة عبد الله النديم بعد ذلك فقد توفي في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٩٦ غرباً في تركيا بعد حياة لم تتجاوز أربعة وخمسين عاماً ، كلها جهاد عنيف ، لم يذق فيه طعم الراحة والاستقرار وقد ذكر الدكتور أحمد أمين في كتاب (زعماء الإصلاح) أنه لم يعقب ولداً ولكن الصدفة الحسنة قادتني إلى معرفة ابن له ولد بعد وفاة أبيه في تركيا ، وعقب عودة والدته إلى مصر ، وهو السيد محمد سعيد عبد الله النديم وكيل إدارة الناصر بالاسكندرية . ولا تزال والدته بمنزلة

كثيراً من أسرار الثورة العراقية ودسائس السياسة الإنجليزية . مما جعله يشجب الخلاف مع الخديوى ، ويحاول قدر استطاعته أن يجعل من الشعب والقصر قوة واحدة تواجه الاستعمار^(١) . وخطا مصطفى كامل خطوة جديدة إلى الأمام حين جاهر بطلب الجلاء فى أول حديث له نشر فى صحيفة الأهرام^(٢) . وتابع بعد ذلك نشر المقالات الوطنية فى صحيفتى « الأهرام » ، و « المؤيد » ، ثم فى الصحف الأوروبية منذ بدأ رحلاته السنوية إلى أوروبا فى مايو سنة ١٨٩٥^(٣) . حتى ظهرت صحيفة (اللواء) اليومية فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ . فكان يكتب مقالاتها الافتتاحية فى أكثر الأحيان .

* * *

وقد اقترن ظهور الحركة الوطنية بعد الثورة العراقية بظهور الخديوى عباس على مسرح السياسة حين جلس على عرش مصر فى ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، بعد وفاة أبيه الذى كان سبباً فى نكبتها بالاحتلال الإنجليزى .

والواقع أن عباساً كان محور الحياة السياسية والوطنية فى ذلك الوقت . فقد تولى الحكم وهو شاب لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره . وكان جريئاً واسع الأمل ، يريد أن يكون ملكاً حقيقياً لا دمية فى يد الإنجليز ، وكان مصرياً بحتاً كما حكم عليه كرومر منذ لقائهما الأول^(٤) . فنفخ فى مصر روحاً جديدة من الوطنية والشجاعة ، جرأت الأمة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال^(٥) . وكان ينمى على أبيه ضعفه واستسلامه للإنجليز^(٦) . ولذلك كان أول ما فكر فيه عند تولى الحكم أن يغير رجال حاشيته الذين ورثهم عن أبيه ، والذين ألفوا أن

١ — مصطفى كامل ص ٣٠

٢ — الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ مصطفى كامل ص ٢٧

٣ — مصطفى كامل ص ٣٩

٤ — عباس الثانى ص ٢١ ، ٢٨

٥ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٩

٦ — عباس الثانى ص ٢٧

يذلوا أنفسهم ويمتحنوا كرامتهم أمام المستعمرين^(١).

بدأ عباس حكمه كأحسن ما يبدأه ملك . فهو شديد الرغبة في التودد إلى الشعب ، يستقبل طوائفهم المختلفة مرتين كل شهر^(٢) . ويصدر عفوه عن عدد كبير ممن اشتركوا في الثورة العراقية في السنة الأولى لحكمه ، ويرد إليهم رتبهم وشاراتهم ويعيدهم للخدمة^(٣) وهو يستعرض الجيش المصري مرتين في هذا العام^(٤) ، ويحيي شهر رمضان بتلاوة القرآن والاستماع إلى تفسيره مع رجال حاشيته^(٥) وهو يطالب بخروج الجيش الإنجليزي من القلعة . ويتصل بالمديرين مباشرة دون الرجوع إلى كرومر كما جرت عادة والده من قبله^(٦) . وقد نجح نجاحاً مزمكاً في بث شعور الكراهية للإنجليز في قلوب المصريين ، كما نجح في إخراجهم عما ركنوا إليه من فتور واستسلام يشبه الموت ، ورسم لهم طريق المقاومة بجرأته في تحديهم ، فكان كسيال من السكهرباء طبق جو مصر وكهرب جميع أهلها ، فشعروا بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم^(٧) .

ولذلك لم يكن عجيماً أن يلتفت المصريون حوله وأن يحبوه ، حتى لقد بلغ من حماسهم في استقباله أن يتقدم الشباب لجر عربته بعد أن نحوا عنها الجياد ، حين ذهب لصلاة الجمعة في مسجد الحسين رضى الله عنه^(٨) وقد أقر كرومر بنفوذ عباس حين قال إن الصعوبة الكبرى التي واجهت الإنجليز حين استهدفوا رفع مسترى الفلاح هي أن يصلوا إلى ذلك دون الاصطدام بالقصر ، الذي أثبت

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٦

٢ - المرجع نفسه ٢ : ٢٦

٣ - المرجع نفسه ٢ : ٣٥

٤ - نفس المرجع ٢ : ٢٧

٥ - المرجع نفسه ٢ : ٣٨

٦ - نفس المرجع ٢ : ٥٢

٧ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢

٨ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٧

على توالى العصور — رغم ما آل إليه من فساد — قدرته على جمع الشعب المصرى وتكثفه^(١). واعترف بزعامته حين قال إن المبادئ العرايية قد بدأت فى الظهور تحت اسم جديد هو لقب (خدوية)، وأن الحالة أصبحت كثيرة الشبه بالتي كانت عليه عند بدء الثورة العرايية، غير أن الفرق الوحيد هو أن الخديوى نفسه فى هذه المرة كان هو قائد الحركة^(٢)، وحين قرر أن أنصار المبادئ الديموقراطية الحديثة ومن سمام الغوغاء، الذين لا يملون من التغنى بها، كانوا جميعاً فى جانب الخديوى^(٣). وإلى ذلك أشار السيد محمد رشيد رضا فى تاريخ الأستاذ الإمام حين قال: ومن إنصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الأمير الكبير — وقد ذكرت مساوئه — حتى لا تكون المساوىء هى التى تستقر وحدها فى نفس قارئ هذا الكتاب، وهو ظلم، فأقول: أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى فى عرف هذا العصر بالوطنية^(٤).

وقد كان من آيات هذه الوطنية تشجيعه لمصطفى كامل منذ ألقى أمامه خطبة يرحب فيها بمقدمه حين زار مدرسة الحقوق، فشجعه على السفة إلى فرنسا لإتمام دراسته، وقربه إليه بعد عودته فكان يجتمع به سرأ فى مسجد قريب من براى القبة، يدبر معه الخطط للتخلص من الاستعمار^(٥). وأمدته بالنفوذ وبالمال،

١ — Modern Egypt ٢ : ١٩٣

٢ — عباس الثانى ٤٤ ، ٤٥

٣ — المرجع نفسه ص ٣١

٤ — تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٩٢

٥ — عاد مصطفى كامل بعد إتمام دراسته فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، وكان فيما اتفق عليه مع عباس وقتذاك أن تؤلف جماعة سرية من بعض الشباب المتأثرين بالوطنية ممن تلقوا العلم فى مصر وفى الخارج (تاريخ الامام ١ : ٥٩٣ ، مصطفى كامل ٢٨ ، ٢٨١ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ١٩٠ ، ٢ ب : ١٤٠) ويقول أحمد شفيق إن هذه الجماعة هى التى قررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الانجليز بالكتابة فى الصحف الفرنسية وبالخطب التى كان يلقها مصطفى كامل فى مصر وفى أوروبا .

فشجعه على تأسيس الحزب الوطني ، وأعانه على إصدار صحفه المختلفه (١) .

وكان عباس إلى جانب تشجيعه الاصطفي كامل ، يحاول أن يجمع حوله ضباط الجيش وأن يحثهم على عدم الاستسلام والخضوع لرؤسائهم من الإنجليز (٢) . وكان يحض الموظفين على الاحتفاظ بكرامتهم والتمسك بحقوقهم واختصاصاتهم إزاء رؤسائهم من ممثلي الاستعمار فظهرت روح المقاومة بين الموظفين ، واستحكم الخلاف في دواوين الحكومة ومصالحها بينهم وبين الإنجليز ، حتى قال كرومر إن الموظفين جميعاً من أكبر كبير إلى أصغر صغير كانوا تابعين لمصاوبة الحركة ضد الإنجليز ، التي يقودها عباس . وكان يعرض عن الذين يتوددون إلى الإنجليز ، ويبدي عداً صريحاً واضحاً لكل من يلوذ بهم من الأعيان والعمد والمشايخ ، ويسى استقبالهم في القصر في مختلف المناسبات (٣) .

من أجل ذلك كله لم يكن هناك مفر من اصطدام عباس بكرومر مثل الاحتلال ولم يكن هناك من وسيلة لتجنب هذا الصدام المتوقع (٤) .

وظل كرومر يتصيد الفرصة المناسبة ليضرب ضربته دون أن يكون هو البادى ،

١ — ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ ، ثم أُصدر في سنة ١٩٠٧ صحفتين يوميتين ، إحداهما بالفرنسية ومى « ليتندار إجبسيان » ، والأخرى بالإنجليزية ومى « دى إجبسيان ستاندرده » . وأسس لذلك شركة مساهمة لإصدار الصحفتين سنة ١٩٠٦ رأس مالها عشرون ألف جنيه . وقد حث عباس الأعيان على مساعدته . بالاكتتاب فيهما حتى احتج كرومر على هذا التدخل السافر في معاونة المشاريع المعادية للإنجليز — راجع مصطفى كامل ص ٢٠٢ ، تاريخ الامام ١ : ٥٩٣ ، مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ١٠٣ .

٢ — كان من آثار ذلك فصل عدد من الضباط المصريين في السودان سنة ١٨٩٩ من بينهم حافظ إبراهيم الشاعر — راجع تاريخ الامام ١ : ٥٩٢ ، عباس الثانى ٨٢ ، لىلى سطيج ص ٨٦ ، ١٠٩ ، مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٣٢١ .

٣ — عباس الثانى ص ٥٧ ، مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٨٠ .

٤ — بدأ هذا الاصطدام باستخفاف ضباط الجيش من الإنجليز بالمدبوى وإهمال تحيته في الطرقات والمجتمعات العامة مما دعاه للشكوى إلى كرومر من سوء أدبهم — راجع مذكراتى في نصف قرن ٢ : ١١٦ ، عباس الثانى ص ٢٩ .

حتى يقطع السبيل على كل احتجاج ، وحتى لا يبدو أمام الرأي العالمى العام معتدياً^(١) . وسرعان ما وجد الفرصة المناسبة عندما اتهم عباس مرض مصطفى فهمى فتخلص منه بإقالته فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ . وأصدر أمره إلى حسين شغرى بتشكيل الوزارة ، مكتفياً فى كل ذلك بإبلاغ كرومر بما تم^(٢) . وأبرق كرومر إلى وزير الخارجية البريطانية بقولى : إن وقوع نزاع شديد مع الخديوى كما قدرت منذ وقت طويل أمر لا بد منه . ولا أرى من الصواب تأخير . وإنى أرى وجوب انتهاز هذه الفرصة لوضع حد لهذه الأمور ... وإنى أرى أن لفائدة من اقتصار نفقاتكم على نصحه . بل أقترح أن ترسلوا إلى برقية أستطيع أن أريها لسموه . تذكرون فيها بكل جلاء أن حكومة جلالة الملكة تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المشاكل الهامة مثل مسألة تغيير النظام ... كذلك أقترح إعطاء السلطة بأن أأخذ الوسائل اللازمة التى أرى وجوب اتخاذها لمنع هذا التغيير الخ ، وأصدر كرومر أمره فى الوقت نفسه إلى الموظفين البريطانيين بأن لا يعترفوا بالوزارة الجديدة حتى يتلقوا أوامره^(٣) .

وجد الخديوى الشاب نفسه وحيداً أمام السياسى العجوز . فالكتلة الشعبية لا تتجاوز قوتها كلاماً يقال ، أو مظاهرات تجتمع ثم تنفض . وقنصلاً فرنسا وروسيا اللذان كانا يشجعانه على مقاومة الإنجليز قد تخليا عنه . ورأى كرومر

١ - يقول كرومر « أما أنا فقد عرفت أن لا مفر من وقوع نزاع شديد . ولكنى اعتقدت أن البدء فى النزاع لا ينطبق على السياسة الرشيدة . . . فالخطة التى كان يجب على اتباعها كانت مهسومة واضحة . ومى أنه كلما كان يتحقق اقتراب الأزمة كانت تزداد الحاجة إلى الاعتدال التام ، لكى أبعد كل ما يدعو إلى الاشتباه بأن الأزمة أثبتت عمداً »
عباس الثانى ص ٣٠ - ٣١

٢ - كان مصطفى فهمى من أطول رؤساء الوزارات المصريين للإنجليز وأوثقهم صلة بهم .. حتى لقد روى أحد شفيق وكرومر أنه أجاب رسول عباس إليه حين طلب منه الاستقالة بقوله « إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يتخذ خطوة فى هذا السبيل » . راجع مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٨ ، عباس الثانى ص ٣٤

٣ - عباس الثانى ص ٣٥ - ٣٦ ، مصطفى كامل ص ٢٦٤

أن من الأفضل أن لا يسرف في إذلاله ، وأن يدع الباب مفتوحاً للتفاهم لعله يستطيع من بعد أن يتألفه ، فحل المسألة حلا وسطا ، وذلك بأن لا يعود مصطفى فهمي إلى رئاسة الوزارة ، وبأن يعزل غفري في نفس الوقت ، ويعهد في تأليف الوزارة إلى مصطفى رياض . ولكنه أصر على أن يتقدم عباس إليه بخطاب أملى هو صورته ، يقول فيه : لانه يرغب رغبة شديدة في أن يوجه عنايته إلى إيجاد أصدق العلاقات الودية مع إنجلترا . وأنه يسير بكل رضاه بموجب نصيحة حكومة جلالة الملكة في كل المسائل المهمة في المستقبل ^(١) .

وظن كرومر أنه قد لقن الخديوى الشاب درساً لن ينساه . وكان يتوقع أن يجد في رياض — عدو المبادئ العرابية القديم — عوناً على ترويض عباس وكسر حدته . ولكن الذى حدث هو أن رياضاً قد انقلب إلى مؤازرة عباس . وظاهره في موقفه العدائى من إنجلترا ، فنع الموظفين الإنكليز بمن جرت العادة بأن يحضروا مجلس الوزراء من حضوره ، وقرر أن تكون اللغة العربية هى لغة التعليم فى المدارس الأميرية ، بعد أن كانت معظم الدروس تلقى باللغة الإنكليزية ^(٢) . وكثر الصدام فى عهده بين الموظفين المصريين والانكليز ^(٣) . وتشجعت الصحف الوطنية على مهاجمة سلطات الاحتلال حتى اضطر إزاء إلحاح كرومر إلى إيقاف صحيفة «الاستاذ» وإبعاد صاحبها عن وطنه .

ومضى عباس لوجهه لا يتراجع يؤيده رياض ، وقد تأثر بما رأى من إجماع الشعب على تأييد الخديوى . فقد ظلت الجموع من مختلف الطبقات تتوالى على القصر طوال اليوم الأول لتوليهِ الوزارة ، تهتف داعية للخديوى مشيدة بوطنيته

١ — عباس الثانى ص ٢٧ — ٢٩

٢ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٨ — ٩١

٣ — مثال ذلك ماحدث حين أصر ماهى باشا وكيل الحربية على أن يعرف مرتبات ضباط الجيش من الانجليز لمفارتها بمرتبات زملائهم من المصريين . وكان السردار يحرص على الاحتفاظ بمثل هذه البيانات فى طى السكبان ، وقد تود منذ الاحتلال أن لا تكون موضع مناقشة —

عباس الثانى ص ٤٦ — ٥٧ ، مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٨٠

وجرائه، وهاجم فريق من القصاب، وعلى رأسهم مصطفى كامل - وكان وقتذاك طالباً في الحقوق - صحيفة المقطم، التي كانت تؤيد الإنكليز وتهاجم الخديوى^(١). وتحلى حماس الشعب في استقبال عباس حين ذهب إلى مسرح (الأوبرا) لمشاهدة رواية دحايدة، بعد الأزمة بأربعة أيام^(٢).

لذلك لم يمض على أزمة مصطفى فهمى عام حتى تصيد كرومر فرصة أخرى لتوجيه لطمة جديدة قوية إلى عباس، حين وجد الفرصة مواتية في جاذبة نافذة، احتك فيها الخديوى، بكتشنر - سردار الجيش وقتذاك^(٣) - فبادر كرومر إلى الاتصال برياض يطلب تقديم اعتذار وسمى من الخديوى عباس بنشر في الصحيفة الرسمية، ويهدد بخلعه. وأصرع رياض إلى مقابلة عباس في جرجا قبل عودته إلى القاهرة، وقد ملأ الرعب قلبه، وأقنعه بقبول شروط كرومر فلم يجد الخديوى، وقد وجد نفسه وحيداً للمرة الثانية، بدأ من قبولها. ونشرت البرقية التي أعذر فيها عباس إلى كتشنر في الصحف العربية، كما نشرت ترجمتها الفرنسية في الصحف الأوروبية^(٤) وكانت هذه الحادثة ضربة قاضية لنفوذ عباس في الجيش. فقد انتهى الأمر فيه إلى ما توقعته صحيفة الأهرام في تعليقها على الحادث وأستنكارها لموقف رياض من الخديوى بمساعدته الإنجليز على إلقاء شروطهم وإذلال عباس، حين قالت: «إن الضباط والعساكر المصريين سينتهى بهم الأمر إلى أن لا يعرفوا

١ - عباس الثاني ص ٤٥

٢ - مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٦٢

٣ - وذلك أن الخديوى سافر في رحلة إلى الحدود. فلما بلغ وادى حلفا واستعرض الجيش في ١٨ يناير سنة ١٨٩٤، أبدى للسردار - وهو وقتذاك كتشنر - بعض الملاحظات التي تدل على عدم رضائه عن تدريب بعض الفرق، فاعتبر السردار أن في توجيه مثل هذه الملاحظات إهانة له وغضباً من قدره؛ فقدم استقالته. ولم يدع كرومر الفرصة تغفل من يده، فهو يقول: «إن الفرصة التي كنت أرقبها قد جاءت. ولأنه من الصعب اختيار ميدان للواقعة أنسب من هذا الميدان» فأنهز هذه الفرصة لإذلال عباس - عباس الثاني ص ٦٠

٤ - راجع التفاصيل في مصطفى كامل ص ٢٦٨ - ٢٦٩، مذكراتى في نصف قرن

٢ : ١٢٠ - ١٣١، عباس الثاني ص ٥٨ - ٦٦

رئيساً عسكرياً سوى كشتنر باشا ، ولا رئيساً سياسياً سوى اللورد كرومر .

كان اصطدام الحديوى بالإنجليز يزيد عطف المصريين عليه وحبهم له . وكان هو من جانبه لا يدع فرصة للاتصال بالشعب إلا اقتنصها ^(١) ، لذلك لم يكن عجباً أن يقبل عليه الشعراء ملاحين ، وأن يمجّدوا فيه وطنيته الصادقة وميوله المصرية ، التي كانت شيئاً جديداً من هذه الأسرة التركية التي عاملت الشعب من قبل بكثير من الترفع والاحتقار . ومن الإنصاف ل هؤلاء الشعراء الذين مدحوه في هذه الفترة الأولى من حياته — وهم كثرة كبيرة ، لا يكاد يشذ عنها شاعر من شعراء ذلك العصر — أن نقول : إنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك بشعور وطني خالص لا تشوبه شائبة من التزلف أو الملق ، فقد جمع عباس في هذه الفترة الأولى من حكمه بين الزعامة والملك . وهذا هو عبد الله النديم ، خطيب الثورة العربية ، الذي لم يجد عن مبادئها حتى مات غريباً في تركيا ، لا يني عن الإشادة به في كل مكان من صحيفته ، الأستاذ . . . محاولاً أن يجمع المصريين حوله . وأن يجعله قطب الحركة الوطنية في ذلك الوقت . وهذا هو مصطفى كامل ، قائد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار ، يقول في خطبة له بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ :

« والحمد لله ، فقد أصبحت مصر عارفة بحقوقها ، وأصبح أبنائها عارفين بواجباتهم نحوها ، مستظلين جميعاً — على خلاف ما يشتهيه الدخلاء — براية الوطنية الشريفة الحامل للرائتها عزيز مصر وأميرها الجليل عباس حلمي باشا .
« أراكم أيها الوطنيون الأوفياء ، والمستوطنون الأعزاء ، صفقتم وهستم ، وبدت عليكم علامات البشر والسرور ، عند ما ذكرت اسم عزيزنا المحبوب .
« فاسمحوا لي أن أحمدكم من صميم فؤادي ، وأشكركم على المكانة السامية التي لأميرنا

١ — راجع على سبيل المثال : وصف رحلة الحديوى عباس إلى الصعيد لانتتاح الخط الحديدي بين أسبوط وجرجا سنة ١٨٩٣ ، فقد حرص على زيارة الأقاليم والنزول في ضيافة أعيانها على طول الطريق . مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٨٤ — ٨٧

الكريم في نفوسكم ، الدالة على أن الشعب المصرى كله قدر هذا المبدأ حق قدره . وعرف أنه حقيق بأن يحب ويخدم بصدق وإخلاص ، جدير بأن يساعد في خدمة الوطن العزيز ...

وإن هذا الأمير أرسل ليسترد لمصر حقوقها ، ويعيد لها أملاكها المفقودة . فليكن من رجال أوفياء يساعدونه على هذا العمل الخبير ، وينسئون أشخاصهم في جانب خدمة البلاد . فإن الوطن يستغيث بكل ذى شعور حى ، فالأمة تستنجد بكل ذى إحساس شريف .

ولا يجب أن ننسى أن أميرنا المحبوب سهل علينا كثيراً خدمة الوطن الشريف . فإنه هو الذى أسمع أوروبا بأن مصر ترغب بغيرة وتشرف نوال حريتها التامة . وهو الذى أزال الخلاف القديم بين مصر والدولة العثمانية ، وأيد العلاقات الحسنة ، وأحبط مساعى الدخلاء مريدى التفريق . فلنساعده جميعاً فإن في مساعدته خدمة لمصر وأهلها (١) .

والذى يقرأ مدائح الشعراء لعباس في هذه الفترة ، يستطيع أن يدرك بسهولة أن كثيراً منها يدخل في صميم الشعر الوطنى ، بما اشتمل عليه من تصوير لذلك الكفاح المرير الذى كان يخوضه الحديوى ضد الاستعمار .

وطبعى أن يكون شوقى في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين مدحوا عباساً . ولعلنا نزعم أنه كان مدفوعاً في كل مدائحه بشعور وطنى ، فقد كان شوقى وقتذاك شاعر القصر ، وقد تضطره وظيفته إلى مدح أميره بالحق وبالباطل . ولكننا نقول : إن هذا الشعر طابق الحق في هذه الفترة ، على ما كان فيه من تحوط واحتراس ، وتجنب لمهاجمة الاحتلال صريحة في أغلب الأحيان (٢) . ومن أحسن ما قال

١ - مصر والاحتلال الإنجليزي - مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو ١٨٩٥ إلى مايو

سنة ١٨٩٦ ص ١٤٢ - ١٤٣ وراجع كذلك مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٢٠٣

٢ - من الإنصاف لشوقى في هذا المقام أن نشير إلى ما كان من صداقة مصطفى كامل ، وإلى أن

صلته به لم تخضع لصله الحديوى به قوة وقنورا . ولكنها استمرت وثيقة قوية على كل الأحوال .

في هذه الفترة، مما يتصل بشعر الوطنية، قوله (١) :

وبصوتك حاججنا الممالك والعصرا
وباسمك أسعنا، نريد زماننا
ونطلب حقاً عند هذا الورى لنا
ففي المثلث الذي حب ذا الملك سيرة
بأى فؤاد جشها في مكانها
ولا هين فيها البأس والرأى والحجا
فيا ذقت في هذا المقام مودة
إذا سمحت النيل المؤمل راحية
وإنما لتعطى للنيل في الله خلقه
فما سمعنا أن غالتا الدهر شطرننا
بعشنا وعييدا من زئير وطالما
عرفنا خطوب الدهر والصبر عندها
وما نلت يا عباس ما نلت سدى
سندعو بني الدنيا إلى النيل دعوة
ومنا كما تهوى الأحاديث عالياً
تضيء به شورى المرأى التي زكت

وقلنا قبأت مصر في مجدها مصراً
كبيراً كهد العالمين به حراً
توضح يدرى في توضحه الفجرا
من الدهر، لم تخطيء عزائمك للدهرا
خسوماً وذاك الملك والبر والبحر
لقوم يذوق الناس وذهموا قسراً (٢)
فقد حمت الشمس الكريمة والبدرا
ونخشاها فيه أن يساع وأن يشرى
ولكنما نرعى لأبنائه الشطرا (٣)
بعشنا السكون للجح والنظر الشونا
فلم نعرف الخطب الذي غلب الصبرا
ولكن أصاب الصابرون بك الأجر
يلبون منها الجاه والنائل للمعشرا
كأن الخديوى فيه قيصراً أو كشرى
وتشرق أوكاف القضاء الذي برأ

ومن الانصاف له كذلك أن تذكر أنه كان من أفض رجال الحاشية إلى الإنجليز . ويدل على ذلك ما كان من نصيحة كرومر لبليس في آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر ، بأن يعتمد على مصطفى كامل ، وعلى يوسف ، وأحمد شوقي . ويدل عليه كذلك إجادته ليداع عن مصر بعد خلع عباس — يراجع في ذلك (مصطفى كامل) للرافعي ص ١٢٠ ، ٣٠٤ ، ٢٢٣ ، مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ١١٤ — ١١٥ ، ١١٨

١ — ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٢ — يقصد بالذي يذوق اللبس ودم مرعنين الإنكليز :

٣ — يقصد بالخطر الأول الذي لغتله الدهر : السوءان . أما الخطر الثاني الذي يرعاه

الخديوى لأبنائه فهو : مصر .

وَمُجْرَحٌ فِي أَيْامِهِ النَّفْسُ حُرَّةٌ تَنَاوَلَهَا قَدْ شَبَّأً وَتَلَبَّسَهَا خَضِرًا
وهو يشير في قصيدة أخرى إلى شدة إقبال الشعب على عباس والتفافه حوله
كلما اشتدت الأزمات ، وكلما أسرف الانجليز في التصديق عليه فيقول (١) :
بعباس عشنا حين لا العيش هين وحين ينشوء لا جميل ولا حيد
تحبك يا خير الملوك رعيّةً لها منك ما نخفي ، وللحال ما يتدو
ولاء مع الأيام ، تتمر صرّ فها فينمو ، وتشتد الخطوب فيشتد
ويشير إلى قيادة عباس للحركة الوطنية وكفاحه للاستعمار في قصيدة ثالثة
حيث يقول (٢) :

هذه مصر جاءها النيل يسمى وهو يا طالما جفاها وصدا
صاحب النيل في البرية إليه حرر للنيل للبرية وزدا
ووقع الصوت إن عصرك حرّ لن يرى من سماع صوتك بدا
إنما المملك أن تكون بلاد وتُصيب البلاد المملك مجدا
فتولّد الذي سادت ونجح لرعاياك في المعارف قصدا
ومرّ العلم أن يزور بلادا عهدها له الخلاق مهدا
وهو يشير في هذه القصيدة إلى ما كان من احتجاج الانجليز على تقريب
الخدمى له ، ونصحهم إياه بإقصائه عنه فيقول :

قل لراج أن يشرق براعى أنا لا أشترى بدا التاج قيذا
ليراعى وللأحاديث شأن أرنجى أن يكون منسكاً وندا
نومة السيف قد تكون حياة ورأيت البراع إن نام أردى
خلق الله ذاك صاحب غمر وبراذ لا يعرف الله غمدا
ويشير إلى حيرة المصريين ، وما صاروا إليه من سوء الحال ، مشيدا بجهاد
عباس ، الذي لا يعرف قلبه اليأس حيث يقول (٣) :

٢ - المرجع نفسه ص ٨

١ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٧٢

٣ - ديوان شوقي طبعة سنة ١٩١٢ ص ٥٨

أبا الحيارى ألا رأى لسيعة صمم
باتوا يرَجُون لما طال بؤسهمو
لن يعرف اليأس قوم أنت حصنهمو
عودتهم أن يُعِينُوا في خلاصهم
والصدق أرفع ما اهتز الملوك له
ولنما الأمم الأخلاق ما بقيت
ويشيد حافظ بقيادة عباس للحركة الوطنية في قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٤
حيث يقول (١) :

رددت ما سلبت أيدى الزمان لنا
... فكن بملكك بناء الرجال ولا
وانظر إلى أمة لولاك ما طلبت
وما تقلص من ظل وسلطان
تجمل بذاك إلا كل معوان
حقاً ولا شعرت حباً لأوطان
ويقول إسماعيل صبرى في قصيدة مدحه بها سنة ١٨٩٣ : (٢)

عباس ... قد سُننت البلاد سياسة
أنفذت حكمك بادهاً بمسائل
وبنيت سداً من ذكائك دونهم
يا صاحب النيل الذى جرّت به
حققت آمال البلاد وجُرّتها
رامتك شبنلاً كي تميز عربها
سيحدث التاريخ عنها الأعصر
دقت على الحكماء أن تنصروا
فأرئيتنا يأجوج والاسكندرا (٣)
مصر على البلدان ذبلاً أخضرا
شاوياً وما جُرّت الشباب الأنصرا
فأبيت إلا أن تكون غضنفا

١ - ديوان حافظ ١ : ٣٠ ولحافظ قصيدتان سابقتان على هذه القصيدة فالأولى سنة ١٩٠١ ولم يمر فيها إلى الحركة الوطنية من قريب أو بعيد ، لأنه كان وقتذاك في الاستبداد ، وكان يؤمل أن يعود إلى الخدمة . وإنما تجرأ حافظ في هذه القصيدة بعد أن أحبل إلى المعاش سنة ١٩٠٣ فاقطع أمه ولم يعد يبالي بغضب الانكليز .

٢ - ديوان إسماعيل صبرى ص ٤٦

٣ - يشبه المفهمن يأجوج ، ويشبه عباس بالاسكندر الذى بنى سداً على يأجوج وماجوج ليعول بينهم وبين الناس كما جاء في سورة الكهف .

ويقول محرم من قصيدة مدحه بها في إحدى رحلاته الكبرى التي كان يطوف فيها بالاقاليم وينزل في ضيافة أعيانها (١) :

أهلاً برب النيل يلتقي شجعه فرحاً يضح مهلاً ومكبراً
 فرعون ينظر من خلال عصوره خزيان يرفع كفه مستغفراً
 سُسنت الرعية عادلاً تبغى لها عز الحياة ، وساسها متجبراً
 جحد الإله وفي يديك كتابه تقضى به وتعيده متدبراً
 الملك إصلاحٌ وعدلٌ شائع يحمى الضعيف ويقمع المتكبراً
 ورعايةٌ تهب النفوس حياتها وترد جيش البؤس عنها مدبراً
 مولاي أخيت الرجاء لامة شهدت بطلعتك الرجاء الأكبراً
 صدق الولاء أمانة لك في دمي يابى لها الإيمان أن تتغيراً
 لست الذي يرضى العقوق بحجة ويرى انقلاب في المذاهب متجراً
 لو كنت طالب حاجة لوجدتني أسعى إليها في ذراك مشمراً
 ولو أنني ممن يتوق إلى الغنى لوجدته بندي يديك ميسراً
 ما في الحياة على تعاضل شأنها ما يستخف العاقل المتبصراً
 لو كان لي قصرٌ يُزارُ جعلته لوفادة العباس بدعاً في الوزمى

ويقول الكاشف ، من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠١ (٢) :

مرُ بالنيل قبل عهدك دهر كان فيه لا يرتوى الورادُ
 وبواديه - وهو أجذبُ محل - يشتكى عنده الطوى الرثودُ
 .. فيك آمالنا السكبارُ ، وفينا لك حب وذمة واثقياد
 ولديك النجاة من كل عاد وإليك السكون والإخلاد
 أنخاف العبدى وأنت محيط بالذى دبُر الدهاة وكادوا
 وجدوا ما نوه ما دمت في مهـ ر محالا فاستسلموا أو كادوا

والاكتسبوا شيمه الصديق فليظروا منهم إلا الرضى والوداد
ويقول من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٣ (١) :

إن الذى أحيا البلاد بنيلها لك مُرجع بك مجدها المفصوبا
وهبتك على عرشها، ووهبتها عدلاً فكنت الواهب الموهوبا
لا يبلغُ الأقوامُ منها مارباً مدامت فيهم نافداً وحسيباً
وسينجلون كما انجلت من قبلهم أممٌ أشدُّ وقائماً وحراباً
تبعنياً لتتبعنا بموعد الرضى إنما جناه من مضوا وذنوباً
لأننا ليرجو بعد اهتباتك التى بهرت حسودك صيحةً فرتوباً

ويقول عبد المطلب، من قصيدة مدحه بها حين عاد من الحج سنة ١٩١٠ م (٢) :

يدعو لمصر بأن يراها أحرزتْ في دولة العلياء كل نصاب
بلد عرفناه بهم بحبه منذ الشباب وقبل عصر شباب
وهو الغياث لمصر وإن هبت بها أيدى ثعالب فى الورى وذئاب
وهو الذى وقف المواقف كلها فى نصر مصر وقوف ليث الغاب
يدعو ويرجو نصرها متبتلاً لله بين القبر والمحراب
فعلى فيها أن يحل ولاؤه منهم مع الأرواح والألباب

ويقول عبد الحليم المصرى من قصيدة مدحه بها سنة ١٩٠٦، وكان وقتذاك

تلميذاً بالمدرسة الحربية (٣) :

لك الأولاء فوق الانس والجنان فأخذل عداتك من قاص ومن داني
رب الأسود التى يوم الكريمة لا يرون لإخوانهم فيها ياخوان
لبثت فى أمة السكسون تقرضها عدلاً بعدل وعدولنا بعسدوان
وكتت كالدهر، لو أغفت لوأحظته له على الناس قلب غير وسثنان

١ - ديوان الكاشف ١ : ٢٢

٢ - ديوان عبد المطلب ص ٦٥

٣ - عبد الحليم المصرى ١ : ١٦ - ١٩

... هلمت بالمدح والذم تثبطني وكان مدحك مقروناً بإيمان^(١)
فإن ظفرت بأمالٍ سأخذلها وإن خذلت فإني ذلك الجاني

هكذا أحب الناس عباساً في صدر حكمه ، وكذلك مدحه الشعراء مخلصين
غير منافقين ، ولكن الحال لم يدم على هذا المنوال . فقد تضعض عباس وخار
عزمه أمام اللطمتين اللعاسيتين اللتين تلقاهما من كرومر ، ولم يدر ماذا يصنع .
هذه هي فرنسا وروسيا ، تشجعانه على مقاومة النفوذ الإنكليزي ، ثم تتخليلان
عنه في المآزق . وهذا هو الشعب من ورائه ، قصارى جهده أن يصفق وأن
يحتف بحياته أو بسقوط الظلم ، فجده جهد المقل ، وحببه حب الضعيف الذي
لا يضر ولا ينفع . وهؤلاء هم الذين اصطفاهم وقربهم إليه : مصطفى كامل وعلى
يوسف ، لا تتجاوز وسائلهم الخطب والمقالات . وهؤلاء هم أعيان المصريين
وكبرائهم ، يسرعون إلى رموكب الظافر يرمون تحت أقدامه ابتغله النفع^(٢) .

١ — يشير إلى أن مدحه يفضى كرومر ويغضب الإنجليز أصحاب السلطان ويعرضه للاضطهاد
كان وقتذاك طالباً في المدرسة الحربية .

٢ — من أمثله ذلك ، تصريح غري باشا الذي رشحه عباس لرياسة الوزارة بعد إقالة وزارة
مصطفى فهمي برأى الاستمرار للإنكليزي أهون من غيره ، برأه لو تولى الوزارة لما فكر في الاستفتاء
عن خدمات المواطنين الإنكليز ، لأن مصر لا تستطيع تصريف أمورها بشيء مشورتهم (مذكراتي في
نصف قرن ٣ : ٧٤) ومن أمثله كذلك تراجع ماهر باشا الذي كان من أعداء الإنكليز بعد
اللمحة التي تلقاها عباس في أزمة الحدود ، وبعد نقله من وكالة الحربية في هذه الحادثة بأمر كرومر .
قد اضوى إلى الإنجليز بعد ذلك مستبشاً من مقاومتهم (عباس الثاني هامش ص ٨٥) ومن أمثله
كذلك انصراف رياض باشا إلى التقرب لكرومر بعد أن أقاله عباس من رياسة الوزارة لتخليه عنه
في حادث الحدود . وقد ظهر ترفقه هذا في خطبته المشهورة عند افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية
سنة ١٩٠٤ ومي الخطبة التي هاجم شوق بديها في قصيدته «خاتمة رياض» (عباس الثاني هامش ص ٦٦
مصطفى كامل ١٤٤ — ١٤٧) . وهكذا جنح معظم رجالات مصر إلى الولاء للاحتلال واكتساب
رضاه فانتشرت روح الخضوع والاستسلام بعد اسباب فرنسا من فاشودة سنة ١٨٩٨ وبعد اتفاقية
السودان سنة ١٩٢٩ (مصطفى كامل ١٠١ و ١٠٨ و ١٠٩) وتفشي الفدح والنفية والانصراف
عن متابعة الحركة الوطنية بعد اتفاق فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٤٢ ، ١٤٣) .

والجيش — على ضآلته وضعفه — وللشرطة والأداة الحكومية بعد ذلك كله في يد كرومر ، فكيف يصنع ؟

بدا عباس بصيص ضئيل من الأمل يشع من باب الخليفة في تركيا . فتبعه وطرق باب السلطان عبد الحميد ، يرجو أن يجد عنده الملجأ من كرومر ، وأرتمى بين أحضانها كما يرمى الطفل بين يدي أبيه طلباً للحماية من كاب ضار . وخيل إليه أن السلطان سينصفه ، فبالغ في إذلال نفسه له والتأدب بين يديه ^(١) . ولكن عبد الحميد كان غارقاً في متاعبه الخاصة . وكان هو نفسه عاجزاً عن مقاومة الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها ، وفي مقدمتها إنكلترا ، فكيف يدفع الضرر عن غيره من لا يستطيع دفعه عن نفسه ؟ ... وكيف يعين عبد المعين وهو أحوج لمن يعينه ؟ ... كما يقول المثل المصري ^(٢) .

وأخذ كرومر يرقب رحلات عباس إلى الأستانة وعلى فمه ابتسامة ساخرة وهذا هو السفير البريطاني في الأستانة يقول : « إن السلطان نصح للخدوي بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، ويرضى بما قسم له ، ويشق بفعل الزمن ، محافظاً دائماً على العلاقات الحسنة مع الإنكليز » . ويقول كرومر عن وفد عباس إلى تركيا وعن العريضة التي رفعوها إلى الخليفة ، في عبارة ملؤها الشتم والاستخفاف . « ومهما تكن البواعث التي جعلت السلطان يماثلهم هذه المعاملة ، فلا ريب أنهم نالوا ما يستحقون . فإن هذه العريضة كانت ألطف فصل هزلي في رواية الحركة ضد الإنجليز ... هذه هي النتيجة الوحيدة من زيارة الخديوي للأستانة . فإنه اقتنع بأن لا ينتظر أى مساعدة من هذه الجهة . ذهب شاهراً

١ — زار عباس السلطان عبد الحميد في ثلاث سنوات متتالية عقب أزمة الوزارة الفهمية في سنوات ١٨٩٣ ، ١٨٩٤ ، ١٨٩٥ . ويروي أحمد شفيق في وصف المظلة الأولى أن الخديوي كان يقف مؤدياً التحية العسكرية للسلطان عبد الحميد كلما أجاب عن سؤال يوجه إليه . كما روى أنه امتنع عن التدخين في حضرته حين قدم إليه لفافة تبغ ، ولم يسمح لنفسه بالتدخين حتى أمره السلطان بذلك قالاً : الطاعة فوق الأدب (مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٠٣)

٢ — المثل بلهجة الشامية (جيتك يا عبد المعين نمي لبيتك يا عبد المعين تتان)

الحرب، وعاد خصماً مؤدياً ذليلاً^(١).

واضطرب تفكير عباس، وراح يتخبط ق تصرفاته. فهو تارة يفر من الإنكليز إلى تركيا، وهو تارة أخرى ينصرف عن السلطان محتماً منه بالإنكليز^(٢). وهو كاره لكلهما في الحايين، لا تطمئن نفسه إلى هذا ولا ذاك. ولكن صلاته بتركيا تقوى وتضعف تبعاً لحسن صلاته بالإنكليز، وصلاته بالإنكليز تزيد وتقل تبعاً لإقبال السلطان عليه أو انصرافه عنه^(٣). وبينما كان عباس يشجع أعضاء وتركيا الفتاة، الفارين إلى مصر من مطاردة السلطان عبد الحميد،^(٤) إذا به ينقلب إلى محاربتهم تهرباً للسلطان^(٥)، وبينما هو مقبل على الشعب ليحتضن مطالبه، ويشجعه على تقديم العرائض للمطالبة بالدستور، التماساً للحد من نفوذ كرومر^(٦). إذا به يتنكر للشعب وزعمائه، ويعرض عن مطالبه، حين يرى إقبال جورست (خليفة كرومر) عليه، فيحارب الحرية والصحافة وينقض عن الزجج بأصدقاء الأمل في السجون^(٧). فإذا مات جورست وحل محله كاتشنر (عدوه القديم في حادثة

١ — عباس الثاني من ٥٦، ٥٥.

٢ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٤١١، ٢ : ١٦٤، ٢٠، ٢١.

٣ — سافر عباس للاستشارة في أول حكمه ثلاث سنوات متتالية ثم انقطع سنة ١٨٩٥ بعد زيارة الأسطول الإنكليزي للاسكندرية. وسافر إلى لندن سنة ١٩٠٠ حين قررت صلته بالسلطان بسبب تشجيعه للفارين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة. ولكنه عاد لاستشارة السلطان حين أمر كرومر بفتيش قصره في حادث ليون همي سنة ١٩٠١. ولم يلبث أن انصرف إلى التقرب من الإنكليز حين اختلف مع السلطان على جزيرة ماشوز سنة ١٩٠٢. وهكذا ظل طول حكمه يفر من الإنكليز إلى الترك تارة، ومن الترك إلى الإنكليز تارة أخرى. وكان مما يفسد عليه صلته بالسلطان مكاييد الأمير حليم الصدر الأعظم، وقد كان طامعاً في عرش مصر (راجع مذكراتي في نصف قرن في السنوات السابقة).

٤ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٠٣، ٢ : ٢٠٨، ٤ : ٨، ١٤٩، ١٥٠.

٥ — المرجع نفسه ٢ : ٣٦٨، ٣٩٤—٤٩٥، عباس الثاني ٧٧—٧٨ و٨٠.

٦ — محمد فريد : ٥٧—٥٨، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١١٤ و ٢١٨ و ١٥٤ و ١٥٤.

٧ — المرجع نفسه ١٠٠، ٦٤، مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٧٦ و ٦٨ و ١٧٣.

(الحدود) ، عاد يلتبس عون الزعماء الذين زج بهم أمس في المسجون^(١) .
كان هذا التذبذب والتخبط ذاعياً لاختلاف آراء الناس في عباس : أكان
مخلصاً لقومه ولكنه غلب على أمره ؟ ... أكان صادق النية ولكنه غالب التيلاز
فغلبه ؟ ... أكانت آماله أكبر من همته فلم يصبر للكفاح ؟ ... أم أن حبه للملك
وتعلقه بما يحيطه من أهبة وجاه كان أكبر من حبه لقومه ووطنه ؟ ... أم أنه كان
يسعى إلى زيادة نفوذه وإطلاق يده من كل قيد ، فهو يلتبس الوصول إلى هذه
الغاية من كل سبيل ؟ ... وهو إذن لا يكره الاحتلال الإنكليزي نفسه ، ولكنه
يناقض مثله وينازعه السلطان .

مهما يكن من دخيلة أمره ، فقد انتهى إلى نهاية لا يختلف عليها شئ . انتهى
إلى اليأس والاحتلال . فشهد العرض العسكري الذي كان يقيمه جيش الاحتلال
في ميدان عابدين بمناسبة عيد ميلاد الملكة فكتوريا ثم الملك إدوارد السابع
من بعدها . ووقف للمرة الأولى تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر في
سنة ١٩٠٤ مرتدياً بدلة التشريفة الكبرى يحيط به حرسه الخاص .^(٢) ثم قبل
تعيين (ياور) لإنجليزى له في سنة ١٩٠٥^(٣) ثم نشرت له صحيفة (الدلي تلغراف)
حديثاً في سنة ١٩٠٧ (بعد تعيين جورست) ينفي فيه عن نفسه تهمة العمل ضد
الاحتلال ، مطرياً اللورد كرومر ، مصرحاً بأنه لا فائدة للمصريين من استبدال
احتلال باحتلال ، وبأن الاحتلال الإنجليزى أفضل من أى احتلال آخر^(٤) .
وانصرف عباس في غمرة يأسه إلى المال يجمعه في شره ، وبكادسه في نعم ،
ولا يبالي شيئاً غير تحقيق منفعته ، معتذراً عن مسلكه بأنه يعادى دولة قوية
قاهرة يحتاج في حربها إلى المال ، وبأنه لا يدري هل ينتهى الأمر بظفروه فينجع

١ — مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٣٠٣ ، محمد فريد ٤٤٤ ، تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ٩١ .

٢ — مصطفى كامل ١٥٢ و ١٥٣ ، مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٥٦ .

٣ — مصطفى كامل من ١٥٥ .

٤ — ٢٨٧ ، مذكراتى في نصف قرن ٢ : ١١٥ — ١١٦ .

في إيجلاهما أم تظفر هي فتطرده خارج مصر ؟ ... فهو محتاط لنفسه بل أن يهاجر ما يمكنه من العيش إذا ذارت عايه للدائرة (١) . والأمثلة على هذا الشرح كثيرة ، منها جزيرة طاشوز (٢) ، وشركة الزيت جند والنحاس (٣) . ومنها بيع الرتب والنباشين وما استتبعه من فضائح (٤) . ومنها حرصه على وضع يده على إدارة الأوقاف وإطلاق يده فيها دون مراقبة ، مما أدى إلى إصطدامه بحسن عاصم ومحمد عبده وبقاضى القضاة التركي وبخيرم في تفتيش مشهر سنة ١٩٠٤ (٥) .

١ - تاريخ الأستاذ الإمام : ١٩٧٠

٢ - خلاصة المسألة أن الخديوى اتفق مع أحد الأجانب من السويسيين على شراء مصرية زيت بهمة الجزيرة سنة ١٩٠٢ وهي وقف لأسرة محمد علي ، وهما له السلطان مكافأة على حكمة الوماية - وفار سكان الجزيرة حين فرض عباس ضريبة عالية على المزارع التي كانت تأكل كثيراً من شجرات الزيتون وشكوى للسلطان فأصدر أمره باحتلال الجزيرة حفظاً للأمن ، وقد ساءت علاقة عباس بالسلطان من أجل ذلك حتى لقد التمس معونة إنجلترا . (راجع التفاصيل في مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٣٩٥ - ٤٠٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١ - ٥٦٢) .

٣ - ملخص المسألة أن الخديوى اتفق مع ثلاثة أجدم سويسرى على تأليف شركة لاستخراج اللؤلؤ والأحجار الكريمة من البحر الأحمر والتنقيب عن النحاس والمعادن في جزره وفي شبه جزيرة سيناء ، على أن يكون الربح مناصفة بينه وبين الشركاء . وفوجيء عباس بمنافسة شركة إنكليزية له في الطور فلم يستطع الوفاء بعقد الشركة (راجع التفاصيل في مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ٦٦ ، ٦٧) .

٤ - كانت الرتب تباع كالمسلح ، وكان لكل رتبة سعر معين وكان لها وسطاء معروفون ، ربما اعتدى بعضهم على البعض الآخر فتافده في حملاته . وقد ترتب على ذلك أن الرتب منعت في بعض الأحيان لأشخاص يحكمهم عليهم في جرائم خلقية كالزور والاختلاس ، فأحدث ذلك ضجة وكان حديث الناس والصحف . وتدخل كرومر في الأمر مهدداً بسحب امتياز منع الرتب من الخديوى (مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ٧ ، ٨ ، ٤٣ - ٤٤) وواجه على سبيل المثال : مقالا للطعن السيد نشر بصحيفة (البريدة) في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨ عن (الرتب والنباشين) المتخفيات ص ٧٢) .

٥ - ملخص المسألة أن زورفا دكي اشترى من الحكومة حديقة الجزيرة وسرايها وجزء من الأرض الزراعية التي أمامها على النيل . ثم اتفق مع عباس على أن يستبدل أرض الوقف الواقعة بحوار الكوبرى الأعمى بتفتيش الخديوى بمشهر . وكان الخديوى راغباً في إلقاء الصفقة للتخلص من تفتيش مشهر ولتكون شريكاً لورفا دكي في الأراضي التي تشترى من الوقف . ولذلك غلب في تقدير أرض مشهر وبخس أرض الوقف . فلما عرضت المسألة على مجلس الأوقاف الأعلى عارضها محمد عبده وأزره حسن عامر رئيس الديوان الخديوى مما كان سبباً في غضب عباس عليه (مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ٤٥ - ٤٦ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٢) .

وفي تفتيش المطاوعة سنة ١٩١٢^(١). وكان الذي بنى الإنكليز من الأمر - إلى جانب تشويه سمعة عباس والتودد إلى الشعب - هو أن لا يتركوا في يد عباس مصادر حرة المال لا تخضع للرقابة يمكن أن يستغلها في منافعهم . ولذلك كان الشيخ محمد عبده « صديق كرومر » أكثر الناس اصطداماً بعباس في ديوان الأوقاف . وقد باغ من كرمه عباس لمحمد عبده أن يخط على كل من اشترك في رثائه أو تشييع جنازته^(٢) ومن الأمثلة على هذا الشره في جمع المال مساومته لإيطاليا على شراء سكة حديد مريوط التي كانت قد أنشأها لإصلاح أراضي الزراعة بغرب الإسكندرية ، وذلك في مقابل إغرائه السنوسيين على وقف مقاومتهم للاستعمار الإيطالي سنة ١٩١٢ ، وإفائه لوزارة محمد سعيد سنة ١٩١٤ حين اشترت الحكومة هذا الخط بمبلغ لم يرض شرهه^(٣) . وقد تدلى عباس في جشعه إلى سفاسف الأمور ، حتى لقد فصل موظفاً بسرأى رأس التين لأنه رفض أن يرسل حشايها (مراتب) و (كراسي) إلى توكية المنزه ، معتذراً بأن (المراتب) يمكن أن يقال إنها استهلكت وأدخل قطنها في (التنجيد) ، أما الكراسي فهي (عسدة) ثابتة ولا يمكن إرسال شيء منها^(٤) .

ولم يكن شره عباس إلى السلطة بأقل من شرهه إلى المال . فلم يكد كرومر يرحل عن مصر ويحل محله جورست فيرضي شرهه إلى السلطة والمال ويطلق

-
- ١ - ملخص المسألة أن الدائرة السنية باعت ٣٠٠٠ فداناً لمشتريين ، قسطاً باق الثمن للبنك العقاري . وتأخر عليهما قسطا سنتين ، فمهرع البنك في نزاع الملكية . وعند ذاك أوعز الخديوى لديوان الأوقاف بشراؤها بالممارسة بأكثر من ضعف ثمنها حتى لا تبغض في المزاد الجبرى . وقد عارض أحمد شفيق الصفقة فنقل من الأوقاف وحل محله آخر مقابل رشوة ٥٠٠٠ جنيه وأنفذ الصفقة ثم تبين أن الصفقة تحت مقابل سنتين ألب جنيهه قدمت رشوة للخديوى . وقد علم كثيرنا بالأمر فنصم على تحويل ديوان الأوقاف إلى وزارة (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٩٢ - ٢٩٨)
 - ٢ - وهذا هو السبب فى أن شوقى لم يرثه إلا بثلاثة أبيات . ويراجع فى أمثال هذه الفصائح إلى ماسبق تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦١ ، ٥٦٢ . ٥٧١ ، ٥٧٢ ، عباس الثانى ٧٣ ، ٧٦
 - ٣ - مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٠٩ ، وراجع التفاصيل فى نفس المرجع

٢ : ٢٢٥ ، ٢٢٦

٤ - المرجع نفسه ٢ : ١٣٢

به في كل ما تشتهي نفسه منها ، حتى تنسرك للحركة الوطنية وحارب رجالها وعدل عن تحمسه للمطالبيين بالحياة النيابية ، لأنها أصبحت تعيد إرادته بعد أن كانت تعيد إرادة مثل الاحتلال . وهذا هو مصطفى فهمي الذي تلقى بسببه أول صدمة من الاحتلال ، لا يكاد يحتق بعيد جلوس عباس ، فيقيم الزينات الفخمة أمام بيته ، حتى يرضى عنه ويقبل عليه ويستشير به في كل صغيرة وكبيرة ، ويروي أحمد شفيق عن استبداده قصصاً عجبية . فهو يكلف أحد الموظفين - حين يغضب عليه - بالعمل في نقل الفحم ، فإذا هرب والتحق بإحدى الشركات أمر بإعادته إلى القصر . وهو دائم السب والشتم لموظفيه . بل لقد يبلغ في ذلك أن يضربهم بالسوط بيده (١) .

• • •

كان انحراف عباس سبباً في تحول الشعب عنه ، ثم سقطه عليه ومهاجمته له ، مما دعا إلى زج الأحرار في السجون .

أخذ مصطفى كامل يهاجم الحكومة وينتقد تصرفاتها واستسلامها للإنكليز منذ سنة ١٩٠٤ (٢) ، مما أغضب الخديوي . وانتهى بإعلان مصطفى كامل انفضاله عن القصر (٣) ، ولكن مصطفى كامل كان يتفادى الاصطدام بعباس ومهاجمته رغم ما شجر بينهما من خلاف ، حتى لا يتيح للإنكليز فرصة للتدخل ، وكان يتخذ القصر وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال (٤)

وهذا هو ما عناه شوقي حين قال في الذكرى السابعة عشرة لوفاة :

جمعت الناس حول العرش علماً بأن لمصر في العرش اعتصاما
هو العلم الذي تفديه مصر ونحن الجيئد في العلم انتظاما

١ - المرجع نفسه ٢ ب : ١٢٢ و ١٤٣ و ١٥٢

٢ - راجع خطبة مصطفى كامل في الاسكندرية : يونيو سنة ١٩٠٤ (مصطفى كامل ١٤٧-١٥٠)

٣ - اللواء عددا ٢٥ ، ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ - مصطفى كامل ص ٢٨٢ ، مذكراتي

في نصف قرن ٢ ب ٥٩ ، ٦٠

٤ - تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٥٩٣ ، ٥٩٤

وكان عباس في الوقت نفسه يحس أنه يحتاج إلى مصطفي كامل ، لا يستطيع أن يجمع على نفسه بين عداوته وعداوة كرومر مثل الاحتلال ، ولذلك سكنت علاقة مصطفي كامل بعباس رغم انفصاله عنه . قلنا خلقه محمد فريد ، شعر عباس بأنه يستطيع الاستغناء عنه بعد أن ساد الوفاق بينه وبين جورست مثل الاحتلال . ورأى محمد فريد أن عباساً لم يعد مستعداً للضي مع الشعب في كفاح المحتل الغاصب ؛ بل لقد رآه يتساهل في حقوق مصر ، حرصاً على صلات الود الجديدة ، أو على سيادة الوفاق — كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت — . وعند ذلك هاجم محمد فريد عباساً ، ورد عباس هذا الهجوم ، فأمن في اضطهاد الحركة الوطنية . واستعان على ذلك ببعث قانون المطبوعات في سنة ١٩٠٩ (وهو قانون كان قد صدر في أيام الثورة العراقية سنة ١٨٨١) ، وسن قانون النفي الإداري ، الذي يخول للحكومة حق نفي المصري لمجرد الشبهة ، بحجة أنه خطر على الأمن العام (١) . وبذلك نجح ذلك الداهية الإنكليزي ، جورست في صرف جهود الشعب إلى محاربة الحديوي بدلاً من محاربة المحتلين . ووقف الإنجليز موقف المتفرج ، يتدخلون للتوسط ولحل النزاع حينما يحلو لهم ذلك . وتحقيق بذلك ما أوامني به اللورد دو فرين في تقريره الذي وضعه في السنة الأولى للاحتلال ، حين نصح بأن لا يتولى الإنكليز حكم مصر المباشر وإدارتها مقترحاً أن تحكم باليد المصرية موالية للاحتلال ، حتى تقع أخطاء الحكم على رؤوس المصريين أنفسهم (٢) . وكان نصرف جورست صورة من المأساة الخالدة التي كررها الإنكليز في كل مستعمراتهم على مر السنين . يغرون الزعيم من الزعماء بالمسال وبالجاء ، ثم يملون له حتى يتورط في أخطاء تفقده ثقة الرأي العام . فإذا قضوا عليه نبذوه ، وظهروا أمام الشعوب بمظهر الغيورين على العدالة ، الذين يتدخلون للحد من جشعه واستغلاله (٣) . وذلك

١ — محمد فريد من ١٩٠٦ و ١٩٠٦ ، مذكراتي في نصف قرن ب ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ و ١٨٠ .

٢ — مصر والدودان في أوائل عهد الاحتلال من ٢٣

٣ — راجع عباس الثاني من ٧٣

هو ما حدث مع عباس ، أملاوا له حتى تخلى عنه الشعب وأصبح وحيداً . ثم تنصروا له ، وبعثوا لمصر بعدهم اللودوكتشنر ممثلاً للاحتلال ، يسومه الخسف وبذيقه الذل ويضيق عليه ، حتى لقد لازم قصره مفكراً في التنازل عن العرش . ومنذ ذلك الوقت أصبح الوطنيون يحاربون في جبهتين ، يحاربون الاحتلال ويحاربون في الوقت نفسه الخديوى وأذئاب الاستعمار ، وعرفت مصر مظاهرات الطلبة منذ سنة ١٩٠٦ . وبلغ من تحدى الطلبة للخديوى ، وكرهه إياه أن مر بنصر منهم في قهوة الشيشة ، وهو في طريقه لتوديع ولي عهد انكلترا الذى كان في زيارة مصر سنة ١٩٠٩ ، فظلوا جلوساً وقد وضع كل منهم ساقاً على ساق ينظرون إليه دون اكتراث ^(١) . وأثار هذا الموقف الكاشف فقال مخاطب الطلبة ، وقد عز عليه أن يرى الخديوى محوطاً بالحراس خشية اغتياله وهو الذى كان يتزعم الحركة الوطنية في الأمس القريب ^(٢) .

أرأيتم الحراس دون ركابه سداً فما ينو إليه مسلم
قد يصبح الإنسان شيطاناً ولا يقع الذى ظنوا بكم وتوهّموا
هل نحن أمة قيصر أو جاره كسرى فيخشى أن يحيط به الدم ؟
أم بعد ما أمن الأعادى أيلة بآبى على الخلاء أن يتكلموا ؟
وانضم الأزهري للحركة الوطنية ، ينددمع المنددين بحكم الخديوى الاستبدادى وبحكم من يشد أزره من أعوان الاستبداد والاستعباد ^(٣) . وظهرت المنشورات الثورية التى تدعو إلى تأسيس جماعات سرية للاغتيال ^(٤) . ثم عرفت مصر أول حادث اغتيال سياسى سنة ١٩١٠ حين قتل الوردانى بطرس غالى رئيس الوزراء .

١ — مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ١٧٨

٢ — قصيدة الكاشف الطلبة والسياسة ديوانه ٢ : ٩٥

٣ — مصطفى كامل ١٦٢ — ١٦٤ ، محمد فريد ٧٧ ، ١٠٣ ، مذكراتى في نصف قرن

٢ ب : ١٦٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠ ، روثنتن ٣٥٠

٤ — وصلت إلى عباس خطابات تهديد ثم قبض على ثلاثة من الشبان بتهمة التآمر على الخديوى وعلى كفتشتر وعلى محمد - ميد فزجوا في السجن مذكراتى في نصف قرن ٢ ب : ١٦٥ ، ٢١٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ (٢٧٠)

وجهر المعارضون للخدوي بعدائه وتجسروا عليه . فاستطاع سعد زغلول في سنة ١٩٠٧ أن يضرب بيده المنضدة في إحدى جلسات مجلس الوزراء وهو يقول — موجها الخطاب لعباس — « حيفئذ لا يستطيع الإنسان أن يتكلم هنا ، كما استطاع أن يكسب إلى جانبه أغلبية المجلس ضد عباس في مشروع مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يعارضه وقتذاك »^(١) ورفض محمد فريد أن يقف عندما عزف السلام الخديوي في حفلة لرعاية الأطفال أقيمت في دار الآباء برا سنة ١٩١٢ ، وكان يشهدا مندوب عن الخديوي^(٢) . ونشر محمد عبده مقالا عنيفاً في صحيفة المنار سنة ١٩٠٢ يهاجم فيه محمد علي ، وذلك بمناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس الأسرة العلوية . وقد صدر في هذا المقال الجريء كيف وصل محمد علي للحكم ثم كيف احتفظ به . فقال :^(٣)

« ما الذي صنع محمد علي ؟ .. لم يستطع أن يحمي واسكن استطاع أن يبيت . كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حملة بتمتضي الفطرة ، فأخذ يستين بالجيش ويمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعرد بقوة الجيش ويحز آخر على من كان معه أولاً وأعانه على المصم الزائل فيمحقه ، وهكذا . حتى إذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت اربعة ، فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) . واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهالي . وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي . وزالت ملكة الشجاعة منهم . وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٢٤٢، ١٠٢ . ولمدرسة القضاء الشرعي قصة طويلة ليس هنا مجال تفصيلها . فقد أنشئت بإشارة من اللورد كرومر على نمط معين أعده وعهد إلى الشيخ محمد عبده باحتوائه (راجع تقرير كرومر السنوي عن سنة ١٩٠٥ في الفقرة رقم ٩٨ تحت عنوان : The Mehkeneh Sberaieh المحكمة .

٢ — المرجع نفسه ٢ ب : ١٦٨

٣ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨٢ — ٣٨١

في أنفـس بعض أفرادها ، فلم يُبـنق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده إلى السردان فـهلك فيه .

أخذ يرفع الأسافل ويعلمهم في البلاد والقرى ، كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله "السكريم" ، حتى انحط الكرام ، وساد اللثام ، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأمور وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه . فحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى ومزينة واستقلال نفسى ، ليصير البلاد المصرية جميعاً لإقطاعا واحداً له ولأولاده ، على أثر لإقطاعات كثيرة كانت لأمرأه عدة . ثم يقول محمد عبده .

« إن محمد على قد ملأ مصر بالأجانب والدخلاء ، يستعين بهم على إقرار نفوذه ، وأذل المصريين بإطلاق يد هؤلاء الدخلاء فيهم ، يحكمون على هوائهم ، لا هدف لهم إلا مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير . »

ثم ينقـى عنه ما ينسب إليه من إصلاح ، بل ينسب إليه قتل كل روح للشهامة أو النخوة في مصر ، مما ظهر أثره عند غزو الإنكليز لها ، فيقول :

« حمل الأهالى على الزراعة ، ولكن ليأخذ الغلات . ولذلك كانوا يهربون من ملك الأتـيـان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك . »

يقولون إنه أنشأ المعامل والمصانع . ولكن هل حـبب إلى المصريين العمل والصناعة حتى يستحبوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ ... وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصناعة وينشرونها في البلاد ؟ .. أين هم ؟ ... ومن كانوا ؟ ... وأين آثارهم ؟ ... لا ... بل بغض إلى المصريين العمل والصناعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بشمرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لا عـنـين الساعة التى جاءت بهم إليه .

يقولون إنه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك . وأنشأ

أسطولا ضخما تشقّل به ظهور البحار ، وتمتخر به مصر على سائر الأمصار .
فهل علمّ المعربين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب ،
وحبّب إليهم الخدمة في الجنديّة ، وعلمهم الاختيار بها ؟ ... لا ... بل عليهم
الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون
إلى الموت ، بعد أن كانوا يفتظّمون في أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون
بالموت أيام حكم المماليك ... هل شعر مصرى بعظمه أسطوله أو بقوة جيشه ؟
وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه ، بأن يقول : « هذا جيشى
وأسطولى ، أو جيش بلدى وأسطوله ؟ » ... كلا .. لم يكن شئ من ذلك ... فقد
كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه ، فهى قوة خصمه .

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عراقى . دخل الإنكليز
مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم ^(١) . ثم استقروا ولم توجد في البلاد
نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامى عن استقلالها . وهو ضد
ما رأيناه عند دخول الفرنسيين في مصر . وبهذا رأينا الفرق بين الحياة
الأولى والموت الأخير ، وجسم له الأحداث فهم يسألون أنفسهم عنه
ولا يهتمون إليه .

وعند ذلك يبلغ محمد عبده قمة العنف والهيّاج ، وقد أوشك أن يختم مقاله ،
فيقول :

« لا يستحقّ بعض الأحداث من يقولوا أن محمد على جعل من جدران
سلطانه بنشئة من الدين . أى دين كان دعامة للسلطان محمد على ؟ . دين
التحصيل ؟ ... دين الكرباج ؟ ... دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريد ؟ ...
وإلا فليقل لنا أحد من الناس : أى عمل من أعماله ظهرت فيه راحة للدين

الإسلامي الجليل، ؟ (١).

• • •

وظهر أثر هذا الانحراف عن عباس واضحاً في الشعر. فأصبحنا نرى الشعراء الذين كانوا يمدحونه بالأمس يفتقدون سياسته؛ منهم من يبلغ في ذلك حد الهجاء العنيف الذي يعرض صاحبه للسجن، ومنهم من يرفق في ذلك إشفاقاً على وحدة الأمة، أو خوفاً من الاضطهاد، فلا يتجاوز فيما يقول العتاب الرقيق.

هذا هو على الغالب شاعر الحزب الوطني، يعرض بالخدوى الذي يحارب الأحرار والذي يعارض إرادة الشعب المطالب بالدستور، وذلك في مقدمة ديوانه (وطنيتي)، منتهزاً الفرصة المناسبة في كلامه عن لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت فيقول (٢):

وكان ملك فرنسا في ذلك الحين (لويس "سادس عشر") مستسلماً لإرادة حاشيته الظلمة، وزوجته المستبدة المسرفة (ماري أنطوانيت) ... وقد كانت حمقاء عدوة للإصلاح والإنصاف، وكانت تحتقر الشعب الفرنسي الكريم وتعامله معاملة ياباباها الحر وتعافها النفس الشريفة. وهي التي دفعت زوجها إلى مصادرة الأحرار والوقوف في وجوههم. فلما اشتدت الأزمة وحس وطيش الثورة كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيبة، فلم تغنها تلك الجيوش الأجنبية والجنود الجرارة المنتصرة للملوكية، بل كان التغلب للأمة، والنصر العزيز لفرنسا الحرة...

١ - راجع كذلك تاريخ الأستاذ الامام ١ : ٨٣ • وفيه تلخيص المقال الذي هاجم فيه رشيد رضا محمد علي، وهو سابق على مقال محمد عبده. والواقع أن لا نستطيع أن نعتبر هذين المقالين صدى لخطط الرأي العام في ذلك الوقت. فقد كان الخديوي لا يزال يتمتع ببط الرأى العام وبأياد الحزب الوطنى وقتذاك. ولكن محمد عبده كان صديقاً لكرومر، وكان يعتمد منه القوة والتأييد حين يهاجم الخديوى. ولعل هذه الحقيقة تقلل من تقدير الجرأة التي ينطوى عليها هذا المقال.

٢ - وطنيتي ص ٢٦٠. وكذلك كان أكثر الناس - ولا يزالون - يمثلون بالثورة الفرنسية بأقواء رجالها. لأنهم يجهلون أصابع اليهودية العالمية الخفية التي اشتركت فيها، بل التي حركتها وأثارها.

ودالت دولة الطغيان ، وكذلك عاقبة الظالمين ... لم تعدر هذه الملكية الظالمة في أمرها ، وسارت في الأمة سيرة الملوك المطلقين والحكام المستبدين ، فقابلت إحسان الرعية بالكفران ، مستهزة بسلطان الملك ، مضلة بشياطين الملوك . وكانت ترى أنها مالسكة الرقاب ومقدرة الأرزاق — كما يرى بعض الحكام في هذه العصور — فاستحقت غضب الشعب . ويا ويل الحكومة من غضب الشعب . وكانت عاقبة أمرها الهلاك والدمار .

ثم يعقب الغياقي في مقدمة ديوانه على نشيد المارسلين بقوله (١) .
« إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منح الجور وسلكت سبيل العسف ، فتحت من حيث لا تدري للأمة أبواب الحرية الواسعة . وهدتها طرق السعادة المنشودة ، والضغط لا محالة يحدث الانفجار . فطوبى لأمة تقوضت في ديارها دعائم العدل ، ووتف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياه . فنظرت ذات الدين وذات الشمال مستجيبة مستعيزة ، فسارت غير ظلم وظلام ، يأخذ أمرها الحاكم المستبد يا حدى يديه ، ويسومها سوء العذاب بلبديد الأخرى ، فهو يجيعها ليشبع ، ويفقرها ليغنى ، ويذلها ليعز ، ثم يسد في وجهها مناهل العلم ، لتنفس أمامه مناهج الظلم . حتى إذا ما رفعت رأساً أثقلت المظالم ، أو فتحت عيناً أغضتها رؤية الظالم ، أو شكت وبكت ، ثم استرحمت واستنصفت ، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها ، ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ، ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملت ، ويرتفع بين الأمة صوت الآباء ، مردداً قول أبي العلاء :

مُلُّ المَقَامُ ، فكم أعاشر أمة أمّرت بغير صلاحها أمراؤها ١١
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها
« هنالك تشرق شمس الانتقام ، وتأخذ الشعب نشوة الانتصار ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن يوم الظالمين يوم عصيب . هنالك يغير الله حالا

بعد حال ، ونستوى الأمة على عرشها ، تدير دفعة الحُكم بيدها ، ونسير القضاء العدل بإرادتها . هنالك ينادى منادى الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مدوّ في أرجاء البلاد أن (لا ظلم اليوم ... لا ظلم اليوم) .
ويختم مقدمة ديوانه بهذه الكلمات الثائرة (١) .

« إن الحرية ليست منحة ولا هبة ملك أو أمير ، بل هي حق طبيعي للشعوب ، متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أبدى مغتصبية ، وقدمت في سبيله النفس والغفيس . فقولاء الذي يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة ، ويفتقمرون للوطن منهم ثم ينالون الموت من يد ظلمة وهم في سبيل جهادهم سائرون ، أولئك الذين رضى الله والشعب عنهم ، ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة » (٢) .

وها هو ذا يتحدث عن خضوع الخديوى وحكومته لإرادة المحتلين . ويستحث الشعب على الجهاد لاستخلاص حقه ، فيقول (٣) :

وعداء ملكوا الأمر ولم	يحفظوا للشعب في حقّ ذماما
وولاة أقسموا أن يسجدوا	كلما رام العدا منهم مراما
ربّنا ما ذا يصنع المصرى إن	جاوز الصبر مدى الصدر نقاما؟
طال يومُ الظلم في مصر ، ولم	تدبر بعد اليوم للعدل مقاما
هل يرى المحتلّ أنا أمة	من عرفنا السُّلم لا ندري الخصاما؟
أو يرى الظالم فينا أننا	تحمل الخسوف ولا نبغى انتقاما؟

وها هو ذا يهاجم شوقي شاعر عباس ، حين نشر له (المؤيد) في سنة ١٩٠٨ حديثاً يعاذر فيه عن إصدار الدستور بأن عباساً لا يستطيع أن يمنحه بغير رضا

١ — وطني س ٤١

٢ — بغير الغائب إلى الورداني الذي قتل بطرس غالى رئيس الوزراء ثم حكم القضاء بإعدامه .
وبراجع في ذلك قصيدتان للشاعر في ديوانه س ١٠٩ ، ١١٥

٣ — وطني س ٤٥

الانكليز ، ويقول : «إن الأمة لم تبلغ من النضج ما يؤهلها للحياة النيابية .
يقول الغاياتي^(١)» :

يا شاعر الأمراء، ويحك، هل ترى	في النثر ما في النظم من خطرات؟
إني رأيتك في حديثك شاعراً	لكن خيالك زائغ النظرات
يا شاعر النيل العظيم .. أما ترى	للنيل إلا أسوأ الحالات؟
ما كنت أحسب أن مثلك وهو في	شعراء مصر صاحب الآيات
يجنى على الشعب الكريم جناية	ويود أن يبقى مع الأموات ١١
أو أنت تروى عن سواك حديثه	كأنما نرى الدستور ليس بآت؟
والله يعلم أننا لا ننثني	يوم ولا نلهو عن الطلبات
حتى نفوز بفيتله رغم العدا	وننبئه العزومات للهجمات

وتصل مهاجمة الغاياتي عباساً إلى قمة العنف عند صدور قانون المطبوعات ،
إذ يقول ، مشيراً إلى ما لقيت الأمة على يدى عباس من تكال ، بعد أن تحول
إلى مهادنة الإنكليز ، منزلقاً إلى ما سماه (سياسة الوفاق)^(٢) :

أعبّاسُ ! هذا آخر العهد بيننا	فلا تخشَ منا بعد ذاك عتابا
أرضيك فينا أن نكون أذلة	ننال إذا رُمنا الحياة عقابا ١٢
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها	وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
رويدك يا عباسُ . لا تبلغ المدى	ولا تستمع للظالمين خطابا
فا يبتغى جورستُ إلا مكيدةً	تحول أقلامَ السلام حرابا

ثم يتجه إلى مهاجمة بطرس غالى ، الذى ولى الوزارة بأمر المحتلين ، ويذكره
بماضيه فى دنشواى ، مهدداً بأنه لن يبلغ ما يريد حتى يلقى جزاءه :

ألا مطرَ الله الوزارة نقمة	ولا بلّغتُ مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا يائماً	ولكن ستلقى دون ذاك أثاماً ^(٣)

وزارة خداع ، أقامته بيننا
جنى ما جنى في دنشواى وغيرها
فقيّمد أقلام الصحافة علمها
بنى مصر ا بشرى فالرجاء محقق
فإني لمحتُ النصر بين صفوفكم
وديوان محرم مليء بالقصائد التي حاول بها الشاعر أن يردّ عباسا إلى صوابه
ويعيده إلى الإخلاص لشعبه ووطنه . منها ما يستغنى بالتلييح عن التصريح ،
فيتكلم عن صفات الملك الصالح ومعائب الملك الفاسد . ومنها ما يهاجم في عنف ،
فيصف الملوك بالكذب والنفاق وإفساد الحياة .

يقول محرم في صفة الملك الصالح (١) .

أحبُّ المساكين إلى الرعايا مليك ليس يألوها اقتقادا
تغلغل في مكان الحس منها فكان السميع فيها والفؤاد
ثم يقول في تصوير الملك الفاسد :
أضر الناس ذو تاج تولّى فما نفع البلاد ولا أفادا
وكان على الرعية شرّ راع وأشام مالك في الدهر سادا
تسيّت له الأريكة في عناء تمارس منه أهوالا شدادا
كأن الملك في عيفيه حلم يلذ به فما يألو رقادا
وتدعوه الرعية وهو لاه فتصدّع دون مسمعه الحمادا
فلا هو يُرتجى يوما لنفع يعز به الرعية والبلادا
ولا هو مالك كشفاً لضّر إذا ما كاندُ الحدثن كادا
ثم يتخلص من ذلك إلى مخاطبة عباس ، طالبا منه أن يأخذ بيد الرعية ،
ويوحد صفوفها المتفرقة ، ويقودها في كفاحها ، مقائلًا : ألا يرضيك
أن تكون مليكا على شعب عزيز ؟ ...

عزيز النيل والامال حيرى تسائلك الهداية والرشاد
أضوء قصده السيل لنا وألف أو ابدها^(١)، فتوشك أن تعادى
وقدها قود مأمون عليها يصادها بأحسن^{٣٣} ما تصادى
يا عزيز النيل لم أما ترضى لحكمك أن يشادا؟ ...
وللشعب المصفد أن تراه وقد نزع الأدام والصَّفاد؟ ...
... ألسنت ترى فيها في شقاق فاي رجون ما عاشوا اتحادا؟ ...
أتركهم يهب الشرفهم ونار الخطب تتقد اتقادا؟ ...
ويشير محرم في قصيدة أخرى إلى فساد الشعب تبعاً لفساد الملوك حيث
يقول^(٢) :

رأيتُ الشعب - والامثال جم - على ما كان مالكة يكون
وما تبقى الممالك لاهيات تصرّفها الخلاء والمجون
إذا غوت الهداة فلا رشيد وإن خان الرعاة فلا أمين
وأعجب ما أرى : شعب نحيف يسوس فطيعه راع بدين III
ويهاجم الملوك ، وينسبهم إلى الظلم وبجافة العدل حيث يقول^(٣) :

أرى العدل دَعَوَى يُعْجِبُ الناسَ حسنُها
ويخدعهم عنها الحديثُ الملفّق
أ كاذب يُزجّيهما الفتى وهو عالم إذا ما ادّعاها أنه ليس يصدق
فشا الظلم بين الناس واعتزأله وبات ضعيف الفرم يؤذى ويرهق
خليّاً من الأعوان ، ينصبُّ حقه فينقضني ، ويرمي بالهوان فيطرق
... رأيتُ ملوك الناس لا ينصفونهم
وخيرُ الملوك المنصف المسترفن

١ - الأوابد من الوحوش : الشاردة النافرة :

٢ - ديوان محرم ٢ : ٥٧

٣ - ديوان محرم ٢ : ٨٦

يقبمون صرح الظلم في كل أمة
ويطلب شعر محرم بالشوة حين يهاجم قانون المطبوعات فيقول (١) :

صبروا المسداد وخطموا الأقلاما
وخذوا على الوجدان كل تفتية
.. يامصر!.. ماذا تطلبين؟.. أما كفى
مرتى. فما موت العليل بضائر
من ذا يرد عليك عهدك صالحا
فنا ينصرك والحقاق مضيق
... أنخون مصر، وما تحوّل نيلها
تبغى لها الشرف الأثم موبدا
ونعز رايها ونمنع حوضها
أيسوس ريب الدهر منّا أمة
ويهاجم عباسا في عنف، متهماً الملوك بالكذب ومجافاة الشرق مشيراً إلى
فضائح بيع الرتب والنياشين حيث يقول (٢) :

كذب الملوك ومن يحاول عندهم
رتب وألقاب تغر. وما بها
آناً تباع، وتارة هي خدعة
كم رتبة نعيم الغني بنيلها
لو كان يعلم ذلتها وهوانها
.. لا المجد يجد بعدما عيبت به
مالوا عن الشرف الصميم وأحدثوا
رفعوا الطعام على الكرام فأشككت
شرفاً وبرعم أنهم شرفاء
نخرن لحرزها ولا استعلاء
تضمن بشرت سماتها الأمراء
من حيث جلالها أسي وشقاء
ما طال منه الزهو والخيلاء
أبدى الملوك ولا السناء سناء
ماشيات الأوهام والأهراء
قيّم الرجال وربت الأشياء

وإذا الزعاة تنكببت سبل الهدى غوت الهداة وطاشت الحكماء
لو جاور الشرف الملوك لأورقت صم الصخور وضامت الظلماء
الحق منتك المحارم بينهم والعدل وهم والوفاء هباء
رفعوا العروش على الدماء، وإنما تبقى السفينة ما أقام الماء
أما الكاشف . فهو يتقدم إلى عباس في قصيدة أنشأها في عيد جلوسه سنة
١٩٠٨ ، ناصحاً له في رفق أن يعيد إلى شعبه الدستور الذى أصدره أبوه ، حتى
ينكشف موقف الإنكليز ، ويعرف الناس أنهم هم المعارضون (١) :

يا تابع الأجـراد والآباء فى حكم البلاد أعد صنيع أيكا
وامنح رعيتك الذى سألوك وعلى الطغاة الإثم إن منعوكا (٢)
ماذا عليك إذا انتزعت أمورـها منهم، وشاطركا الأمور بنوكا؟...
هذى نفوسهمو لديك رهينة ولو استطاعوا غيرـها منحوكا
لا يسألونك مدفعاً وصوارما هم يسألونك آيةً من فيكا
لك فى الخليفة أسـورة محودة ولتجنّ سـيله المسـلوكا (٣)
ثم هو يحذره من سياسة الوفاق الخبيثة التى جاء بها جررست ليفرق بها بينه
وبين شعبه . فهو اليوم يشكو إليه الأحرار من شعبه ليبغضهم إليه ، ثم هو فى
غد يشكوه إليهم حتى يكرهوه . وهو ينصحه بأن يستبق ود شعبه ويحرص
على تأييده فهو عدته وقوته (٤) :

أهلا وسهلا بالوفاق ومرحباً لو كانت فيه قضاء ما وعدوكا
إن كنت مشرط الجلاء فواجب لك أن تمودهمو كما ردوكا
خير لنا أن يملنوا البغضاء من أن يعلنوا لك موثقاً مفـسـوكا

١ - ديوان الكاشف ٢ : ٤٨ - ٥٠ .

٢ - يقصد بالطغاة الإنكليز الذين كان يتعلل عباس بمعارضتهم الحياة النيابية .

٣ - يشير إلى الدستور التركى الذى كان قد صدر فى هذا العام .

٤ - ديوان الكاشف ٢ : ٤١ .

ما كان حبا ما ترى ، لكنه
أرأيت كيف وثى بكل مذهب
اليوم يشكونا إليك وما بنا
أعبي على أوهامه ووعيده
ماذا ترى في قادرين يسوؤهم
حسبوا الرعية - وهى عند يقينها -
وعليك يحنى ، أم على أعدائه
لم يبق غيرك للبلاد وأهلها
لك من يقينك والتجارب عاصم
يا حبذا يومُ الجلاء ، ولا نرى
هذى خواطرى الحسان وغيرتى
لأراقى عيـد بمصرَ وموسم
ويحذره فى قصيدة أخرى قالها سنة ١٩٠٩ عما تنطوى عليه سياسة الوفاق
الكاذبة من أخطار ، وينصح له أن يعلن رضاه وعفوه عن ضحايا قانون
المطبوعات . حيث يقول (١) :

صدقوا رجال الملك أم كذبوهم ؟
أيؤيدون مصـاولا بحسامه
لم يعملون على البقاء ؟ ، وما لهم
أمن الذنوب شكاة مصرك بعد ما
عدوا على أحرارها أنفاسهم
إن ينقموا منها مراس غلاتها
ووفاء صحب أم رياء دهاة ؟ (٢)
ويخادعون مناديا بشكاة ؟ ...
غفـلوا عن اليعاد والميعات ؟ ...
ملكوا أعنة أمرها سلسات ؟ ..
وترقبوا اللحظات والخطرات
فالعجز أن تبقى بغير غلاة (٣)

١ - ديوان الكشف ٣ : ٥٦

٢ - الضمير فى « صدقوا » مائد على الإنكليز .

٣ - يقصد بالغلاة : رجال الحزب الوطنى الذين كانوا يتهمون بالتطرف .

أرأيتها في المهرجان ، وقد خلت من حاية الأتراب والأخوات (١)
أعلن رضاك عن الآباء ، فإنه فصل الخطاب وفرجة الأزمات

وهذا هو عبد الحليم المصرى الذى يملأ مدح عباس ديوانه ، يقسو عليه في العتاب ، في قصيدة رفعها إليه سنة ١٩٠٨ على لسان الأمة المصرية ، مطالباً بالدستور ، يحذره فيها من معاداة الشعب وتجاهل مطالبه ، ويضرب له الأمثال بمظفر الدين شاه العجم ، الذى خلعه شعبه حين ألغى الدستور الذى أصدره أبوه ، بعد أن وعده قبل جلوسه أن يرعاه حائثاً بقسمه الذى أقسمه أمام أبيه ، وبالثورة المراكشية التى انتهت بخلع عبد العزيز وتولية عبد الحفيظ . ثم هو يذكر عباساً بحديثه الذى أدلى به إلى صحيفة (الطان) ، ووعد فيه بإصدار الدستور (٢) . ويقول له إننا شعب مسالم ، لا نتوسل إلى ما نطالب بالثورات . فهل لا يشفع لنا ذلك عندك ، إذ نطلب الدستور بالخطابة والكلام ، حين يطلبه غيرنا بالدماء ؟ ..

رد الودية ، لا مالا ولا شانا	لم نرج في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نسط إليك يدا	من الرجاء ، ولم نسألك غفرانا
رب الأريكة إنما لا نزال على	وثيق عهدك أخدانا وأعوانا
لا يفصم الدهر حبلا من مودتنا	ولا تشاب بماء البؤس نحمنا
إن الحياة لدار نحن نسكنها	وحاش لله أن نشقى بسكنانا
الناس تخلق أحراراً ، فكيف بنا	نرضى المقام بوادى القبل عبداً ؟ ..
مظفر الدين اهل أغمضت عينك عن	منابت الشعب ، أم أوقرت آذاناً ؟ ..
حتى ترى الدم حول المرش منهمراً	وتبصر القوم فتسكا وطمانا

١ - يشير إلى ما قوبل به عيد جلوسه الأخير من فتور .

٢ - ديوان عبد الحليم المصرى ١ : ٥٨ وراجع كذلك لإشارته إلى الدستور في قصيدة العام الهجرى سنة ١٩١٠م و ١٩١١م وإشارته إلى اضطهاد الصحافة والأحرار في قصيدته « المساجين » و « الحرية » في ديوانه ١ : ٥٦ و ١١٩ و ١٠٨ - ١١٢ و ٧١ - ٧٤

وتسأل القسم المبرور ، هل حنثت فيه الأعاجم . أم ظننته بهتاناً ؟
 قد قام شبلك بالإفتاء يهدم ما شيدت للعدل أركاناً وجراناً
 فأجرت القومُ يمينا من دماهم يكاد يخفى عن الأبصار (طيراناً)
 وعلمت من رآها كيف ترخص في حب الدساتير أرواحاً وأبداناً
 إن قام بالملك مولاي (الحفيظ) ولم يتم له الدهر فوق العرش أركاناً
 وحرر الشعب من ذل الضعيف إلى عز القوى وأسى فيه سلطاناً
 فكيف لم تُوانا مثل (الحفيظ) يداً وأنت أكرم أنساباً وأوطاناً ؟ ...
 هلا اذكرت الوعود السافيات ، وهل

نسيت بالأمس ما أسمعته (الطائناً) ؟ ...
 ما نال في الغرب أقوامٌ مآربهم إلا وسالت دماء القوم ألواناً
 ونحن في الشرق لم ننض السيوف ولا نرى بغير اليراع المثرّ فرساناً
 فكيف لا يشنع الصبرُ الجميلُ لنا
 عند (الأمير) ولا ترضيه شكوّاناً ؟ ...
 يا لفظلةً منك في الأذان نرقبها كأن آذاننا أصبحن أجفاناً
 نبي لنا في الدياجي مثلها وثبت للترك أحتكم ، إن الوقت قد حاناً

* * *

كان عباس يكره الإنكليز في أعماق نفسه ، وكانت علاقته بهم سيئة طوال
 مدة حكمه ، إذا استثنينا السرات الأربع التي تخللتها ، من تعيين الدون جورست
 معتمداً برطانيا سنة ١٩٠٧ إلى وفاته سنة ١٩١١ وتعيين اللورد كتشنر خلفاً له (٢)
 وسواء كان كرهه عباس للإنكليز بدافع من وطنيته على رأى الذين يحسمون

١ — كان مظفر الدين قد أقسم لأبيه قبل جلوسه على العرش أن لا يسترد الدستور . فلما مات
 أبوه حنث بقسمه وألناه .

٢ — وتعيين اللورد كتشنر عدو عباس القديم في حادثة الحدود انتهت الفترة التي يسمونها فترة
 الوفاق ، وعاد الخلاف بين عباس والانجليز إلى حدته الأولى التي التسم بها مدة إقامة كرومر في مصر .

به الظن ، أو بدافع من منازعتهم لإياه سلطته - على رأى الذين يسيئون به الظن -
فالحقيقة الثابتة هى أنه لم يطمئن الإنكليز ولم يطمئن الإنكليز لإياه ، ولم
يتوانوا فى التخلص منه حين سنحت لهم الفرصة بإعلان الحرب العالمية الأولى
أثناء رحلته إلى تركيا سنة ١٩١٤ . وقد جاهر عباس الإنجليز بعدائه وحاربهم
حرباً صريحة فى بداية حكمه ثم أخفى هذا الكره ، وظل يدس لهم فى الظلام ،
مسدلاً حججاً بآ من البراعة والرصانة على كرهه المتناهى لهم ، كما يقول كرومر^(١) .
ولكن النزاع بينه وبينهم لم يفتقر ولم ينقطع فى الحالىين . بل ظلت فى مصر سلطتان
قائمتان تتنازعاں النفوذ . سلطة الخديوى وسلطة المعتمد البريطانى ، أو السلطة
الشرعية والسلطة الفعلية كما كانت تسميها الصحف فى ذلك الحين ، وكما يقول الكاشف^(٢) .

أيسود شعب ليس منه رعايته فهماً وإن طال المدى ضدان
يأبى ويشفق أن يصرف أمره ويسوسه حكيمان مختلفان
أبهم بالأمر الكبير وإيشه يوماً وليس له عليه بدان^(٣)

وكانت كل من هاتين السلطتين تعمل دائبة فى جمع الأنصار واكتساب
الأعوان . وقد نجح عباس فى السنوات الأولى لحكمه فى بث حركة وطنية إسلامية
تزعّمها مصطفى كامل والشيخ على يوسف . واستطاع أن يضم إلى صفه عدداً من
ضباط الجيش وكثرة من الموظفين . ولكنه لم يلبث أن خسرهم حين استقوا
ضعفه أمام الإنجليز ، منذ اضطره كرومر إلى الامتناد ليكتسب سنة ١٨٩٦ ،
ثم اضطره بعد ذلك إلى التخلّى عن الضباط الذين حوكموا عند ما تمردت فرقتان
من الجيش المصرى فى السودان سنة ١٩٠٠^(١) . وخسر عباس الحزب الوطنى

١ - عباس الثانى ص ٤ ويصفه كرومر فى موضع آخر من الكتاب بأنه كان أستاذاً فى فن

الدسائس الخفية ص ٨

٢ - ديوان الكاشف ٢ : ٤٢ ٣ - وفى الأمر : هو الخديوى الحاكم القرمى وتذكرك .

٤ - علم كرومر أن عباس هو الذى حرض الضباط على الثورة . تتجاهل الأمر وذهب إليه مقترحاً
أن يقابل الضباط المحكوم عليهم ويوجههم بكلمات اختارها له . فلم يجد عباس بداً من قبول عرض كرومر
حتى لا تثبت عليه تهمة تخريب الضباط . وبذلك فقد الضباط نفقهم فيه ، وقد هو نفوذهم ومهيتة =

بعد ذلك منذ لوح له جورست بالسلطة، ونجح في إفساد ما بينه وبين رجاله الذين كانوا يطالبون وقتذاك بالحياة النيابية، فانقلب إلى محاربتهم والتنكيل بهم .
و حين كان عباس يحضر الأصدقاء والأولياء، كان الإنكليز يحدّثون في اصطناع الأصدقاء والأولياء . ويسرعون إلى احتضان كل خصم له وللسلطان عبد الحميد، مظهرين أنفسهم في صورة المدافعين عن الحرية والعدل، المقاومين للظلم والطغيان . وساعدوا على ذلك انتشار روح الخضوع والاستسلام عقب الاتفاق الودى بين فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤، مما أدى إلى تفشى اليأس والذمعة (١) .

استطاع الإنكليز أن يكسبوا إلى جانبهم العمد والمشايخ، بتأييدهم في التخلص من بقوذ الباشوات وكبار الملاك ، وبحرصهم على تخفيف ضرائب الأملاك ، ولو أدى ذلك إلى شل المشروعات الضرورية في شتى نواحي الحياة (٢) . واستطاعوا أن يشتروا قراً من رجال الجيش ، فكانوا يمنحون بعضهم (مداليات) تخزل حاملها الحق في أخذ راتب شهري من الخزينة الإنكليزية فوق مرتباتهم ، وذلك على سبيل المكافأة والتشجيع لما يظهرون من ضروب الشجاعة في القتال أثناء حملة السودان التي لم يتحمس لها الرأي المصري العام . ونجح كرومر في عقد صلات ود مع كثير من رجال الدين ، مثل شيخ الأزهر والمفتي ومشايخ الطرق، لعله بقوة نفوذهم الشعبي وبحرص عباس والسلطان على اصطفتائهم وتقريبهم

== في أواسطهم (راجع عباس الثاني من ٨٢ ، ٨٣ وراجع كذلك تصوير حافظ إبراهيم لاستبداد الإنكليز في الجيش ومكادهم لإفساده وإضعافه ، والتفريق بين المصريين والسودانيين ، وما انتهى إليه أمر الضباط المصريين من رهبة الإنكليز والرضوخ لهم ، وقصة تمرد الفرقتين المصريتين في السودان : « ليلى سطيج من ٧٩ ، ١١٢ » وراجع كذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٣٢١ ، ٣٢٦) .

١ — مصطلح كامل من ١٠٨ ، ١٠٩ و ١٤٢ ، ١٤٣ . تاريخ الامام ١ : ٩٢٣ - ٩٢٤

٢ — يقول كرومر في ذلك : « إن الرابطة الوحيدة التي تربط الحاكم بالحكوم عند ما تختلف اللغة والجنسية والمذهب والعادات تنحصر في المصالح المادية . وبين هذه المصالح وأهمها جعل ضرائب الأملاك خفيفة . لذلك أرى أن الأحوال السياسية التي علينا مقابلتها والعمل فيها هي من نوع يجعل كل الاعتبارات تزول في جانب ضرورة إبقاء الضرائب منخفضة ... إلخ » (راجع عباس الثاني من ١٥ ، ١٧ ومارن ذلك بما جاء في من ٥٧ عن الصد والمشايخ) .

والاستعانة بنفوذهم^(١). واحتضن محمد عبده حين اصطدم بعباس ، حتى أصبح هو سنده في كل ما استهدفه من مشاريع تطوير الأزهر وإنشاء مدرسه للقضاء الشرعى^(٢) كما احتضن اللاجئين إلى مصر من أعضاء تركيا الفتاة ، وشجعهم على تشويه سمعة الحكم التركي ونبش سيئات عبد الحميد والتشجيع باستبداده ، متظاهراً بأنه إنما يفعل ذلك دفاعاً عن الحرية^(٣). وفتح كرومر أبواب قصره لكل صاحب شكوى ، ثم أخذ يتدخل باسم هؤلاء الشاكين ، وباسم العدل والإنصاف ، للحد من نفوذ الحديوى ومقاومة شرهه وجشعه^(٤) ، حتى رأينا بعض أعضاء الأسرة العلوية يلجأون إلى إنكلترا وإليه ، طالبين إنصافهم من عباس^(٥).

واتخذ النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلاً أدبياً. فكان لعباس صحيفة رسمية تعبر عن اتجاهاته وتدافع عنه وتهاجم أعداءه ، هي صحيفة المؤيد . وكان للإنجليز صحيفة رسمية أيضاً تدافع عنهم وتهاجم أعداءهم ، هي صحيفة المقطم .

١ — Modern Egypt : ١٧٤ : ٢ — ١٨٥

٢ — بلغ من ثقة محمد عبده به واعتماده عليه أنه حين عزم على زيارة الأستانة سنة ٩٠١ لم ينفذ عزمه إلا بعد أن استشاره . فحمله توصية إلى السفارة الإنجليزية في تركيا لرعايته وحمايته مدة إقامته بها وكان كرومر هو الذى توسط فى الفؤو عن محمد عبده وإعادته إلى مصر (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٧٩ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٨٤٧ ، Modern Egypt : ١٨٥ : ١٨١) .
٣ — راجع ضبط مطبعة تركيا الفتاة فى مصر وتفتيش دارهم وتدخل كرومر لحمايتهم فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٩٤ — ٣٩٥ ، عباس الثانى ص ٨٠ راجع كذلك تدخل كرومر فى : « حبس عباس لىون فهمى الأرمنى وتهديده بتفتيش القصر فى مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٣٦٨ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٧٩ ، عباس الثانى ص ٧٨ ، ٧٩ وراجع كذلك قصة بدرخان الذى لجأ إلى مصر فأرأ من عبد الحميد وحماية الإنجليز له وغضبهم من نجاح عباس فى حمله على العودة لتركيا فى « عباس الثانى ص ٨٠ ، ٨١ » .

٤ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٥٣ ، ٥٤

٥ — من الأمثلة على ذلك أن المحاكم الشرعية أصدرت حكماً بالحجز على إحدى الأميرات وعينت عليها وصياً اختاره عباس . فشكت الأميرة إلى ملك إنكلترا ، وأحال هذا شكواها إلى كرومر فتدخل فى الأمر واستبدل بالوصى الذى اختاره عباس وصياً آخر موثقاً به من إنكلترا ، (مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ٢٢٤) ومن الأمثلة عليه كذلك أن أميرة أخرى شكت إلى ملك الإنكليز من عباس أثناء زيارته له سنة ١٩٠٥ ، فوجه كرومر إلى عباس نقداً قاسياً فى شأنها بعد عودته (مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ٧٠ ، ٧١) .

وكان للخديوي شاعر رسمي يشيد به وهو « شوقي » ، تؤيده طائفة من الشعراء .
وكان للإنجليز شاعر نصب نفسه لمدهم والإشادة بهم وهو « نسيم » ^(١) تؤيده
قلة من الكتاب والشعراء الذين يدينون بكيانهم لهم مثل ولي الدين يكن .
وكان شاعر الخديوي يرصد المناسبات المختلفة ليسجلها في شعره ، مادحا
ميره في أعياد جلوسه وفي أعياد ميلاده ، وفي أعياد الفطر ، وأعياد الأضحي ،
وأعياد العام الهجري ، وفي أسفاره داخل البلاد ، وفي أسفاره للأستانة ، وفي
سفره للحج ، وفي حفلاته الراقصة التي كان يقيمها في عابدين كل عام . وكان
شعره السياسي متأثراً بتقلبات أميره صراحة وغموضاً ، وغنفاً وليناً . فهو في
أول حكم عباس صريح في مهاجمة الإنكليز في مثل قصيدته :

بصوتك حاجبنا الممالك والعصرا وقلنا فباتت مصر في مجدها مصرا ^(٢)
فإذا تراجع عباس أمام كرومر تراجع هو أيضاً : ولم يعد مهاجم إلا في كثير
من الغموض والالتواء الذي لا بدع لمنأقشته وحسابه سيلا . وذلك في مثل قصيدته
التي قالها سنة ١٩٠٢ ، حين أجل حفل تنويع لإدوارد السابع بسبب إصابته بدمل ^(٣) .
ويسكت في حادث دنشواي الذي أقام الدنيا وأقعدها ، فلا يتكلم إلا بعد رحيل
كرومر وقد مر على الحادث عام ^(٤) . ولا تذهب جرأته إلى أبعد من مهاجمة
المتوددين إلى الإنكليز من المصريين ، كالذي فعله برياض حين أشاد بكرومر في

١ - عدل نسيم عن موقفه بعد رحيل كرومر عن مصر ، وأعلن ندمه على ما فرط منه في قصيدة
نشرها باللواء سنة ١٩٠٨ . الديوان ١ : ٣ - ٦) زاعماً أنه فعل ذلك غيرة على الإسلام لمهاجمة
كرومر له . والرائع أن شعر الشاعر يشهد بأنه عترف يجري وراء المال ويبيع نفسه لمن يدفع ثمناً
أكبر . ثم إنه لم يجد مجالاً للقول بعد أن ساد الوثام بين جورست خليفة كرومر وبين عباس .

٢ - ديوان شوقي : طبعة سنة ١٩١٢ ص ٨٣

٣ - راجع قصيدة شوقي : لمن ذلك الملك الذي عز جانبه لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه
(الديوان ١ : ٧٥)

٤ - راجع قصيدة شوقي : يا دنشواي على ربك سلام . ذهبت بأفس ربوعك الأيام
(الديوان ١ : ٣٠١)

حفل افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية سنة ١٩٠٤ (١) . فإذا آمن
عباس مكر كرومر بعد رجليه هاجمه شوقي مهاجمة عنيفة في قصيدته :
أيامكم أم عهد إسماعيل ؟ ... أم أنت فرعون يسوس النيل ؟ (٢)
ويستك شوقي عندما اطمأنت صلة عباس بالإنجليز في فترة الوفاق فإذا
عادت إلى الكثر ، وأخذ عباس يكد في الخفاء ، أخذ هو يلتمس المناسبات التي
تثير فيها من بعيد إلى الاستهزاء حين يتحدث عن قانون الغابة الذي يسود العالم ،
وحين يبحث الماهريين والمسلمين على الأخذ بأسباب القوة ، في مثل قصيدته عن
قصر أنس الوجود ، التوجهها إلى روزقلت الكبير حين زار مصر سنة ١٩١٠ ،
وفي مثل قصيدته عن (الحجاب والسفور) ، وقصيدته في نهج البردة ، اللتين نشرتا
في العام نفسه ، والهمزية النبوية التي نشرت سنة ١٩١٢ ، والبائية في ذكرى
المولد التي نشرت سنة ١٩١٤ (٣) .

وكان شاعر كرومر يتميز كل فرصة تمكنه من مدح الإنجليز والاشادة
بمدحهم وفضلهم على مصر فيبلغ في ذلك العجب . أليس عجيباً أن نجد شاعراً
مصرياً يضلّه المال ، فيقول للملك الانكليز بمناسبة شفاته من داء الأعور (٤) :

صاحب التاج أنت بالقوم أعلم هم يودّون أن تعيش وتسلم
يشيد فيها بعدله ، معرضاً بعباس حيث يقول :

ويمينا لولاك عات طفاة في بلاد من جورهم تتظلم
ظلمن الجور عن بلادك لما طيب العدل في ذراك وخيسم
ثم يجد في نفسه الجرأة لأن يقول :

إننا نعرف الملوك ولكن إن عددناهم فانت المقدم

١ — راجع قصيدة شوق : كبير السابقين من الكرام برغمي أن أهلك بالسلام
(الديوان ١ : ٢٠٩)

٢ — راجع القصيدة و (الديوان ١ : ٢٠٩)

٣ — راجع القصائد السابقة في ديوانه ٢ : ٦٥ ، ١ : ٢٦٩ ، ٢٤٠ ، ٤١ ، ٥٩

٤ — ديوان نسيم ١ : ١٠٠ — ١٠٢

ليس إلا إياك مصول مفدئى يبدأ القول فى ثناءه ويختتم
 وإذا قيل : أين أعظم منه ؟ لم نجد - للثق - سوى الله أعظم
 ثم يختم قصيدته مفتخراً بأنه السابق المقدم بين مادحيه :
 تبعنى إلى مديحك فاسم إنما الفضل للذى يتقدم
 أنا فى مصر شاعر قيل عنه ساجع فيك بالثناء ترنم
 ويرثى هذا الشاعر الملكة فكتوريا سنة ١٩٠١ ، فيختم قصيدته بتهنئة ابنها
 والتعريض بمباس وبكل مصرى تجرى فى دمه قطرة من وطنية حين يقول (١) :
 رأيتك فى الورى ملكا وحيدا وليس لها سواك بلا ارتياب
 نخذ من شاعر النيل امتداحا يشير حفاظ القوم الغيصاب
 ثم يطاوع هذا العاق لسانه إذ يقول فى قصيدة يهني بها ملك الإنكليز فى
 تترجمه لإمبراطوراً للهند (٢) :

يا قوم مصر ، ولم أنظر لكم أثراً إذا المعالي دعت قومي دواعيها
 أتفخرون بآثار الغيركم الظلم شيدوها والدهر يبلها ؟ ...
 لإلام تبغون ملكا عز جانبه وتبلغون من الدعوى تناهيها ؟ ...
 وتفخرون بما دخوف ، بنى لكم وتمدحون من الأهرام بانها ...
 فأى نخر ادم فىما نشاهده يا أمة نسبت فى الذل ماضيها ؟ ...
 ويقول مشيداً بالاحتلال ، فى وضع الحجر الأساسى لخزان أسوان
 سنة ١٨٩٩ ناسباً فخره للإنكليز (٣) :

أمة المجد شيدتك بقطر بلغت فى احتلاله الأوطارا
 وأحق الأقوام بالمدح قوم ركبوا فى سبيلها الإخطارا
 تخليق لمثل مصر بأن تم جيب حتى تفاخر الأمصارا

١ - ديوان لسيم ١٠٢١١

٢ - ديوان لسيم ١٠٨٠١

٣ - ديوان لسيم ١١٠٠١

ثم يقول في افتتاحه سنة ١٩٠٣ الذي شهدته الدوق أوف كينوت ، زوج
أخت الملك إدوارد ، معرّضا بعباس الذي تخلف عن حضور الحفل ، خشية
أن تمس كرامته بوضع الدوق في موضع الصدارة :

بناءً عظيم لم يحد لافتتاحه سواك عظيما فيه للفخر مآلف
وكم من دعى فارق الصدر عنوة إذا حضر المستأذن المتشغف^(١)
وحين كانت مصر في عيد يوم رحيل كرومر كان هذا البائس الهالك
يذرف الدمع على فراشه فيقول :^(٢)

يا متخذ الثيل لا يمس لك الثيل يدا لها من فم الإصلاح تقبيل
وحين يقول له شوقي ، مشيراً إلى أن تنحيته جاءت نتيجة لخلعة مطلقى كامل
عليه بسبب دنشواى :

فاذهب بحفظ الله جل صديعه مستغنياً إن شئت أو معزولا
يقول نسيم في هذه القصيدة :
حاشاك ما أنت بالمنصب منصبه كلا ، ولا أنت عن عليك معزول
وحين يعدد الشعراء سيئاته ، يرد إليه نسيم كل الفضل فيما ساد مصر من
عدل وما بلغت من رقى :

جملت مصر بلاداً أمطرت ذهباً قترها بمذاب التبر مبلول
خلفتها ويد الإسعاد تكثفها دار عليها من النعمى سراويل
حللت فيها وغل الجور ممة مدّها ذلا ، وفارقها والجور مقلول
ويهاجم رجال الحزب الوطنى . زاعما أنهم يهودون في غير موضع للتحويل
أرى أناساً تمنوا في سياستهم أن يخذلوك وخصم الحق مخذول
يهودون بلا جدوى مزاعمهم ولن يضرك إيهام وتهويل

١ — ديوان نسيم ١ : ١٣٠ : المستأذن الذى لا يدخل الناس إلى مجلسه إلا بإذنه : المتشغف
المخدوم . والمقصود بهما هو الدوق . كما أن المقصود بالدعى هو المندوب عباس .

٢ — ديوان نسيم ١ : ١١٤ — ١١٥

لو كان بالناس عدل ما قضى عمر رب العدالة فيهم وهو مقتول
صرا نخاف على الأعراض من نفر كأن جرؤهم في نهشها غول
قد جردوا ألسنا يا ليتها قطعت من دونها مرهف الحدّين مسلول^(١)
أما ولي الدين يكن فقد كان أحد أعضاء جماعة (تركيا الفتاة) ، الذين
يهاجمون عبد الحميد ويشنعون به ويتزعمون حركة المطالبة بإصدار الدستور .
وقد نفاه السلطان عبد الحميد إلى سيواس ، وظل في منفاه سبع سنوات . ولم
يفرج عنه إلا بعد سقوط عبد الحميد وإعلان الدستور سنة ١٩٠٩ . وقد عانى
خلال هذه السنوات هو وأمه العجوز وزوجته لشابة وطفلاه الصغيران وكان
أصغرهما رضيعاً — من العذاب والآلام ما وصفه في كتابه (المعلوم والمجهول)
بجزأيه . وكان كثير من جماعة تركيا الفتاة قد فروا إلى مصر من مطاردة
عبد الحميد فاتخذوها مركزاً من مراكز دعايتهم المنبثقة خارج الدولة العثمانية ،
وأصدروا فيها بعض الصحف والمنشورات التي تشع بفساد حكمه واستبداده .
وكان عباس يفضي عنهم ويشجعهم حين تسوء صلاته بالسلطان عبد الحميد ، ويشدد
عليهم حين يريد أن يتقرب إليه باضطرادهم . وكان كرومر هو الذي يتولى حمايتهم
حين يتخلى عنهم عباس ويمكر بهم ، لذلك كان أعضاء تركيا الفتاة يدينون له
بالولاء ، ويشيدون بعدله . بينما كان كرومر يستخدمهم في تحقيق أهداف
السياسة الإنجليزية التي تريد أن تقضى على الجامعة الإسلامية وتقطع الإمبراطورية
العثمانية . وقد وجدت بغيتها في هذا نفر الذي يشنع بسيئات عبد الحميد ، ويدعو
إلى الأخذ بأسباب المدنية الغربية ، ويهاجم من يسمونهم رجال الدين ويتهمهم بأنهم
سبب البلاء وموطن الداء ، بل ويهاجم الدين نفسه ساخر أبقية وشعائره ، مستبدلاً

١ — راجع فيما عدا القوائد السابقة قصائده : في نور العدل ١ : ٦ - ٨ ، تنويع ملك
الإنجليز ١ : ١٨ ، لؤلؤة إلتهاني بقدم ولي عهد إنكلترا سنة ١٩٠٦ : ١ : ٨٩ ، وراجع
كذلك لهائده الكتيبة في مجاء الشيخ علي يوسف بمناسبة زواجه من بنت الشيخ عبد الحالى
السادات : وفي قصائده مذكاة كان مدنوفا إليها بولائه لكرومر وولاء الشيخ علي يوسف لباي .

بها القيم التي كان يدعو إليها المتحررون من اللادبيين في أوروبا (Liberals) وكان ولي الدين يكن من أشد أنصار تركيا الفتاة تقديرًا لكرامته ، حتى لقد صدر الجزء الأول من كتابه (المعلوم والمجهول) بصورته ، وكتب تحتها « مصلح مصر » . وقد انتهى به اعترافه بفضل كرومر إلى تأييد الاحتلال . وكان من بين ما كتبه في ذلك مقال نشر في المقطم عنوانه (المحتلون يخرجون من مصر)^(١) . وهو يتصور في مقاله الآثار التي تترتب على خروجهم . فيروي خلأ رأى فيه جيش الاحتلال يخرج من مصر ، ثم رأى تمثال إبراهيم ينزل إلى الميدان لينمعه من الخروج ، مستحلفاً الإنكايين أن يمكثوا ليقبضوا العدل وليسكنوا الرعاع عن الإفساد . وقد بدأ ولي الدين يكن قصته بقوله :

« ... فرأيت فيما يرى النائم كافي أسير إلى ميدان غابدين . فلما وافيت مدخل الميدان مما يلي الشارع الآخذ من ميدان الأوبرا إذا جموع من الجنود المحتلة ، تتقدمها موسيقاها . ويقودها قوادها مشاة وفرساناً ، تخفق بيدها الأعلام البريطانية التي أظلت الأمن والعدل بمصر في أكثر من ربع قرن . وبأطراف الميدان جماعات من الرعاع والسوقة ، يتوسطها بعض تلامذة المدارس ، وآخرون جعلت أتعرف بعضهم كلما علق بهم نظري . فالتفت إلى وسط الميدان ، فإذا العلم البريطاني وإلى جانبه العلم العثماني ، يصل بينهما رباط أخضر إشارة إلى الود والاتحاد . وإلى أمام العليين منبر ذو درجات أعد ليخطب عليه من لا أعرفه . »

فإذا بلغ من حله الذي تخيله خطبة الجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال قال :

فصعد قائد الجيش المحتل على المنبر ، وخطب الحاضرين فقال :
« نحن الآن يتنازع قلوبنا عاملان ، واحد للفرح وآخر للحنن ، فأما عامل الفرح فبأن أثمرت مساعيها لإصلاح مصر حتى نستطيع أن نعيش وحدها . وأما عامل

الترح فبان شردع وادى النيل وأبنائه بعد أن طاب لنا المقام واستحكت
في قلوبنا الآلفة .

ثم هو بصور اتمار المفسدين وما يدبرون من تخريب بعد رحيل جيش
الاحتلال فيقول :

« فإذا شردمات من أهل الضوضاء وسكان الأعشاش ، وقد عصوا
روسهم بمناديل حمر وبأيديهم العصي ، تتقدمهم عربات فيها رجل كالخيار
الشنبر ، له شارب أسود يخاله على البعد رائيه غمد خنجر ، على رأسه طربوش
أعوج . وإلى جانبه آخر مثله ، ولكنه منتفخ البطن كـ « البرنية ^(١) » ، وفي يده شيء
يشير به لم أتبينه جيداً ، وأحسبه سوطاً . وأمام العربية بين هؤلاء الجموع رجل
أسود الشارب بين طويل القامة ، معمم مكم ، يحمل على كتفه مشطلة مغطاة بكوفية ^(٢)
من كوفيات المحلة الكبرى ، وقد جمع أياها . فكان ينظر يمنة ويسرة ، ويصيح
بملء فيه قائلاً : (ملنحة في عين اللي ما يصلى على النبي) . فتأملته فإذا هو أحد مشاهير
الكتاب والخطباء ، عزيز القدر بين أشياءه ، فتركته وحبله على غاربه ، وقلت
أنظر إلى غيره . فسمعت أحد من في العربية يقول لجماعة من المشايخ : إذا ركب
الجنود القطار ، وسار بهم حتى غاب عن الأبصار . تذهبون من ساعتكم في جماعة
من الشذاذ إلى إدارة كذا . فهدمونها على من فيها ، ثم تفعلون ذلك بإدارة كذا ،
ثم استعملوا لنا عن هذا الخبيث الملعون الذي يسمى نفسه زهيراً ^(٣) . فاجعلوا
في عنقه حبلاً وجروه على وجهه ، ثم ألخوا به في النيل . »

ويختتم مقاله الذي يروى فيه هذا الحلم المزعوم بخطاب إبراهيم بن محمد على ،
إذ يناشد المحتلين البقاء فيقول فيما يقول :

١ — البرنية : كلمة يستعملها العامة في مصر يطلقونها على إلاء نظاري صغير منجم البطن يستخدم
في حفظ الأطعمة السائلة .

٢ — الكوفية في التسمية المصرية : مانعة صغيرة تحيط بالرجة .

٣ — يقصد نفسه ، و(زهير) هو الاسم المستعار الذي كان يذيل به مقالاته في القطم .

و ... حتى صار ما صار^(١)، وضحى الحسى بهذه البواتر، ونامت الأعين في أمن هاته الأعلام، وتريدون اليوم أن تخرجوا من مصر، ليصبح عاليها سافلها، وليجرى هذا النيل أحمر قانيا؟ ... كلا ... ثم كلا. لاصيحن صبيحة تخرق حجب الأزل، وتنفذ إلى من ولجوا غابته، ولأبعثن لكم من تحت المقابر أجساداً تسد دونكم طريق الرحيل. أما والهرمين والنيل، ليدخلن أهل الطيش غداً على العذارى في خدورهن، وليأخذن بغدائرهن، وليقومن بعد زماعكم من الشر أضفاف ما أتى بهامكم من الخير. ارجعوا إلى نكباتكم مأجورين غير مأزورين. إنما يأنس إليكم أهل الوقار وأنصار الفضل،.

ويوجه ولي الدين يكن خطابه في مقال آخر إلى والى البصرة العثماني فيقول^(٢)،: « يزعمون أنك تبغض الإنكليز. أبغضهم ماشئت، وأحبهم ماشئت، لسنا على قوادك مسيطرين. ولكن والى العثماني يحب من تحب دولته، ودولتك تحب الإنكليز، والإنكليز يحبونها.

« يزعمون أنك تقول إن الهند ومصر شريكتان في الشقاء، وإنهما يتعاملان من ظلم الإنكليز، ولكنك تعرف أن في الظلم ضروباً لا يحاربنها إلها الإنكليز، وأن القوم نزلوا بمصر وعيوننا تراهم، وأن فضلهم على هذا القطر أعظم من فتح الشوارع وإقامة التماثيل، وأن لهم عندنا - معشر العثمانيين - نجيباً لا يفساه من في قواده مثقال ذرة من المروءة. وربما كان من أبناء التاميز أفراد لا يحبون العثمانيين فليكن في العثمانيين أناس يبغضون أبناء التاميز. غير أن والى البصرة يجب أن لا يكون إلا وفياً عارفاً بمرامى الكلام،.

ويعترف ولي الدين يكن بحمل إنكلترا على من يسميهم (الأحرار) من أعضاء

١ - يشير إلى الثورة العراقية .

٢ - الصحائف السود ص ٧٩ .

ترخياً للفتاة . في رثائه لإدوار السابع سنة ١٩١٠ ، حيث يقول (١) :

أبا الأحرار لا ينساك حر شبابهمو 'يجلثك والكمول
رفعت بناءهم وجربت معهم كذلك الليث يتبعه الشبول
تناديك الشعوب بكل أرض فليتك سامع ماذا تقول ؟ ...
تناجى منك حاميا المرجى وصولتها إذا قامت تصول .

وكان للاستعمار - إلى جانب هذه البطانة التي اتخذها من المصريين - أعوان آخرون من الشاميين ومن الأرمن النازحين إلى مصر والمنبثين في الوظائف الحكومية في مختلف النواحي والفروع . أما الشاميون - وقد كانت كثيرتهم من المسيحيين - فيرجع نفوذ جالينهم ونشاطها في مصر إلى حكم إسماعيل ، حين أراد أن يفسر الحضارة الأوروبية ، فاحتاج إلى موظفين يتقنون الفرنسية إلى جانب العربية - وكانت الفرنسية وقتذاك لغة دولية - فلم يجد بغيتته في المصريين ، إذ كان أصحاب الثقافة الأوروبية منهم قلة لا تكفي ، فأتجه إلى الشاميين الذين كان مسيحيوهم أسبق من المسلمين إلى الالتحاق بالمدارس الفرنسية والاختد بأسباب الحضارة الأوروبية ، يستخدمهم في مختلف المصالح الحكومية . ثم ساعد الرعيل الأول منهم إخوانهم ومواطنيهم على الرحلة إلى مصر . ومهدوا لهم احتلال مراكز حكومية فيها (٢) وكان طبعياً أن لا يشارك هؤلاء الشاميون المصريين في إحساسهم الوطني . فإنما هم مرتزقة لا يبالون إلا بالغنى . ينجرون وراءه حيث كان ، ويحققون لأنفسهم منه أوفر نصيب ، لا يعتنئهم في ذلك أن يرضى المصريون أو يفضبوا . وإنما بعينهم أن يرضى صاحب السلطة الذي يجري رزقهم على يديه . هذا إلى أن فساد الحكم التركي وغلوه في اضطهادهم وتحقيرهم قد ولد فيهم حقدآ على الترك خاصة ، وعلى المسلمين عامة . لذلك لم يجد الإنجليز حين احتلوا مصر خيراً منهم معيناً ونصيراً .

١ - ديوان ولي الدين يكن ص ٦٣ - ٦٤ .

٢ - Modern Egypt ٢ : ٣١٤ - ٢١٥ .

فأخذوا منهم صاحب المقطم والمقتطف ليكون لسانهم الناطق . وتدخلوا لحمايتهم حين هم رياض باشا أن يصدر قانوناً يحرم عليهم فيه الالتحاق بالوظائف الحكومية في سنة ١٩٠٠^(١) . وقد أثنى عليهم كرومر ، واعترف بما أدوا للإنجليز من خدمات ، وما بذلوا لهم من معونة صادقة . وخص المسيحيين منهم بثنائه ، فقال : « إنهم أهم كثير أ من مسلميهم من وجهة النظر السياسية »^(٢) .

أما الأرمن فيرجع نفوذ جالياتهم إلى حكم محمد علي . فقد كانوا يشغلون منذ ذلك الوقت مناصب رئيسية خطيرة في الدولة ، جعلت لهم كلمة نافذة مسموعة في كل ما يتصل بشئون مصر ، حتى لقد استطاع أحدهم فيما بعد أن يصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً للوزارة ، وأن يمكن لزوج ابنته من بعده حتى يصل إلى وزارة الخارجية^(٣) . وقد قص مصطفى كامل في خطاب له بعث به إلى أحمد شفيق باشا ما جرى بينه وبين الأمير الالاي بارنج (شفيق اللورد كرومر) من حديث خلال إحدى أسفاره إلى فرنسا للدعاية لمصر ، ومن هذا الحديث نستطيع أن نتبين مدى اعتماد الإنجليز على نوبار باشا في تنفيذ سياستهم في مصر وفي السودان ، وما كان يطمع فيه نوبار من مكافأة الإنجليز له على إخلاصه ، بالعمل على استقلال أرمينيا وإنشاء وطن سياسي لبني جنسه^(٤) .

ذلك تأويل ما نجده في أدب هذه الحقبة من التعريض بالدخلاء .

يقول مصطفى كامل في خطبة له بالإسكندرية سنة ١١٩٦^(٥) :

« وإذا كان صالح مصر يقضى كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساناتهم ، مطالبين

١ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢١٦ .

٢ — Modern Egypt ٢ : ٢١٣ — ٢١٩ .

٣ — Modern Egypt ٢ : ٢١٩ — ٢٢١ .

٤ — مذكراتي في نصف قرن ٢ : ١٩٢ — ١٩٥ .

٥ — مصر والاحتلال الإنجليزي « مجموعة أعمال مصطفى كامل من مايو سنة ١٨٩٥ إلى مايو

بحرية بلادهم . فوجود خطباء مثلهم في مصر تقسمها يرشدون الأمة إلى الخير ، ويحذرونها من الوقوع في الشر ، أصبح أمراً محتماً ، خصوصاً في هذا الزمن الذي يعمل فيه الدخلاء للتفريق بين الوطنيين وبعضهم ، والشقاق بين المصريين والأوربيين ، ويكيدون للأمة أعظم كيد ، ويدسون الدسائس لخلق اللعلاق وإحداث الاضطرابات .

أجل أيها السادة ... أجل . إن تحذير الأمتين أعمال الدخلاء صار واجباً على كل مصري شريف الإحساس ، مخلص النية لبلاده . وما نبلاء المصريين بمجاهلين طفعة الدخلاء ، بل الكل يعرفها ، والكل إذا لقيها يشير إليها فلتحيطوا أيها الوطنيون الفضلاء مساعي هذه الفئة السيئة ، ولتردوا رجالها على أعقابهم غاسرين ... فالدخيل الدخيل ... هو العدو الحقيقي ، وهو العدو الآلد ، الذي تجب محاربه بالقلم واللسان ، حتى تعرفه الأمة وتنفضه . وتجتنبه كل الاجتناب . ولا يسلّم شعب راضٍ في الحرية المدنية والسعادة الاجتماعية إلا إذا اتحدت أفرادها ، ومنجوا للدخيل من إلقاء بذور الفتنة ، والتفريق بينهم وبين بعضهم مما يكون وراءه ضياع بلادهم وضياعهم هم أنفسهم .

ويقول عبد الله النديم في مقال نشر في مجلة الأستاذ في عدد ١٧ يناير

سنة ١٨٩٣ :

« أنا أخوك ... فلم أنكرتني ؟ ... ما الشام ومصر إلا تولعان أبوهما واحد ، يسوء الإثنين ما ساء أحدهما . فلم تذاقر أبناؤهما وانحاز السوريون في جانب بعيد عن المصريين وإن ساكنوهم في مصر ؟ ألم يكن الأجدر بنا أن نصرف علومنا ومعارفنا وقوانا العقلية في صلاح بلادنا وبث روح العلم والحياة الوطنية فيها ؟ ... أبراتب قدره عشرون جنيناً يبيع المرء منا أخاه ووطنه ، بل جنسه ودينه ؟ ... أم بكلمة تقرير نصرف حياتنا في خدمة الأجنبي لنعينه على إخوانتنا ليقتم منهم بغير ذنب ويحني على غير جان ؟ بئس والله ما وصلتنا إليه هذه الخزعبلات التي نسميها معارف وآداباً . زرعتنا الأحقاد في قلوبنا بغياً وعدواناً . أهلكنا أنفسنا بالعداوة في غير

مصلحة جهلا وحماقة... فضحنا أنفسنا بنقل عوراتنا للغير سفاهة منا وجنونا... بعنا هيبتنا الأجنبية بلائمن خبلاً وبلاهة ، ولو اجتمعت كلتنا واثقلت نفوسنا وصفت بواطننا وصرفنا هذه الهمم في حفظ الوطنين وإعلاء كلمة الجفسين ، لحسدتنا المعالي ، ووقفت أورد باتنظرنا بين الإعظام والإجلال . ولكن قضت شقوة الشرقيين أن يكونوا كحطب النار يأكل بعضه بعضاً ، ليذتفع الغير بنارهم اصطلاً وطبخاً واستعمالاً فيما يشاء . والعهد قريب ، والعود غير عسير .

وأسفاه على رجال قضى آباؤهم الدور الطويلة يتبادلون العمران والاستيطان ، لا يفرق بينهم دخيل ، ولا يقطعهم عن بعضهم أجنبي ، فجاءوا من بعدهم وخالفوا سيرهم ، وخالفوا غيرهم ، وخدموا الأجنبي بمساعدته على التداخل في بلادهم ، بل على الاستيلاء عليها . لا لعداوة بين الأمتين ، ولا لحرب جرت في الوطنين ، بل برغيف يحصله الزبال ، وخرقة يملكها الشحاذ . وإن قيل إن جامعة الدين اضطرتهم ، قلنا إن عز الاستقلال بالوطنية خير من الإذلال بجامعة الدين . فإن الأجنبي يغزى الرجل منا حتى يوصله إلى غرضه ، ثم يلحقه بغيره عند تمام الاستيلاء ، ولا يعرف له حقاً غير خدمته ، ولا يفرق بينه وبين من غايره ديناً في الاستخدام والاستعباد ، (١) .

وصور حافظ إبراهيم ما كان يقوم بين المصريين وبين هذه الطائفة من الشأميين ، من الكراهية المتبادلة وسوء الظن ؛ حيث يقول مصوراً شكاة الشأمي (٢) :

جلست أثبت النيل شكاتي من أبنائه . وأنت تعلم أنهم صارمونا على غير رية ،

١ - وقد خصص عبد الله التديم عدداً كاملاً من مجلته (الأستاذ) لمهاجمة أصحاب (المقلم) ومن يذهب مذهبهم من أبناء جنسهم . وكان بالغ العنف في مهاجته . ولم يرض على مقاله هذا شهر واحد حتى أرغم الرجل الوطني الذي لم يفر عن الكفاح ولم يعرف الخوف إلى قلبه سيلاً على إغلاق صحيفته والهجرة عن مصر (العدد ٢٩ من الأستاذ الصادر في ٢٣ مايو سنة ١٨٩٢) .

٢ - لبالي ططير ص ١٦ - ٢٢ . وهو يشير في هذا الموضع من كتابه إلى أن المسيحيين من الشأميين هم المصدرون بهذا الدم بؤس خاص . ويأمل تفوقهم وتغلب المسلمين من الشأميين بأصراف الفريق الآخر عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الأجنبية .

وقاطعونا على غير ذنب ، وأصبحوا يرموننا ثقل الظل وجمود النفس ، ولم راعوا حق الجوار ، فسموا إقدامنا قحة ، ونشاطنا جشعاً ، وكدحنا وراة الرزق مضولاً ، وزوحننا عن الوطن عاراً ، وضربنا في الأرض شروداً . وما ذنب من ضاقت عليه بلاده فخرج يلتمس وجوه الرزق في بلاد الله؟... اللهم لأنها محاسن عدوها عيوباً ، وحسنات سموها ذنوباً .

ثم يقول مصوراً شكاة المصريين على لسان سطحي :

«إننى لا أكذب الله . لقد أكثرتم من التداخل في شئونهم ، فمز ذلك عليهم من أقرب الناس إليهم ، نزلتم بلادهم فنزلتم رحباً ، وتفتياتم ظلالها فأصبتهم خصباً . ثم فتحت لهم أبواب الصحافة فقالوا أهلاً ، وحللتهم معهم في دور التجارة فقالوا سهلاً . ولو أنكم وقفتم عند هذا الحد لرأيتهم منهم ودأً صحيحاً وإخلاصاً صريحاً . ولكنكم تخطيتم ذلك إلى المناصب فسددتهم طريق الناشئين ، وضيقتم نطاق الاستخدام على الطالبين . ولقد كنتم منذ بضع سنين لا تتجاوزون ستة الآلاف عدا ، فأصبحت اليوم وقد زينتكم على الثلاثين ، (١) .

وقد وسع النثر في مهاجمة هذا الفريق من مسيحيي الشأميين الذين أيدوا الاستعمار في مصر ما لم يسع الشعر . لأن الشعراء خافوا إن هم تعرضوا للشأميين جملة أن يسببوا إلى المخلصين منهم ، أو يفسدوا الرابطة الشرقية التي كانت ناشئة في ذلك الوقت . وخافوا إن هم أشاروا إلى المسيحيين منهم أن يثيروا فتنة دينية تفرق بين المصريين . ولذلك . اكتفوا بالإشارات العابرة في مثل قول حافظ ، إذ يصور جدم وخمول المصريين ، الذين يتبرمون بما أصاب هؤلاء من رزق ،

١ - يقول كرومر : إن أهمية القآمين - ومن الواضح أن كلامه هنا ينطبق على المسيحيين منهم - لا ترجع إلى ضخامة جاليتهم . ولكنها ترجع إلى المراكز التي يشغلونها ، فعظمهم موظفون في الحكومة وفي كل قرية مصرية تجد صراييا . إذا لم يكن يوفانيا فهو شآمي . فالشآميون يحتلون في مصر المكان الذي يحتله اليهود في الدول الأوروبية . فهم مكروهون من المصريين - مسلمين ومسيحيين - لأنهم يستأثرون دونهم بالوظائف من ناحية ولأنهم داننون من ناحية أخرى ، وعلاقة

١ - ثر ندين يهوده البنض في أكثر الأحيان (Modern Egypt ٢ : ٢١٣ - ٢١٤) .

وقد قعدوا عن منافستهم في مختلف الميادين . وذلك من قصيدة له في زواج الشيخ
على يوسف سنة ١٩٠٤ : (١)

وقالوا : دخيل عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبي
رأنا نياما ولما تُفريق فشمّر للسعي والمنكسب
وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب
ألفنا الخمول وباليتنا ألفنا الخمول ولم نكذب

ويقول في قصيدة ألقاها في حفل أقامه له جماعة من السوريين في فندق شبرد
سنة ١٩٠٨ ، بعد أن وصف نشاط الشّاميين الموفى في مصر وفي أمريكا : (٢)

هذي يدى عن بنى مصر تصاحكم فصاحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنها سادة فنجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم منا ومنهم لما لمعنا ولا عتبوا
إن يكتبوا لى ذنبا فى مودتهم فإنما الفخر فى الذنب الذى كتبوا

ويقول على الغياقي في قصيدة كتبها بمناسبة حبس الشيخ عبد العزيز جاويز
في المقال الذى كتبه عن ذكرى دنشواى فى صحيفة اللواء سنة ١٩٠٩ : (٣)

وغدا (الدخيل) مروعا أركانته تتهدم
يرجو النجاة ولا سيب سل ويستبين فيهم
ويمجد صوت ندائه نحو (العميد) فيحجم
ذاق الوبال بما جند ساه ولم يعيذه الدرهم
فاندك صرح كان فيه له للخيانة مقيتسم
وكذاك شأن المجرم من يصيبهم ما أجرموا

١ - ديوان حافظ إبراهيم : ١ : ٢٥٧

٢ - ديوان حافظ : ١ : ٢٦٩ - ٢٧١

٣ - وطني س ٨٠ وهو يقصد (بالدخيل) صاحب (المقلم) .

ويقول نسيم : (١)

اتقوا الله يا غواة قليلا	واخلعوا العاد عنكم والشنار
تنسبون المصرى للعار جهلا	وهو أسمى من العقاب مزارا
جتم داره ضيوفا عراة	فكساكم من الثراء دئارا
أيها المشتري بهجوك حظا	هجوكم القوم قابل استنكارا
نمق النثر في مقاصد تجدى	تساف حمد الورى عليك نثار

* * *

وبين هاتين الطائفتين من الكتاب والشعراء ، التى تؤيد إحداها السلطة الشرعية ممثلة فى الخديوى ، وتؤيد أخرى السلطة الفعلية ممثلة فى قنصل بريطانيا العام ، كانت هناك طائفة ثالثة تتردد بين المعسكرين ، تحاول أن تحتفظ بصداقتهما معاً ، وترجو أن لا يخطئها الخير والبر من أحدهما ، وتخشى إن هى أعطت كل نفسها لأحدهما أن تسبلى بعداوة الآخر وأذاه . وهؤلاء هم ضعاف النفوس من المسلمين الذين لا يصبرون للكفاح ولا يستطيعون تحشم أعبائه وتبعاته ، وطلاب النفع الذين لا يرون الحياة إلا طاماما يملأ البطون ، وكساء يختال على الأبدان ، ومتعاً تملأ حياتهم الفارغة التافهة .

وكان حافظ إبراهيم واحداً من هؤلاء المسلمين من طلاب العيش . وكأنما كان يعنى نفسه بالبيت الأخير من قوله فى تبكيك المصريين : (٢)

وشعب يفر من الصالحات	فرار السليم من الأجرب
وصحف تطن طنين الذباب	وأخرى تشن على الأقرب
وهذا يلوذ بقصر الأمير	ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير	ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين	على غير قصد ولا مأرب

١ - ديوان نسيم : ١ : ٤٨

٢ - ديوان حافظ : ١ : ٢٠٦

قد ظل هذا المسكين منذ أحيل إلى الاستيداع فيمن عوقبوا من المتهمين في حادث تمرد فرقتي الجيش المصري بالسودان سنة ١٩٠٠ يدير وجهه إلى عباس تارة ، وإلى السلطان عبد الحميد تارة أخرى ... فإذا استيقنت نفسه قلة حيلتهما وقصر باعهما أنصرف إلى الإنكليز ، وقوى صلاته بالشيخ محمد عبده صديق كرومر وعدو عباس ، ولم يترك رجلا ذا سلطة يؤمل أن يجرى خيره على يديه إلا قصده . وهو في كل حالاته يتملق ويستعطف . مؤملا أن يصيبه الخير آخر الأمر من إحدى هذه الساطات . وقد تتخلل سكرته صحوات يتشبه فيها بالناثرين في مثل حادث دنشواي أو توديع كرومر . ولكن الحرص والخوف يمنعان ثورته من الانطلاق ، ويقيدانها بأغلال ينم عنها شعره . فهو في الأولى يضع لإنجلترا موضع الآب الذي يظن بآبائه العقوق إذ يقول (١) :

لا تظنوا بنا العقوق ولكن أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
وهو يشعر شعورا عميقا بضعفه أمامهم ، وليس هذا شأن الناثرين .
كيف يحلو من القوى التشفي من ضعيف ألقى إليه القيادة ؟
إنها مشكلة تشف عن الغيب ظ ، ولمسنا لغيظكم أندادا
وهو في الأخرى يروى ما يقول الناس من حسنات كرومر وسبائاته ، بل ويقدم الحسنات على السيئات ، ثم يقول آخر الأمر إنه شاعر لا رأى له (٢) .
فهذا حديث الناس والناس السُن إذا قال هذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم اسجلت لي رأيا وبلغت مقصدا
واسكنني في معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولا مغلدا
وكأنما كان حافظ يصف نفسه ، حين صور ما يسيطر على رجال الجيش من رهبة الإنجليز فقال (٣) :

١ — ديوان حافظ ٢ : ٢٠

٢ — ديوان حافظ ٢ : ٢٠

٣ — لبالي سطيج ص ١١٠

« ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة، فيكبره رهبة وإجلالا ، ويتضمنع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزي بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافا بشأنه ، ويطيّل عتاب الخالق الذي فطره على شكله وصورته . ومنحه نعمة التنفس في جو يتنفس الإنجليزي فيه . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخاطبها الجبروت ويزدهيها البطر .

« هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم ، كبار الرتب والأجسام، لا كبار النفوس والأحلام . فخالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقام ساقى السياسة الإنجليزية كثر واما من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث . حتى إذا صدر له أمره بشيء كاد يخرج من ظله سرية لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيهم أسرع من الصدى . وهو على حفظ أمره أحرص من الفئوغراف على حفظ الصوت .

« اللهم إن العيش مع الأبيضين وإن أبردا العظام ، أروح للنفس من عيش ضباطنا العظام . تراهم وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزيّنت بالنجوم ، فيروك ما ترى ، ولو كشفتمهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء .

« فليت سيوفهم كانت عصياً وليت نجومهم كانت رجوما ،

مدح : فقط عباسا سنة ١٩٠١ بقصيدتين ، لإحداهما في عيد الفطر ، والأخرى في عيد جلوسه (١) ، وهما السلطان عبد الحميد في العام نفسه بعيد جلوسه ، متقربا إليه بمهاجمة حزب تركيا الفتاة (٢) . ثم لم يلبث أن انصرف إلى تهنئة إدوارد السابع سنة ١٩٠٢ بتتويجه ، فإذا كل بيت من أبيات قصيدته ينطق بما يملأ قلبه

من رهبة الإنكيز . يبدأ قصيدته بقوله (١) .

لمحت في مصر ذاك التاج والقمر
ثم يصور قوة إنكلترا القاهرة إذ يقول :

من ذا يناوبك والأقدار جارية بما تشائين ، والدنيا لمن قهرا
إذا ابتسمت لنا فالدهر مبتسم وإن كشرت لنا عن نابه كشرا
ويخرجه الخوف عن وقاره وكرامته حين يقول :

اليوم يلثم تاج العز محتشما رأساً يدبر ملكا يكلا البشرا
يصرف الأمر من مصر إلى عدن فالهند فالكاب حتى يعبر الجزرا
بل إنه ليدعو الله أن ينصر جنده في الآفاق إذ يقول :

إدوارد دُمت ودام الملك في رغد ودام جندك في الآفاق منتصرا
ويقرنه في عدله بعمر بن الخطاب إذ يقول :

هم يذكر وفك إن عدوا عدولهم ونحن نذكر إن عدوا لنا عروا
كأنما أنت تجري في طريقته عدلا وحلما وإيقاعا بمن أشرأ

ثم ينصرف حافظ إلى مدح محمد عبده والدفاع عنه في سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ (٢)
ويعود في سنة ١٩٠٤ إلى عباس ، فيمدحه بقصيدتين في عيد الأضحى وفي عيد
العام الهجري (٣) ، معتذرا عن سكوته في العامين الماضيين ، ويقول في القصيدة
الثانية مستعطفا .

عسى ذلك العام الجديد يسرفي بشري . وهل للبائسين بشير ؟
وينظر لي رب الأريكة نظرة بها ينجلي ليلُ الأسى وينير
فإذا عين سعد وزيراً للمعارف في وزارة صهره مصطفى باشا فهمي سنة ١٩٠٦ ،
مدحه متقرباً إليه بصلته بأستاذه محمد عبده (٤) .

١ — ديوان حافظ ١ : ١٨

٢ — ٢١ : ١ • • ٢٧

٣ — ٢٨ : ١ • • ٣١

٤ — ٢٦٤ : ١ • •

فأرهد لنا عهدَ الإمامِ وكنْ بنا الرجلَ المفدًى
فإذا انتهى به المطاف إلى دار الكتب وعين بها سنة ١٩١١ ، بلغ به اليأس
والاستسلام أن ينصح السلطان حسين كامل ، حين وضع على عرش مصر بعد
خلع عباس سنة ١٩١٥ ، بموالة الإنكليز والإخلاص لهم إذ يقول (١) :

ووال القوم منهم كرام	مَيَّامِينُ النَغِيبةِ أين حلوا
لهم ملك على التمامِ أضحى	ذراه على المعالي تَسْتَهْلُ
وليس كفومهم في الغرب قوم	من الأخلاق قد نهلوا وعلو
فإن صادقتهم صدقوك ودًا	وليس لهم إذا قتشت مثل
وإن شاورتهم والأمرُ جد	ظفرت لهم برأى لا يَزِلُّ
وإن ناديتهم لبناك منهم	أساطيل وأسيف تَسْلُ
فدادهم حبال الودِّ وانفض	بنا فتيادنا للخير سَهْلُ

ويقنع بطلب الإصلاح في ظل الراية البريطانية في قصيدته التي استقبل بها
السير آرثر مكاھون سنة ١٩١٥ (٢) :

نرجو حياة حرة	مضمونة في ظل راية
ونزوم تعلما يكو	ن له من الفوضى وقاية
ونود أن نسمعوا	فيما السعاية والوشاية
أتم أطباء الشعو	ب وأنبل الأقوام غاية
أني - ملتم في البلاد	لكم من الإصلاح آية
رسخت بنفاة مجدم	فوق الروية والهداية
وعدلتم فلكتم ال	مدنيا وفي العدل الكفاية
إن تنصروا المستضعف	- فنحن أضعفهم نكاية

١ - ديوان حافظ : ١ : ٦٧ - ٧١

٢ - ٢ : ٨٢ والسير آرثر مكاھون هو أول مندوب بريطاني عين في ظل

الحماية . وقد وصل إلى مصر في ٩ يناير سنة ١٩١٥

ولإزاء هذا النزاع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية انقسمت مصر إلى معسكرين كبيرين ، أحدهما يحارب الاستعمار ، ويتذرع إلى ذلك بكل وسيلة ممكنة ، فيعتمد على نفوذ الخديوى أنا ، وعلى نفوذ تركيا أنا آخر ، وعلى نفوذ فرنسا فى بعض الأحيان . وذلك هو الحزب الوطنى ، يؤيده شباب مصر المثقف وطلبة المدارس فى مختلف المعاهد ، أما المعسكر الآخر فقد جنح إلى موالاتة الإنكليز واكتساب رضائهم ، معتقداً أن مصر فى ضعفها وانحلالها لا تستطيع أن تكافحهم ، وأن الطريق الأمثل للتقدم هو إصلاح حالتها الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية بالاتفاق مع سلطات الاحتلال . وذلك هو حزب الأمة ، يؤيده كبار الملاك ، ويشايهم نقر من أصدقاء الشيخ محمد عبده ؛ مثل سعد زغلول وفتحى زغلول^(١) . وبين هذين الحزبين الكبيرين كان هناك فريقان آخران ، فريق يعبر عن اتجاهات الخديوى ، استحدثه عباس حين فسد ما بينه وبين الحزب الوطنى ، ويمثله الشيخ على يوسف ومعه قلة من الأشياع يسمون أنفسهم حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وفريق باع نفسه للاستعمار وسمى نفسه الحزب الوطنى الحر ، وماهو بوطنى وماهو بجزى ، ويمثله صحيفة المقطم وربما استطعنا أن نضيف إلى هذين الفريقين فريقاً ثالثاً كان مستقلاً عن هذه الأحزاب جميعاً ، وكان يقاوم النفوذ الإنكليزى ، ولكنه لا يقاومه من وجهة النظر المصرية أو التركية ، وإنما يقاومه من وجهة النظر الفرنسية ، التى كانت — قبل الاتفاق الودى الذى عقد بين فرنسا وإنكلترا سنة ١٩٠٤ — تدور حول إخراج الإنكليز وإفلاق مركزهم فى مصر ، بإثارة المشاكل ووضع العقبات فى طريقهم . وكانت صحيفة الأهرام هى الممثلة لهذا الاتجاه^(٢) . وربما كان مقال الجريدة « تعالوا نتفق أو نختلف » من أوضح

١ — مذكراتى فى نصف قرن ٢ ب : ١٠٢ و ١٤٣ ، تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٩١

٢ — راجع نشأة هذه الأحزاب وبرامجها والظروف التى مهدت لظهورها فى مذكراتى فى

نصف قرن ٢ ب : ١٢٦ — ١٣٢ ، الدولة العربية المتحدة ٣ : ٩٦ — ١٠٣ تاريخ المفاوضات المصرية ص ٢٣ — ٢٩ .

ما كتب في بيان الفروق بين هذه الأحزاب . وقد جاء فيه (١) :

« ... (فالمؤيد) يتحيز دائماً في سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وأما في جزئيات المسائل وتقدير الحوادث فإنه يجرى من النقيض إلى النقيض ، أى من (اللواء) إلى (المقطم) . فأحياناً يكون كالأول ، وأحياناً كالثاني ، وغالباً ينفرد في هذا الميدان الفسيح بدينكم النقيضين ، فراعياً في ذلك حالة مصلحة سياسته العامة التي ذكرناها . وأما (الجريدة) فإنها لاتتحيز لجهة من السلطتين ؛ ولاتتفق مع طرف من طرفي النقيض . وليس من سياستها أن تخدم سلطة مطلقاً . بل قلبها وقف على خدمة الأمة دون سواها ، وليس أمام نظرها إلا أن تصبح الأمة ذات إرادة ثابتة ووجود مستقل عن كل سلطة ، تقف في مركز مكين لمطالبة السلطتين جميعاً بحقوقها من غير استكانة ولا محاباة (٢) . وبذلك لا يمكن أن تكون متفقة السياسة مع (المؤيد) . وأما (المقطم) فإنه يتحيز إلى سلطة قصر الدوبارة ، ويزين أعمال المحتلين ولو كان ملقوها الخطل ، ويقول بالرضى عن الاحتلال . وأما (الجريدة) فإنها لاتقول بالرضى عن الاحتلال مطلقاً . وإنما لاتناقش الآن في أصل الاحتلال ، لأن الوقت لم يحن بعد . ولا تتحيز لجهة ، لأنها تفتقد أعمال الحكومة والمحتلين بالحرية الكاملة ، وتمين صالحها من طالحها ، وتقول الحق في الحالتين من غير محاباة . وبهذا لا يمكن أن تكون (الجريدة) و (المقطم) متفقتي المذهب .. وأما (اللواء) فإنها تدعو إلى الاستقلال بالطفرة ، وخطتها عدائية للمحتلين . ونحن نرى أن الطفرة محال ، وعواقب التشبث بها خطيرة جداً ،

١ — صحيفة (الجريدة) عدد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٠٧ المقالة الانتحائية .

٢ — كذلك ترعم (الجريدة) . والواقع أنها كانت تتحيز لكرومر وتتعامل على عباس . وقد كانت فكرة المصرية والتحصير وقتذاك من خلق الإنجليز . وهي فكرة — على ما فيها من حق في ظاهرها — لم يكن يراد بها إلا الباطل . فهي شبيهة بفكرة السودنة التي خلقها الإنجليز في السودان للتفريق بين المصريين والسودانيين . وليس من محض الاتفاق أن يكون النادى بفكرة التحصير وقتذاك هو حزب الأمة ، وأن يكون النادى بفكرة السودنة بعد ذلك في السودان هو الحزب المسمى بهذا الاسم نفسه .

وأن الاستقلال لا يكون إلا بمعادته التي شرحها سعادة حسن عبد الرزاق باشا في خطبته . كما نرى أن معاداة المحتلين وتقبيح أعمالهم التي لا يحكم العدل بقبحها ليس من الاعتدال الذي هو شعارنا في شيء . . .

وقد تكلمت في الفصل الثاني من فصول هذا الكتاب عن الفوارق الأساسية بين هذه الأحزاب . ولكنني أحب أن أشير هنا إلى أن الخلاف بين هذه الأحزاب قد انتهى إلى خوض الصحف في مهارات لم تكن تستهدف الحق دائماً ، وقد كان كثير منها يتصل بالأشخاص لا بالمسائل العامة (١) . وقد أفسدت هذه المهارات الأخلاق والأذواق ، فتولد في المصريين ميل جاح لتقبع هذا السباب والتشنى بسماعه . وأصبحت هوايتهم الفاسدة أن يترقبوا في شوق طلوع اليوم الجديد ليستمتعوا بمزيد من السباب ، وليأخذوا مقاعدهم في حفل مصارعة الثيران ، وقد غدا أقدروا الناس على السباب وعلى رذته هو أبرعهم في أعين الناس . وبذلك استنفدت طاقة المصريين فيما لا طائل تحته ، وصرفت عن مواجهة الاستعمار ، عدوهم الأول ، الذي استراح من حربهم بعد أن أصبح كل منهم حرباً على صاحبه . وارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم ، حتى ضج المصلحون من هذه الفوضى المؤذية للأذواق ، والمفسدة للأخلاق والباءة على بلبله الأفكار .

يقول عبد الله النديم (٢) :

« أطلقت إنجلترا حرية المطبوعات والأفكار ، فرأينا الجرائد الكثيرة تتكلم بما تريد ، وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول : أنا وطنية ، أنا دى بأن خير البلاد وصالحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأهم قاموا بحكومة

١ — راجع أمثلة لذلك في تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٥٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤ ،

٧١٠ ، ٨٢٣ ، ٨٥٣ .

٢ — الأستاذ عدد ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ .

ثابتة مؤيدة بالقانون الحق النافذ ، وقت وعدها ، وأجلت جندها ، وتركهم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والصرب وغيرها مما هو أقل من مصر بكثير ، والامة مرتاحة لها . وهذه تقول : مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الانكليز ، ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء ، حتى يتهاى المصريون لاستلام أعمالهم . لا تبالي رضى عنها المصريون أو غضبوا منها ، وهذه تقول : إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر وحقوق السلطان فيها وتأييد الخديوى ، ولا يضرها إلا وجود الانكليز فيها . وهذه مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس . وهذه تورد لهم من مصادرات الأديان ما يوقعهم في الشك والتردد . وهذه دينية . وهذه حقوقية . وهذه طيبة . ثم تركت المصريين يغدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لا رقيب عليهم ولا جاسوس . ولمسارات أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تنبههم إلى طلب حقوقهم ، وظهور أعلامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم . تركت الجرائد تخوض في المواضيع المتضادة ، وتلمب بالأفكار الجامدة ، ونحن في بحر اللهو غارقون . . . وصور حافظ إبراهيم فساد الصحف التي لا ينفق سورها إلا بتبادل الشتائم بالباطل ، وقد أصبح الناس لا يتقبلون كلاما في الأدب أو الأخلاق ، ولا يستهويهم إلا السباب . فقال في (ليالى سطيج) على لسان صاحبه إذ يبثه شكاته (١) :

فتقلى الدهن أن ألقى بنفسى فى غمار المحررين ، وأن أنشئ صحيفة أسبوعية . فصمت عزيمة على الدخول فى زمرة الكتّاب وإن لم أكن منهم . . . وجعلت أكتب فى الفضيلة وأدعو الناس إلى الأخذ بها ، وأستعين بما سطره الأول وجرى عليه الأخير ، وأستمد من بطون الكتّاب أحكم الأمثال وأمثلة العظات وأكد ذهنى فى الاستنباط . . . ولكن فأننى أنظر نظرة فى أخلاق الأمة التي أكتب لها ، وأن أجول بالفكر جولة فى وجوه عاداتها . فلم تنفق لذلك سلعى ،

ولم تنتشر صحيفتي ... فقلت لنفسي : أيتها النفس لقد أعذر صاحبك وما قصر .
فانت اليوم بين أمرين ، إما الفضيلة والنعمش ، وإما الرذيلة والعيش . وكانت من
غير تلك النفوس المظلمة ، التي بشرها الله بالجنة . فشمست عن الأولى وسكنت ،
إلى الثانية . فإزالت تأمرني بالسوء ، حتى أصبحت صحيفتي مجموعة للنقائص
ومستشأماً للعيوب ، وأصبح راعي وقد استمد من لعب الأفاعى لعبه ، واستعار
من المسامير سبابه^(١) . فما زلت أظن على زيد لأجتعل من عمرو ، وأغض من
خالد لأشد من بكر ، حتى زل الرأي وعثر القلم ، فأصبحت غريم الحكومة ،
وخوصمت إلى المحاكم فأصبحت مخصوما ، وبت وقد اصطلحت على الخطوب .

ثم يقول على لسان سطيج في الرد على صاحبه :

« أى فلان !... إن للصحافة رجالا . وللسياسة أبطالا ، طرّقوا لها إلى الضمائر ،
وتناولوا بها ما وراء السرائر ، فسددوا الكلام كما تسدد السهام . وبلغوا بالمقال ما لا
تبلغه النصال . ميعجبونك فتعجب ، ويستغضبونك فتغضب . . . وهم كما قال
صاحب كليله (يحقرن الباطل ويبطلون الحق . كالمصور الذى يصور فى الحائط
صورا كأنها خارجة وليست بخارجة ، وأخرى كأنها داخلة وليست بداخلة) ..
ثم قال على لسان صاحبه إذ يسأل سطيجا عن معنى الحرية وحدودها :

« ألا يحدثنا ولى الله عن تلك الكلمة التى أخذها الناس على غير وجهها .
فذهبت فيها الظنون مذاهبها ، وركبت الآوهام مراكبها . ثم أسكنوها فى غير
معناها ، وأرادوا منها غير ما أرادت منهم ، فذلت بهم وذلوا بها . وكان ذلك علة
هذه الفوضى التى تراها فى الصحف ، وذلك الفساد الذى سرى فى الأخلاق ، ؟

ويقول على لسان سطيج فى مضار ما وقعت فيه الصحف من مہاترات :

« أما وجوه المضرة فى بقائنا فقد أصبحت شيئا يحسن ، وأصبح مثلاً كمثل

١ — المسامير : كتيب لعبد الله النديم فى هجاء أبى الهدى الصيادى الذى كان شيخا للإسلام فى
تركيا وكان متسلطا على السلطان عبد الحميد . وهو عربى الأصل . وقد ابتلى النديم بعداوته مدة لإقامته
فى الأستاذة بعد إبعاده عن وطنه عقب تعطيل صحيفة (الأستاذ) . والمسامير مملوءة بالفحش المذموم .

الهواء ، فقد كنا نشعر به ولا نراه ، حتى سلطوا عليه ضغط الجو فتكاثف حتى
 همت الأيدي بلمسه ، وتلون حتى وقع في النظر تحت حسه .
 « فنها أنهم نصبوها حباتل لصيد المال . فأقاموا لها سوقا فرشت فيها
 الصحف وركزت الأقلام ، وعرضت للبيع أعراض الناس ، فترام يجلسون
 للمساومة في تلك الأعراض . ويأتى حامل الضَّيب (الحقْد) لأخيه ، فيسلوهم
 في تمزيق عرض من أراد ، ويُشهر ذلك في المزاد .
 « ومنها ديبب الفساد إلى أخلاق العامة ، لكثرة ما يقرءون ويسمعون من
 ألفاظ السباب . فإذا فسدت الأخلاق في الأمة فقد فسد فيها كل شيء .
 « ومنها دخول السقاط من القوم في زمرة المحررين . اللهم إلا نقرأ من
 أنصار الفضيلة ، ذهب صرير أقلامهم ضياعا في وسط تلك الضجة القائمة . وهذا
 قليل من كثير ، .

ويقول محرم في تصوير هذا الفساد والشقاق (١) :

ولقد بلوت الكتاتين جميعهم	فوجدت أكثر ما يقال دعاويا
شدوا العياب على هذات لوبدت	ملأت مناديج الفضاء مساويا (٢)
لا بوركت تلك الأكف فإنها	ضربت على الأبواب سدا عاتيا
حجبت صديق الرشد عنها فارتدت	تجتاب ليل النوى أسفع داجيا (٣)
سلمنى أنبتك اليقين فإن لى	علما بما تخفى السرائر وأفيا
ألفيت أصدق من بلوت مداهنا	ورأيت أمثلا من رأيت مداجيا
بعثوا الصحائف يلتوين كأنما	بعثوا بهن عقاربا وأفاعيا

١ - ديوان محرم ٢ : ٩٧ - ١٠٠

٢ - العياب جمع عيبة (بفتح العين) وهي الحقيبة . مناديج جمع مندوحة وهي ما اتسع من
 الفضاء . يقول إن بين جنات هؤلاء الكتاب الذين يتشدقون بالفضيلة من العمر ما هو خلبق أن
 يسد الفضاء .

٣ - الصديق الصبح .

صحف يزل الصدق عن صفحاتها ويظل جد القول عنها نابيا
... صدقوا العدو ولاءهم وتمزقوا خصماء فيما بينهم وأعاديا
فهم المعاول إن رمام هادما وهم الرعائم إن علام نابيا
وهم السلاح إذا يشيع متاجزا وهم العديد إذا يصيح مناويا
مالى أهيب بمن لو أتى نافخ فى الصور ما نهت منهم غافيا
... ليت الزلازل والصواعق فى يدي فأصبا للنفالين قوافيا
فنبت براكين القريض ولا أرى ما شفتنى من جهل قومي فانيا
فلئن صمت لأصمتن تجلدا ولئن نطقت لأنطقن تشاكيا

من أجل ذلك أخذ الناس يتصايحون بالدعوة إلى الاتحاد وإلى ضم الصفوف ، فكانوا كالذين يصرخون وسط الضجيج ينشدون الناس السكوت ، فيضيفون إلى الضجيج ضجيجا جديدا . أو كالذى يحاول أن يوحد بين الأديان فلا يزيد على أن يضيف إليها ديناً جديداً ، أو كالذى يريد توحيد اللغات فينتهى إلى خلق لغة جديدة ، فالتخلفون لا يملون الخلاف ، كما أن دعاة الخير لا يستغيثون من الدعوة إلى الوحدة وإلى الوئام .

يقول حافظ إبراهيم فى قصيدة وجهها إلى (البرنس) حسين كامل حين وكلت إليه رئاسة مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية سنة ١٩٠٩ طالباً إليه أن يعمل على جمع الصفوف وتوحيد الكلمة (١) :

هلاك الفرد مفشؤه توان وموت الشعب منشؤه انقسام
وإننا قد ونينا وانقسمنا فلا سمى هناك ولا وئام
فساء مقامنا فى أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المقام
فلا تحب إذا مـلكت علينا مذهبنا ... وأكثرنا نيام
حسين ... حسين أنت لها فقه رجالا عن طلاب الحق ناموا
أفض فى قاعة الشورى وئاما فقد أودى بنا وبها الخصام

وعليهم مصادمة العوادي
ففي حزب اليمين لديك قوم
وفي حزب الشمال لديك أسد
فكونوا للبلاد ولا يفُتكم
فما سادوا بمعجزة علينا

ويقول محرم : (١)

بلوت المدعين بلاء صدق
دعاة الشر يتفقون فيه
إذا كان الهوى دلفوا سراعا
كان بهم غداة يُقال سيروا
أسارى في قيود الجمل تآبى
لبئس القوم . ما منعوا ذماراً
أست ترى مجال الجحد فيهم
أضاعوا الشعب حين تواكوه
ولو أنى وليت الأمر فيه
ولكنى امرؤ لا شيء عندي

ويقول : (٢)

ليس الشقاء بزائل عن أمة
من لبشعب في السكينة لا القوى
متألب يبغي الحياة كأنه
حتى يزول تفرق وتحزب
تفشق منه ولا الهوى يشعب
جيش على أعدائه يتألب

ويقول شوقي في الهمزية النبوية التي نشرت سنة ١٩١٢ ، متوجها بخطابه إلى

١ — ديوان محرم ٢ : ١٢٥

٢ — أبق الصد أباقا استخفى وهرب من سيده .

٣ — ديوان محرم ٢ : ١١١

الرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

ما جئت بآبك مادحاً بل داعياً
أدعوك عن قوى الضعاف لا أزمة
أدري رسول الله أن نفوسهم
متفككون فما تضم نفوسهم
رقدوا وغرهم نعيم باطل
ويقول في قصيدة أخرى هنا بها عباساً بعيد الفطر : (٢)

وطنى أسفت عليك في عيد الملا
لا عيىدلى حتى أراك بأمة
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم
أيطل بعضهم لبعض خاذلاً
وإذا أراد الله إشقاء القرى
ويقول في ختام القصيدة الحزينة التى هنا بها السلطان حسين كامل بعد عزل عباس : (٣)

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم
جرت الأمور مع القضاء لغاية
أخذت عنانا منه غير عناها
هل كان ذاك العهد إلا موقفاً
يعتر كل ذليل أقوام به
فإنه خير مويلاً ووكيلاً
وأقرها من يملك التحويلاً
سبحانه متصرفاً ومديلاً
للسلطتين وللبلاد وبيلاً ... (٤)
وعزيزكم يلقى القياد ذليلاً (٥)

١ — ديوان شوقي ١ : ٢٩ (نشرت في المؤيد ٧ مارس سنة ١٩١٢) .

٢ — ديوان شوقي ٢ : ٩٢

٣ — ديوان شوقي ١ : ٢١٧

٤ — يشير إلى تنازع السلطة الفرعية المثلة في المندوبى والسلطة الفعلية المثلة في اتصال بريطانيا العام .

٥ — يقصد بالعزيز عباساً الذى أذله الانجليز ، وخصوصاً في السنوات الأخيرة ، حين كان كثر من ممثل بريطانيا .

دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت	إلا نتائج بعدها وذويها
وانقض ملعبه وشاهدُه ، على	أن الرواية لم تتم فصولا (١)
فأدتم الشـ حناء فيما بينكم	ولبثتم في المضحكات طويلا
كل يؤيد حزبه وفريقه	وبرى وجود الآخرين فضولا
حتى انطوت تلك السنون كملعب	وفرغتم من أهلها تمثيلا
وإذا أراد الله أمراً لم يجد	لقضائه رداً ولا تبديلا

١ — كان هذا البيت والذي قبله مما دعا الإنكليز إلى أن لا يطمئنا إلى شرق، فأبعدوه عن مصر .

الفصل الخامس

نزعات اصلاحية

ليس التفريق بين ما هو من السياسة وما هو من الإصلاح بالامر الهين . بل إن التفرقة تكاد تكون تفرقة تعسفية أو إصلاحية . فكل حركة إصلاحية تخدم هدفا سياسياً في حقيقة الامر . وكل نهج سياسى يمكن أن يوصف بأنه حركة إصلاح ، تستهدف رفع مستوى مجموعة أو أكثر من المجموعات البشرية . ولكن العرف جرى على إدخال ما يتصل بتنظيم الدولة وعلاقتها بغيرها من الدول الأخرى في نطاق السياسة ، بينما أطلق اسم الإصلاح على البرامج التي ترمى إلى رفع مستوى الشعب وتحسين حاله في شتى نواحي الحياة . ولذلك اقترن اسم السياسة في الأذهان بالسلطة والحكم والتطاحن والمغامرة ، في الوقت الذي لاثير فيه كلمة (الإصلاح) إلا التفكير الهادى الذى يقسم بالاتزان والإنصاف ، والذي ينأى بصاحبه عن المخاطر ، ولا يجره إلى المجازفة في ميادين النزاع العنيف . فالذين يتعرضون للسياسة ممن يجدون في أنفسهم الجسارة عليها ، والذين يشتغلون بالإصلاح ممن يغلب على طبائعهم الهدوء والروية ، ولا يريدون أن يزجوا بأنفسهم في طريق مخوف بالمكاره وبمكامن الخطر ، هؤلاء وهؤلاء يعملون في ميدان واحد هو الوطنية ، أو السياسة بمعناها الواسع الذى يدخل فيه كل ما يتصل بتدبير علائق أفراد الأمة أو الوطن بعضهم البعض ، ودفعهم في مدارج التطور والرقى . بيد أن من الناس من يجمع بين الصفتين ويشغل بالثا حيتين ، ومنهم من يقصر نفسه على ناحية واحدة . فكل الذين يشتغلون بالسياسة يشتغلون في الوقت نفسه بالإصلاح ، لأن سياسة أمور الدولة الخارجية لا تقوم إلا على سلامة جبهتها الداخلية . ولكن كثيراً من المشتغلين بالإصلاح لا يزجون بأنفسهم في شئون السياسة ، لأنهم لا يأنسون في

أنفسهم احساسة عليهم ، أو لأنهم يؤثرون البعد عن مواطن الزحام حين يتكالب على المورد كل منافق وكل طامع وكل مغامر من الذين يطلبون الغنم الكبيرة من أقرب طريق ، ومن لا يباليون أن يقعوا على الثروة العريضة أو الموت الذريع . كذلك كان شأن المشتغلين بالإصلاح في هذه الفترة التي تؤرخ لها . كان بعضهم من المشتغلين بالسياسة ممن تسكمتا عنهم في الفصل السابق . وكان بعضهم الآخر ممن كرهوا أن يزجوا بأنفسهم في هذا المعترك العنيف ، فأثروا أن يسلكوا طريقاً لا يعرضهم لغضب السلطان ، بعد أن رأوا ما رأوا من سوء مصير العربيين ، وما يتعرض له المجاهدون الاستعمار من أذى واضطهاد . وقد كان لهؤلاء المصلحين مندوحة ومتسع في المجتمع المصري الذي آل إلى حال بغضضة من الانحلال والفساد . وكانت المشكلة الكبرى التي تواجه كل سياسي وكل مصلح هي : كيف نخلق أمة قوية راقية من هذا المجتمع المنفكك ، الذي انتهى به الجهل والفقر ، مع تحكم الاستبداد فيه أجيالاً طويلة ، إلى حال من اليأس أصبح معها لا يكثر ثل شيء مما يجري حوله ؛ بل أصبح في حالة فقد معها التمييز بين الضار والنافع ، واختلط عليه فيها الخير بالشر ، وأنس إلى الظلام حتى أصبح النور يؤذى عينيه ؟ ... قال رجال السياسة : إن الاحتلال هو أصل البلاء ، فلا بد من مناجزة المحتل . وقالوا : إن الاستبداد هو جرثومة الداء فلا بد من المطالبة بالدستور . ولكن المشكلة ظلت باقية تنتظر الحل في رأى رجال الإصلاح ، لأن مجاهدة المستعمر أو الحاكم المستبد تحتاج إلى تضافر القوى واتحاد الجهود . وكيف تتضافر القوى في شعب خيم عليه الجهل والفقر ، وتحكم فيه اليأس والتخاذل ، حتى بلغ حالة تشبه الموت ، إن لم تكن هي الموت عينه ؟ ...

كان الفتن والتبذ قد استولى على المجتمع المصري ، بعد أن توالى على الناس الاستعباد والاستبداد والذل والهوان ، فمات فيهم الآمال ، وفقدوا بتوالى العصور أخص ما يميز الإنسان : وهو الإرادة ، فتركوا أنفسهم للتيارات المعتركة تقذف بهم حينما قذفت ، وهم في سكون الجماد الذي لا يحس شيئاً .

وقد رسم عبد الله النديم في رواية «الوطن» صورة حية ناطقة لهذا المجتمع الذي أفقده الاستبداد إرادته ، وأمانات المصائب المتراكمة إحساسه ، حتى فقد الأمل ، وترك العمل ، وارتاح للسكسل ، وانحصرت لذته في ألوان من المتع الرخيصة التي يغرق فيها همومه التماساً لتسكين الآلام^(١) . والتشيلية تشخص (الوطن) رجلاً ، وتعرض صوراً حية للحوار بينه وبين أفراد من مختلف طبقات المصريين . بعضهم من سكان القرى وبعضهم من المدن ، وبعضهم من الفقراء وبعضهم من السادة المترفين الفارغين لذاتهم ، وبعضهم من الفلاحين الذين يعيشون على ما تخرج الأرض وبعضهم من الصيادين الذين يعيشون على ما يخرج البحر ، وبعضهم من الجملة الذين يكسبون عيشهم من احتراف الحرف المختلفة ، وبعضهم من الموظفين الذين أصابوا حظاً من التعليم المدني الحديث . عرض النديم صوراً لهذه الطبقات جميعاً تبين أنها على تباينها في مظهرها لا تختلف في جوهرها . فكل منهم يعاني من آثار الاستبداد ومن قاذح المغارم والتكاليف مثلاً يعاني الآخر . وكلهم مشغول بنفسه عما حوله ، وكلهم مصابون بشلل في أعصابهم ، مُبْتَلُونَ ببلادة في إحساسهم ، لا يزعمهم البلاء الذي يصب على رموسهم والذي يجري من حولهم ، ولا يحملون بخير مما هم فيه ، ولا يرون الذين يحاولون ذلك إلا مجانين يتعلقون بالأوهام ويحاولون المستحيل .

انظر إلى هذا الحوار بين «أبو دعموم» و«أبو الزلفي» وهما من الفلاحين سكان القرى^(٢) يبت كل منهما صاحبه شكواه ، وما يحل به من المغارم ، وما ينزل به من

١ — مثلت مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية — التي كان يشرف عليها النديم — هذه المسرحية على مسرح زيزينيا بحضور الحديوي توفيق — وهذه الجمعية هي جمعية أخرى غير الجمعية الخيرية — وقد كان الحوار يجري في أكثر الأحيان باللهجة العامية المحلية . وهي — كما هو معروف — تختلف باختلاف الأقاليم ، بل باختلاف الطوائف والطبقات في الإقليم الواحد . كما تتعرض للتطور والتغير على توالي السنين ، وذلك كله يضيّق دائرة صلاحيتها زماناً ومكاناً . ويفقدها صفة العموم والدوام . لذلك رأيت أن أعدّل عما نطّته في الطبعة الأولى من تقديم نصّها مكتفياً بتلخيصها . ولئن شاء أن يرجع للنص في «سلافة النديم»

٢ — سلافة النديم ٢ : ٣٣

صنوف المحن والغصب والنهب ، على أيدي (الطُّوَّافَة) و (مشايخ البلد) و (حكّام الخط) و (المديرين) . وبينما هما في هذه الحال إذ يطلع عليهما (الوطن) يندب أهله وأولاده ورجاله الذين تخلّوا عنه وقرحهم له . فيتصدى له الرجلان يسألانه في ازدراء - لقدارته ورثائته - ماذا يطلب من هؤلاء الذين يندبهم ؟ .. وأى شيء فيه يدعوهم إلى حبه والتعلق به ؟ ... فإذا طلب إياهما (الوطن) أن يعملّا على جمع الكلمة رأياً أنه يتعلق بالحال في بلد تفككت فيه عرى المودة ، وشغل كل واحد فيه نفسه . فإذا دعاهما إلى التعليم تعجبا من قوله متسائلين : وماذا يجدى التعليم ، وفقية القرية يتكلم كل يوم في الحلال والحرام ، بينا (شيخ البلد) يقطع جلود الناس بالسياط . ولا يسلم (الفقيه) نفسه من هذا المصير إن حدثته نفسه بالاعتراض ؟ ... فإذا علما أن المقصود بالتعليم هو إرسال الأولاد لمكتب القرية سخرامنه ، وقد ازدادا يقيناً ببلايته ، لأن أولادهما - بحمد الله - صحاح الأبدان ، وقد تعود الناس أن لا يرسلوا إلى الكتاب إلا العسيمان ممن يعدّون للارتزاق بتلاوة القرآن . فإذا أكثر الوطن عليهما وأثقل ، ردا عليه في استهزاء يعرفان بسطوة (ناظر القسم) الذي تحرس من رهبته الألسن ، وبالجاني (العصراف) جر جريوس الذي يضرب ويشمخ ، وبالحاجب التركي (القواص) الذي يرفس ولا يبالي أن يقتل بلا حساب ، متمنيان أن يطلع عليهما الساعة واحد من هؤلاء ليستمتعا بفصاحة (الوطن) في حضوره . فإذا طلب (الوطن) إليهما أن يشكّوا للحكومة من قسوة هؤلاء الظالمين وتجبرهم ، أظهر الخوف الشديد من لقاء (الحكّام) ، الذين ترتعد منهم الفرائص يوم يبلغهما أنهما مطلوبان للقاء أحدهم .

ثم يعرض علينا المؤلف لونا آخر في حوار يدور بين (أبو دَعْموم) و (أبو الزَّافِي) وهما من سكان الريف ، وبين (الحاج حسين) و (المعلم أبو العلا) وهما من سكان المدن ، يصور فيه كل من الطرفين ما يعاني من فوضى الحكم واستبداد الحاكمين . فساكننا المدينة يعددان صنوف الضرائب والمغارم التي لا تكاد تدخل

تحت حصر ، مثل (الشخصية وحب الوطن ، والطائفة ، والفقر ، والنضافة ، ونزوح الكنفقان) . فلا يكادان يفرغان من إحسانها حتى يعدد لهما ساكنات القرية من أمثالها عندهم ما يجعلها يحمدان الله على مصابهما . وذلك من مثل : (ضريبة المال والمقابلة والسدس ومصاريف الري والسهوم والمصلح والشخصية وعوايد البهايم والوطنية والأغنام والنخيل والدخولية) وذلك عدا ما يغرمه الفلاح من محاصيله كل عام في مثل : (عادة الحكيم والمهندس والمزين والشدات والطوائف وقواسة المدير وخدمه وسنوية الناظر وخدمه والدونة والسخرة) وما يخضع له بناته وأولاده وبهائمهم من ضروب السخرة وصنوف الإهانات من خدم الحكام وأولادهم ونسائهم . ويضاف إلى ذلك ما ينصب من غلات الفلاحين ودوابهم ودجاجهم نهياً للناهبين بين الأيدي التي تتناقله حتى يصل منه ما يصل - إن وصل - إلى أيدي الحكام الذين ينهبون باسمهم ما ينهبون . وجاني الضرائب (الصراف) مع ذلك كله يمر كل يوم فيأخذ ما يأخذه بلا حساب والضريبة باقية كما هي لم ينقص منها شيء . فإن ناقشه (الفلاح) أو اعترض أسكبه (شيخ البلد) الذي يرافقه قائلاً (أعفك أثبت مما هو مسطور في الدفاتر يا أسكع ؟ ...)

ثم استمع بعد ذلك إلى حديث (الوطن) مع (الحاج حسين) و (المعلم أبو العلا) حين يفاجئهما وهما غارقان في الحديث عن المقارنة بين الأوكار التي يحرق فيها (الحشيش) فيجفلان منه مذعورين . فإذا اطمأنا إلى أنه (الوطن) سألاه عن علة ما اعتراه من تغير وما صار إليه من سوء الحال . فيقول لهما إن أولاده هم سبب تعاسته . ويظل يبكي شقاءه ويندب أبنائه حتى يظن به (الحشاشان) الجنون ، ويضيقان بشكايته التي نفست عليهما مجلسهما ، فينصرفان عنه إلى متعتهما .

وقريب من هذا الحديث حديث رجلين آخرين من السادة المترفين ، وهما (السيد علي) و (السيد إبراهيم) . يتحدثان عن السررات والأفراح والولائم ، ويخوضان في ذكريات تافهة يتحدثان فيها عن جمال أحدهما في صباه وحب والد

الثانى له وقتذاك وتغزله فيه . ولا يقطع عليهما حديثهما إلا صباح الوطن :
« أين رجال الفتوة ؟ ... أين رجال النجدة ؟ ... » ، ويضيق به السيدان المترفان
ويلعنانه وجهه ولجأته وتنطعه ، إذ تعود أن يفسد عليهما مجالس المتعة بنعيته
حين ينوح على السابقين الأولين .

ويرى أحد السيدين - بعد ممانعة من صاحبه - أن يرأسه بسؤاله عن حاله ،
فيشكو إليه (الوطن) ما ابتلى به أبنائه من توالى وخمول انتهى بهما إلى التخلف
عن ركب العلم والمدنية . فيعجب السيد المترف لقول (الوطن) في إنكاره على
المصريين أنهم أهل مدنية ، مع ما هو معروف عنهم من الظرف وحضور البديهة
والدعابة .

فإذا صحح له (الوطن) خطاه وعرفه أن المدنية الحقيقية في نشر العلم وفتح
المدارس أجابه السيد المترف باستنكار بأن (المدارس) شيء لا يشتغل به
إلا النصارى . أما المسلمون فبحسبهم مكاتب تحفيظ القرآن . هي - بحمد الله -
ملأى بكل أعمى وكل كسبيح . فإذا أطال (الوطن) الكلام في تصحيح خطأ السيد
المترف ، نظر إلى صاحبه قائلاً الآن أدركت أنك كنت على حق حين عارضت
في حديثي مع هذا الشخص . فهو حقيقة " مخبول ذاهب العقل " . ويعودان
إلى ما كانا فيه من لهُو الحديث .

ثم يقدم عبد الله النديم بعد ذلك حواراً بين (الوطن) وبين صيادين من
أهل الإسكندرية ، لا يختلف في دلالاته عما مضى . ثم يلتقى (الوطن) باثنين من
المتخرجين في المدارس الأجنبية هما (عزت أفندى) و (مظهر أفندى)
- واحدهما مترجم في بعض القنصليات الأجنبية - فإذا هما يتحدثان عن الليالى
الصاخبة في دور الخلاعة والخمر ؛ ويتفاخران بما ينفقان فيها من مال ، في جل
تنخلها عبارات فرنسية . وإذا هما لا يعرفان للتعليم غاية إلا تحصيل لقمة العيش
من أى وجه ، ولا يفكران إلا في المتعة وفي الابتعاد عن المنغصات ، ولا يريان
ما سوى ذلك مما يدعو إليه (الوطن) من ضروب الجد إلا سخفاً واشتغالاً بما
يملا الحياة هما وحزناً .

كذلك صور عبد الله القديم حال الناس قبيل الثورة العراقية ، لا يدركون من المصالح إلا الداني القريب الذي يمس أشخاصهم ، ولا يعرفون من المتع إلا أدناها مما يتصل بملذات الجسد ، ولا يرسلون أبناءهم إلى مدارس القرية (السكتاتيب) إلا أن يكونوا عمياناً يرزقون بقرارة القرآن . وهم بعد ذلك مستكينون لما يقع عليهم من الظلم ، لا يكادون يطعمون في دفعه . ولذلك فهم يمشون في ذوات أنفسهم ، وفي أضيق حدود الجماعة التي لا تتجاوز نطاق الأسرة ، لا يعينهم شيء مما يجري من حولهم ، لأنهم يعرفون أن ذلك لا يتصل بهم ولا يغير من الواقع المر البائس الذي هم فيه شيئاً . ذلك شأن الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون . أما المرزوقون ممن أتاحت لهم وسائل العيش ؛ فهم لا ينظرون لمن حولهم ممن ابتلى بالوان المحن إلا ليحمدوا الله على ما رزقهم من خير وما كفاهم من شر . وهم يملأون الفراغ المل من أعمارهم الضائعة بالسهرات وبالآحاديث التافهة في مجتمعاتهم وفي ندواتهم ، ويقتلون البقية الباقية من أحاسيسهم ويقطعون - إن كان فيها بقية - بطلب ما يغييهم عن شعورهم من ألوان الخور والمخدرات ، وقد أعجزتهم اللذة في اليقظة فهم يلتمسونها في أحلام المخمورين وخيالات المخدّرين . لا يميز الجاهل من المتعلم إلا أن الثاني يدير لسانه بألوان من الرطانة يحشرها في كلامه ، ويتخذها عنواناً للكياسة والظرف والتدبّن ، ويظن أنها تميزه عن غيره ممن لا يعرفها .

* * *

ومرت الثورة العراقية في حياة الناس سريماً وكأنها لم تسكن ، فعادوا إلى بأسهم أبلغ ما يكون اليأس ، وإلى انطوائهم أشد ما يكون الانطواء ، ينظرون من حولهم دون اكتراث ، وكان الأمر لا يعينهم في شيء . ولم يكن يقتظر من هذه حالهم إلا الاستسلام المطلق ، وإلا الإسراع لاستقبال الخديوى الظافر عند عودته للقاهرة بمثل ما استقبلوا عرابي الظافر من قبل . تابعوا الشوارب مهودين بحجراتهم ماخوذون بصفيحهم الذي لم يكن يخطر لأحد ببال . فلما انهزموا تركوهم لمصيرهم

المؤلم كما يقول البارودى .

ودنا جميعاً ، فلما وقعتْ منْ صبرتْ وغادرنى معشرى
واستأنفوا حياتهم كأن لم يكن مما كان شىء .

وأدرك العقلاء والراشدون أن تهذيب الشعب وإصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى فى سبيل أى نهضة . فأخذوا يكشفون عن مواطن الضعف والمرضى فى حياتنا وينهون إليها فى أين الواعظ المشفق على قومه ، الحريص على هدايتهم حيناً ، وفى عنف المغيظ المحقق الذى غلب عليه اليأس من الإصلاح والضيق بالفساد حيناً آخر . وكان من أثر ذلك أن ظهر فى أوائل القرن العشرين لون من الأدب الواقعى الذى يرتبط بالحياة أشد الارتباط ، ويستمد موضوعاته مما يجرى من حوله ، فاحتل مكاناً بارزاً بين الفنون الأدبية المختلفة . وطالعنا كثير من القصائد والمقالات الهجائية التى تطلب المجتمع بسياط النقد ، وتهاجم معاييه ، وتهكم بأساليب حياته الفاسدة . فمن ذلك قول الكاشف فى وصف : باء الكوليرا الذى اجتاح مصر سنة ١٩٠٢ ، مصوراً فتكه بالناس ، وتغشيه تقيجه للجهل والاستسلام وانتشار الخرافات وسوء فهم الناس وتفسيرهم لمعنى التوكل على الله والرضا بقضائه (١) .

وكم ليل قضيتُ حليفَ وجد	وسهد فى الضراعة والصلاة
فإن أغفيتُ نَبْهَنى خيفاً	صياحُ الثاكلات الباكيات
فمن أم مضى عنها بنوها	ومن أم أصيبت فى البنات
وهذا كان لى جاراً وفيأ	وكانت تلك لإحدى التابعات
فأحسب أننى فى الظهر مَيَّستُ	لذا أبصرتُ ميتاً فى الغداة
وذى هوسٍ بقول لقيت ليلاً	شياطين المنابا الدارات
بأيديها سيوف لامعات	كلع عيونهم المتوقدات
... وما حيل الحكومة فى مغير	به وجد البلاد مرحبات

إذا ما طاردته في مكان
وكان له من الأملين عون
تساوى عندهم تقطيع وضر
إذا لاقتوا الأطباء استعاذوا
وأبدوا للعقاقير احتقارا
وقالوا: في منازلنا دعونا
وإن لنا من الدايات عنكم
ولولا غفلة العلماء عنهم
إذا استهدوهم قالوا: استعينوا
نرى أن لا فرار من المنايا
وما العدوى، وإن تقموا علينا
وإن نك نعمة فقد احتمينا
وإن لنا على الله اعتمادا

رأت منه مِرَّاس الرامحات
علينا، فهو موفور الثبات
فما عرفوا الحُيَّة من العُدَّة
وخاضوا في الظنون السيئات
وظنوها سموما مهلكات
فإن الموت في المستشفيات
غنىَّ لعلاجنا ومن الرقاة
لما تركوا الوسوس غالبات
بصبر واخضعوا للكارثات
فتمزأ بالدواء وبالأساة
سوى وحتم النفوس الحائرات
بأسرار البخاري الشافعات
وأسياباً إليه واصلات

ومن ذلك قول حافظ إبراهيم، من قصيدة له في الحرب اليابانية سنة ١٩٠٤،
يصور بأسه من إصلاح المجتمع الذي شاعت فيه روح الانحلال والتخاذل
والنفعية (١):

أنا لولا أن لي من أمتي
أمة قد فت في ساعدها
تعشق الانقلاب في غير العلا
وهي، والأحداث تستهدفها
لا تبالي لعب القوم بها
وقوله من قصيدة أخوى (٢):

خاذلا ما بت أشكو الذنوبا
بغضها الأهل وحب العُربا
وتنفدني بالنفوس الرتبا
تعشق اللهو وتهوى الطربا
أم بها صرفُ الليال لعبا

سكتُ فأصغروا أدبي وقلتُ فأكبروا أربي^(١)
وما أرجوه من بلد به ضاق الرجاء وبني ؟ ...
وهل في مصر مفخرة سوى الألقاب والرتب ؟
وذى إرث يكثُرنا بمال غير مكتسب
وفى الرومى موعظة لشعب جدد فى اللعب
يقتلنا بلا قودٍ ولا دية ولا رهَب
وبمضى نحو رايته فتحميه من العطَب^(٢)
فقل للفاخرين : أما لهذا الفخر من سبب ؟
أرونى بينكم رجلا رَكِيناً واضحَ الحسب
أرونى نصف مخترع أرونى رُبْعَ محتسِب^(٣)
أرونى نادياً حَفِلاً بأهل الفضل والأدب
وماذا فى مدارسكم من التعليم والكتب ؟ ...
وماذا فى مساجدكم من التبيان والخطب ؟ ...
وماذا فى صحائفكم سوى التمويه والكذب ؟
حصائد السُنِّ جرَّت إلى الولايات والحَرْب
فهبوا من مراقدم فإن الوقت من ذهب
فهذى أمة اليابا ن جازت دائرة الشهب
فهايت بالعلا شغفا وهيمنا بابنة العنَسب

ويقول محرم مصوراً انشغال كل رجل بنفسه وبتحقيق مصالحته ،

أسباب الثروة والجاه : لا يبالى شيئاً غير ذلك : ^(٤)

أكل^٤ امرئ فى مصر يسعى لنفسه ويطلب أسباب الحياة لذاته ؟ ...

١ — يقول إنه سكت حين اتاهه اليأس ؛ فلامه الناس لسكونه فلما تكلم أكبر الناس مايقول ،

وظنوا أن ما يطلبه شيء كبير لا سبيل لتحقيقه . ٢ — يشير إلى الامتيازات الأجنبية .

٣ — يقصد بالهتفب أخير يشنون المال والاقتصاد ٤ — الديوان ٣ : ٤٦ - ٧٧

طروبُ الأمانى ما يبالى بشعبه
يرى نفسه فوق الملائك عفة
إذا قال ما يرجوه لم يعتنه امرؤ
يظل كأن الحق يتبع خطاؤه
سواء عليه منزل السخط والرضى
يرى الدين والدنيا ثراءً يصديه
يفوق الصلاب الصم إن سيم نائلاً
ويجهل ما يدرى الصبى ، ويدعى
ويأتيك بالأخبار يزعم أنها
ويحلف ماداحى ولا خان صاحباً
لعمري لقد مارست دهرى وأهله
وإن ملاً الدنيا ضجيج نعاته
وقد ضجت الجئسان من فتكاته
سواء ولم يحفل بطول شكاته
إذا سار يبغي الغنم فوق رفاته
إذا قال ما يرضيه من شهواته
وقصر آتول العين عن شرفاته
ويعتد لج البحر من حسناته
من العلم ما يفسيك ذكر ثقاته
بقية وحى وهى من نزعاته
وقد عب سيل الغدر فى لحظاته
فأربت مساوهم على نكباته

رأى بعض رجال السياسة أن الاحتلال هو أصل البلاء ، وأن مصر لن
تصبح لها نهضة إلا بإجلاء العدو الجائئ على أرضها ، المتحكم فى أرزاق أهلها وفى
مصائرهم ، والذي يعترض كل حركة حقيقية تهدف إلى النهضة . ورأوا أن الجهود
يجب أن تنصرف إلى محاربته ، فإذا حققت هدفها من الجهاد بإجلائه فكل شيء
بعد ذلك سهل يسير . ورأى آخرون أن يبدؤوا بإصلاح المجتمع المصرى وأفراده ،
لأن ما انتاب مصر من تفسك وانحلال ، وما فتك بأهلها من أدواء ، لم يحى
— فى رأيهم — نتيجة للاحتلال ، بل إن الاحتلال هو الذى كان من نتائجه وآثاره .
فلاحتلال عندهم ليس هو علة هذا التأخر وإن كان من المسلم به أنه يضع العراقيل
فى سبيل التقدم ورأوا بعد ذلك أن جمع الناس على كره المحتلين لا سبيل إليه .
فالعدو قوى متحكم موفر العدة . والناس فى بأسهم واستسلامهم لا يعنهم إلا
ما يمس أشخاصهم ، لأنهم يدركون أن ما يصيب مصر من خير أو شر لا يصل إليهم

منه إلا الضرر ، وإنما خيره كله لمن كانوا يسمون أنفسهم أصحاب المصالح الحقيقية .
ومن ليس له في مصر مصلحة كيف يمكن أن يحس مصريته ويدافع عنها ويقتل
نفسه في سبيلها ؟ ...

ولقي الذين يسعون إلى الإصلاح تشجيعاً من كرومر ، لأن هذا الإصلاح
يحقق له هدفين . فهو يشغل الرأى العام بما يطرح على بساط البحث من مسائل
وما يثار من مشا كل فينصرف عن الانسياق في تيار الكراهية للاحتلال
الإنكليزي التي كان يذكي نارها الحزب الوطني الثائر . ثم إن الإصلاح يدعم في
الوقت نفسه حجة الاستعمار في أنه دائب على العمل لترقية مصر وإصلاحها .
ويقدم لكرومر مادة جديدة لفخر جديد يضيفه إلى تقريراته السنوية التي كان
يتشدد بها ، بما تم في عهده من إصلاح . وهو قادر دائماً على أن يضع حداً
لما يراه خطيراً وضاراً بمصلحة دوائه مما لا يروقه من وجوه الإصلاح ،
لا تعوزه الوسائل في صرف الناس عنه بالحيلة أو العنف .

لذلك أطلقت حرية الصحافة في الكلام عن عيوب المجتمع وآفاته ووسائل
علاجه . وطرح على بساط البحث كثير من المسائل ، واحتد النقاش حول
بعضها . وبرز بين المصاحين طائفتان متميزتان تغاير إحداهما الأخرى ، طائفة
تدعو إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وطائفة أخرى تدعو إلى الاحتفاظ
بتقاليدنا الإسلامية والشرقية .

ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة ، فكان أنصار الجامعة القومية يمثلون
الفريق الأول ، وكان أنصار الجامعة الإسلامية يمثلون الفريق الثاني ، وظهرت
في الأدب وفي الفن ، فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوروبيين . وكان
هناك فريق آخر يستمد قيمة من قديم العرب ومن تقاليد الشرق . وظهرت في
التعليم ، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوروبية ،
ومدارس أوروبية للجات الأجنسية ، أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين ، وكان
إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها .

وظهرت في المجتمعات وفي سائر شئون الحياة ، فكان هناك مجددون - أو مقلدون للغرب إن شئت - يبعثون إلى الناس قديمهم وتراثهم ، ويصرفونهم عنه داعين إلى مسيرة العصر والآخر بكل مستحدث طريف ، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي آداب الاجتماع وفي أساليب العيش وأنماط الحياة .

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض في الحياة المصرية ، التي جمعت بين المحافظة المترزمة ، وبين التطرف في الآخر بأسباب المدنية الغربية ، وبين التوسط الذي يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب . وبدأ هذا التناقض في قصر الحديوى عباس ، وسرى منه إلى بيوت الأغنياء والمترفين . فكان عباس يحتفل في قصره بشهر رمضان احتفالاً عظيماً . فيدعو إلى مائدته مختلف الطوائف ، ويحضر مع حاشيته دروس التفسير منذ السنة الأولى لحكمه ^(١) . ولكنه كان يقيم مع ذلك حفلاً راقصاً في عابدين كل عام منذ سنة ١٨٩٥ ، يمتد فيه السهر إلى الصبح ، وكان يسمى (ليلة البللو) ^(٢) . وقد حجج عباس مع والدته إلى بيت الله الحرام سنة ١٩٠٩ ^(٣) . ولكنه كان يسافر مع ذلك في رحلة طويلة إلى أوروبا كل عام . وقد وضع أثر هذا التناقض في شعر شوقي . شاعر القصر . فتجاوز في ديوانه وصف المرقص والخمر ، مع مدائح الرسول وتمجيد الإسلام ^(٤) .

* * *

كان قوام الدعوة إلى الآخر بأساليب الحضارة الغربية عدداً من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين ، بعضهم من الشآميين المسيحيين الذين استقروا في مصر ، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم

١ - مذكراتي في نصف قرن ٢ : ٢٨ .

٢ - المرجع السابق ٢ : ٢١٣ .

٣ - المرجع السابق ٢ ب : ١٨٩ ، ١٩٠ .

٤ - راجع أمثلة لوصف حفلة البللو في ديوان شوقي ج ٢ ص ٨ - ١٢ (أثر البال في البال) ،

١٣ - ١٧ (مرقص) - شوقي شعره الإسلامى : الفصل الثانى (رسالة للماجستير للسيد ماهر حسن فهمى - مخطوطة) .

في أوروبا أو في المدارس الأوروبية ومدارس الإرساليات الدينية التي كان عددها في ازدياد مطرد (١).

أما الشاميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي . وكانت صحيفة « الأهرام » تمثل الاتجاه الأول ، بينما كان « المقطم » و « المقتطف » يمثلان الاتجاه الثاني . وكانت هذه الصحف — والصحيفة الأخيرة منها بنوع خاص — دأبة على تعريف المذاهب الغربية في الفلسفة والأدب وسائر ضروب الثقافة ، لا تكاد تشير إلى شيء من قديم الشرق وتراثه الفكري . وكانت تترجم لعظماء الرجال من الغربيين ، ولا تكاد تجد فيها ترجمة لرجل من أبطال الإسلام أو الشرق أو مصر في تاريخها الحافل الطويل . كما كانت تعمل من طريق خفي على إضعاف النعرة الدينية والوطنية بما تنشر من آراء تشكك في العقيدة ، وبما تدعو إليه من نزعات عالمية لا يرادها — في حقيقة الأمر — إلا تقريب الفوارق بين المصريين وبين أعدائهم الذين يمتصون دعائهم والذين يحتلون ديارهم . لكي يسكنوا إليهم ويألفوهم ، من مثل قوله في مقال عنوانه « الناس إخوة » (٢) :

« وامتزاج الأمم من أقوى الوسائل الطبيعية لتربيتها وإضعاف خلق الأثرة والتباغض وتقوية خلق الإيثار والتواد فعل الذي يهتمون بإصلاح نسل الإنسان وترقيته جسداً وعقلاً أن يسعوا في إقناع أبناء نوعهم أنهم وسائر الناس من طينة واحدة ، ولا يمتاز بعضهم على بعض إلا بالفضائل المكتسبة . وإن كانت الأديان قد فرقت بينهم فيما مضى فعلى زعمائها أن يزيلوا أسباب التفريق الآن . وإن كان رجال السياسة يسعون إلى إحكام أسباب العداء بين أمة وأمة وشعب وشعب ،

١ — يراجع في مدارس الإرساليات الدينية والجاليات الأجنبية الفصل الثاني من الكتاب الخامس في (تاريخ التعليم في مصر) ٢ : ٨٢٦ — ٨٧٥ .

٢ — المقتطف عدد سبتمبر سنة ١٩٠٩ ص ٨٢٧ — ٨٢٩ ، ومن المعروف أن فارس باشا عمر كان ماسوياً ومن مبادئ الماسونية الأساسية إلقاء العصبية الدينية والوطنية حتى لا يبقى في العالم إلا العصبية اليهودية ديناً وقومية . (راجع فضائل الماسونية لثامين بك مكاريوس ص ٥٥ — ومؤلفه من كبار الماسون وهو زوج أخت فارس عمر باشا) .

فعلى علماء الاجتماع أن يحبطوا مساعيهم ويسفوها آراهم . وعلى رسل الخير دعاة الأديان أن يجعلوا غرضهم الأول التعليم بأن الله صنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض .

ولا يخفى أن الكلام لا يفيد عشر ما يفيد العمل ، وأنه إذا كان عمل المعلم مخالفاً لتعليمه ذهب تعليمه أدراج الرياح . فالمبشر الذى يعلم أن الناس من دم واحد ويقاطع أخته أو ابنته إذا تزوجت رجلاً أجنبياً لمجرد كونه من غير أمته ، ينقض بعمله كل ما يقوله بلسانه ، ويثبت للملأ أنه جاهل لا يفهم معنى ما يعلم به ، أو منافق يظفر الإيمان ويبطن الكفر .

ولامثل الزواج بين الأمم لتمكين عرى الاتحاد ، فضلاً عن تقوية الفسل... فإباحة الزواج بين الأمم المختلفة والترغيب فيه خير واسطة تربط الشعوب . وإذا سلمت من التباغض الدينى والمذهبى وكان العفاف عنوانها ربطت أمم العالم أجمع ، وأصلحت ما عجزت عن إصلاحه الشرائع والسنن . ولكن اختلاف الأديان — وجعل هذا الاختلاف مصلحة من مصالح المنتفعين به — يبقى فاصلاً بين الأمم وسداً منيعاً يمنع اتصالها .

والواقع أن مثل هذه الدعوات التى تنادى بالإخاء البشرى تمس قلوب كثير من الناس لأنها تناجى أقدس ما فى الإنسان وأطهر ما تنطوى عليه فطرته . ولكنها تؤثر أكثر ما تؤثر فى الأمم الضعيفة ، وفى نفوس الشباب البرىء منها بنوع خاص ، لأن الضعيف وحده هو الذى يحلم بالعطف والرحمة . أما القوى فهو لا يتحدث إلا عن الفتح والغلبة . وهو يروج هذه الدعوات بين الضعفاء وهو أولى الناس بأن تستيقظها نفسه . وليس بين دعوات المبطلين شيء يشبه الحق ويلتبس به فى الأفهام كهذه الدعوة إذا انتشرت بين الضعفاء الواقعين تحت عدوان الطامعين وأذى المعتدين . فقد سبقت إرادة الله (سبحانه) وهو الفعّال لما يريد ، واقتضت حكمته وهو العليم الخبير ، أن يكون التنافس بين الأفراد والجماعات هو سبيل التقدم . ولذلك خالق الناس شعوباً وقبائل وجعلهم شيعاً وأحزاباً . ولو شاء

جعلهم أمة واحدة . ولو شاء لجمعهم على الهدى . ولكن ايلو بعضهم ببعض ،
وليجد الضعيف نفسه مدفوعا إلى استكمال قوته وحشد كل ما أوتي من مواهب
ومسكات حتى يتخلص من ظلم القوى . ولينظروا المساكين خلال كفاحهم من
الضعف ومن تحكم الشهوات ، قدسوا نفوسهم ، وبرز فيهم أشرف ما تنطوى
عليه البشرية من عناصر الخير والكمال . ولا يزال الناس في كفاح وجهاد ، وفي
تنافس يستهدف التفوق وبلوغ الكمال ، حتى يفنى من وجه الأرض كل ضعيف
وينمحى كل مترف فاسق وكل ضعيف متهافت من الأفراد والجماعات والمذاهب .
وحتى لا يكون على ظهرها إلا كل قوى صالح من المذاهب والأمم والأفراد :
(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا
مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ...)

ذاك هو مادعانا إلى أن نقول في مقال المقتطف السابق إنه لا يستهدف
إلا ترويض المصريين ، وتمكين الفارس الإنكليزي من مطيته الجائحة بعد أن
تسكن وتسلس القياد .

أما المصريون من الداعين إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فقد كانوا
من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة حين عاشوا في البلاد الأوروبية
أو نشئوا في مدارسها المنبثة في أنحاء الشرق واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من
ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد ، فهم
يعرفون عن رينج إنجلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب
وه يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوروبية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر مما
يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي وهم يعرفون أعلام الفكر الأوروبي وشعراهم
ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلا . وهم بعد ذلك
يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا
إلى بعض المربيات الأجنبية تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم . وبذلك توثقت
العلاقات الثمافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب ، بينما فترت العلاقات الروحية

والمادية بينهم وبين الشرق والإسلام ، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقرن في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، وبذلك الأخلاط من حالة الناس الذين يفترون الجمل والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين ، فهو لا يصاح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين .

يقول كرومر : إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ؛ ولكنه فاشل كنظام اجتماعي . فقد وضعت قوانينه لناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، ولكنه مع ذلك أبدى لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني . ويعد كرومر ما يراه من معاييب الإسلام فيقول بأنه يحرم المرأة من كل حقوقها ويعتبرها أخط من الرجل ، وأنه يبيح الرق ، وأنه دين متعصب متطرف يبيح لاتباعه أن يتخذوا المخالفين لهم في العقيدة أسرى حرب ورفيقا ، ويكفر كل من لا يعتقد برسالة محمد ^(١) ، ويجعل من أتباعه جماعة من أنصاف الهمج المحبين للحروب والذين لا تنسع صدورهم لأي تسامح ، فهم لا يفهمون أن الخلاف في الرأي ليس موجبا للكرهية والحققد . ثم يأخذ كرومر في مقارنة بين المسيحية والإسلام يحاول أن يبين فيها صلاحية المسيحية للعصر وتفوقها ، ويوازن بين أسلوب الشرق وأسلوب الغرب في الحياة والتفكير ، يحاول تحقير أسلوب الأول وتسفيهه ، فالشرقيون أسرع الناس إلى تصديق الشائعات . وهم يتملقون من فوقهم بنفس القدر الذي ينتظرون فيه الملق بمن هم دونهم ، وهم لا يكثرثون للمستقبل ولا يتبصرون في العواقب ولا يدبرون شيئا لمن يتركونهم من خلفهم ، وهم يدسون في الخفاء ولا يعملون في الضوء ، نتيجة للعصور المتوالية التي عانوا فيها من الاضطهاد .

وهم يؤمنون بالقضاء والقدر ، وبدفهم إيمانهم هذا إلى الرضوخ المطلق لكل
ذى سلطان (١) .

هذا نموذج مما كان يكتبه ساسة الغرب ومفكروه عن الإسلام والمسلمين .
تستطيع أن تلتمس له نظائر في مثل مقال هانوتو الذى رد عليه محمد عبده في مقالاته
المشهورة سنة ١٩٠٠ (٢) . وقد انتهى هؤلاء الغربيون تفكيرهم إلى أن الإسلام
والتقاليد الإسلامية وأسلوب الشرق في حياته وتفكيره — وهو يختلف اختلافاً
بيداً عن أسلوب الغربى — كل ذلك يحول دن إيجاد علاقة مستقرة بين الشرق
والغرب ، ويجعل مركز الغربى المستعمر فى الشرق دقيقاً محفوفاً بالخطر ، ويحوجه
إلى أن يقف على حمايته بقوة دائمة يقطعة . لذلك كان كرومر يحاول ابتداء روابط
صناعية مفتعلة لكي تسد النقص الناتج عن اختلاف العقيدة والجنس واللغة
والعادات والتفكير ، وهى الروابط الأساسية للاتحاد والتعاون بين الحاكم والمحكوم
كما يقول . ومن بين ما اقترحه فى هذا الصدد أن يكون هناك نظام مدبر لعرض
وجهاً النظر التى تبدى عطفاً معقولا على المصريين ، عن طريق أفراد من
المشتغلين بالسياسة الشرقية ، لا عن طريق الحكومة . وكان يؤمل من وراء
ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة من الحكمة وسعة الأفق — حسب تعبيره —
ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص فى تعاون مع الأوروبيين الذين يعطفون عليهم ،
حتى يستطيعوا متعاونين وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للإسلام
المتدين الذى لم يعد صالحاً لهذا الزمان حسب زعمه (٣) .

كل ذلك يعلل لنا ما كان يحذ هذا النفر من المفكرين الذين يحتذون أساليب
الحياة الغربية من تشجيع ممثل الاحتلال فى مصر ورضاه . وقد قرر كرومر

١ — Modern Egypt ٢ : ١٣٤ — ١٥٤ ، وقد فند روتشتين هذه المزاعم فى كتابه

Egypt Ruin ص ٣١١ — ٣١٢ من الترجمة العربية .

٢ — راجع ترجمة مقال هانوتو فى تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤٠٩ — ٤١٤ . وراجع رد

محمد عبده ٢ : ٤١٥ — ٤٦٨ .

٣ — Modern Egypt ٢ : ٥٦٩ — ٥٧٠ .

في كتابه عن عباس الثاني أن المسلم غير المتخفق بأخلاق أوروبية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوروبية^(١) وهو - مع ذلك - يعترف بأن المتفرنجين من المصريين - وكثرتهم في رأيه من المسلمين - لم يقشروا روح الحضارة الأوربية ولم يدركوا إلا قشورها. وهم بذلك قد فقدوا أحسن ما في الإسلام وأحسن ما في المدنية الأوربية كما يقول. فهناك فرق - في رأيه - بين المتحررين في أوروبا وبين من أطلق عليهم هذه التسمية في مصر. فأحرار التفكير الأوروبيون ينسجمون مع من حولهم من المسيحيين ولا يعادونهم. بل هم لا يختلفون عنهم في أسلوب حياتهم وتفكيرهم العملي. أما الذين يسمون أنفسهم أحرار التفكير في مصر فهم يختلفون مع بني جلدتهم من المتدينين ويحتقرونهم ولا يدركون المدنية الغربية إلا إدراكاً سطحياً. فهم لا يعرفون عنها إلا أنها تؤمن بالمادة وحدها. يقرر كرومر ذلك، ولكنه يقول مع هذا إن المتفرنجين من المصريين. إذا قيسوا إلى مواطنهم، كانوا أصلح الناس للتعاون مع الإدارة لإنجليزية^(٢).

ذلك شأن السابقين الأولين من المصريين الذين دعوا إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية. ولكن هؤلاء الدعاة قد استطاعوا على مر الأيام أن يكسبوا أنصاراً من الشباب والمفكرين الذين كانوا يطمحون إلى القوة، ويتوقون إلى النهضة بوطنهم ويرون أن الخير أن نستفيد بتجربة الغرب ونسلك الطريق الذي سلكه في سيره من الهمجية إلى المدنية، ومن وهدة الضعف إلى قمة المجد،

١ - عباس الثاني ص ٦٧ وراجع كذلك ملجاء في تقريره السنوي عن سنة ١٩٠٦ مناسبة تعيين سعد زغلول وزيراً للعارف حيث أكد هذا المعنى (ص ٨ من الفقرة ٣ تحت عنوان

Egyptian Nationalism.

٢ - Modern Egypt ٢ : ٢٢٨ - ٢٣٢. والمقصود بأحرار الفكر أو التحررين هم معتقو مذهب ال Liberalism الذي لا يتقيد أصحابه بالعقائد والآراء السائدة؛ دينية كانت أو غير دينية، وهو مذهب يرتبط أصحابه في الغرب بقيم العدالة والإنسانية مفهوماً أحاط عند الرومان واليونان الوثنيين أكثر من ارتباطها بالقيم المسيحية.

ولا يرون في ذلك بأساً على الإسلام والمسلمين

نظر بعض هؤلاء المفكرين إلى الشرق في تأخره من بعد عزة وغلبة ،
وإلى الغرب في تفوقه من بعد ذل وقلة ، فحيل إليهم أن السبيل إلى نهضة الشرقيين
هو أن يأخذوا بأساليب الغربيين في الحياة والتفكير ، وأن يقتدوا بهم أو
ينافسهم كما يقول حافظ إبراهيم في قصيدته التي ألفها في حفل كلية البنات
الأمريكية بمصر سنة ١٩٠٦ (١) :

أى رجال الدنيا الجديدة مدوا	لرجال الدنيا القديمة باعا
وأفيضوا عليهم من أيادي	كم علوما وحكمة واختراعا
... ليتنا تقتدى بكم أو نجارب	كم عسى نسترد ما كان ضاعا
إن فينا لولا التخاذل - أبطا	لأ إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولوا	ها لماضت غرابة وابتدعا
ودعاة للخير لو أنصفوهم	ملأوا الشرق عزّة وامتعا
... قد مللنا وقوفنا فيه نبيكي	حسباً زائلا ومجداً مضاعا
وسمنا مقالهم كان زيد	عقربا وكان عمرو شجاعا
ليت شعري متى تنازع مصر	غيرها المجد في الحياة رزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأح	ياء نخرا في الخافقين مذاعا

ونادى هؤلاء المفكرون بأن استبداد الحاكمين بالمحكومين هو السبب الأول
في انكماش الناس وانطوائهم على أنفسهم جيلا بعد جيل ، حتى انتهى بهم الأمر إلى
ما هم فيه من تخاذل وتواكل وفقر ، وأن هذا الاستبداد قد أفسد الدين وقتل
كل فضيلة ، قتل العلم ، وقتل الطموح ، وقتل الأخلاق ، وأفقد الفرد ثقته بنفسه
فأصبح آلة صماء لا يتحرك إلا أن يحركه محرك . وقالوا إن صلاح الأمة بصلاح
الفرد ، وأن الفرد لا يصلح حتى يتخلص من أسر العبودية ورق الاستعباد . وتشكّل

له الحرية في أن يقول ما يشاء وفي أن يفعل ما يشاء . وذهبوا إلى أن أوربا لم تحقق نهضتها إلا بتهييد قوى الحاكمين ، وأنها قد وضعت لذلك نظاما يحقق سيطرة الشعب وولايته على شئونه عن طريق الدساتير الحديثة والمجالس النيابية . فلمشط الأفراد للعمل حين عرف كل منهم قدر نفسه . وحين تحمقوا أن ثمة جهودهم لا تعود إلا عليهم ، ولا يتصرف فيها الحاكم إلا برأيهم ، ولا ينفعها إلا فيما يرون أنه عائد عليهم بالنفع والخير . عند ذلك قال هؤلاء المصلحون . لماذا لا يكون للمصري أو المسلم أو الشرقي مثل هذه الحرية ؟ ولماذا لا ينعم بمثل هذا النظام ؟ ولماذا لا يدخل النهضة من الباب الذى دخلت منه أوروبا ؟

ولم جانب ذلك كله فقد كانت الحياة الأوربية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة لا تنى ولا تقتر . فتأسست شركة التليفونات الإنجائزية سنة ١٨٨٤ ؛ (١) وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ وافتتح أول خط للترام سنة ١٨٩٧ . ثم أنشئ البنك الأهلى ومنح امتياز إصدار الأوراق المالية سنة ١٨٩٨ ؛ (٢) وافتتحت الخانات فى كل مكان ، حتى تغلغت إلى الريف وإلى أحياء العمال (٣) وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة فى كل العواصم . وتجراً الناس على ارتكاب الموبقات والجهربها باسم الحرية الشخصية التى لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد ، لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة .

وتجلى أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوروبى فى دعوات كثيرة ، برزت من بينها ثلاث دعوات كبيرة شغلت رأى العام فى مستهل القرن العشرين . أما الدعوة الأولى فقد كانت تطالب بكفالة الحرية الشخصية ، وبالحياة النيابية كما عرفت فى الأمم الغربية الحديثة . وأما الدعوة الثانية فقد كانت تطالب بتحرير المفكرين من سلطة رجال الدين ، وذلك بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية ،

١ — مذكراتى فى نصف قرن ١ : ٢٦٣ .

٢ — المرجع نفسه ٢ : ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٦٢ .

٣ — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال ١٨٩٠ .

على النمط الذى قامت عليه النمضة الأوروبية الحديثة بعد التخلص من نفوذ الكنيسة ، وتطالب من رجال الدين أن لا يقحموا الدين فى شؤون الحياة ، لأنهم يرون أن الدين لا ينبغى أن تتجاوز دائرة تقيده تنظيم صلات المخلوق بالخالق ، أما تنظيم صلات الناس بعضهم ببعض فينبغى أن يترك للعامة وللمتخصصين فى شتى فروع المعرفة . وأما الدعوة الثالثة فقد كانت تنادى بتحرير المرأة — حسب تعبيرهم — وتزعم أن الحجاب قد حال بينها وبين أن تكون عضواً نافعاً فى الحياة ذا أثر فى المجتمع ، على النحر الذى بلغته المرأة الأوروبية .

* * *

أما الدعوة إلى الحرية فقد شملت العصر كله ، وكانت الأمنية التى يحلم بها الكتاب والشعراء ، لم يكذب يخرج منهم أحد على هذا الإجماع . كانوا يطالبون بحرية الفرد فى أن يفعل ما يشاء ، وفى أن يعبر عن رأيه وينشره كيفما أراد ، وفى أن يدعو إلى الاجتماعات والتدوات التى يروج فيها لمذهبه دون قيد . وكان دعاة الحرية فى كل مكان متأثرين بالثورة الفرنسية خاصة ، وبآراء مفكرىها وزعمائها . فالحرية — كما هو معروف مشهور — هى أحد أركان الشعار الثلاث الذى اتخذته هذه الثورة ، وهو : (الحرية — الإخاء — المساواة)^(١) . وأما المطالبة بالحياة النيابية فقد تزعمها مصطفى كامل ومن انضوى تحت لوائه من الكتاب والشعراء ، ولم يزالوا ينفخون فيها من روحهم حتى تقدمت الجمعية العمومية فى مارس سنة ١٩٠٧ بمطالب غاية فى الجرأة ، كان من أهمها طلب دستور وبرلمان^(٢) ثم نقل كرومر على أثر حادث دنشواى سنة ١٩٠٧ ، وقامت من بعد ذلك الثورة التركية ، وصدر الدستور العثمانى فى يوليو سنة ١٩٠٨ ،

١ — وهذا الشعار هو شعار ماسونى فى الوقت نفسه . بل هو قد انتقل إلى الثورة الفراعنة عن طريق زعمائها من اليهود والماسون . والكلام فى ذلك يطول ويحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه راجع كتاب (فضائل الماسونية) ص ٤ ، ٤٩ ، ٨٩ ، ١٢٣ .

٢ — روليتين ٣٤٥ ، محمد فريد ٥٦ .

فكان لذلك أثر عظيم في تشجيع المطالبين بالحياة النيابية على المضى في جهادهم .
فقرر مجلس شورى القوانين في جلسته التي انعقدت في أول ديسمبر سنة ١٩٠٨
أن يضم صوته إلى صوت الجمعية العمومية في المطالبة بالحكم النيابي رغم معارضة
الخدوي ومثل الاحتلال (١) .

وقد قدمت في الفصل الرابع بعض نماذج من الشعر والنثر في هذا الصدد .
ولكني أحب أن أشير هنا إلى كتاب ظهر سنة ١٩٠١ وكان قد نشر من قبل
مفرقا في أعداد سنة ١٨٩٩ من صحيفة المؤيد . كان هذا الكتاب من أجراً
ما كتب في الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية ، وفي محاربة الاستبداد
وبيان أثره السوء في شتى نواحي المجتمع ، علمية وخلقية ودينية واقتصادية
وعمرانية . ذلك هو كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ،
للكواكبي » (٢) .

يقول الكواكبي في أثر الاستبداد في إفساد الأخلاق ، مبيناً أن الإنسان
يمتاز بالإرادة ، والاستبداد يفقده الإرادة (٣) .

« لا تكون الأخلاق أخلاقاً ما لم تكن مطردة على قانون ، وهذا ما يسمى
عند الناس بالناموس . ومن أين لأسير الاستبداد أن يكون صاحب ناموس وهو
كالحيوان المملوك العنان ، يقاد حيث يراد ويعيش كالریش يهب حيث يهب الريح ،
لأنظام ولا إرادة . وما هي الإرادة ؟ هي أم ناموس الأخلاق . هي ما قيل فيها

١ — روثتين ٢٤٩ ، محمد فريد ٥٦ — ٦٢ .

٢ — ولد عبد الرحمن الكواكبي مؤلف هذا الكتاب في حلب سنة ١٨٤٨ م ورحل إلى
مصر حين ضاقت به الحياة في ظل الحكم العثماني بعد أن طوف في كثير من البلاد الإسلامية .
وقد نشر في مصر كتابيه (أم القرى) و (طبائع الاستبداد) في سنتي ١٨٩٩ ، ١٩٠١ .
وتوفي سنة ١٩٠٢ . وترجمته الكاملة في (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) ص ٢٤٩ — ٢٨٠ .
و (الحركة الأدبية في حلب) ص ٨٩ — ١١٢ .

٣ — طبائع الاستبداد ٩٣

تعظيماً لشأنها : ، لوجازت عبادة غير الله لا اختار العقلاء عبادة الإرادة ، . هي تلك الصفة التي تفصل الحيوان عن النبات في تعريفه بأنه متحرك بالإرادة . فأسير الاستبداد الفاقد الإرادة هو مسلوب حتى الحيوانية فضلاً عن الانسانية ، يعمل بأمر غيره لا بإرادته . ولهذا قال الفقهاء : لا نية للرقيق في كثير من أحواله ، إنما هو تابع لنية مولاه . .

وبين الكواكب الحسنة في احتمال ما في الحرية من مضار لما فيها من مزايا كثيرة . وذلك لأن النهى عن المنكر من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع السليم ^(١) .

وأقوى ضابط للأخلاق النهى عن المنكر بالنصيحة والتوبيخ . وهو في عهد الاستبداد غير مقدور عليه لغير ذوى المصلحة مع الغيرة ، وقليل ما هم ، وقليل ما يفعلون ، وقليل ما يفيد نهيهم ، لأنه لا يمكنهم توجيهه لغير المستضعفين الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً ، بل ولا يملكون من أنفسهم شيئاً وينحصر موضوع نهيهم وانتقادهم في الرذائل النفسية الشخصية فقط مما لا يخفى على أحد . أما المتصدرون في عهد الاستبداد للوعظ والارشاد فيكونون مطلقاً — ولا أقول غالباً — من المتملقين المرائين . وما أبعد هؤلاء عن التأثير ، لأن النصيح الذي لا إخلاص فيه هو بذر ميت . أما النهى عن المنكرات في الإرادة الحرة فيمكن كل غيور أن يرم به بأمان وإخلاص ، ويوجهه إلى الضعفاء والأقوياء سواء . ويفوق سهام قوارصه على ذوى الشوكه والزعماء ، ويخوض في مواضع تخفيف الظلم وتسديد النظام ، وهذا هو النصيح الذي يعندى ويمجدى . ولما كان ضبط أخلاق الطبقات العليا من الناس من أهم الأمور . أطلقت الأمم الحرة حرية الخطابة والتأليف والمطبوعات مستثنية القذف فقط . ورأت أن تحمّل مضرة الفوضى في ذلك خير من التحديد ، لأنه لا ضامن للحكام أن يجعلوا الشعرة

من التقييد سائلة من حديد يخفقون بها عدوتهم الطبيعية : أى الحرية .
ويقول فى إفساد الاستبداد للدين (١) :

« والاستبداد ربح صرصر فيه يجعل الانسان كل ساعة فى شأن . وهو مفسد للدين فى أهم قسميه : أى الأخلاق . وأما العبادات منه فلا يمسها لأنها تلائمه فى الأكثر . ولهذا تبقى الأديان فى الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات ، فلا تفيد فى تطهير النفوس شيئاً ، فلا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، وذلك لفقد الاخلاص فيها تبعاً لفقدائها فى النفوس التى ألقت أن تتلججاً وتتلوى بين يدى سطوة الاستبداد فى زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق . ولهذا لا يستغرب فى الأسير الأليف تلك الحال أن يستعملها أيضاً مع ربه ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه . حتى مع نفسه . »

ويقول فى إفساد الاستبداد للتربية (٢) :

« الاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل ومراغمة الحس وإماتة النفس إلى آخره . ويفتج من ذلك أنه يربى الناس على هذه الخصال . وبناءً عليه يرى الآباء أن تعبههم فى تربية الأبناء التربية الأولى لا بد أن يذهب يوماً عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت تربية آباءهم لهم سدى . ثم إن عبيد السلطة التى لا حدود لها هم غير مالكي أنفسهم ولا هم آمنون على أنهم يربون أولادهم لهم ؛ بل هم يربون أنعاماً للمستبدين وأعواناً لهم عليهم . وفى الحقيقة أن الأولاد فى عهد الاستبداد سلاسل من حديد يرتبط بها الآباء على أوتاد الظلم والهرمان والخوف والتضييق ، فالتوالد من حيث هو زمن الاستبداد حق ، والاعتناء بالتربية حق مضاعف . وغالب الأسراء لا يدفعهم للتوالد قصد الإخصاب ، إنما يدفعهم إليه الجهل المظلم ، وأنهم محرومون من كل الميزات الحقيقية التى يُحرمها أيضاً الأغنياء الجهلاء عامة ، كلذة العلم وتعليمه ، ولذة المجـد

١ - طبائع الاستبداد ١١٢ .

٢ - طبائع الاستبداد ١١٩ - ١٢٠ .

والحماية ، ولذة الإثراء والبذل ، ولذة إحراز مقام في القلوب ، ولذة تقوُّذ
الرأى الصائب ، إلى غير هذه الملهذات الروحية . وأما ملذاتهم فهي متصورة
على جعل بطونهم مقابر للحيوانات إن تيسرت ، وإلا فزابل للنباتات ، ومنحصرة
في استفراغهم الشهوة . كأن أجسامهم مُخلِقة دُمِّلا على أديم الأرض
وظيفتها توليد الصديد ودفعه . وهذا الشره البهيمى الناشئ عن فقدان الملهذات العالوية
الذكورة وهو يعمى الأسراء ويرميهم بالزواج والتوالد ، مع أن العريض كسائر
الحقوق غير مصون زمن الاستبداد ، بل هو معرض لطمسك الفساق من
المستبدين والأشرار من أعوانهم ، خصوصاً في الحواضر الصغيرة والنرى
المستضعف أهلها .

ويقول في بيان أن المجد الصحيح لا ينشأ في ظل الاستبداد ، وإنما ينشأ في
ظلمة طبقة من سماهم ، المتمجدين . ووصف التجدد والمتمجدين بقوله (١) :
« التجدد خاص بالادارات المستبدة . وهو القربى من المستبد بالفعل ،
كأعوان والممال ، أو بالقوة ، كالملقين بنحو دوق وبارون ، والمخاطبين بنحو
رب العزة ورب الصولة أو الموسومين بالنياشين . أو المطوقين بالحمائل ، وبتعريف
آخر . التجدد هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنم كبرياء المستبد ليحرق بها شرف
الانسانية . وبتعريف أجلى : هو أن يتقلد الرجل سيفاً من قبيل الجبار يبرهن
به على أنه جلاد في دولة الاستبداد ، أو يعلق على صدره وشاماً مشعراً بما
وراه من الوجدان المستبيح للعدوان ، أو يتحلى بسيور مزر كشة تنفي بأنه صار
أقرب إلى النساء منه إلى الرجال . وبعبارة أوضح وأخصر : هو أن يصير
الانسان مستبداً صغيراً في كنف المستبد الأعظم .

« المتمجدون يريدون أن يخدعوا العامة - وما يخدعون إلا أنفسهم - بأنهم
أحرار في شئونهم ، لا يزاح لهم تقاب ، ولا تصفع لهم رقاب . فيحوجهم هذا

المظهر الكاذب لتحمل الإساءات والإهانات التي تقع عليهم من قبل المستبد ، بل للحرص على كتمانها ، بل على إظهار عكسها ، بل على مقاومة من يدعى خلافتها ، بل على تغليظ أفكار الناس في حق المستبد ، وإبعادهم من اعتقاد أن من شأنه الظلم . وهكذا يكون المتمجدون أعداء للعدل ، أنصاراً للجور . وهذا ما يقصده المستبد من إيجاد المتمجدين .

ويقول : إن الاستبداد يسرى في سائر موظفي الدولة المستبدية ، كبيرهم والصغير (١) :

« الحكومة المستبدية تكون طبعاً مستبدية في كل فروعها ، من المستبد الأعظم إلى الشرطي إلى الفرش إلى كناس الشوارع . ولا يكون كل صنف إلا من أسفل أهل طبقاته أخلاقاً ، لأن الأسافل لا يهتمهم جلب محبة الناس . إنما غاية مسعاهم اكتساب ثقة المستبد فيهم بأنهم على شاكلته وأنصار دولته وشرهون لا كل السقطات من ذبيحة الأمة . وبهذا يأمنهم ويأمنونه ، فيشاركهم ويشاركونه ... إن العقل والتاريخ والعيار ، كل يشهد بأن الوزير الأعظم المستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة ، ثم من دونه الوزراء يكونون دونه لؤماً ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريعات . كيف يكون عند الوزير نزعة من الشفقة والرأفة على الأمة ، وهو العالم بأنها تبغضه وتمقته وتتوقع له كل سوء . ما لم يتفق معها على المستبد ، وما هو بفاعل ذلك أبداً إلا إذا يئس من إقباله عنده . وإن فعل فلا يقصد نفع الأمة ، إنما يريد تهديد المستبد أو فتح باب لاستبد جديد عساه يستوزره فيؤازره على وزره . والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الدولة كما هو في الحكومات الدستورية ... بناءً عليه لا يغتر أحد من العقلاء بما يتشدد به الوزراء والقواد من الإنكار على الاستبداد والتفلسف بالإصلاح ، وإن تلهفوا وإن تأفقوا . ولا ينخدع النباه لهم وإن ناحوا وإن بكوا . ولا يثقوا بهم وبوجدانهم مهما صلوا وسبحوا . لأن ذلك كله ينافي

سيرهم وسيرتهم ، ولا ضامن على أنهم أصبحوا يخالفون ماشبوا وشابوا عليه ، بل هم أقرب أن لا يقصدوا بتلك المظاهر غير تهديد المستبد واستدراج دماء الرعية : أى أموالها . نعم . كيف يجوز تصديق الوزير والعامل الكبير أنه يريد إلقاء سيفه للأمة لتكسره ، وهو قد ألف عمر أطويلاً لذة البذخ وعزة الجبروت ، وهو من تلك الأمة التى قتل الاستبداد فيها كل الأميال الشريفة العالية ، حتى صار الفلاح التعيس يؤخذ للجندي وهو يبكى ، فلا يكاد يلبس كُثمٌ ثوبها إلا وينتمى على أمه وأبيه ، ويتمرد على أهل قريته وذويه ، ويكظم أسنانه عطشاً للدماء لا يميز بين أخ أو عدو .

وبقول الكواكبي إن الاستبداد يفسد الميول الطبيعية والأخلاق الحسنة ، ويقلب الحقائق فى الأذهان وينزل بالإنسان إلى مستوى البهائم (١) :

« الاستبداد يتصرف فى أكثر الأميال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها أو يفسدها أو يمحوها ، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه ، لأنه لم يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد . ويجعله حافداً على قومه ، لأنهم عون الاستبداد عليه ، وفائد حب وطنه ، لأنه غير آمن على الاستقرار فيه ويودّ لو انتقل منه . وضعيف الحب لعائلته . لأنه ليس مطمئناً على دوام علاقته معها . ومختل الثقة فى صداقة أحبائه لأنه يعلم منهم أنهم مثله لا يملكون التكافؤ ، وقد يضطرون لإضرار صديقهم بل وقتله وهم باكون . أسير الاستبداد لا يملك شيئاً ليحرص على حفظه . لأنه لا يملك مالاً غير معرض للسلب ، ولا شرفاً غير معرض للإهانة . ولا يملك الجاهل منه آمالاً مستقبلية ليتبعها ويشقى كما يشقى العاقل فى سبيلها . وهذه الحال تجعل الأسير لا يذوق فى السكون لذة نعم غير الملمات البهيمية . بناء عليه يكون شديد الحرص على حياته الحيوانية وإن كانت تعيسة . وكيف لا يحرص عليها وهو لا يعرف غيرها أين هو من الحياة الأدبية ؟ أين هو من الحياة الاجتماعية ؟ أمّا الأحرار فتكون منزلة حياتهم الحيوانية عندهم ، بعد

مراتب عديدة ، ولا يعرف ذلك إلا من كان منهم أو كشف الله عن بصيرته .
ومثال ذلك الشيوخ . فإنهم عند ما تمسى حياتهم كلها أسقاما وآلاما ويقربون
من أبواب القبور ، يحرسون على حياتهم أكثر من الشباب في مستقبل العمر ،
في مستقبل الملاذ ، في مستقبل الآمال .

« الاستبداد يسلب الراحة الفكرية ، فيضن الأجسام فوق ضناها بالشقاء ،
فتمرض العقول ، ويختل الشعور ، على درجات متفاوتة في الناس . والعوام
الذين هم قليلو المادة في الأصل ، قد يصل مرضهم العقلي إلى درجة قريبة من عدم
التمييز بين الخير والشر ، في كل ما ليس من ضروريات حياتهم الحيوانية . ويصل
تسفل إدراكهم إلى أن مجرد آثار الآبهة والعظمة التي يرونها على المستبد
وأعوانه تهر أبصارهم . ومجرد سماع ألفاظ التفخيم في وصفه وحكايات قوته
وصولته يُزيغ أفكارهم . فيرون ويفكرون أن الدواء في الداء . فينصاعون
بين يدي الاستبداد انصياع الغنم بين أيدي الذئب ، حيث هي تجرى على
قدمها جاهدة إلى مقر حنفها وقد قبيل الناس من الاستبداد
ماساقهم إليه ، من اعتقاد أن طالب الحق فاجر ، وتارك حقه مطيع ، والمشتكى
المتظلم مفسد . والنبية المدقة ملحذ ، والخاذل المسكين هو الصالح الأمين . وقد
اتبع الناس الاستبداد في تسميته النصيح فضولا ، والغيرة عداوة ، والشهامة
معتوا ، والحمية جنونا ، والإنسانية حماقة ، والرحمة مرضا . كما جاروه على اعتبار
أن النفاق سياسة . والتحييل كياسة . والدناءة لطف ، والنذالة دماثة .

ويقول (١) : « ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا وأوتاده
عملا ، فهم ربائط المستبد ، يذلم فيثنون ، ويستدرهم فيحننون . ولهذا يرسخ
الذل بين الأمم التي يكثر أغنياؤها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة
من الذئب ، ويتجنب إليهم بيهض الأعمال التي ظاهرها الرأفة ، يقصد بذلك

أن يعصب أيضاً ألوهم التي لا يملكون غيرها . والفقراء كذلك يخافونه خوف دناة ونذالة ، خَوْف البُعَاث ^(١) من العقاب ؛ فهم لا يحسرون على الافتكار فضلاً عن الإنكار . كأنهم يتوهمون أن داخل رموسهم جواسيس عليهم . وقد يبلغ فساد الأخلاق في الفقراء أن يسرهم فعلاً رضاء المستبد عنهم بأى وجه كان رضاؤه .

هكذا صور الكواكبي في كتابه آثار السلطة المطلقة التي لا يحدها قيد في الحكم وفي المحكومين على السواء ، ليصل آخر الأمر إلى أن كل عللنا يمكن أن ترّد آخر الأمر إلى الاستبداد ، وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع إلى الجهل أو إلى الفقر أو إلى ترك الدين هم بين مخطئين وبين عارفين بمنعم الاستبداد وخوف الحكم أن يقولوا ما يعرفونه ، وانهى الكواكبي في آخر كتابه إلى تقديم مجموعة من المشاكل التي تتصل بنظام الحكم ، وضعها بين أيدي المفكرين . ودعاهم إلى بحثها وتمحيصها ووضع الحلول لها . وختم هذه المشاكل بالمسألة الكبرى وهي : (كيف نتخلص من الاستبداد ؟) . وتناول هذا السؤال الأخير وحده بالتعليق فقال ^(٢) :

« إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة حتى صارت كالبهائم أو دون البهائم ، لا تسأل قط عن الحرية . وقد تنقم على المستبد ، ولكن طلباً للإنتقام من شخصه ، لا طلباً للخلاص من الاستبداد ، فلا تستفيد شيئاً . إنما تستبدل مرضاً بمرض كغص بصداع . وقد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر . فإذا نجحت لا يغسل هذا السائق يده إلا بماء الاستبداد ، فلا تستفيد أيضاً شيئاً . إنما تستبدل مرضاً مزمناً بمرض جديد... إن الوسيلة الوحيدة الفعالة لقطع دابر الاستبداد هي ترقية الأمة في الإدراك والإحساس وهذا لا يتأتى إلا بالتعليم والتحميس... وتبنى قاعدة أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيمته ماذا يستبدل به

١ - البعث صفار الطيور وضعاها .

٢ - طبائع الاستبداد ص ١٧٢ - ١٧٧ .

الاستبداد ، هو أن معرفة الغاية — ولو إجمالاً — شرط طبيعي للإقدام على كل عمل . لكن المعرفة الاجمالية في هذا الباب لا تكفي ، بل لابد من تعيين المطلب تعييناً واضحاً موافقاً لرأى الكل أو لرأى الأكثرية .. ثم إذا كانت الغاية مهمة في الأول ، فلا بد أن يقع الخلاف في الآخر ، فيفسد العمل أيضاً ، وينقلب إلى فتن صماء وانقسام مهلك . ولذلك يجب تعيين الغاية بصراحة وإخلاص ؛ وإشهارها بين الناس ، والسعى في إقناعهم واستحصل رضائهم بها ؛ بل حملهم على النداء بها وطلبها من عند أنفسهم .

* * *

أما الاتجاه الثانى الذى تأثر أصحابه بالحضارة الغربية فهو الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . أو فصل الدين عن الحياة وشؤونها . ومن المعروف أن ما يسمونه عصر النهضة ، فى أوروبا قد جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد التحرر الفكرى وبين الكنيسة التى كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعاً شاملاً لا يحده . فسيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدثهم نفوسهم بتجاهل البابا فضلاً عن مخالفته ولن ينسى التاريخ إذلال البابا جريجورى السابع للإمبراطور هنرى الرابع ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم ، فأعان حرمانه ، وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له ، فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائباً فى « كانوسا » سنة ١٠٠٧ ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام متدثراً بالخش وهو حافى القدمين وسط الثلج فى فناء القلعة . ولن ينسى التاريخ من أحرق ومن نكل به تحت آلات التعذيب فى محاكم التفتيش من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود . وقد أتاح هذا الصراع الطويل المير الذى وقفت فيه الكنيسة سداً بين أوروبا وبين التقدم ، وظهر فيه العلماء بمظهر الاستشهاد فى الدفاع عن مبادئهم وآرائهم حتى الموت أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكرى . فهدموا الكنيسة وهدموا معها الدين . واتمى ذلك الصراع الطويل

المزير بانتصار دعاة التحرر Liberalism والحد من سلطة الكنيسة ،
وحصرها في نطاق الدين . وبذلك تحقق فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ،
وانكسر نفوذ البابا فلم يعد يجاوز طقوس التعميد والصلاه والزواج والجنائز ،
وأصبحت شئون الدولة وتدير نظام المجتمع في يد رجال السياسة . قرأ أصحاب
الثقافات الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ . وقرأوا معه في هذه
الكتيب أن ذلك قد استتبع تحرير الفكر فنشط من عقاله ، واندفع يرتاد
ويكشف في حرية لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوروبا في مكان الذروة من
القوة والمال ونفوذ السلطان والعرفان .

وخيل إلى أصحاب هذه الثقافات أن الشعوب الإسلامية - ومصر واحدة منها -
تعيش في حالة تشبه حالة أوروبا في العصور الوسطى والواقع أن الناس يتكلمون
باسم الإسلام كانوا جزءاً من العالم الإسلامي الذي مني بأسباب التخلف والجهل .
وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندر . وقد دفعهم تخلفهم عن ركب
الحياة في كثير من الأحيان إلى التورط في محاربة بعض العلوم النافعة بدافع من
جهلهم لها . فزعموا أنها تخالف روح الدين .

وقد أدى نظام التوظيف الجديد منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال
الإنكليزي خاصة ، إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلفهم
عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد . وأصبحت الوظائف
الحكومية وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية
الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه^(١) . فكان
من جملة ما نقلوه نقلاً أعمى السخرية برجال الدين والاستخفاف بأمر الدين
نفسه تبعاً للاستخفاف برجاله .

وكانت هناك قوى خفية غير ظاهرة تؤيد هذا الاتجاه وتمد ناره بالوقود

١- انظر ركن ومصر سنة ١٩٠٠ (العدد ٣٨٤) ، وراجع كذلك Modern Egypt

والخطب ، بما تلفقه من أكاذيب ، وما تزوره من مبالغات . وما تدبجه من مقالات تلبس ثوب الدفاع عن الحرية ، والرئاء لضحايا الظلم والاستبداد . وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة في تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيداً لاغتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً يهود العالم في مقدمة هذه القوى الخفية . فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية - ولا يزال - أن تفسد التفكير الاسلامي والمسيحي على السواء نشرأ للفوضى ، التي يظنون أنها هي السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب ما يتوهمونه . وكان الاستعمار الطامع في اقتسام العالم العربي والاستيلاء على بترول وأسواقه ، شريكاً للصهيونية العالمية في هذا التدبير .

ومما يصور هذا الاتجاه الفكرى ما كتبه عبد القادر حمزة في سنة ١٩٠٤ تحت عنوان « خطر علينا وعلى الدين » وهو واضح الدلالة في تأثر صاحبه بتاريخ النهضة الأوروبية ، وفي دعوته إلى اقتفاء أثرها . وقد جاء فيه (١) :

« ... ولقد كنت منذ عامين أحسب أن أكتب الكلمة التي أنا اليوم كاتبها نصيحة لأمتي واحتراماً لدينها . ولكنني اعترتني الرهبة ، وخشيت أن أستفز غضبها لدعوة كنت لا يزال يعتريني بعض الشك في صحتها ، ففضلت أن أطويها خاطراً في صدري . وتركت الزمن أن ينضجها ، بعد أن تثقف وتصل في غار البحث والتدقيق .. والآن بعد مرور عامين طويلين ، قلبت فيها تلك الدعوة على جميع وجوها . وعرضتها على محل النقد والمناقشة ، لا أجدني أخطأت إلا في عدم الجهر بها إلى الآن ، مع شدة احتياجنا إلى معرفتها والعمل بها ، سيما في هذه الأيام التي شاعت فيها كلمة الدين من أناس اتخذوها تجارة ، فلم يعد يهمهم إلا أن ترددها أفواههم صباح مساء وسيلة للتغريب . واحتيالاً لكسب رضا العامة وشيوع ذكرهم بينها ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذي يذفون إليه الأمة

١ - المقطع عدد مارس سنة ١٩٠٤ س ٢٣١ - ٢٤٠ . وقد رد عليه رفيق العظم

في عدد مايو سنة ١٩٠٤ بمقال يحمل العنوان نفسه : « خطر علينا وعلى الدين » ، كما رد عليه فهد كرد علي في العدد نفسه بمقال عنوانه « الدين والعامة » .

ودنبا ، كما اندفعت إليه أوروبا من قبل . فكانت النتيجة وبالا على المسيحية والمسيحين .

ثم عرض موضوعه بعد هذه المقدمة فقال :

« قالوا : إن الأمة إذا كانت جاهلة متأخرة ، ثم قدر لها أن تخطو إلى الأمام وتنهض راغبة في التقدم ، فلا بد لها من أدوار كثيرة طبيعية تتناوبها واحداً بعد الآخر . وأول هذه الأدوار أن يكثر فيها الناصحون والمرشدون ، فلا يزالون يقرعون الآذان إيقاظاً للنائم ، وتنبيهاً للغافل ، ولا تزال الأمة تغضى عن أكثر ما يقولون ردحاً من الزمان ، حتى يتأثر مجموعها ، كما تتأثر الصخرة الصماء من قطرات الماء ، فتهم إلى السعى وإتباع القول بالعمل . وحينئذ يصح أن يقال إنها نشطت من عقالها . وقامت تنفض الغبار عن أكتافها ، ودخلت في دور آخر هو دور الحياة والعمل .

« فإذا صح قولهم هذا - وهو ما لا شك فيه - وصح أن الأمة المصرية كانت ولا تزال متأخرة جاهلة - ولا أظن مصرياً ينكر ذلك - فإنها في الدور الأول من نواحيها . ولذلك تجدها على كثرة الصائحين بينها والمنادين فيها ، تنكاد لانفقه كلمة من عشر كلمات يلقيها عليها الناصحون والمرشدون ، وخلق بنا ونحن لا تزال في أول الطريق أن تسأل : إلى أين نساق ؟ ... وإلى سبيل تتبع ؟ ... وهل فيما نحن سائرون إليه نفع أو ضرر حتى لا نرمى بقصور النظر ولا نكون كالتائه في البعيد لا يعلم إلى النجاة أم إلى الهلاك يسير ؟ ... دُرْ في البلاد طولها وعرضها واستجل غوامض أفكار أبنائها ، وسل كل من تريد منهم عن أسباب تأخرنا وانحطاطنا ، ثم عن الطريق الذي يؤدي إلى نهوضنا وارتفاعنا ؛ وبالجمله عن دائنا ودوائنا تجده - مهما أطال في الشرح وعدد من الأسباب - لا يحوم إلا حول سبب واحد تنتهى إليه جميع الأسباب . وهذا السبب هو الدين . فتركه والجرى على خلافه هامة مانحن فيه . والعمل به هو الدواء الوحيد لشغائنا من كل ما أصابنا من الأمراض . دع هؤلاء وراقب معلم أبناء الأمة ومربي أطفالها

واستطلع خلاصة ما يبشرون من النعمان والإرشادات ؛ فوجد أن الدين هو القدوة التي يغرسونها في الأذهان ؛ مثالا لكل كمال ؛ ومنبعاً لكل حياة ؛ وأساساً لكل عمران .

ويعرض الكاتب في استقراء طبقات الأمة المختلفة ؛ من كتاب وشعراء وصحفيين ؛ مصوراً لإجماعهم على أن إهمال الدين هو علة تأخرنا . ثم يقول :
« هذا كله ، وكثير غيره لا يتسع المقام لإفاضة الشرح فيه ، يدل على مبلغ تسلط الدين على عقولنا ، وانخداع أذهاننا انخداعاً لا مثيل له لكل ما يأتي من جانب الدين . بل يدل على استسلامنا استسلاماً أعمى إلى ماضينا الذي يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد ، إن كنا نريد أن لا نبقى كما نحن وكما كنا جهلاء وضعفاء . »
ويهاجم الكاتب الذين يقحمون الدين في كل شيء تقريباً إلى العامة الذين استولى عليهم ما يسميه الكاتب هوساً دينياً ، ويقول : إن الذين ينادون بالدين هم أجهل الناس بالدين ، ولكنهم يتاجرون باسمه ، ويشخذونه مطية للتفجير والتضليل . ويعمل الكتاب بذلك بما وراثناه من الميل إلى تقليد أسلافنا المهرولين بالتقوى والورع . ثم يقدم أمثلة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، ماضياً وحاضراً ، وقف فيها رجال الدين أسماؤا فهمه في وجه العلم والعلماء واهتموهم بالخروج عليه ويحتم هذا العرض متسائلاً هل في النداء بالدين فائدة ؟ .
فيقول : إن من أخطر الأشياء أن نستعبد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالي المضر ، ثم يقول :

« هذه بلاد أوروبا كانت أهلها قبل العصر الذي يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعري الدين المسيحي ، متشيعين لكل ما يأتي من جانبه . فزالوا يتغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال إلى خصر الدين برمته في الكنيسة . ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم ، توجههم إلى الحروب الصليبية ، فيعانون المشاق ويكابدون الأهوال

ويهلكون ألوفاً ومئات ألوف حياً في الدين ، ثم تستأثر بالأموال فلا تجد منهم إلا ملبين خاضعين ، يقدمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين . ثم تستولى على الكتاب المقدس وتحرم على غيرها فهمه وتفسيره . فيتلقون أوامرها بالرضى والطوع حملاً بأوامر الدين . ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين . وما زالت على حالها ، تفتت كل يوم على الدين باسم الدين . والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمى الدين يتفانون في الجهاد غيرةً عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم يتغذى إلى الأذهان ، وابتدأ دور النهضة ، فقام القسوس وقعدوا ، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ، ينادونها : الدين الدين ! اطلبي السكال والرقى والنهضة من جانب الدين . وظلوا يصدعون آذانها بهذا النداء ، حتى تفهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوروه لها ، فنبذه البعض ، وضعفت ساططته على البعض الآخر .

ويحتم الكاتب مقاله مطالباً بأن يُترك الدين بيننا في زيه الحقيقي ، ذلك الشوب الأبيض الطاهر ، وأن لا ننظر الناس منه بأفهامه فيما ليس من شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً . ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها ، دون تفقيد أو حجب على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين .

كانت الحضارة الأوروبية والثقافة الغربية ، تغزو الشرق الإسلامي ، وتغزو تركيا نفسها ، في أشكال مختلفة : معاهدة عليية ، وشركات أجنبية ، وبضائع وملابس ، وفرش ، وأثاث . وقد دأب أبناء الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستورزين والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب . وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليداً لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان ، وإعجاباً بنظامها المحكم الدقيق وبراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى^(١).

١ - راجع مشروع الأمانة العلمية التي كتبها محمد عبده في بيروت سنة ١٣٠٤ هـ

وكان السلطان عبد الحميد هو المقصود بكثير مما كتب عن الدعوة إلى الحرية والمناذاة بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية . فالذين يتكلمون عن الاستبداد وتقييده بالنظام النيابي كانوا يقصدون استبداد السلطان عبد الحميد . والذين ينادون بفصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية كانوا ينظرون إلى استخدام السلطان عبد الحميد سلطته الدينية ؛ بوصفه خليفة للمسلمين في جمع السلطة في يده ومحاربة أعدائه ، وكان العرب منهم يطالبون بأن يكون عبد الحميد سلطاناً ؛ وبأن تكون الخلافة أو الولاية الدينية على شئون المسلمين للعرب الذين هم أقدر الناس على فهم الدين . أما الترك فكان أكثرهم من المتأثرين بالفكر الإلحادى الذى كان يحتاج أوروبا باسم (التحرر Liberalism) وبكتاب الثورة الفرنسية ومفكرىها وكان كثير منهم واقعاً تحت سيطرة الصهيونية العالمية .

وكان كل ما كتب من هذا اللون يطبع في مصر ، لتعذر نشره في أى قطر من الأقطار العثمانية . وكانت كثرة هذه الكتب تصدر عن الشام ، واسكنها كانت تطبع في مصر ، وتقرأ في مصر ، ولا تكاد تصل في الأقطار العثمانية إلا بطريق التهريب غير المشروع .

ومن هذه الكتب التى طبعها الشاميون في مصر كتاب (أم القرى) لللكم اكبي^(١) . وقد عالج فيه أسباب ضعف الأمم الإسلامية وتخلفها . ودعا فى آخره إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحاً جعل الخلافة فى العرب والسلطنة فى الترك محاولاً التدايل على أن الترك يقدمون السياسة على الدين ، وأن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب رعاياهم من

١ — طبع فى مصر سنة ١٨٩٩ . ومؤلفه هو مؤلف (طبائع الاستبداد) الذى أشرنا إلى

المسلمين (ص ١٦٣) وهو يسوق في هذا السبيل جملة من الوقائع التاريخية ،
لبثت أن سلاطين آل عثمان كانوا يضحون بالدين في سبيل إدراك كسب
سياسي يزيد من نفوذهم ويؤيد ملكهم ، (ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧١) فيزعم أن
السلطان محمد الفاتح قد اتفق سرّاً مع فرديناند وإيزابيلا على تمكينهما من إزالة
ملك بنى الأحمر ، آخر الدول العربية في الأندلس ، ورضى بما جرى على خمسة
ملايين من المسلمين من التقتيل والإكراه على التنصر . فشغل أساطيل إفريقيا
عن نجدة المسلمين ، وذلك في مقابل ما قامت له به روما من خذلان للإمبراطورية
الشرقية عند مهاجمته مقدونيا ثم القسطنطينية^(١) . ثم يقول : لأنه بينما كان الأسبانيون
يحرقون بقية العرب في الأندلس ، كان السلطان سليم يستأصل آل عباس بعد
أن غدر بهم ، مجاوزاً في ذلك كل حد ، حتى قتل كل حبي من النساء . ويقول
كذلك : إن السلطان عبد المجيد رأى أن من مؤيدات لإدارة ملكه أن يبيع الربا
والخمر ، وأن يبطل الحدود . ويزعم أن الترك هم الذين أعانوا الروس على
انتشار المسلمين ، وأعانوا هولندا على جاوة والهند (ص ١٦٥) ، وتركوا المسلمين
أربعة قرون ولا خليفة . وتركوا الدين تعبت به الأهواء ولا مرجع ، وتركوا
المسلمين صماً بكما عمياً ولا مرشد (ص ١٧١) . ويقول المؤلف : إن لقب الخلافة
إنما طرأ على العثمانيين في زمن متأخر ، حين كان بعض وزراء السلطان محمود
يخطبونه بهذا اللقب تفتننا في الإجلال وغلوا في التعظيم ، ثم توسع الناس
في ذلك من بعد (ص ١٦٧) .

وقد عدد المؤلف في كتابه هذا مزايا العرب التي ترشحهم لخلافة المسلمين . فهم

١ — المعروف أن محمد الفاتح استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . وأن فرديناند وإيزابيلا لم
يعنلوا عرش أسبانيا إلا سنة ١٤٧٩ م . وقد تولى محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ومملكة غرناطة
الإسلامية لا تزال قائمة . ولم تسقط في يد فرديناند وإيزابيلا إلا سنة ١٤٩٢ : ولم يتعرض مسلموا
الأندلس للتقتيل والتنصير إلا بعد ذلك ببضعة أعوام . وهذا يصور أن الدعاوى التي جاءت في هذا
الكتاب وأمثاله كانت تقصد إلى التشجيع والإثارة ، ولا تقوم على التحقيق العلمي الدقيق .

مشرق النور الإسلامى ، فهم الكعبة والمسجد النبوى والروضة المطهرة ، وبلادهم متوسطة فى موقعها الجغرافى بين المسلمين . وهى أسلم الأقاليم من الأخطا جفسيّة وأديانا ومذاهب . وهى أفضل أرض لأن تكون ديار أحرار . لبعدها عن الطامعين والمزاحمين . وأمرائهم يجمعون بين شرف الآباء وشرف الأمهات ، لبعدها عن اختلاط الأنساب بالإماء من الأجنيات ... إلى آخر ما يعدد المؤلف من مثل هذه الصفات (ص ١٥٤ - ١٥٨) .

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل خلافة المسلمين للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية (ص ١٦٩ - ١٧١) ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فصرها فى شئون السياسة العامة الدينية . فليس من حقه أن يتدخل فى شئ من الشئون السياسية والإدارية فى السلطنات والإمارات . ولكنه يصدّق على توليات السلاطين والأمرأ احتراماً للشرع . ويذكر اسمه فى الخطبة قبل أسماء السلاطين ، ولا يذكر فى المسكوكات . وهو يتولى بعد ذلك رئاسة هيئة شورى إسلامية ، تنعقد مدة شهر فى كل سنة ، قبيل موسم الحج فى مكة . ويبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات ، ويستحسن أن يكون هذا الخليفة قرشياً (ص ١٦٨ - ١٧٠) .

ولكن هذه الآراء لم تخل من إشارات مريبة إلى موالاته الدول الأوروبية المستعمرة ، مثل ما جاء فى تحديد وظائف الشورى العامة التى لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل فقال فيما قال : « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب . » (ص ١٦٩) ومثل قوله : والغالب أن الدول المسيحية التى لها رعايا من المسلمين أو المجاورة المسلمين تتحذر من أن يجر جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حروباً دينية ، فتعتمد هذه الدول على عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول

هذا الارتباط أساساً . فها هو التدبير الذى يقتضى اتخاذهُ أمام تحذير الدول ؟ ، (ص ١٠٢) وردّ على ذلك بكلام طويل ، فى أن المسلمين المتتورين أدنى إلى المسالمة . وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد فى سبيل الله ليس محصوراً فى مجرد محاربة غير المسلمين . فكل عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى السكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً ، وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة فى نفوس الدول الأوروبية : « ولدى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة . وذلك بأن العرب أينما حلوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم ، كما أنهم لم ينفروا من الأمم التى حلت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها ، كمدن وتونس ومصر بخلاف الأتراك . بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حكم الله ، لأنهم يذعنون بكلمة ربهم تعالى شأنه (وتلك الأيام نداولها بين الناس) . فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية ، بل يرون من صوالجهم الخصوصية وصوالج الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذى قرأته عليك ، (ص ١٧٤) .

وكلام السكواكبي هنا متأثر بما كان يذيعه ساسة الأمم الاستعمارية عن الجامعة الإسلامية ، من تخيل الخطر الذى يهدد الغربيين فى اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام الذى يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين ، والذى يعتبر هذا الجهاد ركناً من أهم أركان الدين .

على أن الناظر فى كلام السكواكبي يحده متأثراً بفكرة البابا الذى اتخذ مقره فى روما ، مهد المسيحية الأولى فى أوربا ، والذى يرأس المجمع الدينى ، ويشجع الملوك رعاية لسلطان الدين . كما أن الناظر فى كلامه يريه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم ، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرّها تفسيراً غريباً . كما تريه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين

ما تكشفته عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنكليز سنة ١٩١٦ .
ومن هذه الكتب التي طبعها الشاميون في مصر كتاب لسليمان البستاني سماه
(ذكرى وعبرة — الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ^(١)) طبعة سنة ١٩٠٨ ،
وصور في شطره الأول فساد الحكم العثماني قبل صدور الدستور الذي أكره
السلطان عبد الحميد على إصداره في يوايو سنة ١٩٠٨ ، وصور في الشطر الأخير
بعض الآمال التي يعلتها اللبنانيون على العهد الجديد ، الذي وضع — في نظره —
حداً للظلم والفساد والإرهاب .

يقول البستاني في تصوير فساد الحياة الاجتماعية وتحكم الظلم والاستبداد :
« ولسكن هذا الجسم ^(٢) على قوته الكامنة ، وإن شئت فقل : على ضعفه
الظاهر — لم يقو على تحمل أذية الحكومة الغابرة ، بما اتبته من ضروب الظلم ،
في عصر ليس كالعصور السالفة ، يناق الناس فيه سوفاً ، ويتخذه فيه من دون
الله أرباب ظالمون . فالولية الحكومات الدستورية قد انتشرت من أقصى المغرب
إلى أقصى المشرق ، وكواكب الحرية قد سطعت حولنا واكتنفتنا من الجهات
الأربع . هذا : وأرباب الأمر فينا يودون بقاءنا في ظلمة مدھمة ... فعظم
الشكوى إذن ليس من الاستبداد بمعنى الحكم المطلق ، وإن كانت دولة هذا الحكم
قد دالت . وإنما هو من ذلك الاستبداد بمعنى الحكم الجائر الذي أباح الموبقات
واستباح المحرمات . استبدادُ حكم الأندال برقاب الرجال ، فنكس الرموس
وذلل النفوس . استبداد لا مرشده إلا التعنت عن هوى تميل به النفس إلى حيث
لا تدرى ، ولا شرع له ولا وازع ، يحلل اليوم ما يحرمه غدا ... الخ ص ١٨ — ١٩ ،
ثم يقدم المؤلف صوراً مظلمة من تحكم الاستبداد وتغلغله في شتى نواحي
الحياة ، حتى بات الناس مراقبين في كل حركاتهم . يحصى عليهم الجواسيس

١ — وشبه به كتاب (ما هناك) الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦ م ولم تصرح
باسم كاتبه . والعرف الشائع أنه هو المولى .

٢ — يقصد جسم الدولة العثمانية .

أنفاسهم ، ولا يأمن فيه أحدهم أن يماجئه طارق في دياجي الظلام فيختطفه من بين ذويه ^١سيزج به في السجون ، أو يُقذف به منفياً إلى أقصى الأرض ، أو يلقي به في مياه البسفور . لجرد شبهة لا تقوم عليها بيعة .

وهذه القيود والأغلال في أعماق السجون تسكاد تشبك غيظاً لكثرة ما ألقتهما المعاصم والأقدام . وهذه دبنغازي ، وبعض المدن النائية في أطراف السلطنة تصبح مستحبة لما ترى من شقاء المبعدين . بل هذا البوسفور يوشك أن يفور تلهفاً على تلك الجثث . فيقذف بها إلى ثغريه خشية أن تبت دقينة في بطون الحيتان . - ص ٢٥ ، (١) .

ويصور ما أمسى فيه رجال الدولة من حذر الوشاية فيقول :

« كانوا يسمين في بيوتهم ، توجس منهم الخيفة ، إذا تجاوزوا الأبواب . وعلمهم العيون مبثوثة في المنازل والطرق ، لا يعلمون أهم واقفون لهم في الطريق ، أم قاعدون بين جلساتهم وندماثهم في بيوتهم ، أم جائمون بين خدمهم في غرف نومهم ومطابخهم . لا يحسر الوزير أن يزور وزيراً ولو كان حبيباً له قبل الوزارة . يمعن الفكرة طويلاً قبل أن يفوه بكلمة . خوف أن تؤوّل أو تنقل . تأخذه الهواجس فلا يلم مصيره مساء يومه ... ولهذا كنت ترى معظم هؤلاء الأمراء الأرقاء على تحفز واستعداد . حتى إذا خشوا الغدر بهم تناولوا حقيبتهم المعدة لمن هذا اليوم . وغلبوا ملجأ يتقون به شر السعيات - ص ٦٣ ، .

ويصور « الأداة الخيفة التي كانت تبعث الرعب في قلوب الناس كبيرهم والصغير ، وهي التي يطلق عليها (الخفية) فيقول :

« أما الخفية عندنا فلم تكن على شيء مما تقدم ، بل قامت على نظام محكم لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . أقيمت لها دائرة منظمة في الماسين ، ودعى رئيسها بأسماء لا يدل منها شيء على مسماها ، كقولهم : مدير سياسة الماسين

١ - - وراجع كذلك مقالا لولي الدين يكن يصور فيه اللقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، وكان لغيره في صحيفة المقطم بعنوان «خارج البسفور في إحدى ليالي الشتاء » ، (الصحائف السود ٧٢ - ٧٦)

السياسة Directeur de la politique du palais Imperial الخارجية . ولم يكن يباح لأحد أن يدعو باسم رئيس الحفية ... وكان لتلك الدائرة فروع متشعبة داخل البلاد وخارجها تشعب العروق في الجسم ، إذ كان عمالها مبشورين في كل دوائر الحكومة ، من الباب العالي ، إلى النظارات المنفصلة عنه ، إلى كل فرع من فروعها . وهناك شعبة منها لقراءة الكتب والجرائد وترجمة ما كان منها باللغات الأجنبية . وهناك أيضاً عمال مقيمون خاصة لتناول زبدة الأخبار وتقديمها إلى المراجع العليا . وكل كانت تلك المراجع تحذف وتزيد وتعديل على هواها ، أو تستنبط من تخيلات ما لم يكن له أثر في تلك التقارير ، فتعرضه حقيقة ثابتة على المرجع الأعظم . ص ٨٤ - ٨٥ .

ويعصور لإسراف عبد الحميد في التضيق على الصحافة فيقول :

« فكم من جريدة ألغيت أو أوقفت لزم من محدود أو غير محدود لخبر روته عن جرائد أوروبا ينبيء بمقتل وزير في الصين أو أمير في إفريقيا ، أو اختراع ذكرته لآلة تطير في الهواء أو غواصة تسير تحت الماء . بل كم من مرة فاجأ الجريدة أمر بتعطيلها ، وظل صاحبها يبحث أشهراً فلا يعلم لذلك سبباً غير (الإيجاب) بل كم من مرة انقضت الصواعق على رأس الصحافي لجهله أن هذه الكلمة أو تلك قد اقترعت بحكم الاستبداد من معجم الألفاظ الكتابية ، كالقانون الأساسي ، والخلع وما اشتق منه ، والجمهورية ، والديناميت ، والثورة ، والإنصاف . والحرية أو أن عبارة أو جملة وجب حذفها من أبواب الإنشاء ، كقولك : العدل أساس الملك ، والظلم مرتع وخيم ، والحرية منتهى غابات الأمم . بل الويل كل الويل لمن ذكر حرفاً عرف به علم مشهور ، كعبد العزيز ومراد ورشاد . ص ٢٢ - ٢٨ .

ويعصور القيود المفروضة على حرية التأليف فيقول : إن هذه القيود لم تكن تحددها إلا (الإرادات السنية) . ولم يكن يباح نشر كتاب من الكتب إلا بعد أن يعرض على (مجلس التفتيش والمعاينة) في الاستانة نفسها ، فيقرأ حرفاً حرفاً ويُعرض خلال ذلك للتغيير والتبديل ، والحذف والإضافة ، ثم تختم كل صفحة

من صفحاته إن أسعد صاحبه الحظ بالمرافقة على نشره بعد طول الانتظار. والويل له إن وشى به واث بأنه غير حرفاً أثناء الطبع. هذا إلى أن التأليف لم يكن مباحاً إلا في التأفه من الأغراض التي لا تغنى شيئاً في تثقيف العقول أو إعلاء الهمم. وقد كان يبدو للرقابة في بعض الأحيان أن تصادر كتاباً وتحظر النظر فيه بعد أن يقرأ ويتداول بين أيدي الناس أزماناً، لكلمة أو لعبارة تذهب الرقابة إليها بعد حين أو قد يزج بصاحب الكتاب أو بآئعه إلى ظلمات السجن. وكثيراً ما كانت تعرض المكاتب العامة والخاصة للتفتيش المفاجيء، وكثيراً ما كان يتذرع الوشاة بصفحة من كتاب مؤلف منذ قرون لأخذ صاحبه غيلة، حتى ضاق تجار الكتب وهواتها بها، وأصبحوا يفرون من اقتنائها (ص ٤٠ - ٤٦).

ولم تسلم الرسائل بعد ذلك من المراقبة، حتى كان الصديق إذا بعث برسالة سلام وتودد إلى صديقه يحسب أن عيناً أثيمة تنظر إلى ما كتبه وتحلله وتشرحه قبل أن يقع تحت نظر صاحبه، فيودع كتابه من العبارات ما يردُّ أشر الوشاة وشهات المتحنتين ص ٥٠، وكانت لهم مهارة مذكورة بفتح التحاير وفض الاختام ولو كانت بالشمع، حتى يخيل لك أنهم لو استفادوا من البخار والكهرباء وسائر مخترعات العصر ما استفادوه من الإحاطة بجميع وسائل فض الاختام لرقوا بالبلاد درجات. ص ٥١، لذلك كان الناس يفضلون التراسل عن طريق مكاتب البريد الأوروبية المنبثة في سائر الأقطار العثمانية. وقد كان كل مكتب من هذه المكاتب يتشع بجاية الدولة التي يتبعها، مما يمنع يد الرقابة أن تصل إليه. وقد كانت هذه المكاتب تخدم أنصار الفساد وأعداءه على السواء. فقد كان الثوار والمتآمرون على عبد الحميد يتبادلون الأخبار عن طريقها. وكان رجال عبد الحميد يهربون ما يجمعون من المال الحرام عن طريقها كذلك. (ص ٤٧ - ٥٤).

ثم يروى المؤلف أن الجماعات والأندية كانت خاضعة لمثل هذه الرقابة. فلم يكن يسمح بتأليفها، إلا ما كان منها خيرياً محضاً، حيث لا بحث ولا خطابة. ومن طرائف ما يروى المؤلف في هذا الباب عن (جمعية المقاصد الخيرية) التي

ألفها وجهاء المسلمين في بيروت لإسعاف الفقراء وتربية الأيتام وإنشاء المدارس أن الوشاة وشوا بتلك الجماعة ، فقالوا : تلك جمعية ينم اسمها عن مرمى خفى . ولا حاجة بالجمعيات الخيرية أن يكون لها (مقاصد) . فلا بد من أن تكون تلك المقاصد لأمر آخر . فاقضوا عليها قبل أن تقضى عليكم . (ص ٥٨) (١) .

وبمثل ذلك تناول المؤلف فساد نظم التعليم الذي حرّمته الرقابة من كل علم نافع ، وضيقته فيه على " العقول " حتى حار المعلمون في أمرهم . وكانوا رغم يلمقون حتى ولو مسألة نحوية أو حسابية صرفا يخشون أن توجس منهم إشارة إلى عدد يوافق أعداد سبى الظلم ، أو فتحة أو كسرة تشير إلى فتح الأعين وكسر القيود - ص ٢٦ - وقد أدى ذلك إلى أن يلجأ الناس إلى المدارس الأجنبية التي كانت متمتعة بحرية حرمت على سواها ، ولقد تهافت عليها الطلاب من كل الملل والنحل تهافت الظمآن على الماء الزلال . وبثت نور العرفان بين جمهور عظيم من فتياننا .

هذه صورة مما آل إليه فساد الحكم كما عرضها أحد الشّاميين . ومهما يكن من إنصاف ، وحياده فيما قال ، أو مبالغته وتحامله ، فذلك ما شاع وما تناقله الناس - وأعان الثوار من الأتراك - والأوروبيون الذين كانوا يبيتون النية على اقتسام الإمبراطورية العثمانية ، على نشره والمبالغة في تصويره والتهويل من شأنه . ولكن أثر ذلك كان محدوداً في الشعر ، وخاصة في مصر ، ولما قدمنا في الفصل الأول من أسباب .

فن ذلك قول نسيم من قصيدة رفعها إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٥ ، ينصحه فيها بالاستجابة لدعوة المصلحين (٢) .

وليت بلاداً حلق الجور فوقها وحط عليها كالعقاب غيما
تناوى فيها الحادثات أديها وتنبذ منها الحادق المتعلما

١ - ص ٥٨ من المرجع السابق .

٢ - الديوان ١ : ٢٩ .

إذا لم تداركها برأى وحكمة تبیت افتمتاح الممالك مغنا
بحيث يكون الملكُ فرعاً مشدّبا وحيث يصير التاج نهبا مقنا
هناك يبيد اللهُ شعبك مثلما

أبادت صروفُ الدهر طسماً وجرهما (١)

فهل لك أن تجرى العدالة بينهم فياهج بالشكران من كان مسلما
دع العلم يفشو في البلاد لعله يكون لإدراك السعادة سلسا
وأنص الجواسيس الذين تألبوا على ضفة البسفور جيشاً عرمرما

ويقول في قصيدة أخرى (٢) :

إلى الله يرفع هذا الآئين ليضرب فوق يد الظالمين
بلاد غدت ملجأ للطفام وكهفاً تموج بالفاجرين
فيأعين نوحى على حالة سدى المآقى بدمع مخين
ويا قلبُ صبراً لعل الزمان ينبخ على العسبة الكاذبين
ويا سيدى أجب الشعب عاما يلبّ ندامك طول السنين
فتلك الجواسيس أودت بنا وهم يلعبون بدنيا ودين
أتصغى إلى الزور من قولهم وما هو منهم بقول مبین
وتنقى العباد بلا زلة وما هم من الفئة الآثمين
فراقب إلهك فيما بقى وإلا أعفا كله بعد حين
ولا ترج تكدير ملك صفا بظلم كما كدر الماء طين
فا أئبد الله من مالك بغير العدالة في العالمين
ومن أين يعرف سلطان قوم إذا ما تنق قومه أجمعين ؟ ...

ويقول حافظ ، من قصيدة بعث بها إلى داود عمون الشاعر اللبناني ، يدعوه

١ - طسم وجرهم قبيلتان من قبائل العرب البائدة .

٢ - الديوان ١ : ١٢٤ تحت عنوان (أجب الشعب يا أمير المؤمنين) .

إلى الهجرة لمصر (١) :

وخل أقام بأرض الشام فبات تُدِل على جارها
وأضحت تقيه رب القريض فكفيه البَوَادَى بأشارها
ولكنَّيْل أُولَى بذاك الدلال ومصر أحق ببشارها
فشمّر وعجّل لاهل المآب وخلّ الشام لأقدارها
فكيف أعمري أطقت المقام بأرض تضيق بأحرارها ؟ ...
وأنت الشمّر إثر المظالم سم تسعى إلى نحو آثارها

ويقول على أسان بعض المتصرفين في محبوب نافر ، مفرّضا بالشيخ أبي الهدى الصيادي ، الذي كان يتمتع بنفوذ عظيم في بلاط عبد الحيد ، مشيراً إلى ماشاع من أمر غلامه (شكيب) ، وصلته المريبة به (٢) :

أخرقُ الدفّ لو رأيت شكيباً وأفضُّ الأذكارَ حتى يغيبا
هو ذكرى وقبلى وإمامي وطيبى إذا دعوتُ الطيبا
لو تراني وقد تعمدت قتلى بالتنانى رأيت شيخاً حرّيا
كأن لا ينحنى لغيرك إجملا لا ولا يشتهى سواك حبيباً
لا تعين يا شريك ديبى (إنما الشيخ من يدب ديباً)
كم شربت المدام في حضرة الشيب سخ جهارا وكم سقيت الحليباً ؟
فسلوا سُبْحتى ، فهل كان تسبب يحى فيها إلا شكيباً شكيباً ؟

ويقول ولى الدين يكن ، مشيراً إلى إلقاء أحد الضحايا في مياه البسفور ، بعد اختطافه من بين أهله في ظلام الليل (٣) .

١ الديوان ١ : ١٦٨ .

٢ — الديوان ١ : ١٦٠ ، ويراجع في قصة أبي الهدى وشكيب وهربه إلى مصر سنة ١٩٠١ واستغلال الحديوى عباس له في التشنج بأبي الهدى الصيادي ، وما جرى من مفاوضات لإعادته للأستانة : مذكراتى في نصف قرن ٢ : ٣٤٨ — ٣٥٣ .

٣ — الديوان ص ٦ ، الصحائف السود ص ٧٢ .

في ليلة ايس بها كوكب	كأنما مشرقها مغرب
يمسى سواداً كل ما بينها	فوقها وتحتها غيب
لا يدرك الفكر بها مطلباً	فكل ما يطلبه يهرب
جاموا بمظالم إلى ظالم	قالوا له هذا هو المذنب
بكي وفي الدار بكوا مثله	فكل من في داره ينحب
وقد رأينا حوله صبية	سندب حين أهم تنذب
قالوا أجعلوه مثل أترابه	من كان من مذهبه يذهب
.....
.....
وأقبل الصبح على أيم	وصبية ليس لديهم أب
يا بحر لو تنطق أخبرتنا	ما قال من غيب إذ غيبوا

على أن مثل هذا الشعر الساخط كان أكثر انتشاراً في الشام . وإن كان أكثر أصحابه يكتُمونه فيتداول شفاهاً أو ينشرونه بأسماء مستعارة . وكان أكثر ما يذاع منه ينشر في مصر لما قدمناه في الفصل السابق من أسباب . فن ذلك قصيدة للشاعر سليم عنجورى يروى فيها قصة لص دفعته الحاجة إلى السرقة ، فزج به في السجن . ثم ذهبت زوجته تلتبس نجاته بالرشوة ، فلم يمرض المرتشين من الحكام إلا أن يجمعوا إلى الرشوة متساومتها على عرضها^(١) .

يقول في تصوير قهر اللص الذى دفعه إلى السرقة :

صبية بعضهم يسبق البعب	ض هز الا بفضل سوء الغذاء
وبنات مثل الملائك حسنا	عاريات يتدبن حال الشقاء
حول أم تفرحت مقلتاها	من دواهي الزمان والأرزاء
تشكى البرد . لا كساء يقبها	لذعة الفر ، لا قود اصطلاء

كم نهار، كم آيلة قد قضتها
ظلمات صواعق وبروق
لا بساط ولا فراش وثير
شرفات بلا سدول وسقف
ثم يقول في سعي زوجته لإيقاظه :

زوجة اللص بادرت بعد شهر
حال دون اللقاء حجاب باب
أدخلوها مقصورة ذات عرش
قبلت هذب ثوبه ثم خرت
سأله فكاك زوج أئيم
وحبته بعض المئات تقودا
قال هلاً أقنعت بعض رفاقي
خرجت تذرف الدموع غوارا
رام منها لكي تنال رضاه
نحو مخفي رئيس رهط القضاء
نفحتهم بايرة صفراء
فرقه ماكر كثير الدهاء
فرماها بنظرة الكبرياء
رحمة بالبنات والأبناء
فاحتواها بغلظة وجفاء
فقوام الرموس بالأعضاء
نحو عضوي يعز بالفحشاء
ما إليه نشير بالإيماء

ويحتم قصيدته مقارنا بين اللص الصغير السجين واللصوص الكبار المطلقاء .
فيقول :

لزم السجن زوجها ورجال البه
واللصوص الكبار صاروا قضاء
سلبوا المال الرشوة واستباحوا ال
ولذا قيل : من لنيسيل المعالي ؟
ولذا عدّ معشر الفضل يوما
أبهذا ومثل هذا صلاح ؟
سعى فازوا بسؤدد وعلاء
واللصوص الصغار أهل الشقاء
عرض جهراً وهم من العظام
قيل : هذا وذاك ، دون امتراء
حسبهم من أفضل الأذكاء
لا ، ورب الأنبياء والأنبياء (١)

هذه صور مما كان يذيعه فريق من الكتاب والشعراء عن اضطراب الحكم
المثاني وفساده ، كان لها أثر ملحوظ في مطالبة الناس بتقييد سلطة الحكام ،
وبعزل السلطة الدينية عن السلطة المدنية .

* * *

أما الاتجاه الثالث الذى تأثر أصحابه بالحضارة الأوروبية وهو المطالبة بما
سموه (تحرير المرأة) والدعوة إلى تمكينها من المشاركة فى الوظائف والأعمال
العامة — فقد كان يتصل اتصالاً وثيقاً بالاتجاهين السابقين ، لأنه يعتمد أولاً على
أن الحرية الشخصية قد أصبحت فى العصر الحديث حقاً لكل إنسان — ذكراً
كان أو أنثى — ثم هو يعتمد على تخليص تفكيرنا الاجتماعى من سلطان رجال
الدين ، والزعم بأنهم يصدرون فيما يُجسِّسون وما يحرمون عن اعتبار التقاليد
والأوهام التى ورثناها عن أسلافنا جزءاً من الدين .

وقد كان أهم ما ظهر فى هذا الموضوع كتابين لقاسم أمين — الذى اقترن
اسمه بعد بلقب (محرر المرأة) — وهما : (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) .
وقد طبع الكتاب الأول سنة ١٨٩٩ . وطبع الثانى سنة ١٩٠٠ . وأثار ظهور
الكتابين ضجة شديدة فى ذلك الوقت ، وظلا موضع أخذ ورد فى الصحف
طوال نصف قرن .

أما كتاب (تحرير المرأة) فقد انصرف جهد المؤلف فيه إلى التدليل على
ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى
السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غلب المنهج الغربى
الحديث على كتابه الثانى (المرأة الجديدة) ، فأقام بحثه فيه على الإحصاءات التى
تدعمها الأرقام والوقائع ، وتؤيدها آراء بعض كتاب الغرب ومفكريه .

يرى قاسم أمين فى كتاب (تحرير المرأة) أن الشريعة الإسلامية إنما هى
كليات وحدود عامة . ولو كانت تعرضت إلى تقرير جزئيات الأحكام لما حق
لها أن تكون شرعاً عاماً يمكن أن يجد فى كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها ...

أما الأحكام المبنية على ما يجرى من العادات والمعاملات ، فهي قابلة للتغيير على حسب الأحوال والأزمان . وكل ما تطلبه الشريعة فيها هي أن لا يتخل هذا التغيير بأصل من أصولها العامة ص ١٦٩ ، ولما ظلمنا الاسلام وعرضناه لأن ينسب إليه الغربيون تأخر المرأة الشرقية . ولو كان لدين من الأديان سلطة على العادات لكانت المسئلة في مقدمة نساء العالم ، لأن الاسلام سبق كل شريعة سواه في تقرير مساواة المرأة بالرجل (ص ١١) ، وهو يتناول في كتابه أربع مسائل وهي : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . ويذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين ، زاعماً أن ذلك هو مذهب الاسلام .

أما الحجاب ، فهو يعتبره أصلاً من أصول الأدب يلزم التمسك به . ولكنه يطالب بأن يكون منطبقاً على الشريعة الإسلامية (ص ٥٥) . ثم يقول : إن الشريعة ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة . وإنما هي في زعمه عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم ، فاستحسنوها وأخذوا بها ، وألبسوها لباس الدين ، كسائر العادات الضارة التي تمسكت في الناس باسم الدين ، والدين منها براء (ص ٥٩) . ويورد قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم ، إن الله خير بما يصنعون . » وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، ولا يضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آبائهن ، أو بناتهن ، أو بناتهن ، أو إخوانهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ... » ثم يقول : إن الآية قد أباحت أن تظهر

بعض أعضاء من جسم المرأة أمام الأجنبي عنها^(١) ، غير أنها لم تسم تلك المواضع . وقد قال العلماء إنها وكلت فهمها وتعيينها إلى ما كان معروفا في المادة وقت الخطاب . واتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما شمله الاستثناء في الآية . ووقع الخلاف بينهم في أعضاء آخر كالذراعين والقدمين . ويمضى قاسم أمين في التدليل على فساد الحجاب . فيقول : إن للمرأة حق التعاقد شرعا ، فكيف يتعاقد معها الرجل دون أن يتحقق من شخصها ، ويقول : إن الشرع قد أباح للخطاب أن ينظر إلى المرأة التي يريد أن يتزوجها ، ولكننا ضيقنا على أنفسنا فيما وسع الله . ويرد على الذين يتذرعون بخوف الفتنة فيقول : إن خوف الفتنة يتعلق بقلوب الخائفين من الرجال ، وليس على النساء تقديره ولاهن مطالبات به . ثم يتساءل متبهما (ولماذا لا يؤمر الرجال بالتبرقع خوفا على النساء من الفتنة ؟... هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر على ضبط النفس ؟...)^(٢) ثم ينتقل قاسم أمين إلى الكلام عن الحجاب بمعنى قصر المرأة في بيتها وحظر مخالطتها بالرجال . فيقول : إن الحجاب بهذا المعنى هو تشريع خاص بنساء النبي ، ويستشهد على ذلك بالآيتين : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ** **إِنَّه ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا . فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْصَرُوا ، وَلَا مَسْتَأْذِينَ لِلدَّخُولِ** ، وإن

١ - آية (يَدَايِنُ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَافٍ) واضحة الدلالة في إطالة الثياب حتى تستر الوجه والأماراف . وقوله تعالى : (وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) واضح في ستر شعر الرأس وستر الرقبة وفتحة الثوب في الصدر . فأى شيء قد بقي من أعضاء الجسم حتى يقال إن الآيات أباحت أن تظهر بعض أعضاء من جسم المرأة ؟ أما قوله تعالى (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) فواضح أن المقصود به هو استثناء مالا سبيل إلى ستره ، أو ما تقتضى الضرورة إظهاره . وهو لا يمكن أن يتجاوز اليمين والوجه على كل حال

٢ - رد محمد طامت حرب على ذلك في كتابه (تربية المرأة والحجاب ص ٨٣) بأن وظيفة الرجل هي خارج المنزل . أما وظيفة المرأة فهي في داخله ، فتكليفها بالتبرقع أقل ضرارا من تكليف من الأصل في خلقته - بمقتضى الحكمة الإلهية - وجوده خارج بيته هذا إلى أن الرجل والمرأة كليهما مكلفان بوض البصر والكن المرأة مكافئة - بالإضافة إلى ذلك - بعدم إبداء الزينة والحسن وسترهما .

ذلكم كان يؤذى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذاكم أطهر أنلوكم وقلوبهن . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذاكم كان عند الله عظيما) . و (يا نساء النبي استن كماحد من النساء . إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ...) أما نساء المسلمين عامة فهن فى زعمه منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط . ويستشهد على ذلك بما ينقل عن الطبرى من قصة عمر بن الخطاب وقد دخل عليه ضيف فأمر له بالغداء ، ودعا زوجته (أم كلثوم) إلى مشاركتها (١) .

أما اشتغال المرأة بالشئون العامة ، فهو يقدم فيه بعض الأمثلة التاريخية التى تصور أن عدداً من النساء قد شاركن فى مصالح المسلمين العامة فى صدر الإسلام فيشير إلى مكانة عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما من رواية الحديث ، كما يشير إلى تدخل عائشة رضى الله عنها فى مسألة الخلافة العظمى . وإلى غزو أم عطية مع النبي صلى الله عليه وسلم سبع غزوات حيث كانت تخلف المحاربين فى رحالهم وتصنع لهم الطعام وتداوى الجرحى وتقوم على المرضى ، وهو يرى أن الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والإمامة والشهادة فى بعض

١ — القصة التى أشار إليها قاسم أمين تدل فى حقيقة الأمر على عكس ما ذهب إليه . وهى فى تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٦٠ ، ٢٦٢ (طبعة التجارية ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٩ م) فهى تدل على أن زوجة عمر رضى الله عنه كانت تلتزم الحجاب . فهى تمتنر عند دعوتها للطعام بأنها تسمع صوت رجل . وتروى القصة كذلك أن نساء عمر قد انزعجن حين ارتفع صوته (جئن إلى النـ) واليصوص كثيرة جدا فى شعر العرب وفى المأثور من تاريخهم على أن التزام الحجاب قديم فى نساء العرب وليس طارنا كما زعم قاسم أمين . أما أن التشريع خاص بنساء النبي صلى الله عليه وسلم فهو زعم لا دليل عليه . تكذيبه النصوص التاريخية والفقهية . ولئن شاء المزيد من التفصيل أن يعود إلى مقالين لى عن المجتمع الخلط) و (الجنس الثالث فى عددى جمادى الأولى والآخرة سنة ١٣٧٧ من مجلة الأزهر .

الأحوال إنما روعي فيها عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في الأسرة وحضر الوظائف العامة في الرجال ، وهو تقسيم طبيعي . على أن الإسلام قد خول المرأة حقوقاً عظيمة في كل الأعمال المدنية ، ومنها أهليتها لأن تكون وصية على رجل .

أما عن تعدد الأزواج فهو يقول : إن الإسلام قد أنصف المرأة فيه ، ولكن الفقهاء هم الذين انصرفوا إلى مناقشة الألفاظ . وبوازن بين ما يسميه تعريف الفقهاء للزواج ، وبين وصف القرآن له . فيقول : إن الفقهاء يعرفون الزواج بأنه (عقد يملك به الرجل بضع المرأة) . والله تعالى يقول في شأنه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) . ثم يعلق على ذلك بأن الناظر في التعريف الأول الذي فاض به علم الفقهاء - حسب تعبيره التهكمي - والتعريف الثاني الذي نزل من عند الله (سبحانه وتعالى) ، يرى إلى أي حد وصل انحطاط المرأة في رأى الفقهاء ، وسرى منهم إلى عامة المسلمين . ويبين قاسم أمين أن الإسلام قد منح المرأة حقوقاً لا تقل عن حقوق الرجل . فالله تعالى يقول : (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف) ويقول : (وعاشروهن بالمعروف) ويقول جل شأنه تعظيماً لحقهن (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : (أكل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهلهم) وقد كان صلوات الله عليه يخدم النساء ، حتى إنه كان يضع ركبته على الأرض لتضع زوجته عليها رجلها إذا أرادت الركوب . ثم يزعم أن نصوص القرآن في تعدد الزوجات تحتوي لإباحة وحظراً في آن واحد فالله تعالى يقول (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم . ذلك أدنى أن لا تعولوا ...) .

ويقول : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم . فلا تميلوا كل

الميل فتذروها كالمعلقة . وإن نصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيمًا (فالشارع سبحانه وتعالى — في زعمه — قد علق وجوب الاكتفاء بواحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم صرح بأن العدل غير مستطاع ^(١) . ولكن الفقهاء — في زعمه — هم الذى قصروا ما أوجب الله من العدل بين النساء على النفقة وما شاكلها . ويبين المؤلف أن تعدد الزوجات من العادات القديمة التى كانت مألوفة عند ظهور الإسلام ، ومنتشرة فى جميع الأنحاء . وأنها تتبع حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فتكون غالبية فى الأمة التى تكون حال المرأة فيها منحلة ، وتقل أو تزول عندما تكون حالها راقية . ويقول : إن الشعور بحجب الاختصاص طبيعى فى المرأة كما أنه طبيعى فى الرجل . أو هو على الأقل ميل مكتسب بلغ من النفس الإنسانية بالعادة والتوراث مبلغ جميع الكمالات التى تولدت فى نفوس أفراد هذا النوع عند ارتقائه من أدنى درجاته الحيوانية إلى ما أعده من الكمال الإنسانى ، وأن خير ما يعمل به الرجل هو انتقاء زوجة واحدة . إلا فى حالات الضرورة ؛ كالمريض المزمع ومثل أن تكون عاقراً . أما فى غير ذلك فليس تعدد الزوجات — فى نظره — إلا حيلة شرعية لقضاء شهوة بهيمية .

١ — العدل الذى صرح القرآن الكريم بأنه غير مستطاع هو العدل القلبي : أى العدل فى المحبة ، وهو ما لا يمكن الزوج ولا يستطيعه . ولذلك فهو غير مكلف به . أما العدل الذى يستطيعه والذى هو مطالب به فهو العدل فى المعاملة . وآخر الآية الثانية يدل على المطلوب دلالة واضحة (فلا تميلوا كل الميل) . فالفاء للترتيب ، والذى رتبته الآية السكرية — على ما قررته من صعوبة العدل القلبي التى تبلغ حد الاستحالة — هو أن لا يجمع إلى هذا الانحراف عن العدل القلبي انحرافاً عن العدل المادى فيما يستطيعه من العشرة ، والمعاملة ، فتصبح الزوجة كالمعلقة ، لأمى متزوجة فتستمتع بما يستمتع به المتزوجات ولا يولى عزب تعيش على أمل الزواج . ولو كان المقصود هو تحريم التعدد لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد عدد — وصحابته وكثير من السلف الصالح — وقد كانوا معددين — مخطئين فهم المقصود من الآيات ، أو متخططين لحدود الله عن عمد مع علمهم بالمقصود ، وذلك ما لا يقول به منصف ، فكيف يقوله مسلم ؟ والإسلام على كل حال لا يلزم بالتعدد ، ولكنه يترك ذلك لظروف كل بيئة وكل عصر ، والضمير لكل شخص وظروفه التى هو أعلم بها .

أما الطلاق : فيبين قاسم أمين أنه كان مشروعاً عند اليهود والفرس واليونان والرومان ، ولم يمنع إلا في الديانة المسيحية بعد مضي زمن نشأتها . ثم يقول : إن الذين يريدون بالزواج أن لا يحل عقده إلا الموت إنما يطمحون للكمال المطلق ، ولا يراعون طبيعته البشرية والضرورات التي تجعل الصبر على عشرة من لا تمكن معاشرته فوق طاقة البشر . وهذا هو الذي دعا الأمم المسيحية إلى الضغط على الكنيسة حتى أباحت الطلاق . ولكنه يذهب إلى أن إباحة الطلاق بدون قيد لا تخلو من ضرر ، وإن كانت منافعها أكثر من مضارها ، ولذلك وضعت الشريعة الإسلامية للطلاق أصلاً يجب أن ترد إليه جميع الفروع في أحكامه ، وهو أن الطلاق محظور في نفسه ، مباح للضرورة . ويورد قاسم أمين الأدلة على ذلك من القرآن ومن الحديث . فالله تعالى يقول : (فإن كرهموهن فمضى أن تكثرها شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) (فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما) (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . والصلح خير . وأحضرت الأنفس الشح . وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) وجاء في الحديث (أبغض الحلال عند الله الطلاق) (لا تطلقوا النساء إلا لريبة . إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات) . والإمام علي رضي الله عنه يقول : (تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز منه العرش) . ثم يقول : إن الأصل في الطلاق الحظر ، والإباحة للحاجة إلى الخلاص . أي أنه محظور إلا لعارض يبيحه . ولكن الفقهاء - في زعمه - لم يراعوا في التفريم تطبيق هذا الأصل الجليل على طريقة واحدة متساوية ، ولم تطرد طريقةهم على وتيرة واحدة في تطبيق الأحكام على الوقائع . ويورد أمثلة من بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالطلاق ويناقشها . ثم يقول : إنه لا ينبغي أن يقع الطلاق بكلمة مجرد التلفظ بها مهما كانت صريحة . فاللفظ لا يجب الالتفات إليه في الأعمال الشرعية ، إلا من جهة كونه دليلاً على النية . وينتهي المؤلف إلى مشروع قانون للطلاق لا يتم فيه الطلاق إلا أمام

القاضى فى وثيقة رسمية بحضور شاهدين ، بعد نصح الزوج أولا ، ثم تحكيم أهل الزوج وأهل الزوجه ثانيا . على أن يتقدما بتقرير فى حالة إخفاق مساعدهما فى الصلح^(١).

ذلك عرض موجز لكتاب (تحرير المرأة) . يتضح منه منهج المؤلف فى الترفيق بين الإسلام وبين مذاهب الغربيين ، وهو يعرض فى خلال كلامه لبيان المضار الناشئة عن الجهل والحجاب . فالمرأة التى تبيع جسدها ليست مدفوعة بالشهوة ، ولكن الذى يدفعها إلى ذلك هو الجهل والعجز عن كسب قوتها من طريق شريف . والنقص الذى نشاهده فى أخلاقنا ، وما أصابنا من فتور وقلة اكتراث ، وما ابتليتنا به من بلادة فى الإحساس وفى تذوق الجمال ، كل ذلك إنما هو ناشئ من نقص تربيتنا الأولى التى تقوم عليها الأم ، والتعليم وحده لا يكفى - فى نظر قاسم أمين - لتكوين المرأة تـكـوينا سليما يجعل منها أداة صالحة للقيام على الأولاد وعلى خلق الرجال ، فلا قيمة للقراءة إذا لم تؤيدها التجربة والمشاهدة . ولذلك فهو ينادى برفع الحجاب ، لأن حجاب المرأة فى منزلها يحبسها فى هذا العالم الضيق ويحول بينها وبين العالم الحى ، عالم الفكر والحركة والعمل . ويجعلها لا ترى ولا تسمع ولا تعرف إلا ما يقع فى عالمها الضيق من سفاسف الأمور .

ولا يخلو الكتاب من تمـكـم بما يسميه (جمود رجال الدين) وبعض كلامه يصيب الحقيقة فى مثل قوله مشيراً إلى انصراف المشتغلين بالعلوم الإسلامية عن دراسة العلوم الحديثة ، من رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشتون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شىء لا يعينهم وصار منتهى علمهم أن يعرفوا فى لغراب البسمة ما يزيد - من غير مبالغة - على ألف وجه على الأقل . يزعمون أنهم وكلوا جميع أمورهم إلى ما يجرى به القضاء ، مع أنك تراهم أشد الناس احتيالا فى طلب

١ - لا شك أن فى ذلك تقييد لما أطلقه الله . ويستطيع التدبر البصير أن يدرك ما يترتب عليه من مضار لا محل للافاضة فى ذكرها هنا . والمهم فى الأمر هو أن هذه الآراء التى يحتال المؤلف لإلباسها أثواباً إسلامية من نصوص القرآن والحديث ، هى فى حقيقة أمرها آراء غريبة . فتصوره للعلائق الزوجية مستمد من العادات الغربية والقوانين الكفنية .

الرزق من غير وجهه ، وأحرصهم على حفظ ما يجمعون من الخطأ ، وإنل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة . ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم - ص ١٠٨ ، وبعض هذا التهمكم ينطوى على التجنى والتعامل ، والذي يطلع عل كتب الفقه يندهش عندما يرى اشتغالهم بتأويل الألفاظ ، والتفنن في فهم معانيها في ذواتها ، بقطع النظر عن الأشخاص . لهذا قصروا أبحاثهم جميعاً على الكلمات والحروف ، وامتلات السكتب بالاشتغال بفهم : طلقك ، وأنت طالق ، وأنت مطلقة ، وعلى الطلاق ، وطلقت رجلك ، أو رأسك ، أو عرقك وما أشبه ذلك . على أننا نظن أن علم الشرائع يقبل أبحاثاً أخرى غير تأويل الألفاظ . والطلاق لم يخرج عن كونه عملاً شرعياً يترتب عليه ضياع حقوق جديدة . وهو في حد ذاته لا يقل عن الزواج في الأهمية ، حيث يتعلق به أعظم الحوادث المدنية ، كالنسب والميراث والنفقة والزواج . فالاستخفاف به إلى هذا الحد أمر يدهش حقيقة كل من له إلمام - ولو سطحي - بالوظيفة السامية التي تؤديها الشرائع في العالم - ص ١٥٣ .

من هذا العرض يبدو واضحاً أن السكتاب ليس كتاب فقه ، وأن صاحبه ليس فقيها يعرض لشرح النصوص الإسلامية شرحاً نزيهاً ليستنبط منها ^(١) . ولسكتبه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف أن يستخر النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الأدلة العقلية . وهذا الاتجاه الذي يفسر النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ محمد عبده متذرعاً إليه بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذي زعم أن الفقهاء قد أغلقوا بابه . وهو يدعو إلى الملامة

١ - بل المعروف المشهور أن مؤلف السكتاب ليس له إلمام بالعلوم الإسلامية . ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه في الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أستاذ قاسم أمين .

بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وسوف نعود للكلام عن هذا الانجاء بعد قليل .

وقد أثار كتاب (تحرير المرأة) موجة من المعارضة كان أكثرها مقالات صحفية . وليس فيها من الكتب إلا كتاب (تربية المرأة والحجاب) لمحمد طلعت حرب ، الذي اقترن اسمه من بعد بشئون الاقتصاد والمال .

ولم يلبث مؤلف (تحرير المرأة) حين واجه هذه المعارضة وأخرجته أن يكشف عن أهدافه الحقيقية في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً . فالتزم فيه مناهج البحث الأوروبية الحديثة التي ترفض كل المسلمات والقصائد السابقة . سواء منها ما جاء من طريق الدين وما جاء من غير طريقه ، ولا تقبل إلا ما يقوم عليه دليل من التجربة أو الواقع ، على حسب ما يفعله باحثوا الاجتماع الأوروبيون ، وهو ما يسمونه (الأسلوب العلمي) .

طلب قاسم أمين إلى المصريين أن يتخلصوا مما وقر في نفوسهم من أن عاداتهم هي أحسن العادات ، وأن ما سواها لا يستحق الالتفات . وقال إن : طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجرى نقده للحوادث الاجتماعية على أسلوب علمي (ص ٧٥) ونبه في موضع آخر من كتابه إلى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمي ، إذا أردنا أن نصل إلى نتيجة صحيحة في معرفة حقوق النساء . فينظر في الوقائع التي تمر أمامنا ، فتصور نظريتنا مطبقة في قرية ، ثم في مدينة ، ثم في إقليم ، وتمثل الفساد في جميع أعمارهم وأحوالهم وطبقاتهم ، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل . وتصورهن في المدرسة ، وفي البيت . وفي الغيط ، وفي الدكان وفي المصانع ، ثم نستعرض حال النساء في غير بلادنا . ونقف على حالة المرأة في الأزمان الحالية والتقلبات التي طرأت عليها (ص ٨٣) . وبين قاسم أمين في موضع ثالث من كتابه أن معظم الكتاب يبنون أحكامهم على الشهوات . وإن وجد بينهم المنصف

كان نصيبه أن يتهم بالتجرد عن الوطنية والعداوة للدين والملة . وأشدّهم اقتصاداً في ذمه يرميه بالطيش والخفة ، توهماً منه أن الاعتراف بفضل الأجنبي مما يزيد طمع الأجانب فينا . والواقع أن السبب في طمع الأجانب فينا ليس هو اعترافنا بانحطاطنا ، وإنما هو ذلك الانحطاط نفسه (ص ١٩٤) . ويؤكد في موضع رابع من كتابه أن العلم ليس منافياً للإحساس الديني كما يزعم كثير من الناس (١) . ويضرب لذلك مثلاً بالذي يثنى على مؤلف عظيم قبل أن يقرأ كتبه . ثم يتسامل : فهل إذا قرأها يضعف شعوره بعظمته ؟ ويؤكد أن خدمة العلم هي عبادة ، لأنها اعتراف ضمني بأن للمخلوقات قيمة عالية ، وذلك يعود — حسب زعمه — حتماً إلى الاعتراف بعظمة خالقها . هذا إلى أن الاشتغال بالعلم يقوى حكم العقل ويهذب النفس وينمى الإحساس الديني ، لأنه يكسب صاحبه الاعتماد على ضبط النفس ، الذي هو من أهم أركان الأدب (ص ٢٠١ - ٢٠٢) .

ويناقش قاسم أمين في كتابه (المرأة الجديدة) بعض حجج المعارضين لسفور المرأة ومشاركتها الرجل في الأعمال ، مثل قولهم : إن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وإنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات . . فيرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجي والتجربة في البلاد التي منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل في الملكات . كما يرد عليه بأن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلاً ومنصفاً ومستوفياً لشرائط

١ — لم يزعم أحد ذلك . ولكن الذي يقوله المتمسكون بالدين والداعون إلى سبيله : هو أن هذا الذي نتقاه عن الأوروبيين أو الأمريكيين وثق فيه ثقة عمياء ونسبوه (علما) ليس (علما) بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة لأنها لا فيما يتصل بالفروع التجريبية كالطبيعة والكيمياء والهندسة والطب . أما ما يتصل منه بالنفس وبالفتن الاجتماعية والأخلاق فهو لا يزيد عن أنه فروض لحل بعض المشكلات ، ولتعليل ما غاب عن الحس . ولذلك فهو موضع الخلاف والأخذ والرد بين دارسي الغرب أنفسهم . ولو كانت له حقيقة ثابتة ما اختلفوا فيه . ولا ينبغي أن ننسى أن بعض هذه الدراسات — لا سيما الدراسات النفسية والاجتماعية — وقد أصبحت دراسات موجهة تسخر لخدمة المذاهب والأحزاب السياسية المختلفة وبعضها يتذرع باسم (العلم) إلى هدم الدين والأخلاق ومحو الشخصية القومية ، خدمة لأهداف سياسية استعمارية ترمى إلى توهين الجامعة الوطنية أو الدينية .

البحث العلمى المحايد إلا إذا منحنا المرأة الفرصة التى مُنحها الرجل لتثقيف عقله وتدعيم ملكاته خلال الأجيال الطويلة ويرفض قاسم أمين أن يصدق ما يذاع من أثر حرارة الجو فى إثارة الشهوة ، مما يتذرع به الداعون إلى الحجاب فى البلاد الشرقية الحارة ، ما لم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمى . ويستشهد بكلام كاتب إيطالى يقول إن العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة، وإن اختلاف الأجواء لا أثر له فى ذلك، ويعتمد المؤلف على الدراسات النفسية الحديثة وعلى علم وظائف الأعضاء فى التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما من أهم ما يعين الإنسان على ضبط نفسه ، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الإنسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء . ثم يطبق هذه النتائج العلمية على نساءنا ، فيزعم أن نظام الحياة عندنا يبعث فى المرأة شدة الميل إلى الشهوات ، لأن سجنها والتضييق عايقا فى وسائل الرياضة يعرضها دائماً لضعف الأعصاب . ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . ثم يقول : إن زيادة الحبحر على البفت كلما تقدمت فى السن والنشدد فى نهيا عن مخالطة الرجل ، يلفت ذهنها فى سن مبكرة إلى ما بين الجنسين من اختلاف . هذا إلى أن الألفاظ والصور المحركة للشهوة التى تستقر فى نفس الطفل والصبي من الأحاديث التافهة التى تترامى إلى أذنه بغير تحفظ من أحاديث الأمهات الجاهلات ترك أثرها العميق فيه .

ويقول قاسم أمين : إن الحرية فى الحياة السياسية هى منبع الخير للإنسان وأصل ترقيته وأساس كماله الأدبى . ثم يطبق ذلك على المرأة ، فيقول : عاشت الأمة المصرية أجيالا فى الاستعباد السياسى . فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً فى جميع مظاهر حياتها : انحطاط فى العقول ، وانحطاط فى الأخلاق ، وانحطاط فى الأعمال . وما زالت تهبط من درجة إلى أسفل منها حتى انتهى بها الحال إلى أن تكون جسماً ضعيفاً عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان . فلما تخلصت من الاستعباد رأت نفسها فى أول الأمر فى حيرة لا تدرى معها ماذا تصنع

بحريتها الجديدة . . وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء . أول جيل تظهر فيه حرية المرأة نكسر الشكوى منها ، ويظن الناس أن بلاء عظيماً قد حل بهم ، لأن المرأة تكون في دور التمرين على الحرية . ومع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال محريتها وأشعر بواجباتها شيئاً فشيئاً ، وترتقي ملكاتها العقلية والأدبية . وكلما ظهر عيب في أخلاقها يداوى بالتربية ، حتى تصبح إنساناً شاعراً بنفسه . د ص ٧٠ ، ٧١ ، ثم يبين المؤلف أن النمو الأدبي لا يختلف في سيره عن النمو المادى ، فالطفل يحبو قبل أن يمشى . ثم يتعلم المشى بالتدريج مستنداً إلى الحائط أو إلى قائد يقوده ، فإذا استقل بالمشى لم يحسنه إلا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات . فلا ينبغي أن نكون كالأب اللاحق الذى يخاف على ولده إذا مشى أن يسقط على الأرض فيمنعه من المشى ، حتى إذا كبر عاش مقعداً مشلول الرجلين .

ويقسم المؤلف مسؤوليات المرأة إلى ثلاثة أقسام (١) ما تحفظ به نفسها (٢) ما تفيد به أسرته (٣) ما تفيد به المجتمع الإنسانى . وهو يهمل الكلام عن القسم الثالث الذى يتصل بمشاركة المرأة في الأعمال العامة ، لأن دورها فيه لم يكن في نظره قد جاء وقتذاك . ويقول في القسمين الآخرين : إنه مهما اختلف الناس في فهم طبيعة المرأة ، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قوتها الحيوية ، وتعدّها للقيام بحاجات الحياة الانسانية وضرورتها ، كما أنها لا تستغنى عن الأعمال والمعارف التى تتعلق بواجباتها في الأسرة . ثم يقول : إننا قد ورثنا الصورة التى كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم حسب زعمه — على الغزو والنهب ، ومن ثم لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به في الدولة . ثم لم يكن لها نصيب في تربية الولد ، لأن تربيته كانت مقصورة على تغذية جسمه ، ليشب مقاتلاً لا عالماً فاضلاً . وصورة المرأة هذه التى ورثها المسلمون — حسب زعمه — عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس إلى الماضى ؛ ولكنها مزرورة إذا نظرنا إلى الحال والمستقبل ، لأن الحالة الاجتماعية والاقتصادية قد

تغيرنا تغيراً تاماً ، فقد اتسع الميدان لتجادل العقول . والمرأة لإنسان مثل الرجل ، زينت الفطرة بموهبة العقل . فمن حقها أن تسمو إلى مرتبة الرجل أو ما يقرب منها على الأقل . ويعتمد قاسم أمين على إحصاء سنة ١٨٩٧ ، الذى يدل على أن عدد النساء اللاتي يشتغلن بحرفة أو صنعة قد بلغ $\frac{٦٣}{٣١}$ وهو يساوى $\frac{٢}{١٠}$ من جملة النساء ، ولا يدخل فيه الفلاحات اللاتي يشتغلن بالزراعة ، ولا الأجنبيات اللاتي تبلغ نسبة المحترفات فيهن $\frac{٢٠}{١٠٠}$ ، كما لا يدخل فيه النساء اللاتي لا عائل لهن ممن يعيشن عالة على أقاربهن ، أو ممن يستعملن لكسب العيش وسائل لا يعترف بها . ولا يدخل فيه الزوجات اللاتي لا يكفي كسب أزواجهن لضرورات معاشهن ومعيشة أولادهن . ثم يتساءل قاسم أمين : أفلا ينبغي لهذا العدد من النسوة اللاتي تقضى عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعينهن في معركة الحياة ؟ ... والمؤلف يسلم بأن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد . ولكنه يرى أن من الخطأ أن نبني على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة . ففي النساء من لم تتزوج ، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت ، وفيهن المحتاجات لمعاونة الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله . وفي المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد . ثم يعجب قاسم أمين للذين يعارضون تعليم المرأة . فهم يبيحون للمحتاجات ممن أن يعلمان ، ويقولون : إن الضرورات تبيح المحظورات . ولكنهم يفسون أن مذهبهم هذا ليس له إلا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتنة ، كالخدمة في البيوت ، وبيع السلع الزهيدة في الطرقات .

أما القسم الثانى الذى يتكلم المؤلف فيه عن مسؤولية المرأة أمام أسرتها ، فهو يعتمد فيه على إحصائية وفيات الأطفال في القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى أن عدد الموتي من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتي من أطفال لندن ، ويرجع ذلك إلى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية .

وهو يقول : إن المرأة الممذبة الحرة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها نفوذ عظيم في أمرتها . أما المرأة الجاهلة المستعبدة ، فلا يمكن أن يتجاوز نفوذها نفوذ رئيسة الخدم في البيت . فالمرأة المصرية الجاهلة لا تعرف كيف تعاشر زوجها ، ولا يمكنها أن تدير بيتها . ولا تصاح لأن تربي أولادها . ذلك لأن أعمال الإنسان تصدر عن أصل واحد هو علمه وإحساسه . فإن كان هذا الأصل راقياً كان أثره في كل شيء كبيراً نافعاً حميداً . وإن كان منحطاً كان أثره في كل شيء حقيراً ضاراً غير محمود . ويضرب المؤلف أمثلة لفساد تربية الأبناء من أثر جهل الأم ، مثل منع الطفل من اللعب كي لا يشوش عليها ، ومثل تخويفه بموهومات تثير في ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ومثل وعده بوعود لا تنفي بها إذا أرادت مكافأته ، وإظهار الغضب عليه ونهره بالصوت الشديد وإزعاجه بالتهديد ، ثم ضمه وتقبيله وإظهار غاية الندم حين تشاهد انفعاله نتيجة ما أتت .

ويتساءل المؤلف عن علة تأخر الأمم الإسلامية . ويفترض لذلك ثلاثة أسباب ، هي الإقليم ، والدين ، والأسرة . ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر في الجسم والعقل تأثيراً سيئاً . ولأن المسلمين قد برهنوا في ماضيهم على أن دينهم عامل من أقوى العوامل للترقي في المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين إلى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التي لا تدين بالإسلام تشاركهم في ذلك ، لأن وضع المرأة فيها لا يختلف عن وضعه في الأمم الإسلامية . ويقول المؤلف : إن العلوم التي يتلقاها الأبناء في المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيء إلى باطن نفوسهم ، فتكون داعية للعمل حافزة إليه . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم في أول السن ، وهذا الوجدان الذي هو المحرك الوحيد للعمل ، لا يظهر ولا يقويه ولا ينميهِ إلا التربية البيتية ، ولا عامل لها في البيت إلا الأم . فهي التي تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل ،

وتفرد في نفسه الأخلاق الجميلة . وتنفث فيها روح العواطف الكريمة .
ص ١٣٨ - ١٣٩ . ويختتم كلامه عن هذا القسم بقوله . « ولكن المتأمل إذا
روى في الأمور يجد أن لسير الإنسانية قوانين خاصة يجب مراعاة أحكامها
لنمو الحياة واستكمال قواها ، سواء في الأفراد أو في الجماعات ، . وأن كل مخالفة
لهذه القوانين لها أثر سيء وضرر عظيم يلحق الفرد أو الهيئة الاجتماعية . فالتعويل
على حرمان المرأة من حريتها في انتقاء ضرر سوء استعمال ذلك الحق ربما يفيد في
منع بعض النساء من إتيان ما ينشأ عن ذلك الضرر . ولكن من المحقق أنه بجانب
هذه الفائدة الخاصة المؤقتة يجاب ضرراً عاماً مستمراً ، وهو تعطيل النمو في
ملكات صنف النساء بتمامه ص ١٥٤ » .

وقد انتم كتاب (المرأة الجديدة) — إلى جانب هذا الطابع الغربي الذي يعتمد
على آراء مفكرى الغرب ، ويصطنع أساليبهم في الإحصاء وفي الدراسات النفسية
والاجتماعية والتجريبية (١) — بمهاجمة علماء الدين الذين هاجموا من قبل هجومًا عنيفاً
واتهموه بالتفرد وبتأيد تقاليد الاسلام عندما نشر كتابه الأول (تحرير
المرأة) . وقد جرت مهاجمة رجال الدين إلى القسوة في الحكم على الحضارة
الإسلامية في بعض الأحيان . فقد كان معارضوا قاسم أمين يرون أن نهضتنا
يجب أن تعتمد على تراثنا القديم وعلى حضارتنا الاسلامية وحدها . فهو يرد على
ذلك بأن الحضارة الاسلامية قامت على دعائمين : الأساس الديني الذي كوّن
من القبائل العربية أمة واحدة ، والأساس العلمي الذي ارتفعت به الأمة
الاسلامية وآدابها . ثم يزعم أن العلم كان وقتذاك ضعيفاً في أول نشأته ،
وكانت أصوله ضرباً من الظنون التي لم تؤيدها التجربة . ولذلك كانت قوة العلم
ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعهم تحت رقابتهم ،
وزجوا بأنفسهم في المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص

١ — تراجع أمثلة لاعتماد قاسم أمين على آراء الغربيين في كتاب المرأة الجديدة ص ٨ — ١٧
٤٤ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨٣ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٧ .

القرآن والحديث التي يؤولونها . وبذلك حملوا الناس ، حسب زعمه ، على إساءة الظن بالعلم ، فنفروا منه وهجروه ، وانتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأن العلوم جميعاً باطلة إلا العلوم الدينية . بل قالوا في العلوم الدينية نفسها إنها يجب أن تزف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقهقمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة ، واستطاع العلم أن يشيد بناء متيناً لا يمكن له أن يفكر في هدمه . وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وابتغى قاسم أمين من هذا العرض إلى أن التقدم الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الغطاء عن أصول العلم . فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التقدم كان نموذج الكمال البشري ؟ ثم بين أن كثيراً من ظواهر التقدم الإسلامي لا يمكن أن تدخل في نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية . ويضرب الأمثلة من نظم هذا التقدم في الحكم ، وهي في رأيه أقل من المستوى الذي بلغه اليونان والرومان في كفاءة الحريات ^(١) كما يضرب أمثلة من نظام الأسرة ليبين أنه كان غاية في الانحلال ، وأن الفرق ، واسع بينه وبين النظم والقوانين التي وضعها الأوروبيون لتأكيد روابط الأسرة . ويختم ذلك مقسأثلاً : إذا كانت هذه حالهم ، فما الذي يطلب منا أن نستعيره منها ؟ ... وأى شيء منها يصلح لتحسين حالنا اليوم ؟ ... ثم يقول : متى تقرر أن المدنية الإسلامية هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه ، لا بما كانت في الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيان عندنا بعد ذلك أن احتجاج المرأة كان من أصولها أو لم يكن . وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كن يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح . فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا من ١٨٣ ،

١ — هذه المقارنة بين الحضارة الإسلامية وبين الحضارة اليونانية الرومانية وترجيح كفة الأخيرة بين أن المعين الذي كان يستمد منه قاسم أمين وأضرابه هو كتابات التحرير في أوروبا *Liberals* الذين كانوا يحرقون الحضارة المسيحية ويعدون الحضارة اليونانية واللاتينية في جاهليتهما الوثنية السابقة على المسيحية .

و يدعو قاسم أمين في آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية . فيقول - بعد أن يبين أن إعجابنا الشديد بالماضى هو نتيجة لشعورنا بالضعف والعجز : « هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه وليس له دواء إلا أننا نرى أولادنا على أن يتعرفوا بشئون المدنية الغربية ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها . إذا أتى ذلك الحين - ونرجو أن لا يكون بعيدا - انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة . وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم . لهذا نرى أن الأمم المتقدمة على اختلافها فى الجلس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شكل حكومتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها وأغاثها وكتابتها ومبانيها وطرقها . بل فى كثير من العادات البسيطة كاللباس والتحية ولأكل ^(١) هذا هو الذى جعلنا (نضرب الأمثال بالأوربيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية) « ص ١٨٥ - ١٨٦ » .

ويختم قاسم أمين كتابه بالإشارة إلى أن ما انبعث فى الشرقيين من شوق إلى مجارة الغربيين ، بعد أن اختلطوا بهم فبينوا سوء حالتهم الاجتماعية حين قاسوها بحالة الغربيين . ويقول : « إن الكتاب والمرشدين قد فاتهم أن كلامهم لا يترك أثرأ إلا إذا وصل إلى النساء ، اللاتى هن حجر الزاوية فى تربية الأجيال .

١ - يشير قاسم أمين إلى اتفاق الأمم الأوروبية و آداب الاجتماع وفى الكتابة بالحروف اللاتينية وفى ارتداد أكثر لغاتها إلى أصول يونانية لاتينية . ومن الحروف أن قاسم أمين كان يدعو إلى ثورة فى لغة الأدب وخطة ثورته الاجتماعية . فنسلخ من لغة القرآن ونكتب آدابنا بلمجاتنا العامة على نحو ما انسلخت اللغات الأوروبية الحديثة من أمها اللاتينية . ونعبر فى خطنا عن الحركات بحروف تدخل فى بنية الكلمة على طريقة الكتابة بالحروف اللاتينية .

فلذا أراد المصريون أن يصالحوا سالحهم ، فعلمهم أن يبدؤوا الإصلاح من أوله . وهذه الحقيقة مع بساطتها وبداهتها قد اعتبرها الناس يوم جاهرنا بها في العام الماضي ضرباً من الهذيان . وحكم الفقهاء بأنها خسر في الإسلام وعدّها الكثير من متخرجي المدارس مبالغة في تقليد الغربيين . بل انتهى بعضهم إلى القول بأنها جناية على الوطن والدين . وأوهوا فيما كتبوا أن تحرير المرأة الشرقية أمنية من أماني الأمم المسيحية تريد بها هدم الدين الإسلامي ، ومن يعصدها من المسلمين فليس منهم ، إلى غير ذلك من الأوهام التي يصفى إليها البسطاء ، ويلتذذ باعتقادها الجهلاء ، لعدم إدراكهم منافمها الحقيقية . ونحن لا نرد عليهم إلا بكلمة واحدة ، وهي أن الأوروبيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا . فما عليهم إلا أن يتركوا لأنفسنا ، فإنهم لا يجدون وسيلة أوفى بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة .

ص ٢١٥ - ٢١٦ .

إلى جانب هذه الطائفة التي كانت نحاول النهضة بمصر وبالشرق وبالمسلمين عن طريق الأخذ بأساليب الحضارة الغربية التي هي في زعمهم أكثر ملاءمة للعصر كان هناك فريق آخر يرى أن الأمم الإسلامية التي سقطت تحت أقدام الغرب لا يمكن أن تنهض على أساس اعتناق مبادئ الغرب ، لأن هذا لا يؤدي إلا إلى إفناء نفسها فيه ، ولا ينتهي إلا إلى إعجابها بمستعبدتها ، وسكونها لإلهم ، وأنسها بهم . وعند ذلك لا تجد في نفسها ما يحفزها للتخلص منهم ، لأنها ستفقد إحساسها بأنهم غرباء عنها . لذلك نادى هذا الفريق من المصلحين بأن النهضة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس التمسك بديننا وتقاليدنا .

وقد كان من أشد ما أفرع أصحاب هذا المذهب أن شباب المسلمين - بمن فتنتهم المدنية الغربية - قد استقر في وهمهم أن النسبة إلى الدين مسبة ، وأن الظهور بالمحافظة عليه معرة ، حتى لقد احتاج أديب من أدياء ذلك العصر وهو الشيخ

طه حسين إلى أن يعتار من بدء محاضرة له في اللغة والأدب بحمد الله والصلاة على نبيه فقال : « سيضحك مني بعض الحاضرين إذا سمعوني أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر (١) » .

وأصبح الإعجاب بكل وافد من الغرب وهما مساطراً على الناس ، حتى لقد احتاج الداعون بدعوة الإسلام إلى أن يعزبوا للناس الأمثال بزعماء الغرب ممن يحترمون دينهم ولا يرون الوطنية إلا شعبة من الإيمان . وهذا هو محمد عبده ينقل عن بسمارك قوله : «^(٢) لو تقيضت عقيدتي بدين لم أخدم بعد ذلك سلطاناً ساعة من زمان . إذا لم أضع ثقتي في الله لم أضعها في سيد من أهل الأرض قاطبة . لكن انظروا إلى تجدوني ماضياً من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده . فلماذا أشتغل ؟ ... ولم أجد نفسي في العمل ؟ ... ولم أَرْضها للهموم والآلام ؟ ... لا يبعثنى على شيء من هذا إلا شعوري بأنني في جميع ذلك أعمل على لوجه الله . اسلبوني هذا الإيمان تسلبوني محبتي لوطني .. اعلموا أنني لو لم أكن مسيحيّاً مخاصماً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني » .

واتجه الشعراء إلى تدعيم هذه الفكرة وإقرارها وإحلالها محل العقيدة من الشباب ، بتذكيرهم بمجد الإسلام القديم .

يقول محرم : «^(٣)

تذكر ماضى دينه فتوجعنا وأحزنه ما نابه فتفجعنا
وأهلنا من قومه أن قومه بهمياء بأبي غيمها أن يقشعنا
وكانن دعاهم بالقوافي إلى الهدى فلو أسمع الصم الدعاء لاسمعنا

١ — مجلة الهداية عدد أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩١١ ص ٧٦١ .

٢ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٨١ — من مقال له عن (بسمارك والدين) نشر في صحيفة

النار ٢١ يناير سنة ١٨٩٩ .

٣ — ديوان محرم ١ : ١١١ .

فإليته لم يسمع الصّوت إذ دعأ
مهاذا وقد كان المزيّز الممّعا ؟
أراها بأيدي القوم نهبا موزعا
جرا به حتى وهى وتضعضها
ولا أن أراه بعد أمن مروعا
وايس عجيبا منه أن يتصدعا !!

إذا دلف العادى إلينا فأسرعا
وإن جدّ ساعينا على إثر من سعى
ويصبح منهم موطن النوى بلقما
وحقّى يكرّونا ساجدين وركعا
ويثبت من بيناهم ما ترععا

جنّاته من يربد النار مسرورا
ولا يخافن فيق الأرض محذورا ؟
فرضى تهم وتمضى جنة حازورا ؟
ليل العماية فابعث فيهم النورا
تجلى اليقين وتمحو الشك والزورا

وآلائه العظمى وآياته الكبرى
فما يملك المحزون من أجله صبورا

لقد زادم ذاك الدعاء ضلالة
وكيف وجوم الرء أصبح دينه
... هم ضيعوا ما استودعوا من نفائس
وهم خذلوا الدين القويم وزعزعوا
... وما كنت أخشى أن أرى الدين ذلة
تصدع قلبي رحمة لمصابه
ويقول (١) :

هل الدين إلا معقل نختمى به
هو الذيق، إن يذهب فلا عز بعده
ولادين حتى ينزعوا عن ضلالهم
وحقّ يصوروا للكتاب زمامه
هنالك يقوى منهم ما تضعضما
ويقول (٢) :

ياداعى الله مبد الصوت رادع إلى
أما ترى الناس لا يبنون صالحة
أما تراهم كأنعام مشردة
ياداعى الله إن القوم قد لبسوا
أطلع لهم من كتاب الله بيّنة
ويقول (٣) :

أما وجلال الله في ملكوته
لقد فدح الخطيب الذى هال دينه

١ - ديوان محرم ١ : ١١٣ .

٢ - > > ١١ : ٨١ .

٣ - > محرم ٢ : ٨٢ .

الأنهضة بكريّة عُمريّة تعيد إليه مجده تارةً أخرى
وما أنا من رُوح الإله بآيس وإن ملأ الهم الجوامح والصدرا
فيارب لا تبعثني إلى منبى إلى أن أرى البعث المومل والنشرا
وهون خطوب الدهر إن حان حينها

وطمئت على الأحياء ترهقهم عسرا

وبين لهم الكاشف أن الغرب لم يتقدم إلا حين أخذ بتقاليد الإسلام في
الكفاح وفي طلب العزة والسعى للمجد ، وأن المسلمين لم يتخلّصوا إلا حين تخلّوا
عما أمرهم به دينهم من ذلك . ولذلك فهو يدعو الشرقيين إلى مجاراة الغربيين
في الأخذ بأسباب القوة ؛ لأنهم أحقّ منهم باتباع ما جاء به الإسلام فيقول^(١) :

بني الشرق ؟ أدعوكم إلى خير منهج يعيد إليكم نضرة العيش ثانيا
لجادوا بني الغرب الذين تشبهوا بأجدادكم حتى تقالوا المعاليا
وأتمم بتقليد الجدود أحق من عدى سلبوكم مظهرأ كان زاهيا
أمركم أن المحارم تستحي ولم تاق فيكم عن رحاما محاميا ؟
وأعجبكم أن الطرائق تعتنق ولم ترونكم يا بني الشرق واقيا
وإن لكم سيفاً من الدين ماضيا يفل إذا جردتموه المواضيا
فأحيوا به نهج النبي وجددوا مقاما لدين الله أصبح باليا
ورُدوه حتى تستعيدوا شبابه نضيرا وإلا عاش ظمآن ذاوبا
كفاه اكتسابا ماضى من سكوتكم وغفلتكم عن أمره وكفانيا ١١
فأرضوه عنكم باقتهاج طريقه لأجل الدنيا إذا بات راضيا
هنالك نحيا في نعم ونضرة ونأمن عدوان العدى واللياليا

وغذى معظم الشعراء هذا الاتجاه الإسلامي ، بما كانوا يلبشرون من شعر
بمجد أبطال الإسلام ، ويستلطف الموعظة من تاريخهم ، ويقدم القدوة الحسنة

للشباب من حياتهم وكان شوقى أبرز الشعراء الذين غزوا هذا الاتجاه في قصائده الإسلامية المتعددة .

فقد أبرز فيها ما يحرص عليه الإسلام من دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة . وابتغاء العزة واستهداف السيادة ، جرياً على نوااميس الكون التي تقوم على التنافس بين الأفراد والأمم :

فيقول في (نهج البردة) التي نشرها سنة ١٩١٠ (١) :

قالوا غزوت ، ورسُلُ الله ما بعثوا	أقتل نفس ، ولا يجاموا لسفك دم
جَهْلٌ وتَضْلِيلٌ أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بهد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب	تكفل السيف بالجهل والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضفت به	ذرعاً ، وإن تلقه بالشر ينجم
كل المسيحية الغراء ، كم شربت	بالعصاب من شهوات الظالم الغريم
طريدة الشُّرك يؤذيها ويوسمها	في كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا محامه لها هبّوا لتُضمرتها	بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ويقول من قصيدة له ، كتبها سنة ١٩١١ ، في استقبال الأسطول العثماني (٢) :

زدهم أمير المؤمنين من القسوى	إن القسوى عزٌ لهم وقوام
الملك والدُّولات ما يبنى القنا	والعلم ، لا ما ترفع الأحلام
والحق ليس وإن علا بموید	حتى يحوط جانبيه حمام
خط النبي براحتيه خندقا	ومنى يحيط به قنأ وسهام
يامعشر الإسلام في أسطوابكم	عزٌ لكم ووقاية وسلام
سيلُ الممالك جارف من شدة	وقوى ، وأقم في الطريق نيام
حب السيادة من شمائل دينكم	والجهد روح منه والإقدام

١ - الهلال . عدد لبرابر سنة ١٩١٠ ص ٣١٤ . الديوان ١ : ٢٥١ .

٢ - الديوان ١ : ١٨٤ ، ١٨٦ . نشرت في مجلة الهلال عدد يونية سنة ١٩١١ .

والعلم من آياته الكبرى إذا رجعت إلى آياته الأقوام
لو تفرغون صفاركم تاريخه عرف البنون المجد كيف يرام ١١
ويقول في قصيدة (الهمزية للنبوية) التي نشرها سنة ١٩١٢ ، موحها خطابه
للرسول صلوات الله وسلامه عليه : (١)

وتمدد حبلتك للسفيه مداريا حتى يضيق بحبلك السفهاء
في كل نفس من سطاك مهابة وكل نفس من تداك رجاء
والرأى لم يُشخص المهنددونه كالسيف لم تضرب به الآراء
ويقول في قصيدة (ذكرى المولد) التي نشرها سنة ١٩١٤ ، متحدنا عن
النبي صلى الله عليه وسلم (٢) :

وكان بيانه للهدى سنبلا وكانت خيلته للحق غابا
وعلمنا بناء المجد حتى أخذنا لأمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتقى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا
ثم هو يبين ما امتاز به الإسلام من أزان ، فهو مزاج معتدل من القوة
والرحمة ، يقود جهاته وحروبه الخير والهدف الشريف ، ويحد من شررتها
الإنصاف وتنسكب البغى . وهو يدعو إلى السلام ، ولكنه يخوض الحروب
إن ألجأه إليها السفهاء دفاعا عن هذا السلام .

يقول من قصيدة له في رثاء عثمان باشا الغازي ، نشرت سنة ١٩٠٠ (٣) .
إنما الملك صارم ويراع فإذا فارقه ساد الظنم
ونظام الأمور عقل وعدل فإذا وليا تولى النظام

١ — الديوان ١ : ٢٤ نصرت في مجلة المؤيد ، عدد ٧ مارس سنة ١٩١٢ .
٢ — الديوان ١ : ٦٢ نصرت في مجلة سرحدات ، عدد ١٥ فبراير سنة ١٩١٤ .
٣ — الديوان ٣ : ١٤٣ نصرت في المجلة المصرية ١٦ يونيو سنة ١٩٠٠ ص ٤٩ .

ومجيب، خُلِقَتْ للحرب ليثا
فهى فى رَأْيِكَ القويم حلالٌ
لك سيف إلى اليتامى يفيمس
مستبد على قسوى، حلیم
ويقول فى الهمزية النبوية :

الحرب فى حَقِّكَ شريعة
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا
والحرب يبعثها القوى تجبشراً
كم من غزوة للرسول كريمة
كانت لجنود الله فيها شدة
ضربوا الضلالة ضربة ذهبت بها
دعموا على الحرب سلاماً، وطالما

وهو يبين فى أرجوزته الطويلة (دول العرب وعطاء الإسلام ، حين يرفع
عن عثمان بن عفان . أن الاسلام لا يتعارض مع الدنيا ، ولا يطالب الناس
بالزهد فيها ، فيقول (١) :

فإن تسئل ماذا أرى عثمان
تجهد دعاوى القوم لفقوها
زكروا على الإمام مالا يورى
واستنكروا علوه بالدور
وقال قوم خالف الأتربا

١ - دول العرب وعطاء الإسلام ص ٥٠ وقد نظم شوق هذه الأرجوزة فى منفاه ،
خلال الحرب العالمية الأولى .

٢ - يقصد بالثلاثة البدور الخلفاء الثلاثة أبابكر وعمر وعلياً رضى الله عنهم .

وكرهوا التصبير والتدينا
ويجهموا ما لهم وما لآله ؟
مال كما شاء العفاف والكرم
والزهد سال للقلوب والشهى
وهذه الدنيا يد العظام
أسكنها العقل فكانت أشرفا
أحل منها ما صفا مزارعا
وساقها للانبياء ترسفا
وأي من شأنهما عثمان
ولما رسم الإسلام حكمها العدل والمساواة ، لا معبود فيها إلا الله
أمر الناس فيها شورى . لا يظنى فيها غنى على فقير ، ولا قوى على ضعيف (١) .

داه الجماعة من أرسطا ليس لم
فرسنت بعذك للعباد حكومة
الله فوق الخلق فيها وحده
والدين يسره ، والخلافة بيعة
الاشتراكيون أنت إمامهم
داويت متندرا وداوؤ طفرة
البر عندك ذمة وفريضة
جاءت فوجدت الزكاة سبيله
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى
فلو أن إنسانا تخير ملّة
والإسلام يدعو إلى العمل . فالرزق مرهون بالسمى ، والتوكل لا يعنى شيئا
إذا صرف صاحبه عن العمل . ويقول شوقي في الميرة النبوية (٢) :

١ - الديوان ١ : ٢٦٤ من الميزة النبوية . وقد نشرت سنة ١٩١٢ .

٢ - مول العرب وعظماء الإسلام ص ٢٤ ، ٢٥ .

كان رسول الله في شبابه
أى رسول أو نبي قبله
موسى السليم استوجر استجارا
من أحسن الأمثال فيما أحسب
والرزق لا يحرّمه عبدٌ سعى
لا تالٌ لا سعيًا ولا تئكلانا
كان قُليل البعث ربّ مال
يضرب في حزن الفلا وسمله
مبارك الرحلة والإقامة
والرزق بين الناس بحرٌ جار
فاسترزق الله وقف بيباه

واكسب، فأهل الكسب من أحبابه

وكان مما تمخض عنه هذا الاتجاه الإسلامى سنة جديدة جرى عليها الناس منذ سنة ١٢٢٦ هـ (١٩٠٨ م) وهى الاحتفال برأس السنة الهجرية^(١). وكان هذا اليوم يمر من قبل كغيره من الأيام لا يكاد يباه له أحد، فى الوقت الذى كانت تحتفل فيه الحكومة رسمياً بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا، ثم بعيد الملك إدوارد السابع من بعدها^(٢). وقد كان احتفال المصريين العظيم بهذا العيد يضم أعداداً غفيرة من المسلمين. وكان الشعراء - قوام هذه الحفلات - يتبارون فى إلقاء ما أعدوا من قصائد، يستمرّ ضنون فيها ما مرّ بالبلاد الإسلامية - وبمصر خاصة - فى العام الفائت من أحداث، مستلهمين العبرة من حياة الرسول، بما يستنهض

١ - محمد فريد ص ٩١. والواقع أن هذا الاحتفال متأثر بالتقليد المسيحى الذى يحتفل برأس السنة الميلادية. وقد فات المقلدين اختلاف الظروف والدلالات فى الحالتين لأن أول السنة الهجرية لا يطابق هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. فقد كان ميلاده وهجرته كلاهما فى شهر ربيع الأول.

٢ - مصطفى كامل ص ١٠٢.

لهم ويدعو إلى العمل والجهاد .

• • •

وأخذ أصحاب هذا المذهب الإسلامى يزولون من أوهام الناس ما اختلط عليهم من أمر دعوته، إذ ظن بعضهم أن الإسلام الذى يدعون إلى إقامة النهضة على أساسه هو هذا الخليط من خرافات الجهال التى غلب فيها الفاسد على الصالح، فشرع هؤلاء المصلحون يبينون للناس أن الإسلام فى جوهره وفى حقيقةه يختلف عما هو شائع بين العامة والجهال، وعملاً انتهى إليه أمره بعد أن أقحم عليه ما ليس منه . فاتجهوا إلى تخليصه مما شابه من أوهام وما خالطه من معتقدات مفسدة، ليقدّموه للناس فى صورته الصحيحة، وليبينوا لهم أن الإسلام سهل يسير بعيد كل البعد عن التعقيد الذى أقحم عليه لجعله شيئاً صعباً لا يفهمه إلا المحترفون، ولا يطيقه إلا أولو العزم من الزاهدين . وأخذوا فى الوقت نفسه يهاجمون البدع والأدعياء الذين يستغلون الدين ويتاجرون باسمه ويروجون الأباطيل بين الجماهير الجاهلة استغلالاً للنفع وتصيداً للمغانم .

من ذلك مقالان لمحمد عبده نشر فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ . هاجم فيهما أساليب الأدعياء المفسدين من مشايخ الطرق فى الموالد . وقد صور فيهما ما يصحب الأذى من ضرب الطبول ومن هياج الذاكرين الذين يهيمون هيام المعاتية، ويتجردون من ثيابهم، ويأتون أعمالاً هى أدخل فى الشعوذة منها فى الدين، من مثل أكل النار والزجاج . وزد محمد عبده فى مقاله بما يحدث فى الموالد من اختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاثفتهم فى بيوت الله، هاجم بدعة (الدوسة) التى ينطرح الناس فيها على الأرض مصطفين أحدهم لجنب الآخر، ثم يملؤ أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم واحداً بعد الآخر حتى ينتهى إلى آخرهم متمجّباً من أن يجرى هذا بين مسلمين من أهل الإيمان، قد أمر الله بتكريمهم، وحرّم إهانتهم إلا لحدة أو تعزير شرعى^(١) .

١ — راجع المقالين فى تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ١٣٣ فى مقال عنوانه (إبطال البدع فى نظارة الأوقاف المرمية) ، ٢ : ١٣٦ وفى مقال عنوانه (بطلان الدوسية) .

وبايع عبد الله القديم من بعد ذلك الحملة على هذه البدع الفاسدة في مجلة (الأستاذ). فنقد بهذه الطوائف التي تبذع أمورا تضحك السماء وتبكي العقلاء ، وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة ، وسلط عليها الأجنبي ، يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ، ظنا منه أن ما يجربه هؤلاء الجبهة من الدين... وهو يتسامل . أين تصفية الباطن التي هي مدار الطريق ؟ وأين الخول مع هذا الظهور ؟... وأين التواضع من ركوب الخيل والبغال ، يقدمها الطبل والمرار ، كان الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد ؟... وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية ؟... ويعجب القديم لما يدعيه جهلاء هؤلاء المرتزقة من علم ما أنزله الله ، زاعمين وصوله إليهم من طريق الفتح أو الإلهام ، ولهجومهم على تفسير القرآن بما لا يقوله إلا مجنون ، ضالين في كل ما يقولون ومُضايين . ويقتطف الكتاب من كلام السلف الصالح من رجال الطريق ، أمثال الرفاعي والجيد والخواص والبسطامي وذو النون والجيلاني والسروردي ، ما يؤكد أن الطريق الصحيح في التمسك بالقرآن والسنة (١) .

ويهاجم الجهال من خطباء المساجد الذين يصرفون الناس عن الجند وعن طلب العزة وعن الإعداد للعدو بما يُبشرون فيه ويعيدون من الدعوة إلى الانصراف عن الدنيا . فيقول (٢) :

«ولانصر لل قوة العلية وفينا من يقول : العز في الخول . والسعادة في العزلة ، والفضل في الزهد في الدنيا والبعد عما في أيدي الناس . فإن من توكل على الله كفاء ، وهذا الفريق متخلل بين العامة ، برغم أنه من الهداة ، وهو من المضلّين . فلو كان من البصراء لطالع سيرة نبينا سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، وقش في سياسته السماوية والأرضية ... فمؤلا بمحملهم سيرة نبهم

١ — مجلة الأستاذ عدد ١١ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٧٨٦ (الطرق وما فيها من البدع) ،

عدد ٢٥ أبريل سنة ١٨٩٣ ص ٨٢٨ (الطرق وإصلاحها) .

٢ — الأستاذ عدد ٢٠ ديسمبر ١٨٩٢ تحت عنوان (أنتقم الأمم بقلب الأحوال ونحن نحن) .

سوّكت لهم أنفسهم أنهم قائمون بإرشاد الأمة وهدايتها إلى طريق الحق ، وما دروا أنهم أماتوا الهمم وصرفوا النفوس من التعاقب بحواظ الدين والملك معا . ومن هذا القبيل الذين دونوا دواوين الخطابة ، وجعلوها قاصرة على التزهيد في الدنيا ، والتحذير من المنال وجمعه ، والفرار من المجمع والظهور ، والرضا بخشن العيش والصبر على الذل والهوان وتركوها للخطباء يخطبون بها يوم الجمعة ... فلو تصدّت أوروبا لإماتة همم المسلمين وصرفهم عن مجد الملك والدين والجنس ... وقطعت دهوراً في اختراع طريق تصل به هذه الغاية ، ما اهتدت إلى ما فله الخطباء ، من تحويل الخطابة عن عهد النبوى إلى ما قاله المتعلقون إلى الملوك ، والغافلون عن طريق الهداية وإصلاح الأمة .

ونحن نستغنى هؤلاء المتبطّين ، إذا كانت الدنيا يحذر منها فلبن خلقت ؟ ... وإذا كان الاشتغال بها بهتاناً وضلالاً ، ولا يشتغل بها إلا أعداء الله فلم تتألم من تساط الغيرة علينا ووقوعنا في أيدي المتغابين ، ونسعد الرضا بذلك ذنباً ومهصية ؟ ثم دعا الكاتب خطباء المساجد إلى أن يحدثوا الناس فيما يتصل بشئونهم وحياتهم السياسية والعمرانية ، ضارباً لهم الأمثال بخطب الرسول والصحابة من بعده ، الذين كانت خطبهم يوم الجمعة في صميم الحياة ، تتصل أشد اتصال بالشئون السياسية والحربية .

وهاجم الكواكى المتبدعة من غلاة المتصوفين في كتابه (أم القرى) مهاجمة عنيفة فقال (١) :

إن الطامة من تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب آراء المدلسين وغلاة المتصوفين ، الذين استولوا على الدين فضيعوه وضيعوا أهله . وذلك أن الدين يُعَصَّرُ بالعلم ، والعلم يعرف بالعلماء العاملين وأعمال العلماء قيامهم في الأمة مقام الأنبياء ، في الهداية إلى خيرى الدنيا والآخرة . ولا شك أن لمثل هذا المقام في الأمة شرفاً باذخاً . يتعظم على نسبة الهمم في تحمل عنائه والقيام بأعبائه . فبعض

١ — أم القرى ص ٢٧ — ٣١ . وتأثر هؤلاء الكتاب جميعاً بمحمد عبد الوهاب وابن تيمية من قبله واضح في هذا الموضوع .

ضعف في العلم وفاندى العزم تطلدوا إلى هذه المنزلة التي هي فوق طاقتهم ، وحسدوا أهلها المتعاليين عنهم ، فتحيلوا للزاحمة والظهور مظنر العلماء والعظماء . بالإغراب في الدين ، وسلوك مسلك الزاهدين . ومن العادة أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى زينة اللباس والآثاث . فصار هؤلاء المتعالون يداسون على المسلمين بتأويل القرآن بما لا يحتمله محكم النظم الكريم . فيفسرون مثلاً البسلة أو الباء منها بسفر كبير تفسيراً غلوياً بقلط لا معنى له ، أو بحكم لا برهان عليه ، ثم جاءوا الأمة بوراة أسرار ادعوها ، وعلوم لدنيات ابتدعوها ، وتسمن مقامات اخترعوها . ووضع أحكام انقروها ، وترتيب قربات زخرفوها .

ثم يبين السكواكبي بعد ذلك تأثر رجال الطرق بيدع اليهودية والنصرانية وبطقوس الكنيسة ، ويرد كثيراً من تقاليدهم ورسومهم إلى نظائرها في النصرانية وفي التقاليد الكنعانية ، ويقول إن عبادتهم الله قد أصبحت أشبه شيء بعبادة مشركي العرب التي وصفها الله تعالى بقوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا بكاء وتصديقة) أى صغيراً وتصفيقاً . وهؤلاء جعلوا عبادة الله تصفيقاً وشهيقاً ، وخلاعة وفعيقاً ، وسحروراً بهذه الخزعبلات عقول الجحلاء ، واختلبوا قلوب الضعفاء من النساء وذوى الأهواء والأمراض العصبية ، بتزيينهم هذه الرسوم التي تميل إليها النفوس الضعيفة الخاملة ، التي تستصعب تحصيل الدين من طريق العلم الشاق الطويل . ثم يقول : « وقد قام لهؤلاء المدلسين أسواق في بغداد ومصر والشام ولسان قديما ، ولكن لا كسوقها في القسطنطينية منذ أربعة قرون إلى الآن ، حتى صارت فيها هذه الأوهام السحرية والخزعبلات كأنها هي دين معظم أهلها لا الإسلام ... فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيماً به أفسدوا كثيراً في الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للباطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة ، وبه حولوا كثيراً من الجوامع مجامع للباطالين الذين ترنج من دوى طبولهم قلوب المتوهمين ، وتسكفهم أعضائهم . فيتلبسهم نوع من

الحبل يظاونه حالة من الخضوع . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ،
وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمرء عطايا لاتباعهم ، مما يسمى في البلاد
العثمانية (دعاكو وطعامية) (١) .

وسرى أثر هذه الدعوة في الشعر . فرأينا بعض الشعراء يرددون هذه
المعاني السابقة فمن ذلك قول الكاشف في تصوير جهل الجماعات "تق تقبع كل
ناعق . فلا تلبث أن تنقاد إن يزعم أنه المهدي المنتظر (الديران ١ : ٨٠) :

كل يوم نرى ونسمع مهدياً أ ينادي في قومه : اتبعوني
مروهاً أنه رسول من الله له أتى يستعيد مجد الدين
وهو خال من التجارب والقو ة والعلم والهدى واليقين
فإذا التف حوله الناس أغرا هم بإيقادهم كل شرّ كمين
وادّعى أنه بذلك مأمو ر من الوحي كالنبيّ الأمين
ومتى قام في جماعته بطه لب إعلان سره المسكتون
ففضى مورثاً عشيرته كؤ بلّ بلاء مرّ وذكر مهين
وهي ذكرى للسليلين فهلا خذلوا كل كاذب مفتون ١٢
ورأوا أن دينهم في غنى عن دعوة من مضلل مجنون
وقوله في تصوير استغلال مشايخ الطرق لجهل الناس الذين يظنون بهم
القدرة على كل شيء (١ : ٨٠ - ٨١) .

ومريدٍ لشيوخه ناذر عجب لا سمينا به إليه تقرب
كلما قدم الطعام له كبّ سر مستبشراً به وتؤدّب
وسطا اللص في الدجى قتلقا ه ابنه فائتي وما نال مارب
ودرى الوالد الجهول بما كا ن فائتي على الولي وأطنب
قائلا : إن رأيتُ مُغيثي في منامي على جواد أشهب

جارساً منزلى يرد مغيراً
فأمان ابنه بنسبته النفس
فتأى عنه تاركاً بل مبيحاً
وأنى اللص ثانياً ومضى بالـ
ثم هب المرید لا يجد العجـ
فدعا أهله وقال لهم ما
فلقد خاف أن يفاجئنا الله
وأرانيه وهو يا كل فى مر

بالحسام المنصور فى كل ضرب
ل إلى شيخه البعيد وأغضب
داره بعده لمن يتوئب
عجل لا يتقى خفيراً ويرهب
ل وعاد ابنه إليه وأنتب
أخذ العجل غير شيخى المحب
ص فلم يرض أن نهان ونسلب
عاه فى صادق المنام ويشرب

ومن ذلك قوله فى تصوير ما يسيطر على الناس من جهل حتى إنهم ليمتلقون
بكل مشرد مجنون وكل أحق يغلب عليه ضعف العقل فيجعله غريب الأطوار
مختلف الحال . وهم يظنون أسوء فهمهم للدين أن هذا الجنون هو دلائل الولاية
والقرب من الله (١ : ٨٢) :

فى قريتى كان قى مجنون
كأنه القرد إذا ما يطرب
فظنه قوم وليا هاديا
ويعلم الواقع والمستقبلا
وما كفاهم طاعة لحكمه
يعطيه كل منهم إن نذرا
وناب للقوم بعيراً مرض
فأحضروه ورجوا أن يدركه
فطاف بالبعير ثم صاح
فأوسعه بالعصى ضربا
لا يقبل النصيح من النبيه
وقد يهان ذو الحجى إن ذكر

يضحك من أحواله المجهزوب
والأرنب الوحشى حين يثب
يكشف الغيب ويدنى الثائيا
فاتخذوه مرجعاً وموتلا
حتى دعوا من يولدون باسمه
له جميع ما اقتنى وأدخرا
فأسرعوا إلى الفتى وركضوا
بسره وروحه والبركة
هاتوا له الجزار والسلاحا
وأشبعوه حسرة وكربا
فكيف بالخبول والمعته
فكيف بالجاهل حين أنذرا

هذا وعندى أن من تعلقا بمثل ذا الأحق كان أحقاً
ومن هذا الشعر الهجائي الساخر قوله أيضاً في تصوير نفاق الذين يدعون
الولاية من المشعوذين (١ : ٨١) :

هاجته الوجد فالأ	يذكر الله تعالى
مرغياً كالجل المص	حب إذ حل عقالا
قلت هل تبغى بهذا الـ	رقص بالله اتصالا
قال هذا خير ما أرتا	من به الراجى كالا
تترك النفس به لك	بجسم أغلالاً انتقالا
لهوى ديناره منـ	ه وقد تاه اختيالاً
ورآه أحد القو	م فأخفاه احتيالاً
وأحس الشيخ بالحـ	دث فاعتل اعتلالاً
ودعا بالغوث حقـ	أتعب القلب ابتيالاً
قلت يا هذا أيكى	زاهد مثلك مالا ؟
لم لا يلهمك الذكـ	رُ عن الحزن اشتغالاً ؟
فتجرد من دعاوـ	مكنت منك الخيالاً
إنما نفسك من جـ	حك لا ترضى انتقالاً

ويقول محرم في الأدعياء من بعض علماء الدين ، وتكالبهم على الدنيا ،
وإذلال أنفسهم لأصحاب السلطان ، يرضونهم بكل سبيل ، ويفتونهم بما يحبون^(١) .

أرى علماء الدين لا يحفظونه	ولا يعرفون اليوم رتبته العليا
هم اتخذوا ما أدركوا من علومه	سبلا إلى ما يشتهون من الدنيا
فضاعوا وضاع الدين ما بين أمة	همو شرعوا فيها الضلالة والغيثا
إذا المفسد استفتا يريد تماديا	أتوه بأعلام الهدى تحمل الفتيا

أُسعجسب قوما من أولى العلم أنهم يسرون بين الناس في نورهم عنياء؟
ألا هل أرى من جملة القوم شافياً لشعب مريض لا يموت ولا يحيا؟
محمته عوادى الدهر إلا بقية من الدين والدنيا لمن يؤثر البقية

* * *

وظهر بين هاتين النزعتين (الغربية والإسلامية) اتجاه ثالث يرى إلى التوفيق بين الإسلام وبين حضارة الغرب . وهو الاتجاه الذي أشرت إليه عند الكلام عن دعوة قاسم أمين وأرجأت الكلام فيه إلى هذا الموضع من الكتاب .
وتزعم الشيخ محمد عبده هذا الاتجاه الجديد الذي عرضه لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الإسلام كليهما — كما يقول كرومر — وإن كان سخط الأولين أقل من سخط الآخرين .

وحقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الأفغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقعهما وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولهما من أخبار . فبينما ينزله رشيد رضا — ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام — منزلة الاجتهاد في الدين ، ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذي لا تشوبه شائبة ، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يهيمونه بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيرهم لخدمة العدو . فإذا تركنا هؤلاء وهؤلاء ممن قد يجد الطاعنون سبيلاً إلى ريمهم بالتحيز والمحاباة ، أو التحامل والتزمت وجدنا كثرة من النصوص في كتب ساسة الغرب ودارسيه تصور رأيهم فيه وفي مدرسته وتلاميذه ومكانه من الفكر الحديث . وهي جميعاً تتفق على تمجيده والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربي من خدمات بإعانتته على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين ، وهو عداء يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التي لا تفتقر

ولا تنقطع (١) .

وإلى جانب ذلك كله نجد إشارات صريحة في كتاب لأحد كبار رجال الماسونية في مصر - ومن المعروف أنها دعوة تخدم اليهودية العالمية - تؤكد أن جمال الدين الأفغانى هو مؤسس (محفل كوكب الشرق) ورئيسه . كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل . إذ يقول :

(وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرايية سنة ١٨٨٢ فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم لإخوانهم بالترحيب العظيم ، ودعاهم إلى محافلهم ومنازلهم . وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسى وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية . ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصف من المندوب الأمريكى الذى حضر إلى محفل لبنان (٢) .

وبما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا - وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصبا له - قد أيدىها في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) (٣) . ومهما يكن من أمر في حقيقة حركة محمد عبده فمن الواضح في آثاره الأدبية - وأكثرها مقالات صحفية - أنها تنقسم إلى قسمين ظاهرين اتجه في أحدهما

١ - راجع التقارير السنوية لممثل الاحتلال الإنكليزى في مصر سنة ١٩٠٥ الفقرة ٧، ٩٨، سنة ١٩٠٦ الفقرة ٢ (ص ٦ - ٨ منها على وجه الخصوص) Modern Egypt ٢ : ١٧٩ - ١٨١ - Whither Islam ص ٦٩ ، ١٦٣ ، ١٧١ - ١٧٢ (راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب . الفقرة ٢ من الفصل ٣) - Great Britain in Egypt ص ٦٥ ، ١٧٦ - Islam in Modern History ص ٦٣ - ٦٧ - الانجازات الحديثة في الإسلام ص ٦٤ - ٧٢ ، ٨٤ - التاريخ العربى لاحتلال إنجلترا مصر : المقدمة ، الفصل الخامس (زعماء الإصلاح في الأزهر) ٢ - فضائل الماسونية ص ١٢٤ وراجع كذلك مقدمة الكتاب . ٣ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨١٩ ، ٨٧٣ .

إلى تدعيم الدعوة للجامعة الإسلامية ، بينما اتجه في القسم الثاني إلى تقريب الإسلام من الحضارة الغربية والتفكير الغربي الحديث .

وكان من أهم ما اتجه إليه في القسم الأول من هذه المقالات - أيام اتصاله بالآفغانى - محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم والانصراف عن الدنيا وعن مكافحة العدو والتخلص من الاستعباد ، ظانين أن دينهم يأمرهم بالاستسلام لما يجرى عليهم لأنه من قضاء الله . يقول في إحدى مقالاته عن القضاء والقدر^(١) :

« مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطاناً على الأعمال البدنية .
فما يكون في الأعمال من صلاح أو فساد فإنما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها ،
على ما بينا في بعض الأعداد الماضية . ورب عقيدة واحدة تأخذ بأطراف
الافكار فيتبعها عقائد ومدرجات أخرى ، ثم تظهر على البدن بأعمال تلائم
أثرها في النفس . ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد السكال إذا
عرضت على الأنفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع ،
فتلتبس عليه بما ليس من قبيلها ، أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو
الاعتقادات الباطلة ، فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه . وفي كلا الحالين
يتغير وجهها ويختلف أثرها . وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في
الفهم ، أو على خبث الاستعداد ، فينشأ عنها أعمال غير صالحة ، وذلك على غير
علم من المعتقد كيف اعتقد . ولا كيف يصرفه اعتقاده . والمغرور بالظواهر
يظن أن تلك الأعمال إنما نشأت عن الاعتقاد بذلك الأصل وتلك القاعدة . ومن
مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الأديان
غالباً ، بل هو علة البدع في كل دين على الأغلب . وكثيراً ما كان هذا الانحراف
وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الأعمال حتى أفضى بمن ابتلاهم

١ - اشهرت في المروة الوثقى عدد أول مايو سنة ١٨٨٤ ، ونشرت بعد ذلك مرة أخرى في مجلة (الأستاذ) عدد ١٦ مايو سنة ١٨٩٣ (تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٥٩ - ٢٦٧) .

الله به إلى الهلاك وبئس المصير . وهذا ما يحمل بعض من لا خبرة لهم على الطعن في دين من الأديان ، أو عقيدة من العقائد الحقّة ، استنادا إلى أعمال بعض السذج المنتسبين إلى الدين أو العقيدة .

« من ذلك عقيدة القضاء والقدر ، التي تعد من أصول العقائد في الديانة الإسلامية الحقّة . كثر فيها لفظ المغفلين من الإفرنج ، وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما تمسكت من نفوس قوم لإسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعمة . ورموا المسلمين بصفات ؛ ونسبوا إليهم أطوارا . ثم حصروا علمها في الاعتقاد بالقدر . »

ثم يأخذ محمد عبده في بيان الفرق بين الجبرية الذين يزعمون أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطرابا لا يشوبه اختيار ، وبين الاعتقاد بالقضاء والقدر الذي ترشد إليه الفطرة . فيقول بأن « كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، . والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها . وإن لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة . » ويقول إن الإفرنج الذين ينسبون تأخر المسلمين إلى القضاء والقدر يجهلون حقيقة هذه العقيدة ، ويخطئون بينها وبين مذهب الجبر ، الذي انقرض أصحابه في أواخر القرن الرابع الهجري . فالاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد من شناعة الجبر . تتبعه صفة الجرامة والاقدام ، ويبحث على اقتحام المهالك ومقارعة الأهوال ، وعلى الجود والسخاء . ذلك لأن الذي يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، وأن الأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته وملته ؟ ... وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في سبيل تعزيز الحق وتشديد الجهد ؟

ثم يبين محمد عبده أن الإيمان بالقضاء والقدر هو الذي دفع المسلمين الأولين إلى أن يفتحوا العالم في مدة لا تتجاوز ثمانين عاما . ويقول : إنه لم يظهر في التاريخ

قائد عظيم ، إلا كان مؤمناً بالقضاء والقدر. ويضرب الأمثال لذلك بـكوروش الفارسي ، والإسكندر اليوناني ، وجنكيز خان التتري ، ونابليون الفرنسي (١). ويقول محمد عبده في مقال آخر له نشر في العروة الوثقى عن النصرانية والإسلام وأهلها (٢) : « إن المسيحية قد بذبت على المسالمة والمياسرة وجاءت برفع القصاص ، ومع ذلك نرى الأمم المسيحية تتسابق إلى الفتح والغلب والتفنن في اختراع أدوات الغلبة والقتال . والإسلام قد بنى على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ، ومع ذلك نرى الأمم التي تدين به متهاونة بالقوة متساهلة في طلب لوازمها . ثم يتساءل هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيما ؟ ... هل استبدت الأبدان فيما على الأرواح ؟ ويستعرض الكاتب حال المسلمين منذ اتصالهم بالمسيحيين ، فيرى أن المسلمين كانت لهم في الحروب الصليبية آلات نارية فرع لها المسيحيون ، فكانت السبب في انهزامهم . ويرى أن الدين المسيحي إنما امتد ظله وعمت دعوته في الممالك الأوروبية من أبناء الرومانيين ، وم أصحاب حرب وفروسية . ثم يرى أن المسلمين إنما وهنت قوتهم بسبب ما دخل عليهم من بدع ليست من الدين ، حين انتشرت قراعد الجبر ، وحين أدخل الزنادقة والسوفسطائيون والكذابون من زفلة الحديث ما فيه السم القاتل لروح الغيرة ، الموجب لضعف الهمم وفتور العزائم .

ويقول محمد عبده في مقال آخر له عن (الآمل وطلب المجد) (٣) :

« ليس الآمل هو الآمنية والتشهى للذات يلحهما الذهن تارة بعد أخرى ، ويعبر عنهما بليت لي كذا من الفضل ، مع الركون إلى الراحة والاستلقاء على الفراش ، واللهو عما يبعد عن المرغوب ، كأن صاحبهما يريد أن يبدل الله سنته

١ — راجع مقالا آخر لمحمد عبده في الموضوع نفسه لغيري المؤيد سنة ١٩٠٢ (تاريخ الأستاذ

الإمام ٢ : ٣٩١)

٢ — تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٢٢٧ — ٢٤٣ .

٣ — العروة الوثقى العدد ١١ — ١٩ يونية ١٨٨٤ (تاريخ الأستاذ الإمام ١٩٠ — ٢٩٧)

في سير الإنسان عنايةً بنفسه الشريفة أو الخسيسة . فيسوق إليه مايجس بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاق مشقة . إنما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، وعرك لها في المشاق والمتاعب . وتوطئتها لملاقاة البلاء بالصبر ، والشدائد بالجلد ، وتهوين كل مُسَلِّمٍ يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة ، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو إذا لم تغذ بفيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد . فضلا عن المال الذي لا يقصد منه إلا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون .

ويمضي محمد عبده في بيان أن الميل للرفعة أمر فطري . فكل واحد يطلب الكرامة . والتمسك في قلب الآخر . لذلك يتزاحم الناس في الآمال والأعمال ، حتى يكونوا جميعاً شرفاء بما يأتون من أعمالهم . حكمة من الله ، ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ثم يقول إن بعض الناس تضعف همهم حين يتوالى عليهم الصدام . فيصيبهم الانحطاط الذي قد يؤول إلى اليأس والقنوط ، وعند ذلك يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، إذ يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من لاهانة ، فينزل إحساسهم إلى مرتبة سفلى ويرضون بما ترضى به البهائم . وهم مع ذلك لا يستريحون بذلك من الكد . فهم إن تركوا العمل لأنفسهم ساءل الله عليهم من يكافهم بالعمل لغيرهم . فيكونون كائنات الحماله ، لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيفتها أن تسعى وتشقى ليسعد غيرها ويستريح .

ثم يبين بعد ذلك أن السبب في ضعف ألهم هو ضعف الإيمان فيقول :

« عجباً . كيف تبدل أحكام الجبله وكيف يمحى أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تنشط حتى لا يكون لها أمل ، والأمل وحب الكرامة طبيعيتان في الإنسان ؟ بعد إمعان النظر تجد السبب في ذلك ظن الإنسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال ، وأن قوته هي سلطان أعماله . وليس فرق يده يده يده بالمعونة أو تصده بالفقر ، فإذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول ، ورجع إلى قدرته فوجدها فانية ،

وقوته فرأها واهنة . فيعترف بوهنه . ويسكن إلى عجزه فيياس ويقتنط ، وبذل ويسفل . اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته متى كانت قوة المانع أعظم من قوته ، فلا سبيل إلى العمل ، لاستحالة قهر المانع . فينقطع الأمل ، فيقع في الشقاء الأبدى . .

« أما لو أيقن بأن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة ، يخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الأعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه ، يصرف عباده كيف يشاء ؛ لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس وتفتال آماله غائلة القنوط . فإن صاحب اليقين لو نظر إلى ضعف قدرته ، لا يفوته النظر إلى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن إليها في أعماله ولا يجد اليأس إلى نفسه طريقاً . فكما تماظمت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعتها ، معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركود إلى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السآمة لاغتفاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ويلقي قيادهم إلى الأذلاء ، وأن يدك الجبال ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء من نواصي الأقوياء ... ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريب فيها بما قال وهو أصدق القائلين : (إنه لا يأس من رَوْحِ الله إلا القوم الكافرون) بما حكى من قول نبيه إبراهيم : (ولن يقتنط من رحمة ربه إلا الضالون) . فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر والضلال ، ومن أين يطرُق اليأس قلباً عقد على الإيمان بالله وبقدرته الكاملة ؟ . .

ويختتم محمد عبده مقاله هذا بالتوجه إلى المسلمين . يخاطبهم بقوله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

هكذا مضى محمد عبده في هذه الفترة من حياته يقبض الغافلين ويوقظ النائمين ، ويبين للناس أن الدين ليس كلمات تقال في صلاة أو تقليداً يتبع في صوم أو ترديد غافلاً للشهادتين لحسب . ولكن الإسلام مع ذلك كله بل قبل ذلك كله عقيدة تهيم على كل تصرفات المسلم وتوجهه في كل أعماله . وكان من أخطر

ما صنعه محمد عبده في هذه المقالات العنيفة الثائرة ، أن خرج على الناس بجملة من الآيات القرآنية ، كان الناس قد صُرفوا عن تدبرها ، وأهملوا الاستشهاد بها والتأمل في معانيها ، حتى بدت حين عرضها محمد عبده على الناس ، وبثها في ثنايا مقالاته ، يربط بينها وبين الظروف التي تحتازها الأمم الإسلامية ، كأنها شيء جديد يسمعه الناس للمرة الأولى .

والواقع أن الآيات التي كان يستشهد بها الوعاظ في خطبهم ومقالاتهم منذ شدد الاستبداد قبضته على الناس ، لم تكن تتجاوز ما يتصل بما أعد الله من حسن الثواب للمتقين ، أو ما أعد من العذاب للفساد والمفسدين ، ولكن محمد عبده أبرز في مقالاته جملة من آيات الجهاد ، جهاد النفس وجهاد العدو ، ولفت الأنظار إلى مكان الجهاد من العقيدة الصحيحة . فهو يكتب عن امتحان الله المؤمنين ^(١) ، فيصدر المقال بالآية : (أَلَمْ أَحْصِ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) . ويبين أن الذين يزعمون أنهم مؤمنون ، ثم لا يسئل عليهم الإيمان احتمال المشاق وتحشم المضاعبات في سبيله . ليسوا بمعزل عن المنافقين . ويستشهد بالآية : (لَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) . ويختم مقاله بقوله : إن امتحان الله المؤمنين سنة من سنته ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن ، إلى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين إلى قوم أولى بأس شديد . فإن يطيعوا يؤتهم أجرا حسنا . وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما . فيزان الله منصوب إلى يوم القيامة ، وهنالك الجزاء الآوفي .

وفي مقال آخر له عن أسباب حفظ الملك ^(٢) ، يصدره بالآية : (أَلَمْ يَسِيرُوا

في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . فإنها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) . ويطلب إلى الناس التأمل فيمن أهلك الله من شعوب، ومن أباد من قبائل ، وما دمر من بلاد ، للاعتبار بأسباب هلاكهم . ويذكر من أسباب حفظ الملك الاتحاد، مستشهداً بالآية : (واعصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) و (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) . ويذكر منها عدم الاعتماد على الأجني، مستشهداً بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) . وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالاً . وذووا ما غنيتم قد بدت البغضاء من أفواههم . وما تخفي صدورهم أكبر) . ويذكر منها انصراف الناس عن التوغل في الشهوات ، مما يغفل قلوبهم عن الفرائض المفروضة عليهم، ويصرفهم عن القيام بواجباتهم مستشهداً بالآيات (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها . فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً . وكنا نحن الوارثين) و (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ، لا تجأروا اليوم ، لأنكم منا لا تنصرون) (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) .

ونذكر منها الشورى ، مستشهداً بأمر الله نبيه ، وهو المعصوم من الخطأ ، بقوله : (وشاورهم في الأمر) ، وبما امتدح به الله تعالى المؤمنين في قوله : (وأمرهم شورى بينهم) . ويذكر منها إعداد القوة صوفاً للأمة من أطباع الطامعين ويستشهد بالآية : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) . ويختتم المقال بحث العلماء على تنبيه الغافلين عما أوجب الله ، وإيقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين . وعلى أن يزيلوا اليأس بتذكيرهم وعد الله — ووعد الحق — في قوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً^(١)) .

وأثجى محمد عبده بعد عرذته من المنفى إلى التقريب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية واتخذ اتجاهه هذا أشكالاً مختلفة . فظهر أحياناً في صورة مقالات أو مشاريع أو برامج تدعو إلى إدخال العلوم العصرية في الجامع الأزهر . وظهر تارة أخرى في صورة تفسير لنصوص الدين من قرآن أو حديث يخالف ما جرى عليه السلف في تفسيرها ، ليقترب بها إلى أقصى ما تحتمله — بل إلى أكثر مما تحتمله في بعض الأحيان — من قرب لقيم الغرب وتفكيره ، لكي يصل آخر الأمر إلى أن الإسلام يساير حضارة الغرب ويتفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه .

وحسب الحركة الداعية إلى إدخال الدراسات المصرية في الأزهر حملة تحاول أن ترسم صورة قائمة لمسا آل إليه أمره ، مشنعة بما تتضمنه بعض العلوم التي تدرس فيه من سخف ومن تهاوة ، داعية إلى التحرر من الآراء السائدة المقررة التي يتوارثها الخلف عن السلف (وهو ما سمّته التقليد) والتفكير بما يلائم ظروف الحياة الجديدة (وهو ما سمّته الاجتهاد) . وكانت هذه الحملة تنقب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتيبه لتعرضه على الناس . وقد بما قالوا (من قتش عن عيب وجده) .

فمن ذلك ما كتبه رشيد رضا في وصف حياة طالب العلم في الأزهر ، لاذ يقول (١) :
« كانت أمكنة الجامع الأزهر من صحنه إلى مقاصيره إلى أروقتة إلى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ ، ومهب روائح عفنة ، ومنبع وخامة ، وبؤرة أراض معدية . فإذا دخل الداخل إلى الصحن وجد فيه بقايا الكرات والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكدس من مواضع النوم أكراماً . وإلى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج ، وما تحمله النعال من وحل الطريق ، حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفث ولا تنظيف . وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة . ثم إذا ذهب إلى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ، ورأى قطع الخبز المبلول

تعم في مائها، وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات . (بل كان بعضهم يستنجى بمائها من جوانبها ، وقد أخبرني الأستاذ الإمام أنه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الأزهر ، بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمى بالسلسول على قلته ، ويتوضأ منه وكانت ميضأة الجامع الأحمدى أقدر من ميضأة الأزهر ، ولا سيما أيام الموالد الثلاثة . كان النساء يغسلن أولادهن من العذرة فيها ، حتى ترى سباحة ورأسية فيها ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون لإبطال الميضأة المكشوفة واستبدال الأنايب بها (الخنفيات) من سيئات الإصلاح الذي ذهب (بركات الأزهر)^(١) وإذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الأدران ، وشم منها ما لا تحتل الأنوف والأبدان ،^(٢) .

« وإذا وصل إلى غرف السكنى في الأروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه . فيمنعه الكسل أن يمضي بها إلى البالوعات . وذاك يطبخ والدخان يسود وجه الحائط وداخل المسكن . وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيوت . وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الأسبوع والأسبوعين بلا كنس . فيتراكم فيها التراب مع بقايا المأكولات ، هذا إلى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة ، ونومهم مزدحمين . رأس الواحد عند رجل أخيه ، ومعمهم فيها - على ضيقها - متاعهم وفراشهم وخبزهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود » .

« وإذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحول الأساطين وفي الأماكن التي يسمونها بالحارات ، وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب القائم بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام . تجرى بينها لغزارتها الفيران ؛ حتى يخالها الرائي لقدوم عهدها من آثار الأقدمين . وإذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش وعفن الخبز . فلا يملك رائيها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا إلى

١ - العبارة التي بين القوسين منقولة عن الهامش

٢ - كذلك وجدت العبارة في النص : ولعل الصواب (ما تحمل من الأنوف والأبدان) .

حيث ينتهي به الفرار .

ويقول في وصف ما آلت إليه حالهم الخلقية والعلمية (١) :

« ولقد كان محمد عبده ، على شدة عنايته بالأزهر وأهله والدفاع عنهم ومباغته في تكريمهم ، شديد الاحتقار لهم في نفسه ، إلا أفراداً منه . وكان الأزهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص ، عند شدة تألمه من فساد حالهم . وهي : الاصطبل ، والمارستان ، والمخروب (بهذا اللفظ العامي) ... وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم من شهادة الزور ، حتى من قضاة الشرع والمفتين ، الذين اقب المحقق ابن القسم أمثالهم (بالموقعين عز رب العالمين) . وكان قد اطلع على ما لم يطالع عليه أحد من مخازيهم بعمله في إدارة الأزهر ، وتفتيشه للمعاصم الشرعية ، كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى ، وعلى ما هو أشد ضرراً منه ، وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، ثم ناهيك بما هو المحدث لهذه المخازي كلها ، وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم ... وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتائم البذينة المزرية ، التي لا تبقى في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ولا عزة الإيمان المكتسبة ... دع تأثير القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم ، .

« وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والأوهام من أكثر القوم ، حتى إن الشيخ حسونة ، الذي كان يعدّه الأستاذ الإمام أمثلهم ، كان يقبل يد أحد أدياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيأمنونه على نسائهم ، حتى لمنهن كن يدخلن معه الحمام ! ! وناهيك بما يفعلونه في احتفالات الموالد المبتدعة ، ومشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما يُنذر لها من المال والقول النابت وغير ذلك ، .

ويقول (١) : « كان «البجة الجامع الأزهر» لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والإنشاء . وكان الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه لإرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن بيان المطلوب له ، ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه نقشاً مكسراً الخطوط ناقص الحروف . وإذا أراد أن يبين ماصرفه وما يلزمه عبّر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به » .

« هذه حالة كادت تكون عومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من الأكابر إلى اليوم . ولاني لأعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ الإنبائي إلى الإفطار عنده في رمضان ، فاعتذر إليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره على حال لم ير مثلها الرامون ، إذ كتبه إليه في ورق من أوراق العطار . والكتابة فيها غير منتظمة الشكل . والخط لا يقرأ إلا لمن تعود قراءة هذه الخطوط . والأربعة الأسطر التي كتبها اعتذاراً لشيخ ، كان فيها أكثر من عشر لحقات نحوية لا يمكن تطبيقها على قواعد العربية ، ولو مع التأويل الذي تعودوه . وهذه الرقعة من عالم كبير إلى عالم أكبر .

ومهما يكن نصيب هذه الصورة من الصدق أو المبالغة فالذي لاشك فيه أنها صورة مظلمة تنفر القارئ من الأزهر ومن كل ما فيه ومن فيه . وربما نفرته من الإسلام نفسه ، لأن مفهوم الإسلام في الأذهان مرتبط بعلمائه ومؤسسته أراد الناس ذلك أو لم يريدوه : وذلك هو مادعا باحثاً أوروبياً مثل جب لأن يقول : « وقد بدأ تلاميذ الشيخ محمد عبده المخلصون ، حتى في حياته يظهرون بمظهر واضح ضريح . وقد كان هو نفسه في مادة العقيدة يعارض قبول كل شيء دون مناقشة ، أي يعارض (التقليد) كما يقال في الإسلام : وهذا الرأي يُعتبر لبنة في بناء الحركة المتعدنة ، أو خشة الخلاص في حركة التحرر العلمانية (٢) » .

١ - المرجع السابق ١ : ٤٤٩ - ٤٥٠

٢ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ٧٢

ويقول كذلك في موضع آخر :

« إن تلامذته الحقيقيين يمتزجون بالصفوف التي أنشئت لإنشاء أوروبا وينضمون للحلقات العلمانية ... ومن ناحية أخرى نجد الشيخ محمد عبده قد صنع جسراً فوق الهوة التي تفصل التعاليم التقليدية عن التعليم العصري الخاضع لمذهب العقلين الذي غزا الشرق من الغرب (١) » .

والواقع أن فتاوى محمد عبده وآراءه الجريئة كانت لا تزال تباكر الناس وتراوحهم عن طريق دروسه في الأزهر ، وعن طريق الندوات التي كان يعقدها في منزله أو في منازل بعض مريديه ، وعن طريق المقالات التي كان ينشرها في الصحف . وقد كان تفسيره للقرآن أحفل هذه الدروس وأكبرها تأثيراً . لأنه كان يجمع عدداً من أصحاب الثقافات الإسلامية والغربية - أو الدينية والمدنية كما يقولون - على السواء من علماء الأزهر وأساتذة المدارس الثانوية والعالية وكبار رجال القضاء الأهلي والوجهاء ورجال الحكومة ومنهم محافظ القاهرة . وكان يلقى بعض هذه الدروس في دار أحمد تيمور ، وهناك التقى به كثير من الأساتذة الذين اشتهروا في الحياة العامة أو شغلوا مناصب كبيرة في الدولة ، مثل الشيخ أحمد إبراهيم وحافظ إبراهيم ومحمد كرد علي وأحمد فتحي زغلول ورفيق العظم وقاسم أمين وعبد العزيز جاويز بعد عودته من أوروبا (٢) وكانت جرأته في الملامة بين الإسلام وبين حاجات العصر ، ومعارضته علماء الأزهر في عصره ، سبباً في كثير من الحملات التي خاضت فيها الصحف ، متهمه إياه بتسخير الدين لخدمة العدو الغاصب . وقد أعان على ذلك عداؤه للتخديوي عباس ، الذي بلغ من كراهيته له أن غضب على الذين شيعوه بعد موته (٣) .

١ - الانجازات الحديثة في الإسلام ص ٨٤

٢ - تاريخ الأستاذ الإمام ١ : ٧٦٩ ، ٧٧٣

٣ - راجع في ذلك مذكراتي في نصف قرن ٢ ب : ٣٤ - ٣٧ ، ٣٩ وتاريخ الأستاذ

الإمام ١ : ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٨٩

ومن أمثلة هذه الآراء الجريئة ما عرف في ذلك الحين بالفتوى الترنسفالية، فقد كانت من أعظم ما شنع به خصومه ومعارضوه . وخلاصة المسألة أن أحد المسلمين في الترنسفال أرسل إلى الشيخ محمد عبده يستفتيه في ثلاثة أمور ، أولها إيس البرانيط ، وثانيها أكل اللحوم التي يذبحها نصارى الترنسفال على غير طريقة المسلمين ، إذ يضربونها بالبلط ولا يذكرون عليها اسم الله ، وثالثها صلاة الشافعية العيدين خاف الحنفية ، مع ما بينهما من خلاف في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين . وقد أفتى محمد عبده بجواز الأمور الثلاثة التي سأل عنها الترنسفال . ولكن المسألة التي أثارته عليه الشغب خاصة هي المسألة الثانية ، التي أفتى فيها بجواز أكل لحوم النصارى ، مستندا إلى قوله تعالى (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فقد قال الله هذا بعد تحريم الميتة . وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ، ويعلم ما يعتقدون بُعْزِيرِ المسيح . ورأى محمد عبده في فتواه أن المضروبة بالبلطة هي غير الموقوذة التي حرّمها الله فالوقيد والموقوذ هو الذي يُقتل بغير محدد من عصا أو حجر (١) .

ومن أمثلة هذه الفتاوى الجريئة ما أفتى به من جواز الاستماعة بالكفار وأهل البدع والأهواء فيما ينفع المسلمين ، وذلك حين استفتاه بعض مسلمي الهند الذين يدعون إلى إنشاء الجمعيات لتربية أيتام المسلمين ، مستعينين في ذلك ببعض الأجانب وغير المسلمين ، وقد جاء في هذه الفتوى (٢) :

• إن ما يفعله أولئك الأفاضل دعاة الخير هو الاسلام . ومن أجل مظاهر الإيمان . وإن الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله ، وخرجوا عن أحكام دينه القويم... بقى أن بعض المتشدقين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا إلى آخر الآية . وبعد أن أورد المفتي جملة من الآيات التي تصرح أو تشير إلى

١ - راجع التفاصيل في تاريخ الأستاذ الأمام ١ : ٦٦٨ - ٧١٦

٢ - المرجع السابق ١ : ٦٤٨ - ٦٦٦

المنع من موادّة المؤمنين اغير المؤمنين قال: وعلى أنه لا شبهة لهؤلاء الجبهة في مثل هذه الآيات تسوّغ لهم تفسيرهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتسخطوا عليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) . وبعد ما جاء من القصص الذي قصه الله علينا لتسكون لنا فيه أسوة ، إذ قال : (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . وصاحبهما في الدنيا معروفًا) ، وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم نكاح الكتابيات . ولا يكون نكاح في قوم حتى تسكون فيهم قرابة المصاهرة . ولا تسكون تلك القرابة حتى تسكون المودة . ثم أورد محمد عبده في فتواه أمثلة كثيرة لاستعانة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ومن تبعهم من الأمويين والعباسيين بغير المسلمين من الذميين .

مثل هذه الآراء قد تبدو في ظاهرها ولا بأس بها ولا غبار عليها ، بينما هي في حقيقة الأمر تدعو إلى مذهب التحرر (Liberalism) الذي يذهب في التسامح الديني إلى درجة تسكاد تنمحى معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنحل . ولهذا الزعة أمثلة كثيرة فيما خلفه محمد عبده ، مثل قوله في ختام بعض دروسه في المنطق يحض على التفكير المتحرر (Liberal) الذي لا يوقر رأيا ولا يفتى عند الحدود التي يخشى معها الزلل ، فيما يستعصى على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته^(١) :

وما الذي يعتق الأفكار من رقاها ، وينزع عنها السلاسل والأغلال ، لتسكون حرة مطلة ؟ ... الجواب على هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لأن تخليص الأفكار من الرق والعبودية من أصعب الأمور . ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة

يرجع إليها كل ما يقال ، وهي (الشجاعة) . الشجاع هو الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم . ففى لاح له يصرخ به ويجاهر بنصرته ، وإن خالف فى ذلك الأواين والآخرين ... لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس إلا الذى لم يأخذ إلا بما قال الناس . ولا يمكن أن يأتى هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة ، وإن استمال الفكر والبصيرة فى الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثابتاً لا تزغوه المخاوف . فإن فكر الإنسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له إذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال إذا هو بحث بنفسه . وإذا كان لا بصيرة له ولا فهم ، فما يدرىه لعل الذى هو فيه عين الضلال .

ومن أمثلة هذا الاتجاه أيضاً قوله فى تزيين البحوث الإسلامية التى كتبها مفكرو الغرب ممن يسمونهم (المستشرقين) ، وهى بحوث متحررة لا تصدر عن تقديس الإسلام أو توقيف السابقين المقدمين من رجاله : (١)

«لما لو أردنا أن نكتب فى تاريخ علم الكلام مثلاً فلا يوجد فى توارىخنا مادة تنى بالغرض . يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم فى العقائد على مذهب المعتزلة ، واعتزل مجلس الحسن البصرى . واسكن ما سبب ذلك ؟ من أين جاء هذا الفكر الجديد ؟ وكيف انتشر هذا المذهب ؟ وما الذى حدا بالشيخ أبى الحسن الأشعرى للقول بأن الوجود عين الوجود ؟ ومتى دخلت الفلسفة كتب العقائد ؟ وماذا كان غرض العلماء من إدخال الفلسفة على العقول مع العقائد فى وقت واحد ؟ ... كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من توارىخنا . ويمكننا أن نعرف كثيراً من شؤون الإسلام وتاريخه من الكتب الإفرنجية . فإن فيها ما لا نجد فى كتبنا . إن العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الإسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا إذا كان متقناً للغة من اللغات الأوروبية ، تمكنه من الاطلاع على ما كتب

أهلها في الإسلام وأهله من مدح وذم ، وغير ذلك من العلوم .
ومن أمثلة هذا الاتجاه الذى يبرر الحضارة الغربية تبريراً إسلامياً قوله في
إباحة الصور والتماثيل (١) :

« الرسم ضرب من الشعر الذى يُرى ولا يُسمع . والشعر ضرب من الرسم
الذى يسمع ولا يُرى . إن هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الأشخاص
في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به
أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان
في حال الفرح والرضا ، والطمانينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الألفاظ
مقاربة لا يسئل عليك تمييز بعضها من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة
فتجد الفرق ظاهراً باهراً ، وبعد أن أفاض في بيان مزايا التصوير قال : وربما
تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهى : ما حكم هذه الصور في الشريعة
الإسلامية ، إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم
النفسية ، أو أوضاعهم الجسمية ؟ هل هذا حرام أو جائز أو مكروه أو مندوب
أو واجب ؟ فأقول لك إن الراسم قد رسم والفائدة محقة لا نزاع فيها ، ومعنى
العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محى من الأذهان . فإما أن تفهم الحكمة من
نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالاً إلى المفتى وهو يجيبك مشافهة .
فإذا أوردت عليه حديث (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) أو
ما في معناه مما ورد في الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث
جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسبيين : الأول للهو ،
والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين .
والثاني مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور في الحالين شاغل عن الله ، أو مهمل
للإشارة به . فإذا زال العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة

١ - المرجع السابق ٢ : ٤٨٩ - ٥٠٢ . وراجع رأياً آخر كذلك في إباحة التصوير في مجلة

الهداية عددى يونيو ويوليو سنة ١٩١١ ص ٤٨٩

تصوير النبات والشجر ... ولا يمكنك أن تجيب المفتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة ، فإنى أظن أنه يقول لك إن لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه ، مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب ؟ ... على أن المسلمين لا يسألون إلا فيما تظهر فائدته ليعرّموا أنفسهم منها . وإلا فبالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء ، أو من سماهم بعضهم بالأولياء ، وهم من لا نعرف لهم سيرة ، ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع ، وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنها أسرع إلى إجابتهم من عناية الله سبحانه وتعالى . لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية ، وتمثيل الصور الذهنية .

ويذكرنا ذلك كله بما جاء في تقرير اللورد كرومر في صدر مشروع مدرسة القضاء الشرعى الذى وضعه محمد عبده مع آخرين بتكليف منه حيث قال :

« كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون كالى حاكم البوسنة لتبادل الرأى فى الموضوعات ذات الطابع المشترك . وقد استطعت أن أحصل - بفضل مساعدته ومساعدة خلفه - على معلومات وافية عن الكلية التى أنشأتها حكومة النمسا والمجر فى ساراجيفو لتخريج القضاة (يقصد قضاء الشرع المسلمين) ، وهى كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه . وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة يرأسها المفتى الأكبر السابق ، بقصد وضع خطة مشابهة ثلاثم ظروف مصر وحاجاتها . وقد آتمت اللجنة عملها فى شهر يونية السابق ، ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة . وهى الآن قيد البحث فى وزارة العدل (الحفانية وقتذاك) . وهذه النظم تزود الطالب ببرامج ثنافية ذات طابع تحررى of a liberal character لا تحصر الطالب

في الدراسات الدينية الخاصة (١) .

على أن هذه الفترة التي تلت عودته من المنفى لم تخل من أثر اتجاهه الأول في بعض ما دافع به عن الإسلام ، وقد كان أشهر أعماله فيه رده على هانوتو ، الذي كتب مقالا عن الإسلام في معرض الحديث عن سياسة فرنسا في المستعمرات الإسلامية ، قارن فيه بين الإسلام والنصرانية ، ونشرت ترجمة مقاله سنة ١٩٠٠ ، فرد عليه محمد عبده ردأ طويلا في ثلاث مقالات ، كانت حديث الناس وشغلهم في ذلك الوقت .

تكلم هانوتو في مقاله (٢) عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية ، وتحقق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر . وقال إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام ، بل صارت صدر الإسلام وكبده . فالإسلام يحيط بها في إفريقيا ، ويمتد في آسيا إلى الصين ، وهو قائم بأوروبا في الأستانة حيث عجوت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض . ثم قال إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتجهون إلى الكعبة . وتجمعهم رابطة واحدة ، ولأنهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلهم . فال دراويش يبدرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث حلوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن . وقال : إن المتعصبين من المسلمين (مثل السنوسي) ، تقوم عقيدتهم على مبدأ كفاح غير المؤمنين ، وعلى كراهية المدنية الحاضرة . وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين المسيحية من علاقات . و انتهى من هذا الاستعراض إلى قوله : « توجد بالأستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومراكش عصابة خفية ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أن تفترسنا إذا أغضنا الطرف ، » .

١ — تقرير سنة ١٩٠٥ الفقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الإنكليزي ،

٢ — تاريخ الأستاذ الإمام ٤٠١ : ٢ — ٤١٤

ثم دخل هانوتو في موازنة بين الدينين. فقال إن المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر، والمنفعة، والحساب. وقال: إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثل في اتجاهين: «أ» اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو، ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودرك الوهن. «ب» واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان ويخوله حق القربى من الذات الإلهية، بما فطر عليه من إيمان وإرادة، وبما أناه من أعمال صالحة ومن حسنات. ثم قال هانوتو: إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شئون نفسه، وبث القنوط في قلبه وتشيط همته. أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني فهو يؤدي إلى الجلال والعمل. ومثل الاتجاه الأول بالديانة البوذية، كما مثل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية. ثم قال: إن المسيحية هي الوارثة لآثار الآريين، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب السامية، وإن كانت مشتقة منها. أما الاسلام فهو متأثر بالمذهب السامي ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإله عنه في علاء لا نهاية له. وأصول الثالوث السرى مشتقة من ضرورة وجود إله بشرى يحمو ذنب الجنس البشرى، ويجعل المسيحي على إتيان الأعمال التي تقربه من الله. أما الاسلام فهو يتمسك بالوحدانية، ويرفض ذلك، فيجعل المسلم كن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول، ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات. فلفظ الإسلام معناه الاستسلام المطلق لإرادة الله.

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسيين الفرنسيين في تصور العلائق التي تربطهم بالمسلمين. (١) فالمسيرو كيمون يعتقد أن الاسلام جذام فيما بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريما. بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ايسفك الدماء. وهو يرى المسلمين وحوشاً ضارية. ويعتقد أن الواجب إبادة خمسهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة. وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد،^(٢)

في متحف اللوفر . (٢) والمسؤولون (القس ياسنت سابقا) ، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً . فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من المسيحية . (٣) وهناك فريق ثالث يتوسط بين الفريقين ، ويقول إن الإسلام قنطرة للأمم الأفريقية . ينتقلون بواسطتها من ضفة الوئيفة إلى ضفة المسيحية .

ثم قال هانوتو إن هذه الآراء المتباينة هي التي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية . وطالب بأن تقوم السياسية الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام . ثم قال إن الإسلام دين وسياسة ، وإن شعور المسلمين مبهم من حيث الجامعة السياسية أو الرابطة المدنية أو الوطنية . فالوطنُ عندهم في الإسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الألوهية . فلا يجوز أن يتولاها إلا المسلمون . ثم أشار هانوتو إلى نجاح فرنسا في فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية في تونس . وقال إنها قد استطاعت أن تحقق هذا الانقلاب العظيم بلباقة وحنق ، دون أن تثير ضجيجاً أو تذمراً . فتوطدت دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس . وتسربت الأفكار الأوروبية بين السكان بدون أن يتألم منها إيمان الموحدين . وبذلك انفصم الحبل بين هذا البلد وبين البلاد الإسلامية الأخرى ، الشديدة الاتصال بعضها ببعض . ودعا في آخر مقاله إلى أن تستخذ تونس مثالا يقاس عليه ، ونموذجاً يفسج على منواله .

ورد محمد عبده على مقال هانوتو في ثلاث مقالات .

أما المقال الأول فقد اتهم فيه هانوتو بتحريك نيران العداوة في الفرنسيين ؛ وإثارتهم على حرب المسلمين . ولفت إلى ذلك نظر الشباب المصري الذي يتعصب للثقافة الفرنسية . وقال محمد عبده إن أصل التقدم الآري هو الهند . وهم يعتقدون بفناء العالم ، وأنه لا يليق بالإنسان أن يهتم بشئون العيش . وقال إن الإسلام هو الذي حمل إلى أوروبا مدنيات العالم ، من فارس ومصر واليونان والرومان ، بعد أن صفاها وهدبها ، وذلك عن طريق الأندلس . ثم تساءل بعد ذلك عما يعنى

هانوتو من المقارنة بين المدنية السامية والمدنية الآرية . فليس هناك علاقة بين الدين المسيحي وبين المدنية الحاضرة . فالإنجيل يأمر أتباعه بالانسلاخ عن الدنيا والزهادة فيها . ويوجب عليهم إذا سلبهم السالب قيصاً أن يعطوه الرداء أيضاً . وإذا ضربهم الضارب على خدعهم الأيمن أن يديروا له خدعهم الأيسر . وبقص عليهم أن دخول الجمل في سم الخياط أيسر من دخول الغنى في ملوكوت السموات . فهل تقوم المدنية الأوروبية على هذا الأساس ؟ ثم قال : إن الفينيقيين من الساميين ، وهم أساتذة العالم في الصناعة والتجارة ، بل القراءة والكتابة . ومنهم الآراميون . وقد كانت لهم مدنية لا تنكر أيام الرومانيين . ولا زالت الأهم يأخذ بعضها من بعض في المدنية ، لا فرق في ذلك بين آرى وسامى . ثم أشار محمد عبده إلى ما قرره هانوتو من أن الدين الاسلامى يراد به التوحيد ، والهيمن الآرى يقصد به ما يقابله . وقال إن هذا خطأ واضح ، لأن التوحيد هو دين عبرانى فقط ، عرف به إبراهيم وبنوه ، ومنهم عيسى . أما سمية الساميين من عرب وفينقيين وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس فقد كانوا ونذيين مشبهين ^(١) .

وتناول محمد عبده في مقاله الثانى ^(٢) مناقشة مسألة القدر والجبر عند الآريين والساميين ، أو النصارى والمسلمين . فقال : إن الآرية والسامية لادخل لهما في هذه المشكلة ، فقد عظم الخلاف فيها بين المسيحيين أنفسهم . ثم قال إننا لا نعرف يهودياً استلقى على قفاه ، وترك العمل اتكالا على القدر . ولكن نعرف ذلك في الأديرة وبين الرهبان . ونعرف بين المذاهب اليونانية ما يذهب إلى أن الأشياء توجد بالاتفاق والمصادفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب . وكذلك الاعتقاد أدخل في باب الجبرية من إسناد كل أمر إلى خالق الكون . ثم بين أن النبي وأصحابه جاهدوا في سبيل نشر الدعوة ، ولم يكتفوا بالتسليم للقدر

١ - تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٤١٥ - ٤٢٠

٢ - المرجع السابق ٢ : ٤٢٠ - ٤٢٤

في إثمهما : قائلين إن الذي كفل لهم النصر يكفيهم التعب . كما بين أن الأريين الذين دخلوا في الإسلام . من فرس ورومان ، هم الذين أفسدوا العقائد الإسلامية ، فأدخلوا فيها ما ليس منها . وأن الأوهام التي يبثها المتصوفة في الدين ترجع إلى أصول فارسية وهندية .

أما المقال الثالث ، فقد تناول فيه التوحيد والتنزيه . وتجسد الألوهية والتشبيه^(١) فقال : إن الوثنية وتوهم السلطان الإلهي ظاهراً في بعض الموجودات المادية ، كان عقيدة الواقفين على أبواب الإنسانية . لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها . وكلا ارتقى الإنسان في العلم . تمرقت دون روحه حجب المادة وانجلي له الوجود الأعلى . وقد كان هذا شأن اليونانيين ؛ حتى جاء سقراط وأفلاطون وأرسطو . وكذلك كان المصريون ، لم يقف بهم العلم دون التوحيد . غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين علمتهم . واستبقوا صور العبادات الأولى . ثم بين أن أهل التشبيه قسمان : قسم يعتقد بالوهية بعض الموجودات المشهودة ، وقسم آخر يعتقد أن باري السكون يظهر فيها . وبين هذين قسم ثالث ، يعتقدون بالوسائط ، ويقبسون الله على الكبراء وأهل السمو منهم ، فيتخذون بعض من يظنون بهم القرب من الله شفعاء . يلجئون إليهم ليقربوهم منه سبحانه . وهؤلاء قد استعبدوا أنفسهم للسادن والسكان ولازعاء ووارثهم ، واستسلموا لهم في جميع شئونهم . ثم قال إن ربط هانوتو بين المسيحية وبين الديانة اليونانية باطل ، لأن المسيحية بذلت وسعها في بداية أسرها لتطهير الأرض من الوثنية . وكان التنزيه قوام دعوتها ، ولم تظهر آثار التشبيه إلا بعد قرون من نشأتها وقال إن من المسيحيين الآن — مثل بعض طوائف البروتستانت — من يعتقد أن المسيح لم يكن إلا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر . ومن غير المعقول أن تجاهد المسيحية من حولها من الوثنيين ، لتخرجهم من وثنية إلى وثنية . أما الإسلام فقد دعا

إلى التوحيد ، وصرح بأن الدين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح وإبراهيم إلى موسى . ثم هو دين الأنبياء بعد موسى ، ودين خاتم رسل إسرائيل عيسى عليه السلام . ولم ينكر الإسلام أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه . وذكر أن منهم من مال إلى التشبيه ، ودعاه إلى الرجوع لأصل دينه ، حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويُعنتق من سلطة الرؤساء والزعماء ، الذي اغتصبوا عقله وملكوا هواه ووجهه . وبهذه العقيدة التي تدعو إلى التوحيد فتح المسلمون الدنيا ، وجالوا في علوم السماوات والأرض ، فنبغوا في مختلف فروع العلوم . وإنما فسدوا وتأخروا حين فسدت عقيدتهم ودخل فيها ما ليس منها . ورد محمد عبده على ما توهمه هانوتو ، من أن الإسلام قد قطع الصلة بين العبد وربّه فقال إن الإسلام قد أفضى بالعبد إلى ربّه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبينه رضاه . ثم قال : إن ثورة المستعمرات لا ترجع إلى أن فرنسا مسيحية فلو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها ، ثم كانت معاملة لغير ألف نسيين على ما نعهد في الجزائر ومدغشقر ، لما أحبا أهل المستعمرات ولا مالوا إليها .

وبعد هذا المقال ، انبرت جريدة (الأهرام) لمناقشة محمد عبده والرد عليه زاعمة أنه بنى رده على ترجمة محرقة لكلام هانوتو . ولما اطلع هانوتو على ما جاء في النسخة الفرنسية من الأهرام ، كتب مقالاً جديداً نشرت المؤيد ترجمته ، حاول فيه الاعتذار عما رى به من لغواء دولته بالمسلمين . وقال إنه لم يحاول فيما قال إلا الإصلاح وإقامة السلام . ثم نشر (الأهرام) بعد ذلك حديثاً لصاحبه مع هانوتو قال فيه : إنه روى آراء كيمون ليعرف المسلمون ما يقول عنهم ، وهو لا يعتقدها . وقال إن أوروبا لم تتقدم إلا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية . ونصح الشرق بأن يحذو حذو أوروبا . ورد بعض مفاسد الشرق إلى أسلوب الحكم العثماني . كما رده إلى ما يتوهمون من أنهم يستطيعون تحقيق النجاح باستغلال ما بين الدول الأوروبية من تنافس ومن خصومه ، وإقامة البراهين على عدالة قضيتهم . والواقع أن الدول الأوروبية لا تهتم بالعدالة ، ولكن تمها بمصالحها

الاستعمارية . ونصح الشرقيين بأن يهجموا نهج أوروبا كما فعلت اليابان ، فعملوا على نشر العلوم العصرية في بلادهم ، وعلى إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب . وقال إن العبرة ليست في إقامة المدارس ونشرها ، ولكنها في وضع مناهج الدراسة السليمة . وختم مقاله بأن السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية ، وهي التي كانت قاعدة أوروبا الأولى في سياستها ، وبها تقدمت وتمدت ونجحت ^(١) .

ورد محمد عبده على هذا المقال الأخير في ثلاث مقالات أخرى شرح فيها علل الأمم الإسلامية ، ورسم الطريق لعلاجها ^(٢) .

وقد ظل أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثررون بما ياقنون من تشجيع الإنكليز الذين كانوا يمكنون لهم في إدارات الحكومة وفي مناصب الدولة الكبرى ^(٣) ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشدد أزرها الصحف والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلون ويضعفون بمناوأة الإنكليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لأرائهم . حتى أصبح اسم محمد عبده مقترنا في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه مقترنا بالترمت وضيق الأفق المغد للسمحة الاسلام .

وقد ظهر صدى ذلك في الشعر الذي قيل في رثاء محمد عبده . فقد أشاد الشعراء الذين شاركوا فيه بفضله على النهضة الاسلامية . فمن ذلك قول حافظ إبراهيم في رثائه ، مشيراً إلى منهجه الجديد في التفسير وإلى توفيقه بين العلم والدين ، وما لقي في ذلك من أذى ^(٤) :

وَأَذُوكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأَنْكَرُوا مَكَانَكَ حَتَّى سَوَّوْا الصَّفَحَاتِ

١ - المرجع السابق ٢ : ٤٤٠ - ٤٤٨

٢ - المرجع السابق ٢ : ٤٤٩ - ٤٦٨

٣ - راجع ما جاء في تقارير كرومر السنوية بمناسبة تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف تقرير سنة ١٩٠٦ . الفقرة ٣ تحت عنوان (Egyptian Nationalism) من ٨

٤ - ديوان حافظ ٢ : ١٤ .

رَأَيْتَ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَّةٌ وَرُحْتَ وَلَمْ تَهْمُ لَهُ بِشَكَاةٍ
لَقَدْ كُنْتَ فِيهِمْ كَوَكْباً فِي غِيَاہِبٍ وَمَعْرِفَةً فِي أَنْفُسِ نَكِيرَاتٍ
أَبْنَتْ لَنَا التَّنْزِيلَ حُكْمًا وَحِكْمَةً وَفَرَّقَتْ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ
وَوَفَّقَتْ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْحِجَا فَأُطْلِعْتَ نُورًا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ
وَقَفَّتْ (لَهَانُوتُو) وَ (رِينَان) وَقَفَّةً

أمدك فيها الروح بالنفحات
ومن ذلك رثاء الكاشف ، الذي أشار فيه إلى ما ذهب إليه محمد عبده من
أن صلاح الأمة بصلاح الرعية لا السلطان ، وإلى ما غرس في المسلمين من
روح التسامح الذي يتفق مع حقيقة الاسلام ، كما أشار إلى عبارته المشهورة
« لا يصلح الشرق إلا مستبد عادل » ، ودافع عما اتهمه به خصومه من موالاته
الانجليز . فقال (١) :

فَأَرَيْتَ أَهْلَ الشَّرْقِ أَنْ صَلَاحَهُمْ بِنَفْسِهِمْ لَا بِالْمُلُوكِ مُؤَكَّدٌ
وَأَبْنَتْ لِلْمَغْلُوبِ عِلَّةً عَجْزَهُ وَمَرَّاسَ غَالِبِهِ فَهَسْمٌ يَقْلُدُ
مِنْ بَعْدِ مَا أَمْنَى اللَّيَالِي خَائِفًا مَتَرَقِبًا أَوْ ذَا شَكَاةٍ يَحْمَدُ
وَأَضْلَهُ نَقَرَ يَرُونَ نَجَاتَهُ فِي أَنْ يَسْبُتُوا مِنْ بَغْيٍ وَيَعْرَبِدُوا
يَتَطَلَّبُ الدِّسْتُورَ أَقْوَامٌ ، وَلَوْ وَكُنْتُ حَكَمَ شُعُوبٍ قَيْصَرَ أَخْلَدُوا
وَعَدَا يَرُدُّ غَلَاتِهِ وَحُمَمَاتِهِ لَوْ أَطْلَقُوا لَكَ أَمْرَهُمْ وَتَقَيَّدُوا
وَقَضَيْتَ بِهِمْ مُسْتَبْدًا عَادِلًا (٢) لَجُمِعَتْ شَمْلُهُمْ وَأَنْتَ الْمُتَفَرِّدُ
... أَنْصَفْتِ حَتَّى مَا يُسِيرُ لِمُسْلِمٍ مُتَنَصِّرٍ حَقْدًا وَلَا مَتُودٍ

١ - ديوان الكاشف ٢ : ١٢٢ - ١٢٤ .

٢ - راجع مقاله (إنما ينهض بالشرق مستبد عادل) تاريخ الأستاذ الإمام ٢ : ٣٩٠ .
وقد تنقح فيه أن يحكم مصر دكتاتور صالح لمدة خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ، يولد
فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الوالي الصالح ، الذي يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرحمة ،
إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرفقة .

ما قنتَ بالإصلاح إلا بعدما قدّرتَ قوة من يكيد ويفسد
وجعلتَ عفوك عن عداتك سنة للقادريين بها لإيهم تغمد
ما الحربُ تقتيل العدا ، لكنها نزع الحكيم من الورى ما عودوا

* * *

وظهر صدق دعوة محمد عبده في كثير مما كتبه تلاميذه ومعاصروه .
فن ذلك ما كتبه رفيق العظم (وهو أحد تلاميذه) ردّاً على مقال عبد القادر
حمزة : « خطر علينا وعلى الدين ، الذي أشرنا إليه في صدر هذا الفصل . فدعا في
مقاله إلى تنقيح الدين وتهذيبه على غرار ما حدث في أوروبا . قيل ما يسمونه
عصر النهضة في القرن السادس عشر ، حتى يصبح - حسب زعمه - ملائماً للعصر
ومسلماً للحياة (١) . بين رفيق العظم في مقاله أن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن
تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب ، وأن الذين يطالبون بعدم
إلتحام الدين في شئون الحياة لا يفرقون بين الدين في حقيقته ، وبين الدين
كما انتهى إليه أمره . ولا يميزون بين المصلحين من علماء الدين ، وبين المتنطعين
من الجامدين الذين يدافعون عن بدع مستحدثة وعادات بالية فاسدة يسمونها
الدين . ثم رد على الذين يزعمون أن سبيل الإصلاح هو في اتباع الغربيين الذين
نبذوا الدين . فقال : « رب قاتل يقول : ما أغنى هؤلاء المصلحين عن إصلاح
الدين ، وأحرامهم بالدعوة إلى إصلاح أمر الدنيا ، وبيان وجوه الخير والسعادة ،
التي تتم بها سعادة الأمم الراقية التي نبذت الدين . فالجواب عن ذلك أن المرض
إنما يزول بزوال سببه ، وإذا علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذهم البدع والعوائد
دينا . وهي ليست من الدين ، واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه
آباءهم الأولين ، لزمنا أن نسعى بإزالة السبب . ومتى زال ونشطت العقول من
عقال الأسر للعوائد ، والإغراق في الاستسلام لكل ما يقال إنه من الدين ، حق
وقتش على العقلاء والمصلحين أن يحولوا وجهتهم إلى الإصلاح المدني ، إذ يجدون

يومئذ كل الأمة آذاناً مصغية لما يقولون ، قلوباً واعية لما به ينطقون .
ومضى الكتّاب في بسط نظريته التي تقوم على أن الإصلاح المدني ، يتبع
الإصلاح الديني . وأن المجتمع النوي الناجح لا يقوم إلا على أساس العقيدة
السليمة ، مؤيداً رأيه بالنظر إلى تاريخ النهضة الأوروبية نفسها ، التي يدعو بعض
المصلحين إلى اقتفاء آثارها . فقد بدأت هذه النهضة في القرن السادس عشر
الميلادي بالإصلاح الديني الذي دعا فيه لوتر إلى ترك البدع الدينية ، وتطهير
العقائد من شوائب الحشو الغائلة للعقول . ثم كان الإصلاح المدني من بعد نتيجة
لهذا الإصلاح الديني الذي أطلق العقل من قيود السيطرة الجائرة ، بمثل ما كان
الإصلاح السياسي نتيجة للثورة الفرنسية .

ثم تتبع رفيق العظم تاريخ دخول البدع على الدين مما استدعى ظهور طائفة
من المتشددين ، فرأى أن الاسلام كان في أوله سهلاً يسيراً ، لا يزيد على أن يلقن
الداخل فيه كلمة التوحيد ، ويعلم أركان الصلاة ، ويؤمر بحفظ شيء من القرآن ،
ثم يقال له : هذا هو الاسلام في بساطته ويسره . وكان المتفقهون قلة من الصحابة .
ولم يكونوا يجاوزون في فقههم واقع الأمر الذي يعين على معرفة أحكام الدين .
فلما دخل كثير من الوثنيين وأهل الكتاب في الدين ، نقلوا معهم جملة من الآراء
الفلسفية والبدع العقلية ، مثل بدعة معبد الجهنى وغيلان الدمشقي في القول بالقدر
، واختلف أرباب المقالات بين جبرية وقدرية ومشبهة ومالا يُعتمد من الفرق التي
جمعها الاسلام ، وفرقتها الوثنية والابتداع . ودرأى ذلك فريق آخر من الأمة
فهاهم مارأوا . فنادوا : واغيرتاه على الدين . وبالفوا في الانذار والتحذير ،
وقول : هذا حلال وهذا حرام ، وهذا يمس الدين ، وهذا تقليد للوثنيين وهذا
يشكك المسلمين ، حتى أخرجوا صدر الأمة ، بإصاقهم كل شيء بالدين . فالقيام
والعمود والآكل والشرب والتخاطب والتعامل والعلم والتعلم كله بالدين ومن
الدين ولدين . وبالمجلة لم يدعوا شيئاً من العوائد إلا أدخلوه في الدين .
وخلص رفيق العظم من كلامه إلى الإجابة على السؤال الذي ختم به

عبد القادر حمزة مقاله (هل في النداء بالدين فائدة ؟ ...) فأجاب على ذلك بأن الكاتب قد أخطأ حين فهم أن المنادين بالدين كلهم يدعون إلى التمسك به على ما دخله من المشو واللغو المضر . فنحن في حاجة إلى النداء بإصلاح الدين لا النداء بالدين مطلقاً كما ظن . « وإنما ينفع النداء بالدين ، إذا امتاز تجار الدين والمتعصبون للتقاليد ، عن علماء الدين والإصلاح النقيورين . وتركوم وشأنهم في الدعوة إلى تطهير العقول من أدران الاعتقاد الباطل الذي تلبس به سواد الأمة ، فأصبحوا بعيدين عن قبول السعادة المدنية بُعْدَ الأرض عن السماء » . وتابع عبد العزيز جاويز أستاذة الشيخ محمد عبده في منهجه ، فأنشأ مجلة (الهداية) سنة ١٩١٠ . وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه ، في تقريب الإسلام من قيم العصر وثقافته ، التي هي في حقيقة أمرها مستمدة من قيم الغرب وثقافته . وأفسح من صفحات مجلته للمترجم من الثقافات الغربية الحديثة في التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره وثره .

أما ما كان ينشر في المجلة من مقالات إسلامية فبعضه يستهدف تقريب الدين من الثقافة الغربية الحديثة . وبعضه يستهدف تقريبه من المدنية الغربية ليطابق أنماط الحياة السائدة . فما نشرته المجلة في تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوى جوهرى في التوفيق بين الإسلام وبين مذهب دارون في التطور ، يقول فيه (١) :

« إنى قرأت تلك المحاورات . وعلمت ما فى تلك القضايا ، ولم أرى شيئاً يغير الدين ، ولا فكرياً يضر بمقائد المسلمين . فالإسلام بأمر الناس باليقين ، ولا يقين إلا بالعلوم التي يسميها الناس عصرية ، وهي في الحقيقة علوم إسلامية » . ثم يقول :

« إن الإيمان بالله تعالى قضية كلية لا يناقضها مذهب من المذاهب ، ولا يناهها منهج من المناهج . فإذا قلت إن الله وضع العالم منظماً مرتباً سائراً على القانون

والترتيب والحكمة والتناسق ، كما هو القضية الأولى (١) ، أو قلت إن الخيل والحير تولد بينهما بغل ، فلا كفران ولا خسران . كل ذلك حكمة إلهية ومعجائب حكمية . وما يكفر بتلك القضايا إلا المتوسطون في العلم ، الذين لم يرتقوا إلى طبقات الحكماء . فإن عقولهم لا تسع نظاما وترتيباً وإلها قادراً حكماً . ومثلهم كمثل العامة الذين لا تسع عقولهم أن تتصور تأثير العقاقير في الأمراض ، ويكتفون بالآيمان ، وهم جاهلون بنظام العالم وحكمته وترتيبه .

ثم رد نظرية دارون في التطور إلى علماء المسلمين فقال :

« قد علمتم أن مذهب دارون قد رجع إلى قضيتين اثنتين ، وهما لا يتافيان الألوهية (٢) . فدلالة العالم المنظم على الله قضية كليه لا يختلف فيها المحققون ، وإن غفل عنها الكثيرون . ولقد كانت هذه القضية الناموسية سرّاً مكنوناً عند علماء الاسلام ، كم أخفوها عن العوام . وتسمى عند علماءهم (دائرة الوجود) وعند أهل السنة والمعتزلة بالقضاء والقدر ، وتسمى في القرآن بالميزان . وورد الترتيب النظامي بذكر الإنسان فالحیوان فالنبات فالسماوات وكواكبها وشموسها في سورة النحل ، رجوعاً بالعالم من أواخرها إلى أوائلها ، وهذا عجب عجاب . وقد قال الغزالي رحمه الله : لا يعرف هذا السر إلا المحققون الذين درسوا أكثر العلوم . »

ودعا طنطاوى جوهرى علماء المسلمين وشبابهم إلى الاستعانة على توثيق إيمانهم بدراسة العلوم . « فقراءة التشریح والطبیعة والكیمیاء وسائر العلوم العصرية ، ودراسة الحيوان والنبات والانسان ، أجل عبادة . وهى أفضل من سائر القربات كما شرحه العلماء . وهى أفضل من صلاة النافلة والإحسان للفقراء . »

١ — رد الكاتب في مقاله مذهب دارون إلى قضيتين ، أولاهما هى أن النظم العضوية من النبات والحيوان والانسان متشابهة منتظمة متناحقة ، يتصل أولها بآخرها ، وثانيتهما هى أن الأجناس العليا مشتقة من الأجناس الدنيا . ومسألة الفرد والانسان جزء من آلاف من تلك القضية . وترجع كلها إلى التوالد الذاتى من الجواد .

ولولا قصور علماء القرون الماضية ما ضاع المسلمون ، وما أحاطت بهم عذابات الدهر ، ولا أصابتهم كوارث الحدثنان (١) .

« ورد على ما يزعم الزاعمون من أن دراسة العلوم الطبيعية يورث الزيف عن الدين وزعزعة اليقين فقال :

« إن أولئك الملحدّين أحد اثنين . إما رجل جهل الطبيعة ودرس قشورها فهو من الشاكين . وإما رجل ضعفت قوته الحاكمة ، فلا عقله بالمحفوظات وليس له من قوة الحكم من نصيب . إن بعض الشرقيين أسرعوا إلى الاتحاد لفلة بضاعتهم من العلوم (علوم الطبيعة يأتين الحكماء ، شك من دونهم) فما مثلهم إلا كالحفافيش أو الفَرَاش بهرهما ضوء الشمس ، أو كالقفير أصابه الغيب فجأة ، أو كثيران الأسبان بهرتهما بعد حبسها حمرة الألوان . هذه طبائع بعض الإنسان . ومن الناس من يمل من هذا الكلام ، إما لفسوق فيه ، وإما ليكبر وخيلاء ، لئلا يقول الناس رجوع عن رأيه . وإما ليتظاهر بأنه أعلم من حوله من العالمين ومادري المسكين أن الإنكار أسهل شيء على الجاهلين وليس يُعذّوزه إلا العناد الذي ماله من تَفَاد .

وبما نشرته (الهداية) في التوفيق بين الدين وبين حضارة الغرب التي تغاير حضارة المسلمين وأنماط حياتهم مقال لعبد القادر المغربي في حجاب المرأة (٢) ، بين فيه أن الغرض من الحجاب في الإسلام هو صيانة كرامة النساء وتوفير حرمة الأعراض . وأن الإسلام لم يحدد له صورة خاصة وكيفية بعينها . وإنما نهى عن التبرج وعن الخلوة بالأجنبي . ولكن المسلمين جروا في حجاب نسائهم على طرائق اختلفت باختلاف بيئاتهم وأقطارهم وعمرانهم وأمزجتهم وسائر المؤثرات

١ — راجع أم القرى ص ٢٧ — ٣٨ ، طبائع الاستبداد ص ٣٤ — ٣٦ في بعض الأمثلة على ما يستفيدة علماء الدين من العلوم الحديثة في فهم دينهم وما كشف عنه العلم الحديث من بعض أسرار القرآن .

٢ — الهداية : عدد ديسمبر سنة ١٩١٠ ص ٧١٤ — ٧٠٩

التي تحيطهم . وأورد أمثلة كثيرة على جواز السفور منها أن النبي صلى الله عليه وسلم شهد وليمة عرس ، وكانت العروس نفسها تخدم المدعوين . ومنها أن زوجة عبد الله بن عمر كانت تنزل إلى المسجد فتصلي الفجر غلظاً . ومنها أن أبا بكر كان يجتمع بالنساء الأجنيات ويحادثهن . وأن سفيان الثوري وأضرابه كانوا يزورون رابعة العدوية ويسمعون كلامها . وأن عائشة الباعونية (في القرن الحادي عشر من الهجرة) كانت تقرأ درساً عاماً في الجامع الأموي بدمشق ، وكان يحضر درسها العلماء والصلحاء وعامة الناس . وأن عمر بن الخطاب كان إذا رأى امرأة مرخية فناها على وجهها كشف القناع ونظر إليها فإن وجدها جميلة أقرها ، وإلا ألزمها بالسفور وترك القناع . وأن عائشة بنت طلحة كانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها (أى أنها تشعر من نفسها بأنها أعظم من أن يتحدث نفسه بها فاسق) وأن سوكينة بنت الحسين كانت تجالس الجيلة من قريش ، ويجتمع إليها الشعراء ، وتأذن للناس إذا نالها حتى تنفص بهم الدار ، فتأمر لهم بالطعام ، ثم تسأل الشعراء وتنقد أعمالهم .

ومما كتبه عبد العزيز جاويز في تدعيم هذا الاتجاه خطابه الذي ألقاه في المؤتمر المصري سنة ١٩١١ وفادى فيه بوجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق الشريعة الفراء . وقد جاء فيه (١) .

« ألا ليهذا روع أولئك الذين يتعدون غيرة على الدين كلما عرضت حال يدعو فيها داع إلى الإصلاح ، وأهمين أنه لا يكون شيء من ضروب الإصلاحات إلا حيث يكون المساس بأحد أصول الدين . وإذا لم يكن بد من أن ينفار ، فإن أحق ما تحقق عليه غيرة المؤمن ، بل أولى ما تسكب عليه حبات القلوب دما من المحاجر ، هذا الشرع الذي لحق به التوهين ، وتلك الأمة التي كادت تكون في الغابرين . ليهذا روعهم ، وليخففوا عنهم بعض ما بهم . وليعلموا أن من

١ - الهداية عدد مايو سنة ١٩١١ ص ٢٩٧ - ٣١٢ ، مجموعة أعمال المؤتمر المصري

الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية ، التي قررناها نقر من أهل العلم ، دون رعاية للمصلحة العامة ، التي هي أصل من أصول الشرع الشريف ... لقد سنّمت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمة والامكنة ، حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار . بل رخصت أن يُعَدَّلَ عن النص ، إذا ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الضرورة توجب هذا العدول ، وكانت المصلحة التي تنتج من اتباع النص أقل مما ينتج هذا العدول .

ثم ذهب الكاتب إلى أن قوانين الشرع عامة كلية ، وأن الذي نُصِّصَ عليه فيها من أحكام التعامل قائل ، وأن الباقي ترك للاستنباط بما يناسب الضرورات والحاجات التي ستجد للناس . كما زعم أن تقييد الناس بأراء الفقهاء الأقدمين ، الذين استنبطوا من الأحكام ما يناسب أحوال زمانهم ، قد أوقع الناس في حرج لا مسوغ له من الشرع ، واضطروهم إلى الأخذ بنظم الأمم الغربية . وقدّم في مثاله أمثلة لعدول النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة عليهم رضوان الله عن قاعدة الشرع رعاية للأصلح . منها أن النبي صلى الله عليه وسلم نهي أن تقطع الأيدي في الحدّ في حالة استثنائية هي الحرب . ومنها أن عمر رضي الله عنه نهي أن يجلد في حدّ من كان يباشر الحرب . ومنها إسقاط الحدّ في عام الجماعة . ودعا الفقهاء إلى الخروج عن عزلتهم ، وإلى دراسة المجتمع ، ليتعرفوا أعراضه وأطواره ، كما دعاهم إلى الاختلاط بسائر طبقات الأمة ليعرفوا عناصر الحياة الاجتماعية ، وممّ تركب ، وكيف تمتاز ، وما يطرأ عليها من التغيرات ، وكيف تترقى . وطلب إليهم أن يرجعوا لأهل الرأي من الأمة ليستعينوا بهم على مراعاة المصلحة العامة ، فيكون تقريرهم مجعاً عليه ، لانطباقه على الحاجات المتنوعة والضرورات المتعددة .

وأخذ عبد العزيز جاويز في تفسيره للقرآن يسير على منهج الشيخ محمد عبده في ربطه بالظروف القائمة متنقلاً في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة . فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت أن لا يلي الأرض

إلا المصلحون ، وذلك في تفسيره لقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ١٤). قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) . وقد جاء في تفسيره (١) :

كيف تكفرون بالله بعد إذ أردت الملائكة أن تكون لهم الخلافة في الأرض دون البشر ، وذلك لمساكنتهم من الله تعالى . ولمكوفهم على عبادته وتسييحهم بحمده وتقديسهم له . فبين الله لهم أن شرائط الخلافة في الأرض ليست تقطيع الليل في التسييح والتهجد ، ولا قضاء الأعمار في الحفوف من حول العرش . وإنما شرائط الاستيلاء على الأرض ، والاستمتاع بما على ظهرها ، والتصرف فيما تضمنته جوفها ، لا تكاد تخرج عن وجود العقل المفكر . وما زود الله به بنى آدم من الجوارح والنظام البديع ... لو أن عمران الأرض واستحقاق الخلافة فيها كانوا معقودين بمجرد طاعة طائفة من عباده . وإنهم ما هم في تسييحهم وتقديسهم ، (والتزامهم) لقواعد عرشه الرفيع ، لاختص الله من عباده بذلك ملائكته المقربين ، الذين لا يمضون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ولكن الله تعالى سبق - كتمه أن لا يرث الأرض إلا العاملون ، الذين يستخدمون مواهبهم العقابية والجسمية فيما خلقت له ، والذين لا يطلبون الغايات إلا من طرائقها الطبيعية ... وإذا كانت هذه هي سنته القديمة ، وتعاليمه التي هدى إليها الأخيار من ملائكته ، فعلام يستند جهال المسلمين من خاصتهم وعامتهم ، إذ يحاولون أن يدفعوا عنهم غارات المغيرين بتلاوة الآيات ورمى الجمرات واستصراخ الأموات ؟ وإذا يقابلون تماطل الرصاص وتقاطر الجلل وانفجار كرات (الديناميت)

بقراءة السور ومدارسة البخارى والابتهاال بالدعوات ، وقطع الأوقات بالركعات
والسجدة . وتابط (الجـاجلوتية) وحزب البحر وأشباها ، بما لم يأت به من
الله سلطان ، ولا يتقبله عقل لإنسان ؟ ... علام يستند أولئك الذين عطلوا سنة الله
الفطرية . واستمسكوا بسخافات الخرافات ، وتربصوا خوارق العادات ، ومالم
يأذن به الله من المنجيات ؟ .. وليت شرى ماذا أفادتهم اللحى السكثة المرسلة ،
أو السبح الغليظة المتدلية ؟ ثم ماذا أفادتهم يقظات الأسحار ، وقد استغرق منامهم
سائر النهار ؟ وهل ينفعهم التعفف عن الدرهم والدينار ، إذا تركوهما لأعداء
بلادهم ودينهم . يحاربونهم بها ، ويمسكون رقابهم بمحكم أطواقها ؟ ... لقد والله ذل
من يغنى أعداءه ويفقر نفسه ، كما ذل من يترك لخصومه ميادين المنافسة . ينفردون
فيها بالسكر والفر ، والنهى والأمر ، والتصرف فى كل شأن .

ومن ذلك إبرازه لما ينطوى عليه الإسلام من تسامح ، وذلك فى تفسير
قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله
واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم ولا هم
يمحزون) . إذ جاء فى تفسيره (١) :

« وما كان الله أن يظلم هؤلاء ليهوديتهم ولا أولئك لنصرايتهم . اللهم
إلا إذا أشركوا به غيره ، أو أنكروا اليوم الآخر ، أو هجروا صالحات الأعمال .
فالولئك لا يجرمهم الله ولا يؤا منهم من الفرع والخوف . أما الذين آمنوا من قوم
إبراهيم واليهود والنصارى والصابئين الذين ليسوا على دين من تلك الأديان ،
فإن الله لا يفرق بين أحد منهم ، ما داموا يؤمنون بتوحيده وبالحياءة الآخرة ؛
ويأتون من الأعمال صالحاتها ، فإ الله بمفضل قوماً على قوم حتى يقيموا توحيده
وتطمئن نفوسهم إلى دينه . فإن فعلوا ذلك ، ثم أتوا من الأعمال ما يصلح
الحياتين الدنيوية والآخروية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، لا ينقصهم منه شيئاً .
» أما الأعمال الصالحة ، فقد سبق أن المراد بها كل ما يكسب الإنسان

ثورة في الدنيا وازدلالاً إلى الله في الآخرة . فمن صالحات الأعمال كل ما يهتدى إلى غنى الأمم وعلو مكانتها . كما أن من صالحات الأعمال كل ما يخفف ويلات أصحاب الولايات ، ويؤدي إلى إصلاح الشؤون العامة ، اجتماعية كانت أو علمية أو اقتصادية . ومن البديهي أنه ما عنت أمة بذلك إلا ذهب الخوف والفزع عن نفوسها ، وملأ السرور والفرح صدورها .

« ولقد خالفنا المفسرين في تأويل قوله تعالى (إن الذين آمنوا) ذلك أن القرآن الكريم سمى إبراهيم بالمسلم ، ودعا دينه الإسلام (إذ قال له ربه أسلم . قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب . يابني إن الله اصطفى لك الدين ، فلا تمترن إلا وأنت مسلمون) والمراد من هذه الآية بيان أن الدين عند الله الإسلام . وأنه ممن يبتغ غير الإسلام ديناً قلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين . »

« أما معنى الإسلام الذي كان دين إبراهيم الخليل فإنه توحيد الله تعالى بالربوبية واختصاصه بالعبادة . (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) . على تلك القاعدة بنى دين إبراهيم ومن تبع سنته من أهل مكة ، كما بنى دين سيد الكائنات محمد المصطفى وأهل مكة : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا . والله ولي المؤمنين) . »

انقسم زعماء الإصلاح كما رأينا إلى فريقين : فريق ينظر إلى قديم المسلمين والعرب يتغنى به ويستوحيه . وفريق آخر ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق يزينه للمسلمين ويدعوم إلى احتذائه والسير على خطاه . وسرى هذان الأسلوبان في كل شئون الحياة ، فأصبحنا أمام فريقين متقابلين : فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضي ، ويدفعهم إلى الجديد دفعا لا رفق فيه ولا هراة . ويحملهم عليه حملا لا تدرج فيه . وفريق آخر يقول : إن علة تأخرنا هي موت ضمائرنا وفتور عزائمنا . وذلك ما لا سبيل إلى إحيائه إلا بالإسلام الذي يعلم المسلم أن حمل أعباء الحياة أمانة وأن الجهاد لإعزاز المسلمين وتحريرهم فريضة .

وكان المعتدلون من دعاة الحضارة الغربية لا يعارضون في تنقيحها ونهذيبها واستبعاد ما يتعارض منها مع ديننا وتقاليدها . وكان المعتدلون من دعاة الإسلام لا يعارضون في إصلاح عاداتنا وتقاليدها واستبعاد الضار منها مما أقبح على الإسلام وأيس منه ويرون أن التمسك بالدين لا يتعارض مع الأخذ بالنافع من المخترعات والجديد من الدراسات التجريبية والتطبيقية التي تلزم الفهم السليم يسائر النهضة الصناعية ، ولكنهم يفرقون بين ذلك وبين الحضارة والثقافة التي تتصل بالعقائد والعادات والتقاليد والأذواق وآداب المجتمع وأساليب الحياة وأنماط العيش . فيعارضون أشد المعارضة في أن تكون حضارتنا وثقافتنا صورة من حضارة الغرب وثقافته أو امتداد لها .

ولكن المتطرفين من الغربيين كانوا يبلغون في تطرفهم الشطط في كثير من الأحيان . فكان في المجددين من يبلغ في دعوته حد التهور والخروج عن القومية والارتقاء في أحضان الغرب ، وكان في المحافظين من يبلغ في محافظته حد الجور والتقطع ومحاربة كل جديد مهما ثبت نفعه ، والتمسك بكل قديم مهما تبين بطلانه وضرره .

كان بعض دعاة التجديد الذين ينادون باقتفاء الحضارة الغربية يبالغون في الاستخفاف بعلماء الدين ، حتى يحرم ذلك إلى الاستخفاف بالدين نفسه . كالذي تجده في بعض مقالات ولي الدين يكن ، حين يجاهر بالافطار في رمضان مستخفاً بالصائمين ، يتهمم بالنفاق والافطار سراً ، أو بضيق الأفق والتضييق على الناس في حريتهم الشخصية^(١) ، فيقول فيما يقول :

« في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدة تسجن المفطر إلى أن يأتي اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان أكثر المفطرين يدعون الصوم وبحسنون تقليد الصائمين ، حتى لقد بلغ أمر الكذب أن يضرب المفطر في بيته من يدخن بجانبه سيكارتة ، وقد خرجت بها ذات يوم في رمضان وراء أمر عرض

١ — راجع مقاله الذي نشر في المقلم (أ كذوبة إبريل ، وأ كذوبة رمضان) الصحائف

أريد قضاءه . فلما ركبت الترامواي رأيت جماعة من الأجانب على رؤوسهم القبعات وبأفواههم سيكاراتهم ، والناس ينظرون إليهم شزراً . ولا يقدر أحد منهم أن يخاطب أحداً أو ائتك الأجانب بكلمة تسوءه . وكانت علبة سيكارتى معى فنسيت أن اليوم من أيام رمضان . فأخرجت سيكارة جعلتها فى فمى ، وأقت أنتظر أن يمد إلى أحد الجالسين شيئاً أشعلها به . ففشت فى عيون الركّاب ، وجعل بعضهم يغمز بهضاً مشيراً إلىّ بلحظه . فقطعت لموضع خطمى ، وقلت : أدأويه لكم أيها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكافى بغتة كمن تذكر شيئاً كان نسيه وقلت : لعن الله الشيطان . كذبت والله أدخن سيكارتى وأتقض صومى .

ويصور بعد ذلك احتقاره الشديد لعلماء الدين وقد التقى بأحدهم عند بعض أصدقائه فيقول :

د .. فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى المكان المعدّ للتدخين دنا منى أحد المعمة مين ، وهو رجل كالجرادة ، له لحية كقائمة المزداد . رعينان كزيتونتين . فنظر فى وجهى مليئاً ثم قال لى : لم لا تصوم ؟ ... قلت : لا أدرى . قال : كيف لا تدرى ؟ ... قلت : ككل من لا يدرى . فقلب الضحك على الرجل ، وتنحيت أنا جانباً كى لا يطير فى وجهى رشاش من فيه . فقال : مالك تنأى عنى ؟ أغول أنا فنخافنى ؟ ... قلت : كلا . بل فلك راحتته مننتة فلا أقدر أن أشمها .

ونجد مثل هذا الاستخفاف فى مقال آخر له ، يسفه فيه ذبح الأضاحى فى العيد فيقول (١) :

د أمس أرهفت الشفار ، وشمم الجازرون عن سواعدهم ، وجىء بالأضاحى التى أسمنها مقتنوها وطلوا أفرادها بالحناء وبالورس ، وفيهم من موهوا بالذهب قرونها ودهنوا بالزعفران آذانها . فأكب أهل الصناعة على صناعتهم ، فن مكبر ذابح ، ومن نافخ ضارب ، ومن ساحل جاذب . ومن مقطع ناصب . وعلى أبواب

١ — راجع مقالة (الإسراف | الإسراف |) الصحائف السود من ٨٢ — ٨٥ والعجب للكتاب ، يضيق صدره بذبح الحراف ، ولا يضيق الأورويين للديكة الرومية مثلاً فى أعيادهم .

البيوت الأقيال وأبناء الأقيال من الساسانيين وقوفا صفوفا ، أو مجثما فمردأ ، يراقبون من كل باب مصراعه ، وكان البدر سيطلع عليهم في موكب السماوى ، أو كان سينجاب غشاء الأبصار فتبدو من ورائه القسم . ثم يقول فى استخفاف :

« لا أدرى حكم الأضاحى فيما يرجع إلى الدين . فلا أتعرض له بشئ .
مجانبة للشطط . ولكن ما هذا الإسراف ؟ ... أنفنا نأر عند الغنم فنشار ؟
أم الغنم كثيرة فتريد أن تقل ؟ ... ما روى لنا أحد المؤرخين أن جد الغنم
نطع أبانا آدم ، فنجعل عداءنا محمولا على هذا السبب (١) » .

وكان المحافظون من دعاة الإصلاح الإسلامى يهاجمون الفريق الأول ،
ويتهمونهم بالتفريط وهدم الإسلام . فمن ذلك قصيدة لمحم : يحاجم فيها قاسم
أمين فى دعوته إلى تحرير المرأة فيقول (٢) :

أغرك يا أسماء ما ظن قاسم ؟	أقيمى وراء الخدر فالمرء وام
تضييقين ذرعاً بالحجاب ، وما به	سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق فى الشرق كله	إذا ما استبيحت فى الخدور الكرائم
أقاسم لا تقذف بجيشك تفتفى	بقومك والإسلام ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقية	تلوذ بها أعراضنا والمحارم
أسائل نفسى إذ دلفت تريدها	أأنت من البازين أم أنت هادم ؟
... أناقى الثناقا الغر والطرر العلى	بما عجرت عنه اللحى والعائم ؟
فلا ارتفعت سفن الجواء بصاعد	إذا حلقت فوق النسور الحائم
عفا الله عن قوم تهادت ظننهم	فلا النهج مأمون ولا رأى حازم
ألا إن بالإسلام داء مخمرا	وإن كتاب الله للداء حاسم

ومن ذلك مقال كتبه عبد الله النديم بأسلوبه الواقعى الساخر فى مجلة

١ — راجع كذلك أمثلة لاستخفاف الكتائب بملأه الدين فى ديوانه من ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ .

٢ — ديوان محرم ٢ : ٦٣ — ٦٥

(التدبكت والتبكيب) ، يصور فيه أحد أبناء الريف ، وقد عاد من أوروبا بعد أن أتم تعليمه في بعثة حكومية فقال (١) :
ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط . وتركه يلعب في التراب وينام في الوحل ، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرجه مع البهائم إلى الغيط ، يسوق الساقية ، ويحول الماء . وكان يعطيه كل يوم أربع حندويلات وأربعة أخاخ بصل ، وفي العيد كان يقدم له اليخني ، ليمتعه بأكل اللحم والبصل . وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار ، فقال لأبيه : لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنسانا ، فأخذته وسلمه إلى المدرسة . فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى (أوروبا) لتعلم فن عيخته له . فبعد أربع سنين ركب الوابور وجاء هائداً إلى بلاده . فن فرح أبيه حضر إلى الاسكندرية ووقف برصيف الجمرك ينتظره ، فلما خرج من الفلوكه (٢) قرب أبوه ليحتضنه ويقبله ، شأن الوالد المحب لولده . فدفعه في صدره .

ثم يحكى النديم الحوار في لهجته التي دار بها . فالابن ضيق بهذه العادة التي يراها شيئاً قبيحاً . ويتمنى لو فعل أبوه مثلاً يفعل الغرييون ، فيضع يده في يد ابنه ويقول في رقة (بون أريني) . والاب لا يفهم مايقوله ابنه ، ويظن أنه يعيره بأنه (ريني) . فيضيق الولد قانلاً (أتم يا أولاد العرب كالبهائم لا تفهمون) . ويتكرر هذا الموقف حين يلتقي بأمه وتقدم له غداء من اللحم والبصل . فيظهر الضيق الشديد بالطعام ويعنف أمه لأنها أكرت من الد ... ويبدو كأنه يبحث في ذاكرته عن اسم (البصل) فلا تسعفه إلا التسمية الفرنسية (أونيون) . ولا تفهم أمه عنه . فتظل تستوضحه ويظل يصفه لها حتى يقع عليه حين يقول : (الذي تسمع منه العين) فتقول أمه (تعني البصل ؟) فيقول بلهجته الفرنسية

١ — العدد الأول ٦ يوليو سنة (١٨٨١) — سلاطة النديم ص ٨٢ مقال بعنوان (عربي تفرنج)

٢ — الفلوكه في اللهجة العامية بمصر قارب بالحق بالسفينة لنقل راكبيها إلى الشاطئ .
كأنه مشتق من (الفلك) بضم الفاء وسكون اللام وم : السفينة .

الغالبية عليه (سى سا . بصل ... بصل) وتعجب أمه ويعجب أبوه من أمره .
كيف نسى البصل وقد كان كل طعامه منه ١٩

ويختم الكاتب هذا الحوار باستنباط العظة من القصة قائلا :

« وشكاه معيط لأحد النباه ، وقال ولدى توجهه إلى أوروبا ، وحضر يذم
بلاده وأهله ، ونسى لغته . فقال له النبيه : ولدك لم يتهذب صغيراً ، ولا تعلم حقوق
وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على
عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية . فهو وإن كان تعلم علوماً إلا أنها لا تفيد وطنه
شيئاً . فإنه لا يميل إلى إخوانه ، ولا يستحسن لإلّا من يعرف لغتهم . على أنه أصبح
كالغراب لما أراد أن يقلد الحجل في مشيته ، وعجز عن التقليد ، واستحال عليه عوده
لطبيعته الأولى ، فأصبح يقفز قفزا . وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية .
ولا يفعل فعل ولدك إلا لئيم جاهل بوطنه . فكم من شبان تعلمت في أوروبا ،
وعادت محافظة على مذهبها وعراييدها ولغتها ، وصرفت علومها في تقدم بلادها
وأبنائها ، ولم ينطبق عليهم عنوان (عربي تفرنج) . »

ولمى جانب هذين الاتجاهين ظهر اتجاه ثالث يريد أصحابه أن يجمعوا
بين الاتجاهين وأن يوفقوا بين الطرفين . فتادوا بأن الإسلام هو الأساس الذي
يجب أن يقوم عليه الإصلاح ، ولكنهم فسروا نصوصه تفسيراً جديداً يقبل معه
كثيراً من أساليب الحياة والتفكير الوافدة من الغرب وقد كان هذا الاتجاه
الآخر - ولا يزال - مثار كثير من الجدل في تقديره والحكم عليه . وسوف
أعود للكلام عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله .

تم الجزء الأول بحمد الله

قائمة

بطبعات الكتب التي أحلت عليها في هوامش الكتاب^(١)

(١)

الاتجاهات الحديثة في الإسلام تأليف د. ر. ر. جب، ترجمة كامل سليمان طبع

بيروت ١٩٥٤

أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى (على نفقة محمود طاهر صاحب جريدة العرب) .

(ت)

تاريخ آداب اللغة العربية (الجزء الرابع لجورجي زيدان الطبعة الأولى سنة ١٩١٤ م
(مطبعة الهلال بالقاهرة . مصر) .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الأول) لمحمد وشييد رضا الطبعة الأولى سنة
١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثاني) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ
(١٩٢٥ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ الأستاذ الإمام (الجزء الثالث) لمحمد رشيد رضا الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ
(١٩٤٨ م) مطبعة المنار بمصر .

تاريخ التعليم في مصر (٢ أجزاء) لأحمد عزت عبد الكريم الطبعة الأولى
١٩٤٥ م مطبعة النصر بمصر .

التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر (الفريد بلنت) - ٥ أجزاء (العدد ٦٩
من سلسلة « اخترنا لك » .

تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد الطبعة الثالثة ١٩١٢ م مطبعة التقدم بمصر .

تاريخ المسألة المصرية (ترجمة العبادي وبدوان) تأليف تيودور روتشتين الطبعة
الثانية ١٢٥٥ هـ - ١٩٣٦ م لجنة التأليف .

تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطاني وبعده تأليف تيودور روتشتين وتحرير
على أحمد شكري ١٢٤٥ هـ - ١٩٢٧ م .

تاريخ المفاوضات المصرية (الجزء الأول) لمحمد شفيق غربال ١٩٥٢ م مكتبة
النهضة المصرية .

تحرير المرأة لقاسم أمين الطبعة الثانية ١٩٤١ م مطبعة روز اليوسف .

١ - رتبت هذه القائمة ترتيباً أبجدياً حسب أوائل أسماء الكتب . وسقطت منها الصحفي والمجلات لعدم الاختلاف في طبعتها .

تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب مطبعة الترقى ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) .

(ث)

الثورة المرائية لعبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٩٤٩ م مطبعة السعادة بمصر .

(ح)

حرب البلقان الأولى تأليف يوسف البستاني المحرر بالجريدة ١٩١٣ م .

الحركة الأدبية في حلب تأليف سامي الكيالي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦

(د)

دفاع المصري عن بلاده (خطب ومقالات مصطنى كامل) في صيف ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م
مطبعة اللواء بمصر .

دول العرب وعطاء الإسلام لأحمد شوقي ١٩٣٣ م مطبعة مصر .

الدولة العربية المتحدة (الجزء الثالث) لأمين سعيد ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م مطبعة
عيسى البابي الحلبي .

ديوان إسماعيل صبري ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ مطبعة لجنة التأليف .

ديوان البارودي (جزء آن) محمود سامي البارودي (طبعة المنصوري

(لآخر حرف اللام) مطبعة الجريدة ديوان حافظ (الجزء الأول) (محمد
حافظ إبراهيم) الطبعة الثانية ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م مطبعة دار الكتب .

ديوان حافظ (الجزء الثاني) (حافظ إبراهيم) الطبعة الأولى ١٩٣٧ م مطبعة دار الكتب

ديوان شوقي (الجزء الأول) (أحمد شوقي) ١٩٢٥ م مطبعة مصر .

ديوان شوقي (الجزء الثاني) د د د ١٩٣٠ م مطبعة مصر .

ديوان شوقي (الجزء الثالث) أحمد شوقي ١٩٤٦ م مطبعة دار الكتب .

ديوان شوقي (الجزء الرابع) د د د مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية
مع مقدمة لمحمد سعيد العريان .

ديوان صالح مجدي ١٣١٢ هـ - ١٨٩٣ م مطبعة بولاق .

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الأول) (عبد الحليم حلي المصري) ١٩١٠ م
(مع مقدمة لمحمد صادق عنبر) .

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثاني) ١٩١١ م

ديوان عبد الحليم المصري (الجزء الثالث) ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م مطبعة المعارف
بالفجالة - مصر .

ديوان عبد المطلب (محمد عبد المطلب) الطبعة الأولى . مطبعة الاعتماد بمصر .

ديوان الناياتي (علي الناياتي) الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ مطبعة عطايا بمصر .

ديوان الكاشف (الجزء الأول) (أحمد الكاشف) الطبعة الثانية ١٣٢٢هـ - ١٩١٤م
مطبعة الترقى بمصر .

ديوان الكاشف (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٣١هـ - ١٩١٣م مطبعة
الجريدة بمصر .

ديوان محرم (الجزء الأول) (أحمد محرم) الطبعة الأولى ١٩٠٨م مطبعة الجريدة بمصر .

ديوان محرم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ - ١٩٢٠م مطبعة الفتوح بدمهور .

ديوان نسيم (الجزء الأول) (أحمد نسيم) ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م مطبعة الإصلاح .

ديوان نسيم (الجزء الثاني) ١٩١٠م مطبعة الهلال .

ديوان ولي الدين يكن الطبعة الأولى ١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م مطبعة المقتطف بمصر .

(ذ)

ذكرى وعبرة (الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده) لسليم البستاني . الطبعة الأولى
١٩٠٨م مطبعة الأخبار .

(ر)

روشتين (راجع تاريخ المسألة المصرية) .

(ز)

زعماء الإصلاح في العصر الحديث لأحمد أمين الطبعة الأولى ١٩٤٨م نشر مكتبة
التنهضة المصرية .

(س)

سلافة النديم (الجزء الأول) بقلم عبد الله النديم الطبعة الأولى ١٣١٤هـ - ١٨٩٧م
المطبعة الجامعة بمصر .

سلافة النديم (الجزء الثاني) الطبعة الأولى ١٣١٩هـ - ١٩٠١م مطبعة هندية بمصر

(ش)

شعراء العصر محمد صبرى ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م مطبعة الأمة بمصر .

شعر الحاسة والعروبة في بلاد الشام لأحمد الطرابلسي معهد الدراسات العربية ١٩٥٦
شوقي (راجع صداقة أربعين عاما) .

الشوقيات (مجموعة شعره من ١٨٧١ - ١٨٩٨م) الطبعة الثانية ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م
مطبعة الإصلاح بمصر .

(ص)

الصحفانف السود لولى الدين يكن ١٩١٠م مطبعة المقتطف بمصر .

صداقة أربعين عاما لشكيب أرسلان ١٩٣٦م مطبعة عيسى البابى الحلبي بمصر .

(ط)

طبائع الاستعداد ومصارح الاستعداد ، لعبد الرحمن الكواكبي . الطبعة الأولى مطبعة المعارف بالقاهرة بمصر .

(ع)

عباس الثاني (ترجمة فؤاد . . .) تأليف اللورد كرومر . مطبعة التوفيق بمصر .
عبد الحميد ظل الله على الأرض (ترجمة راسم رشدي) تأليف الدكتور الماوتلين ١٩٥٠ م دار النيل للطباعة بمصر .

عصر الحرافقة - جزآن (ترجمة أبو ريدة ، محمد بكير خليل) تأليف جستاف شتلتنبر سلسلة الفكر الحديث (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(ف)

فضائل الماسونية تأليف شاهين بك مكاريوس صاحب مجلة اللطائف المصورة مطبعة المقتطف ١٨٩٩ (ومنه نسخة في مكتبة جامعة الاسكندرية رقم ١٥٦٠٨)

(ل)

ليالي سبطيح تأليف محمد حافظ إبراهيم الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م مطبعة الإصلاح بمصر .

(م)

ما هنالك (لأديب فاضل من المصريين) مطبعة المقطم بمصر ١٨٩٦ م
مجموعة أعمال المؤتمر المصري الأول ١٩١١ م المطبعة الأميرية بمصر .

محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م مطبعة لجنة التأليف
مذكرات عرابي (جزآن) بقلم أحمد عرابي ، كتاب الهلال في فبراير ، مارس
سنة ١٩٥٣ م

مذكراتي في نصف قرن (الجزء الأول : من ١٨٧٣ - ١٨٩٢ م) الحاج
أحمد شفيق (باشا) الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م مطبعة مصر .
مذكراتي في نصف قرن (الجزء الثاني أ : من ١٨٩٢ م - ١٩٠٢) الطبعة الأولى
١٩٣٦ م - مطبعة مصر .

مذكراتي في نصف قرن (الجزء الثاني ب : من ١٩٠٣ م - ١٩١٤ م) الطبعة
الأولى ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م مطبعة مصر .

المرأة الجديدة تأليف قاسم أمين الطبعة الثانية ١٩١١ م مطبعة الشعب .
المسامير تأليف عبد الله النديم (عن بطيعة الشريف ي . ن . هـ . م) .
المبجلة الشرقية تأليف مصطفى كامل . الطبعة الأولى ١٨٩٨ م مطبعة الآداب بمصر .

- مصر للصريين تأليف سليم نقاش (نشر منه ٦ أجزاء من ١٩٠٢-١٨٨٤ م
مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية .
- مصر والاحتلال الإنجليزي (مجموعة أعمال مصطفى كامل من ١٨٩٥ - ١٨٩٦ م)
١٩١٣ م مطبعة الآداب .
- مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال تأليف عبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية
١٩٦٧ م - ١٩٤٨ م مطبعة الفكرة بمصر .
- مصطفى كامل تأليف عبد الرحمن الرافعي الطبعة الثانية ١٩٦٤ م - ١٩٤٥ م
مطبعة لجنة التأليف .
- معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثالث (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز
١٩٥٠ م مطبعة لجنة التأليف بمصر .
- معالم تاريخ الإنسانية المجلد الرابع (ترجمة عبد العزيز جاويد) تأليف هـ . ج . ولز
١٩٥٢ م مطبعة لجنة التأليف بمصر .
- المنتخبات (جمع لإسماعيل مظهر) بقلم أحمد لطفى السيد . نشر مكتبة الأنجلو المصرية
منتخبات المؤيد (السنة الأولى ١٨٩٠ م) ١٣٢٤ هـ مطبعة الرياسة .
- (هـ)
- هـ . ج . ولز (راجع معالم تاريخ الإنسانية) .
- (و)
- وطائيق (راجع ديوان الغاياني) .

مراجع إنجليزية

- 1 — Great Britain in Egypt (F. W. polson Newman) 1928
- 2 — Islam in Modern History (W. C. Smith) princeton 1957
- 3 — Modern Egypt (The Earl of Cromer) 1908
- 4 — Reports by His Majesty's Agent and Consul General
on the Finances, Administration, and Condition of
Egypt and the Soudan.
- 5 — Whither Islam ? edited by H. A. R. Gibb 1932

فهرس الموضوعات

الفصل الأول - الجامعة الإسلامية

(ص ١ - ص ٤٩)

غلبة النزعة الإسلامية على الهوية الجنسية ص ١ - المسألة الشرقية في نظر كثير من الكتاب والمفكرين هي امتداد للنزاع الصليبي ص ٢ الخلاف بين تركيا والألم الملقانية من مظاهر هذا النزاع ص ٣ مقالات العروة الوثقى في الحث على اتحاد كلمة المسلمين ص ٤ - أم القرى للكواكبي، الأستاذ عبد الله التديم ص ٥ - المسألة الشرقية لمصطفى كمال ص ٦ - تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ١٠ - عصر الحديث للكرومر ص ١١ - قلق الشعراء بالخليفة التركي صورة من صور الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ص ١٢ - الشعراء ياجؤون إلى الخليفة شاكين من الاحتلال ص ١٦ - الدول الأوروبية تتذرع بالدين طمعاً في اقتسام الإمبراطورية العثمانية ص ٢٢ - الإنجاز والخلافة العربية ص ٢٣ - الشعراء يشيرون لكل ما يمس شعباً إسلامياً حيثما كان ص ٢٧ - حرب اليونان سنة ١٨٩٧ ، الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ ، سقوط السلطان عبد الحميد ص ٢٠ - حرب طرابلس سنة ١٩١١ ص ٢٥ ، حرب البلقان سنة ١٩١٢ ص ٣٩ - قدوم طيارين تركيين إلى مصر سنة ١٩١٤ ص ٤٣ - مهاجمة كرومر الاسلام والمسلمين أعانت على التعلق بفكرة الجامعة الإسلامية ص ٤٥ - أنصار الجامعة الإسلامية ليسوا جميعاً من المؤيدين للنموذ التركي في مصر ص ٤٦ .

الفصل الثاني - الجامعة المصرية

(ص ٥٠ - ١٠٦)

الوطنية بمعناها الاقليمي في مصر صدى للاتجاه الأوروبي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر ص ٥٠ - الدعوة الجديدة نشأت قبيل الثورة العربية ص ٥٢ - ولكنهما لم تكن مناقضة لفكرة الجامعة الإسلامية ص ٥٤ -

ص ١١٢ - مقتل بطرس خالى ص ١١٤ - تفاقم الخلاف ص ١١٦ - انعقاد المؤتمر القبطى فى أسيوط ومطالب الأقباط ص ١١٧ - المؤتمر المصرى فى هليوبوليس ص ١١٨ - المؤتمر القبطى والمؤتمر المصرى هماقة العنف فى النزاع بين عنصرى الأمة وليكنهما نقطة البداية الصحيحة فى الجامعة القومية ص ١٢٠ - محاولات الشعراء فى تخفيف الأزيمة وفى بناء الوحدة : الغايات ص ١٢١ - إسماعيل صبرى ص ١٢٢ - شوقى ص ١٢٣ - نسيم ص ١٢٤ - ولى الدين يكن ص ١٢٥ - محرم ص ١٢٧ - حافظ ص ١٢٩ - عود إلى شوقى ص ١٣٠ .
الفصل الرابع - تيارات سياسية

(ص ١٢٤ - ص ٢٢٣)

الثورة العرابية هى بداية التطور فى الوعي السياسى المصرى ص ١٢٤ - من كلمات الأفغانى ص ١٣٥ - صالح مجدى ص ١٣٦ - من كلام محمد عبده فى الثورى وفى نشأة رأى العام ص ١٣٨ - انتشار روح الهزيمة بعد فشل الثورة العرابية ص ١٤١ - الإنجليز يثبتون أقدامهم ويتسلطون على كل المرافق العامة ص ١٤٢ - المؤيد تستقنض الهمم وتثير مسألة الجلاء ص ١٤٣ - صحيفة الأستاذ تحمل على الإنجليز وأعوانهم ص ١٤٧ - مصطفى كامل والجلاء ص ١٥٤ - الحديوى عباس يتزعم الحركة الوطنية فى أول حكمه ص ١٥٤ - التفاف المصريين حول الحديوى عباس ص ١٥٦ - عباس بصطدم بكرومر ص ١٥٨ - اضطهاد كرومر لعباس يزيد عطف الشعب عليه ص ١٦١ - من كلمات مصطفى كامل ص ١٦٢ - الشعر الذى مدح به عباس فى هذه الفترة من صميم الشعر الوطنى ص ١٦٣ - من شعر شوقى ص ١٦٣ - من شعر حافظ ص ١٦٥ - إسماعيل صبرى ، محرم ص ١٦٦ - الكاشف ، عبد المطلب ص ١٦٧ عباس يتراجع أمام كرومر ص ١٦٨ - اضطراب عباس وتخطيط سياسته ص ١٦٩ - استسلامه وانصرافه إلى جمع المال ص ١٧١ - جورست برضى شره عباس للسلطة والمال فيقتنكر للحرركة الوطنية ص ١٧٤ - الوطنيون يحاربون فى جبهتين ، فيقاومون الإنجليز

ويهاجمون الحديوي وأذئاب الاستعمار ص ١٧٦ - مقال محمد عبده في ذكرى
 محمد علي ص ١٧٨ - الشعراء يهاجمون عباسا : الغياياني ص ١٨١ - محرم
 ص ١٨٥ - الكاشف ص ١٨٨ - عبد الحليم المصري ص ١٩٠ - النزاع بين
 السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ص ١٩٢ - الانجليز يجدون في اصطناع الأولياء
 والأصدقاء ص ١٩٣ - شوقي شاعر عباس ، وشعره يتبع قلب أميره ص ١٩٥ -
 نسيم شاعر كرومر ص ١٩٦ - ولي الدين يكن يشيد بالانجليز اعترافا بفضلهم
 في حماية تركيا الفتاة ص ١٩٩ - الشاميون في مصر أنصار الاحتلال ص ٢٠٣ -
 الجالية الأرمنية والاحتلال ص ٢٠٤ صور من مهاجمة المصريين للشاميين النازلين
 بمصر : مصطفى كامل ص ٢٠٤ - عبدالله النديم ص ٢٠٥ - حافظ إبراهيم ص
 ٢٠٦ - الغياياني ٢٠٧ فريق ثالث يتردد بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ومنه
 حافظ ص ٢٠٩ الأحزاب والصحف بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية ص ٢١٤
 اشتداد الخصومة بين الأحزاب وانفعال الصحف عن المسائل العامة بالمهاثرات
 ص ٢١٦ - المصلحون يضجون من هذه الفوضى المفسدة للأخلاق والأذواق :
 عبدالله النديم ص ٢١٦ - حافظ إبراهيم ص ٢١٧ - محرم ص ٢١٩ - الدعوة
 إلى الاتحاد وضم الصفوف : حافظ ص ٢٢٠ - محرم ص ٢٢١ ص شوقي ص ٢٢٢ .

فصل الخامس - نزعات إصلاحية

(ص ٢٢٤ -)

السياسة والإصلاح ص ٢٢٤ - فساد المجتمع المصري ص ٢٢٥ - ضرورة من هذا
 الفساد في رواية الوطن ، لعبدالله النديم ص ٢٢٦ - أدب واقعي يتبع عيوب
 المجتمع بالنقد والهجاء ص ٢٢١ - من شعر الكاشف ص ٢٣١ - حافظ ص ٢٣٢ -
 محرم ص ٢٣٣ - انقسام زعماء النهضة إلى فريقين : فريق يكافح الاحتلال ،
 وفريق يطالب بالإصلاح ص ٢٣٤ - كرومر يشجع المطالبين بالإصلاح
 ص ٢٣٥ - المطالبون بالإصلاح طائفتان : فريق يدعو للأخذ بأساليب
 الحضارة الغربية ، وفريق يدعو إلى الاحتفاظ بالتقاليد الإسلامية ص ٢٣٥ -
 تناقض في الحياة الاجتماعية من أرتجوا زهدين التيارين ص ٢٣٦ - دعاة الحضارة

الغربية من أصحاب الثقافة الأوروبية ومن مسيحيي الشاميين المقيمين في مصر
ص ٢٢٦ - كرومرو الإسلام ص ٢٤٠ - أثر الحضارة الغربية والتفكير الأوروبي
يتجلى في ثلاث دعوات كبيرة شغلت الرأي العام ص ٢٤٤ - (١) الدعوة إلى
الحرية الشخصية وإلى النظام النيابي الأوروبي ص ٢٤٥ - الكواكبي في طبائع
الاستبداد ص ٢٤٦ - (٢) الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية
وتأثيرها بالمحررين وبمفكرى عصر النهضة في أوروبا ص ٢٥٤ - الاستعمار
والصهيونية العالمية يعينان على ترويح هذه الدعوة ص ٢٥٥ - السلطان عبد الحميد هو
المقصود بكثير مما كان يكتب ويذاع ص ٢٦٠ صور مما كان يكتب ويذاع
ص ٢٦٠ - ذكرى وعبرة ، للبستاني ص ٢٦٤ - نسيم ص ٢٦٨ - حافظ
ص ٢٧٠ - ولي الدين يكن ص ٢٧٠ - سليم عنحورى ص ٢٧١ - (٣) الدعوة
إلى (تحرير المرأة) ص ٢٧٣ - (تحرير المرأة) لقاسم أمين ص ٢٧٣ - (المرأة
الجديدة) لقاسم أمين ص ٢٨٢ - حركة الإصلاح الإسلامى ص ٢٩١ - من شعر
الإصلاح الاسلامى : محرم ص ٢٩٢ - الكاشف ص ٢٩٤ - شوقي أبرز شعراء
هذا الاتجاه ص ٢٩٥ : دعوة الإسلام إلى الأخذ بأسباب القوة ص ٢٩٥ ،
ما يمتاز به الإسلام من اعتدال واتزان ص ٢٩٦ ، الإسلام لا يتعارض مع الاستمتاع
بطيبات الحياة ص ٢٩٧ ، الحكومة الإسلامية ص ٢٩٨ ، دعوة الإسلام إلى العمل
ص ٢٩٨ - الاحتفال برأس السنة الهجرية من ثمار هذه الحركة الإسلامية ص
٢٩٩ - حقيقة الإسلام تختلف عن واقعه بعد أن غلبت عليه البدع الفاسدة
ص ٣٠٠ -- من بدع بعض المنتسبين إلى الطرق ص ٣٠٠ - من كلام الجملة من
خطباء المساجد ص ٣٠١ - من بدع أدعياء التصوف أيضاً ص ٣٠٢ - مدى هذه
الدعوة في الشعر : الكاشف ص ٣٠٤ ، محرم ص ٣٠٦ - اتجاه ثالث يتوسط
بين الاتجاهين الإسلامى والغربى : حركة محمد عبده في التوفيق بين الإسلام وبين
حضارة الغرب ص ٣٠٧ - اتجاهه في القسم الأول من حياته إلى استنهاض همم المسلمين
ودعوتهم إلى الكفاح : مقاله د القضاء والقدر ، ص ٣٠٩ ، مقاله د الإسلام

فهرس الأعلام

- أدم (عليه السلام) ١٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٤٥
 إبراهيم (رسول الله صلى الله عليه وسلم)
 ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٤٣
 إبراهيم (ولد النبي صلى الله عليه وسلم)
 ١٢٨ هـ
 إبراهيم (باشا ابن محمد علي) (٢٠٠ ، ٢٠١)
 إبراهيم اللقاني (بك) ٣٠٨
 إبراهيم ناصف الورداني ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٨٣ ، ١٧٧
 أبرويز ٥٣
 أبسمتيك ١٠٢
 ابن تيمية ٣٠٢ هـ
 ابن القيم ٣١٨
 أبو بكر (رضي الله عنه) ٢٢٩ ، ٢٢٩
 أبو الحسن الأشعري ٢٢٣
 أبو العلاء المعري ١٨٢
 أبو الهدي الصيادي ٢١٨ هـ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠ هـ
 أحمد (سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢٦ ، ١٢٢ ، وانظر أيضاً
 الرسول - طه - محمد - المصطفى - النبي .
 أحمد إبراهيم (الشيخ) ٣٢٠
 أحمد أمين ١٥٤ هـ
 أحمد حلمي ١١٥ هـ
 أحمد ذو الفقار ٦٨ هـ
 أحمد شفيق (باشا) ٩١ هـ ، ١٥٧ هـ ، ١٥٩ هـ ، ١٧٥ هـ ، ٢٠٤ هـ
 أحمد شوقي : راجع (شوقي) الشاعر
 أحمد فتحي زغلول : راجع (فتحي زغلول) .
 أحمد الكاشف : راجع (الكاشف) الشاعر .
 أحمد محرم : راجع (محرم) الشاعر
 أحمد نسيم : راجع (نسيم) الشاعر
 أحمد عبد اللطيف ١١٩ هـ ، ١٢٠ هـ
 أحمد لطفي ٦٨ هـ
 أحمد لطفي السيد : راجع لطفي السيد
 أحمد مجدي ٦٨ هـ
 إدوارد السابع ١٧٢ ، ١٩٥ ، ١٩٨ هـ ، ٢٠٣ هـ ، ٢١١ هـ ، ٢١٢ هـ ، ٢٩٩ هـ
 أديب إسحق ٥٢ هـ ، ١٣٥ هـ .
 أرسطو
 الاسكندر ١٦٦ ، ٣١١ هـ

۱۸۴، ۱۸۳، ۱۷۷، ۱۳۱
 البکری (راجع محمد توفیق البکری)
 بلانت ۱۴۱، ۱۳۶، ۱۳۵، ۹
 تادرس شنودة المنقبادی ۱۱۰
 تادرس مقار ۱۱۳
 توت عنخ آمون ۱۰۰
 توفیق (الخدیوی) ۱، ۵۸، ۱۳۴،
 ۱۳۵، ۱۳۸، ۱۵۲، ۲۲۶
 ثیارس ۵۴
 جرم ۲۶۹
 جریجوری السابع (البابا) ۲۵۴
 جریسی ۵۴
 جلادستون ۲
 جمال باشا (الوالی التركي) ۸۶
 جمال الدین الأفغانی ۱۲۴، ۱۳۵،
 ۱۴۳، ۲۰۷، ۳۰۸، ۳۰۹
 جنسکیز خان ۳۱۱
 الجنید (رضی الله عنه) ۳۰۱
 جورجی زیدان ۱۳۱
 جورجی ویسا ۱۱۳
 جورست (الدون) ۵۹۹، ۱۱۴،
 ۱۷۱، ۱۷۲، ۱۷۴، ۱۷۶، ۱۸۴،
 ۱۸۸، ۱۹۱، ۱۹۳، ۱۹۵
 جوسیاری ۱۲۶
 (مدام) جولیت ۴۸

إسماعیل (الخدیوی) ۱۳۶، ۱۳۴، ۵۹،
 ۱۳۸، ۱۴۱، ۱۹۶، ۲۰۳، ۲۵۵
 إسماعیل أباطة ۱۱۷
 إسماعیل صبری ۱۲۱، ۱۲۲، ۱۲۴،
 ۱۲۳، ۱۶۶
 الأفغانی: راجع (جمال الدین الأفغانی)
 أفلاطون ۲۳۰
 أم سلمة (رضی الله عنها) ۲۷۶
 أم عطية (رضی الله عنها) ۲۷۶
 أم كلثوم (زوجة عمر رضی الله عنها)
 ۲۷۶
 أمین علی ۶۸
 الأنباری (الشیخ) ۳۱۹
 إیزاک ۲۶۱، ۲۶۱
 بارنج (شقیق اللورد کرومر) ۲، ۲۰۴
 البارودی (محمود سامی) ۵۸، ۶۳،
 ۱۰۰، ۱۳۵، ۱۴۱، ۲۳۱
 البخاری (رضی الله عنه) ۲۳۲
 بدرخان ۱۰۹
 بطامی (رضی الله عنه) ۳۰۱
 بسمارك ۶۵، ۲۹۲
 بشری حنا ۱۱۱، ۱۱۷
 بطرس غالی ۱۱۱، ۱۱۱، ۱۱۳،
 ۱۱۴، ۱۱۵، ۱۱۵، ۱۲۰، ۱۲۱، ۱۲۲،
 ۱۲۳، ۱۲۴، ۱۲۵، ۱۲۶

دوفرين (اللورد) ١٧٩
الدوق أوف كنوت ١٩٨
ذو النون (رضى الله عنه) ٣٠١
رابعة العدوية (رضى الله عنها) ٣٣٩
الرسول (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)
٢٢٢، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩
رشاد: راجع محمد رشاد (السلطان)
رشيد رضا (الشيخ راجع محمد رشيد
رضا)
روزفلت تيودر ١٠٠، ١٠٣، ١١١،
١٢٠، ١٩٦
روزفلت (فرانكلين) ١٠٣
رفاعة الطهطاوى ٦١
الرفاعى (رضى الله عنه) ٣٠١
رفيق العظم ٢٥٦، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٣٥
روتشتين ١٧٣، ٢٤١
روتشلد ١٥٠
رياض (باشا) ٩٣، ١١٨، ١٣٠،
١٣٦، ١٤٣، ١٦٠، ١٦١، ١٦٩،
١٩٥، ٢٠٤
رينان ٢٣٣
رهير (اسم ولى الدين يكن المستعار)
زورفاداكي ١٧٣
سعد زغلول (باشا) ٧٥، ٩٣، ١١٥،
١٧٨، ٢١٢، ٢١٤، ٣٣٢
سعيد (باشا - والى مصر) ٦١، ١٤١
سفيران الثوروى (رضى الله عنه) ٣٢٩

الجيلانى (رضى الله عنه) ٣٠١
حافظ إبراهيم ١٢، ١٧، ٢٤، ٢٨، ٣١،
٣٢، ٤٣، ٥٧٣، ٥١٠، ١٢٦، ١٢٩،
١٢٣، ١٥٨، ١٦٦، ١٩٣، ٢٠٦،
٢٠٧، ٢٠٩ إلى ٢١٢، ٢١٧، ٢٢٠،
٢٢٢، ٢٤٣، ٢٦٩، ٣٢٠، ٣٢٢
حافظ ذهني (بك) ٧٦
حافظ رمضان ١١٩
الحسن البصرى (رضى الله عنه) ٢٢٣
حسن الشيمى (بك) ٣٠٨
حسن عاصم ١٧٣
حسن عبد الرازق ٧٧، ٢١٦
حسن موسى العقاد ٩٦، ٩٧،
حسونة النواوى ٢١٨
الحسين (بن على رضى الله عنهما) ١٥٦
حسين غزرى ١٥٩، ١٦٠، ١٦٩،
حسين كامل (السلطان) ٢١٣، ٢٢٠،
٢٢٢
حليم (الصدر الأعظم) ١٧١
حمد الباسل ٧٧
الخواص (رضى الله عنه) ٣٠١
خوفو ١٩٧
داروين ٣٣٦، ٣٣٧
داود عمون ٢٦٩
داهروجلي (مستر) ٦٨

- صالح مجدى ٦١، ٦٣، ١٣٧.
- الصوقلى ٤٦.
- صلاح الدين الايوبى (ابن ايوب)
- ١٣٨.
- الطبرى ٢٧٦.
- طسم (القبيلة العربية البائدة) ٢٦٩.
- طلعت حرب ٢٧٥، ٢٨٢.
- طنطاوى جوهرى ٢٣٦.
- طه (سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ١٢٤.
- طه حسين ٢٩٢.
- عائشة (أم المؤمنين رضى الله عنها)
- ٢٧٦.
- عائشة الباعونية ٢٣٩.
- عائشة بنت طلحة: ٢٣٩.
- عباس حلى (الخدوي) ٦، ١٠، ١١.
- ١٨، ٢٠، ٢٦، ٤٩، ٩١، ٩٢.
- ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١١٤، ١٢٩.
- ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠.
- ١٦٢، ١٦٤، ١٦٤، ١٦٥ إلى
- ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠ إلى ١٧٧.
- ١٧٧، ١٧٨، ١٨١، ١٨٣ إلى
- ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠ إلى
- ١٩٩، ٢١٠ إلى ٢١٢، ٢١٤.
- ٢٢٢، ٢٢٠، ٢٢٠، ٢٢٠.

- سقراط ٢٢٠.
- سكينه (بنت الحسين رضى الله عنهما)
- ٢٢٩.
- سليم (السلطان) ٢٦١.
- سليم عنجورى ٢٧١.
- سليمان (النبي عليه السلام) ٢٩٨.
- سليمان أباطة ٧٧.
- سليمان البستاني ٢٦٤.
- السنوسى ٢٢٦.
- السهروردى ٣٠١.
- سودان (مسيو) ٦٨.
- سينوث حنا ١١٣.
- شاهين مكارىوس ٢٣٧.
- شريف (باشا): راجع محمد شريف.
- شريف مكة: ٢٣، ٢٤.
- شكرى صادق ١٣٢.
- شكيب (غلام أبى الهدى العيادى)
- ٢٧٠، ٢٧٠.
- شوقى (أمير الشعراء) ١٢، ١٦، ٢١.
- ٢٣، ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٥، ٤٠.
- ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٦٤، ٦٨، ١٠٠.
- ١٠١، ١٠٣، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١.
- ١٦٣، ١٦٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٩٥.
- ١٩٦، ٢٢١، ٢٣٦، ٢٩٥، ٢٩٨.
- صالح حمدى حماد ١١٩، ١٢٠.

عبد الله النديم ٥، ٤٧، ٤٨، ١٤٧،
١٤٨، ١٥٤، ١٦٢، ٢٠٥،
٢٠٦، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٦،
٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٣٠١،
٣٤٧.

عبد المجيد (السلطان) ٣١، ٢٦١،
عبد المطلب (محمد عبد المطلب الشاعر)
١٥، ٢٣، ٢٩، ٣٧، ٤٣، ٤٤،
٤٧، ١٦٨.

عثمان الأول (جد الأتراك العثمانيين) ١٣،
عثمان باشا الغازي ٢٩٦،
عثمان بن عفان (رضي الله عنه) ٢٩٧،
٢٩٨.

عراقي (باشا) ٢٠١، ٦٤، ٧٩،
١٤١، ١٤٧، ١٥٢، ١٨٠،
عزت الجندى : ٤٦.

عزير ٣٢١.

العقاد : راجع (حسن موسى العقاد)
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)
٨٦، ١٧٩، ٢٩٧،
علي أحمد شكري ٧٣.

علي ذو الفقار ٦٨.

علي شعر اوى ٧٧.

علي الغاياني (راجع الغاياني).

علي يوسف (الشيخ) ٢٥، ١٢٠،

عبد الحفيظ (سلطان مراکش)
١٩٠، ١٩١.

عبد الحليم المصري (الشاعر) ٢٩،
١٦٨، ١٩٠.

عبد الحميد (السلطان) ٣، ٢٠١،

١٩، ١٨، ١٥، ١٣، ١٢، ٦،
٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٤، ٢٧، إلى

٣٣، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٢،
٩٢، ٩٦، ١٧٠، ١٧١، ١٩٣،

١٩٤، ١٩٩، ٢١٠، ٢١١،
٢١٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٤،

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠،

عبد الحميد الزهر اوى ٨٦.

عبد الحاق السادات ١٩٩.

عبد الرحمن الكواكبي : راجع
(الكواكبي).

عبد الرحيم الدمرداش ٧٧.

عبد العزيز (السلطان) ٢٦٦.

عبد العزيز سلطان مراکش ١٩٠.

عبد العزيز جاويز ٥١، ٦٨، ١١٥،
١١٦، ١٢٥، ١٢٦، ٢٠٨،

٢٢٠، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠.

عبد القادر حمزة ٢٥٦، ٢٣٤، ٢٣٦،

عبد القادر المغربي ٢٣٨.

عبد الكريم سليمان ٣١٨.

عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ٣٣٩.

نخري عبد النور ١١٣، ٧٧
 فرديناند ٢٦١، ٢٦١
 فرعون ١٠٥، ١٦٧، ١٩٦
 فيكتوريا (ملك إيطاليا) ٢٦
 فيكتوريا (ملكة الانجليز) ١٧٢، ٢
 ١٩٧، ٢٩٩
 فولتير ٥٤
 قاسم أمين ٩٣، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧
 ٢٨١، ٢٨٠، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩
 ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٠، ٢٩٠، ٣٠٧
 ٣٢٠، ٣٤٥
 قبيل ١٠٢
 قيصر ١٦٤، ١٧٧
 الكاشف (أحمد الكاشف الشاعر) :
 ١٣، ١٧، ٢٢، ٢٥، ٢٨، ٢٧، ٤٢، ٤٥، ٩٣، ١٢٦، ١٦٧
 ١٧٧، ١٨٨، ١٩٢، ٢٣١، ٢٩٤
 ٣٠٤
 كالي (البارون) ٢٢٥
 كتشنر (اللورد) ٩٩، ١٦١، ١٦٢
 ١٧١، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٧
 ١٩١، ٢٢٢
 كرومر (اللورد) ٢، ١١، ٤٤
 ٧٣، ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٥

١٦٤، ١٦٩، ١٩٢، ١٩٩
 ٢٠٨، ٢١٤
 عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)
 وانظر أيضا (الفاروق) ٨٦، ١٠٦
 ١٩٩، ٢١٢، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٦
 ٢٩٧، ٣٣٩، ٣٤٠
 عمرو بن العاص (رضي الله عنه) ١٠٢
 عيسى (رسول الله عليه السلام) وانظر
 أيضا (المسيح) و(يسوع) ٢٢، ٣٧
 ٤١، ١٠٥، ١٢٢، ٣٢٩، ٣٣٩
 غامبتا ٥٤
 الغاياتي (علي الغاياتي الشاعر) ٢١، ٢٩
 ٤٧، ٦٨، ٦٩، ١٢٠، ١٨١، ١٨٤
 ٢٠٨
 غريغوري السابع (البابا) راجع
 جزيجوري السابع
 الغزالي (رضي الله عنه) ٣٣٧
 غورست راجع (جورست)
 غيلان الدمشق ٣٣٥
 فارس نمر (باشا) ١٥٢، ٢٣٧
 الفاروق (عمر رضي الله عنه) وراجع
 كذلك (عمر) ١٠٦
 فتحى زغلول (باشا) ٧٥، ٩٣
 ١١٥، ٢١٤، ٢٢٠
 نخري باشا راجع (حسين نخري)

ليون فهمى ١٧١ هـ ، ١٩٤ هـ
 مارى انطوانيت ١٨١
 مارية القبطية (رضى الله عنها) ١٢٨ هـ
 ماهر (باشا) ١٦٠ هـ ، ١٦٩ هـ
 محرم (الشاعر أحمد محرم) ١٢ ، ٢٤
 ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٦٨ ، ٧١
 ١٢٦ ، ١٦٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٩٢ ، ٣٠٦
 ٣٤٥
 محمد (سيدنا رسول الله صلى الله عليه
 وسلم) ٨٦ ، ٢٤٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٧
 محمد الفاتح ٢٦١ ، ٢٦١ هـ
 محمد توفيق البكرى ٤٧ ، ٤٩ ، ٩٤ هـ
 محمد توفيق نسيم ٦٨ هـ
 محمد الحنفى الطرزى ٧٧
 محمد رشاد (السلطان) ٢٨ ، ٣٠ ، ٢٦٦
 محمد رشيد رضا (الشيخ) ٤٨ ، ٧٨ هـ
 ١٥٧ ، ١٨١ هـ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٦
 محمد سعيد (باشا) ١٢٥ ، ١٧٤ ، ١٧٧ هـ
 محمد سعيد (ابن عبد الله النديم) ١٥٤ هـ
 محمد الشريعى ٧٧
 محمد شريف (باشا) ١٣٨
 محمد طلعت حرب: راجع (طلعت حرب)
 محمد بن عبد الوهاب ٣٠٢ هـ
 محمد عبده (الشيخ) ٥٥ ، ٤٧ هـ
 ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٨ هـ
 ٨٣ ، ٩٣ ، ١٣٥ هـ ، ١٣٨ هـ

٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٩
 ١١٤ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨
 إلى ١٦٢ ، ١٦٤ هـ ، ١٦٩ إلى ١٧٣ هـ
 ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٨ هـ ، ١٨١ هـ
 ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٣ هـ ، ١٩٤ هـ
 ١٩٤ هـ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨
 ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ هـ
 ٢١٠ ، ٢١٥ هـ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠
 ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٥ هـ
 ٣٠٧ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ هـ
 كسرى ١٦٤ ، ١٧٧
 الكليم (موسى عليه السلام) ١٠٥
 وراجع كذلك د موسى ،
 كنوث (الدوق أوف كنوث) ١٩٨
 الكوكا كى (عبد الرحمن) ٢٤٦ ،
 ٢٤٦ هـ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠
 ٢٦٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣
 الكوبريللى ٤٦
 كورش ٣١١
 كيمون (المسيو) ٣٢٧ ، ٣٣١
 لا بروير ٥٣
 لطفى السيد ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٠
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٧٣ ، ١٧٣ هـ
 لوازون (المسيو) راجع (ياسنت
 د القس)
 لوثر ٣٣٥
 لويس السادس عشر ١٨١

المصطفى (سيدنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم) ١٣٧ ، ٢٣
مصطفى رياض : (راجع رياض باشا)
مصطفى عمار ٧٤
مصطفى فاضل ٤٦
مصطفى فهمي (باشا) ٨٣ ، ٩٣ ،
١١٤ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٥ ، ٢١٢
مصطفى كامل (باشا) : ٩ ، ١٠ ،
٢٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ،
٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٧٩ ، ٨٩ ،
٩١ ، ٩٦ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ،
١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
١٦٩ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ،
١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٤٥
مظفر الدين (شاه العجم) ١٩٠ ، ١٩١ ،
معبد الجنيني ٣٣٥
المقوقس ١٢٨
مكسويل (الجنرال) ٢٠٠
مكماهون (آرثر) ٢١٣
المهدي (المهدي المنتظر) : ٣٠٤
موسى (رسول الله عليه السلام) .
وراجع كذلك والكليم ، ١٠٥ ،
١٢٤ ، ٢٣١
ميخائيل عبد السيد ١١٠

١٤٣ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٩٤ ،
١٩٤ ، ٢١٢ ، ٢١ ، ٢١٤ ،
٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٨١ ، ٢٨١ ،
٢٩٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣٢٢ ، ٣١٨ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ،
٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ،
محمد علي باشا ٤٦ ، ١٤١ ، ١٧٣ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٠٤ ،
محمد علي علوبة ٦٨
محمد الفاتح (السلطان) ٢٦١ ، ٢٦١ ،
محمد فريد ١٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٩١ ،
١٧٦ ، ١٧٨
محمد كرد علي ٢٥٦ ، ٢٢٠ ،
محمد وحيد (بك) ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
محمد (السلطان) ٢٦١
محمد سليمان (باشا) ٧٧
مدحت (باشا) ٤٦ ، ٥٢ ،
مراد (السلطان) ٢٦٦
مرجوليوت ١٠٤
مرقص فهمي ١٢٠ ، ١٢١ ،
مريم (أم المسيح رضى الله عنها) ١٠٥
المسيح (عليه السلام) : ٣٧ ، ٣٨ ،
٤١ ، ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٣١

واصل بن عطاء ٢٢٣	المويلى : (محمد المويلى بن ابراهيم
الوردانى (راجع ابراهيم ناصف	المويلى) ٢٦٤ هـ
الوردانى)	نابليون ٣١١
ولى الدين يكن (راجع كذلك زهير)	النبي (سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم)
٣٣، ٣٩، ٤٥، ٥٩٢، ٩٥، ٩٦٠	١٢٨، ١٢٩، ١٩٦، ٣٢٢، ٣٩٣
٩٨، ١٢٥، ١٢٦، ١٩٥، ١٩٩	نسيم (احمد نسيم الشاعر) ٢٦٠، ١٤٥
٢٠٠، ٢٠٢، ٢٦٥، ٢٤٤ هـ	٩٦، ١٢٤، ١٩٥، ١٩٨، ٢٦٨
وهي (بك) ١١١ هـ	نوبار ١١٤، ١٤٣، ٢٠٤
ياسنت (القن) ٢٢٧	نوح (رسول الله عليه السلام) ٢٣١
يسى اندراوس ١١٢ هـ	هارفى (باشا) ١١١
يسوع (رسول الله عليه السلام) ١٢٤،	هانوتو ٧٤١، ٣٢٦، ٢٢٧، ٣٢٨
١٢٩	٢٢٩ إلى ٣٣١، ٣٣٣
يعقوب (رسول الله عليه السلام) ٢٤٣	هنرى الرابع ٢٥٤
يكن (راجع ولى الدين يكن)	هولاكو ٨٧
يوسف (رسول الله عليه السلام)	واصف غالى ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٣١،
١٥٠، ٢٩٨	١٣٣

رقم الإيداع ٢١٩٣ - ١٩٨٠

الترقيم الدولى ٥ - ٨ - ٠ - ٧٢٩٤ - ٩٧٧ ISBN